

رجائی عطیة

من فیوض الإسلام



دار المعارف

تصميم الغلاف
سارة شريف

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع .
هاتف : ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس : ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

تقديم

هذه مقالات متفرقة، كتبت في أزمنة مختلفة، يجمع بينها أنها كانت من فيوض الإسلام، فمنه وحوله، ومن العكوف على دراسته والتأمل فيه، التقيت فيه وعلى هامشه بأفكار مستلهمة منه، أخذني بعضها إلى بحور لم تصرفني السباحة فيها عن نشدان الشاطئ الذي عليه أرسو؛ وأخلد بمرفئه إلى ما جمعته في إبحاري.

من حصاد هذه القيوض، كانت هذه المقالات التي فكرت أن أضممها لأقدمها لك معاً في هذا الكتاب.



القرآن الحكيم حجة الإسلام



يروى التاريخ، ويروى القرآن المجيد أن الناس قد سارعوا رعونة وطيشا وصداء، إلى إنكار الخوارق والمعجزات، وتلمس التعلّات لإنكارها، وكيف أن «حجج الصدق» إلّتي تأيد بها الأنبياء - بهذه الخوارق المادية - قد قابلها الكثيرون بالإنكار والمماراة وقت حدوثها، وازداد النكران لها والاستهزاء بها بانصرام الزمن وتباعد وخفوت الصور التي يختلف من تلقاها بالسماع - اختلافا مؤكدا - عمن استقبلها وعاينها بالمشاهدة.. بل إن المعايينة والمشاهدة لم تمنع الكفار المكذبين عن الصد والإمعان فى الإنكار والهزء والكفر، وفى افتعال الأراجيف والتعلّات للإفلات من حجتها. وما إن تمضى دورة، وتبدأ أخرى.. حتى يتلاشى أثر الخارقة، ويرتد الناس إلى ما كانوا فيه، ويظهر ويعم الفساد فى البر والبحر بما ألفه واعتاده الناس من صد وعقوق وإلحاد.. فيخطب القرآن نبيه المصطفى داعيا له أن يلفت نظر الكفار والمشرّكين إلى تأمل ما كان من عاقبة مشركى الأمم السابقة الذين كذبوا بالله، وعصوا رسله وأنبياءه، واستهزأوا بهم، وقاوموا وأوصدوا قلوبهم ظلما فى وجه كل دعوة ترشدهم إلى الحق والنور والهداية والسواء.. يقول القرآن لمحمد: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ﴾ (الروم ٤٢).

المعجزات أو الخوارق المادية أو الحسية، محدودة بطبيعتها بحدود المكان والزمان.. يبتعد تأثيرها بابتعاد المكان مثلما يبتعد بابتعاد الزمان.. ولا تعدم أن يأتيها الإنكار ممن عاين وشاهد.. فالمشاهدة والملاحظة محصلة تفاعل مركب بين الحدث وذاتية وإمكانيات المراقب التي تختلف من شخص لآخر، سواء فى قدرات رصده أم فى صدقه أم فى إخلاصه وتوجهه ونواياه.. وقياس الوقائع الحادثة على النواميس هو بدوره مسألة نسبية، وقد لا يعتبر خارقا للعادة والناموس فى زمان - ما كان فى نظر الناس خارقا للعادة فى زمان سابق.. ومن يسبق إلى خارقه بمقياس زمانه بحكم العلم المتاح فيه، قد يكشف ما يتاح فى العلم من بعدها أنها لم تكن خارقة فى الحقيقة، يضاف الى ذلك أن الخارقة المادية

أو الحسية ليست حجة إلا على من رآها في مكان وزمان حدوثها، وتفقد بالضرورة قوة تأثيرها بطول الشقة و مرور الزمن، وتآكل وخفوت صورتها وأثرها ومقدرة الناس على قبولها والاعتناع بها ناهيك بالتسليم والإذعان والإيمان !.

ديناميكية الاستمرار

أيا كان حجم وثقل وعراضة وبهر ووقع المعجزة أو القارعة، فإنها حدث محدد بالمكان والزمان، لا يحمل «ديناميكية» استمرار الأثر، لأن الاستمرار رهين بقوة دافعة تحمل في بنيتها آلية وقوة دفع ذاتية تكفل المضي والاستمرار.

والدوام، فإذا فقدت القوة الدافعة، أو لم تكن من طبيعة وآلية الحدث، كان مآله الحتمى إلى التناقص ثم الخفوت ثم التلاشى شيئاً فشيئاً.. إن الحجر الذى يلقي فى الماء، يحدث دوائر متتالية تأخذ فى الاتساع، ولكنها ما إن تصل إلى غايتها، وتفقد «الرمية» أثرها وقوتها الدافعة، حتى يؤدى افتقادها إلى آلية وقوة دفع ذاتية إلى تلاشى هذه الدوائر مهما انتشرت ومهما بلغ حجمها من الاتساع حتى تستوى فى النهاية صفحة الماء وتعود إلى ما كانت عليه !!.

المعجزات الحسية أقرب إلى هذا التصوير، لأنها بطبيعتها خارقة مادية، محدودة بحدود المكان وبحدود الزمان، ولا تحمل فى بنيتها آلية الدفع ولا القوة الذاتية الدافعة التى يعيش بها أثرها خارج حدود المكان والزمان.. ومن ثم وكما تدل شواهد التاريخ يتناقص ويخفت ثم يتلاشى أثرها وتنطمر بمضى الزمن وزوال طبقة المشاهدين الذين عاصروا وشاهدوا، وحلول مستجدات وطوارئ جديدة تأخذ ألباب والتفات الناس إلى بعيد عما شاهده وعايته الغابرون فى المعجزة أو القارعة التى لم يعد لها - الآن ! - ذلك البهر الذى كان !.

ثم إن «شرنقة» الاعتياد التى تفرعها المعجزة أو الخارقة لا تقتصر على مجال دون مجال، ولا على زمن تنقطع بعده فيما يتلوه من أزمته.. عادات الناس متغيرة لأن أسبابها متجددة متغيرة، ومصالح الناس تبعاً لذلك متغيرة تلبس الأثواب التى توافق «الشرنقة» التى تتحوصل فيها فى زمانها تبعاً لنوعها وصورتها وشكلها ودوافعها، من أجل ذلك فإن

«القوارع» - التي تحمل «حجة الصدق» لنبي ما - محدودة الأثر بنطاق غايتها وموضوعها وهو دفع وحث الناس وتشجيعهم على التصديق في نبوة النبي الذي يبعث إليهم.. وهذه القارعة - بحدودها - لا تحمل بذاتها بذرة مواجهة «الشرنقات» المتجددة المستحدثة الطارئة التي لا ينقطع تكونها وتشكلها في دنيا الناس على اختلاف الأماكن وتعاقب الأزمان والعصور!!

الغاية المثلى!

الأديان لا تنتهي غايتها بمحاربة شرقة اعتياد الكفر، وإنما غايتها المثلى احتواء وهم كل «عادة» ذميمة تتشرب فيها المذمات والمآرب والآرب العارضة وتأخذ البشرية بعيدا عن طريق الحق والجمال.. هذه الغاية المثلى لا تنهض بها قارعة حسية تبهر العقول والألباب دون أن تحمل بذاتها مدد النور والهداية فيما يصادف الإنسان كل يوم من سلبيات تتمحور وتصد كل دعوة أو محاولة للتغيير والإصلاح.

إن لكل زمن عادات وشرنقات تتحوصل فيها هذه العادات والمآرب والآرب، والتعامل مع هذه «الشرانق» المتغيرة يستلزم قدرة آلية ذاتية تحمل مقومات التعامل مع كل منها حسبما تقتضيه عناصرها.. ومن هنا كانت القيمة العظيمة لهداية العقل والضمير التي أتى بها وأنجزها الإسلام، لأنها تعطي للآدمي أكسير التعامل الدائم المتجدد مع آفة كل عادة ومآرب المآرب التي تتشكل وتتمحور وتتشرب في دنيا الناس!!

لم تكن السماء بعيدة عن هذا كله، ولا كانت غير ملتفتة إليه، وإنما هي مراحل كان لابد من تتابعها تتابعا تدريجيا لتأهيل البشرية لاستقبال الهداية الفارقة التي تأخذ بيدها أبدا إلى النور الدائم الذي لا يخبو ولا ينقطع.. هذا النور الذي يحمل شعلته الذاتية، وقوامه هداية العقل والضمير، وقوته الدافقة الدافعة التي تكفل للإنسانية ديمومة الإمساك بالخيط الذي يشدها دوما إلى الحق والنور.. كيف حقق الإسلام - الدين الفارق الخاتم - هذا الإنجاز؟

المسئولية التي نيطت بالإسلام، لم تكن كشأن الديانات السابقة، لأمر بالغ الأهمية عريض الخطر.. كانت الأديان من قبل ديانات لأقوام، محدودة الدائرة التي فيها يجرى الخطاب في زمان بعينه، إلى قوم بعينهم، في بقعة يعيشون فيها، محدودة بهم ومحدودين فيها بلا وسائل اتصال أو انتشار مما أتيح للبشرية من بعد، فكان مفهوما ومقبولا مع هذه المحدودية أن تحتل المعجزة المادية أو الحسية مكان الصدارة لأنها بالغة الغاية في دائرتها طالما لا يطلب إليها أن تتخطاها إلى خارج الزمان والمكان اللذين فيهما يعيش المخاطبون، بينما جاء الإسلام ليخاطب الدنيا بأسرها، الرب فيه رب العالمين لا رب قوم بذاتهم، والخطاب فيه يتجاوز حدود المكان وحدود الزمان ليقدم للإنسانية الدين التام الكامل الخاتم الذي تقيت السماء أن يكون دينا للعالمين إلى أن يرث سبحانه وتعالى الأرض ومن عليها، هذا الدين لا يؤدي غايته المرجوة إن لم يحمل بذرة وصلاحيّة وقدرة الامتداد في المكان والزمان، وغير متصور لهذه الغاية العريضة أن يكون خطابها محدودا، ولا أن تكون أدواتها محدودة، لأن هذه وتلك تقعدان بالديانة عن بلوغ هذه الغاية المأمولة، لذلك كان لابد للإسلام أن يكون دينا فارقا يحمل شعلته الذاتية، وقوامها هداية العقل والضمير، ليكون له بهذه الهداية القوة الدافقة الدافعة التي تكفل للإنسانية ديمومة الإمساك بالخيط الذي يشدها دوما إلى الحق والنور والجمال.

ليس يعنى هذا أن الإسلام أو رسول الإسلام قد افتقدا «حجة الصدق»، أو أن سيرة النبوة المحمدية قد خلت من الآيات والمعجزات، وإنما الآية البينة على كمال الإسلام غاية ومنهاجا، أنه قدم للإنسانية مفتاحا تواجه به العضلات وآفات الجمود والاعتیاد على مدار الزمن، فلا ينحصر في إزالة شرانق اعتیاد الكفر، وإنما يتجاوزها إلى هداية موصولة تحاصر كل ضلالة ناشبة أو محتملة النشوب، وهو لذلك قدم منهاجا متكاملا وعقيدة شاملة تصح بهما الحياة والأحياء في عالم مشدود إلى نور دائم لا يخبر ولا ينقط، شعلته الذاتية هداية العقل والضمير والوجدان.

النبوة المحمدية

النبوة المحمدية، أرادها الله نبوة هداية، لا ترمى إلى إفحام العقل بالحجة المسكنة، وإنما تتغيا تفتيحه وتبصيره ودعوته واستثارته إلى التفكير والتأمل والتدبر والفهم.. لذلك كان القرآن المجيد هو آية الإسلام الكبرى، وحجته الموصولة الممدودة، وزاده المعطاء الذي لا ينفد لإنارة سبيل البشرية إلى الحق والنور والجمال.. لم يكن القرآن محض معجزة بديلة عن المعجزات والخوارق الحسية التي كانت حجج الديانات السابقة، وإنما هو نور وهداية وزاد موصول وممد لا ينتهى لجعل نبوة الإسلام نبوة هداية وإنارة تخاطب الوجدان والعقل والضمير، وتستنفر وتستحث مكناات هذه الملكات للنقاط المدد الدائم واستيعابه واستحضاره والإمساك به كيما لا يفلت من الإنسان تعلقه المنشود بالمعنى الكلى والغاية المثلى للدين فى إصلاح وصالح الحياة والأحياء إلى يوم الدين.

القرآن المجيد

القرآن المجيد كتاب «عقل»، يجعل من التفكير فريضة بدعوة صريحة فى الآيات وخواتمها التى تستدعى ملكة الفهم والنظر والتأمل والتفكير، على نحو : «أفلا تعقلون».. «لعلكم تتفكرون».. «قل انظروا ماذا فى السموات والأرض».. «لعلهم يفقهون».. «أفلم ينظروا».. «أو لم يتفكروا».. «آية لقوم يتفكرون».. «أفلا ينظرون».. «أفلا تبصرون».. «ليدبروا آياته».. «أفلا يتدبرون».. هذه وغيرها من القوارع المنبهة المتكررة لا تأتى فى القرآن المجيد عرضا، وإنما فى إطار منهاج عميق يتبناه القرآن ويدعو إليه حتى فى مسائل الإيمان والعقيدة.. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رِسًا مَّا خَلَقَتْ هَٰذَا بَاطِلًا مِّمَّنْ خَلَقْنَا عَدَابَ النَّارِ ۝﴾ (آل عمران ١٩٠، ١٩١).. هذا التأمل المتعبد الفاهم الواعى هو قوة دفع ذاتية بآلية دافقة لا تنقطع تستخلص التأمل من وهدة شرانق الكفر أو الضلالة أو الجمود، وتكفل له ديمومة المدد والأثر الفاعل واستمرار الإمساك بأحبال الهداية والنور.. لا ينقطع هذا المدد بتجاوز كفر أو شرك ناشب فى النفوس، ولا باقتلاع عادة

ذميمة، ولا بالقضاء على آفة مستحكمة، وإنما هو طاقة ديناميكية واعية، تعطي القدرة على مواجهة واحتواء أو تجاوز أو إزاحة كل «سالبة» أو «مذمة» أو «عادة» أو «نقيصة» تفرخها مسالك ودروب ومآرب الناس في الحاضر أو في الزمن القابل.. لا تنقطع مآرب وأغراض الناس عن إفراز «المذمات» و«النقائص» والتحوصل في شرائق الاعتقاد أو الجمود، أو بمنطق «ليس في الإمكان أبدع مما كان».. ولذلك لا تنقطع حاجة دعوات الهداية أو الإصلاح أو التغيير أو التطوير أو الترقى إلى مدد موصول يعطى «المفتاح» لتجاوز ما يطرأ أو عساه يطرأ، وهذا المفتاح لا يكون إلا بقدرة فاعلة ومهيأة - بالنظر والفهم - إلى سبر أغوار المستجدات، واستكشاف جذور الآفات والنقائص والسلبيات، واستشراف سبل محاصرة شرائق الاعتقاد والجمود، وإزاحة أو إزالة أسبابها، وإفراز معطيات جديدة صالحة تدفع تيار الحياة والأحياء إلى الحق والجمال والكمال.. هذه الغاية المثلى، لا تتحقق بقارة أو خارقة غابرة شدت وبهرت في أوانها ثم انطمرت وانطمر وزال أثرها.. يلمس القرآن المجيد هذه الحقيقة لمسا عميقا حين يورد ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ (٥٩) ﴿(الإسراء ٥٩)﴾.. هذا التكذيب الضريع واجه كل الدعوات إستمساكا من المنكرين والمكذبين بضلال الآباء والأجداد الغابرين.. ﴿إِنَّهُمْ أَلَفُوا أِبَاءَهُمْ مُّضَاهِينَ﴾ (٦٦) ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ هَرَعُونَ﴾ (٧٠) ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٧١) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنْذِرِينَ﴾ (٧٢) ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ﴾ (٧٣) ﴿(الصافات ٦٩ - ٧٣)﴾..

مفتاح الإسلام إلى القدرة الموصولة على ديمومة مواجهة شرائق «العادات» و«المذمات»، وطلب الكمال والسعى إليه، مجدول في المنهاج العقلي الذي اعتمده القرآن المجيد وتبينته النبوة المحمدية الهادية التي لا تسعى إلى إسكات ولا إلى سيطرة ولا تجبر ولا إلى قمع للفكر والفهم، وإنما إلى التبصرة والتنوير والهداية.. الدعوة قوامها الحكمة والموعظة الحسنة والمحاورة القائمة على العقل والمنطق واستشفاف الصواب: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ﴾ (١٢٥) ﴿(النحل ١٢٥)﴾.

هذا المنهاج العقلي كان هو أداة الإسلام النافذة في مواجهة وإزالة «الموانع» و«المذمات» و«النقائص» و«شرائق» العادة والجمود التي اعترضت سبيل دعوته.. واجه الإسلام العرف

المغلوط، وعبادة الأسلاف، والاعتداء الأعمى بالكهان وأصحاب السلطة الدينية، والخوف المذل من أصحاب السلطة الدنيوية.. هذه المواجهة التي تصدى لها الإسلام، لا تتحقق غايتها بخارقة مفحمة، ولا بمعجزة مسكتة، وإنما اعتمدت في الماضي، وكفيلة بالمضي على ذلك في المستقبل، على الفلسفة القرآنية في إعلاء العقل والتفكير، وعلى نبوة الهداية والتبصير.. فلا حاجة إلى كهانة ولا إلى هيكل، لأن الله تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، وقبلته إليه سبحانه ممدودة بغير عوائق ولا حدود.. ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَجْهَ اللَّهِ إِيَّاكَ اللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة ١١٥).. حاجة المتدين إلى الفهم مكفولة بعطاء وتبصير وتنوير أهل العلم لا بنفوذ سلطان الكهانة.. ﴿فَسَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل ٤٣).. ولم يقبل الإسلام من المسلم أن يلغى عقله جريا وراء سنن الآباء والأجداد، أو خنوعا لمن يسخره باسم الدين في غير ما يرضى العقل والدين، أو رهبة وجبنا من بطش الطغاة والمتجبرين!.

خطاب القرآن المجيد للمعاندین المتحوصلين في «شرائق» الاعتياد والتحجر والتسمر والجمود، خطاب لحمته العقل وسداه الفكر.. بالعقل والتفكير - لابعض خارقة مفحمة - تدرك النفس الإنسانية ضلالة التحجر والجمود على عمى الغابرين.. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (المائدة ١٠٤).. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ آبَاءُنَا أَوَلَوْ كُنَّا عَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة ١٧٠).. إزالة الانقياد الأعمى إلى سلطان الكهانة، لم يرد في القرآن الحكيم عاريا من سببه وسنده أو منزوعا عن علته وغايته.. يقول الخبير الحكيم: ﴿اتَّخَذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرُءُسَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة ٣١ - ٣٢).. تقفى الآيات القرآنية بعد ذلك مباشرة بلفت صريح إلى أن النبوة المحمدية نبوة «هداية»،

فتقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة ٣٣).. هذه «الهداية» لا تجرى منزوعة أو منفصلة عن واجب المتلقين والمخاطبين في أعمال العقل والفهم وإدراك الغاية.. تجمد المتلقين على عادات الآباء وانصرافهم عن الإمساك بخيوط الهداية عمى ضرير مغبته عليهم لا على سواهم، فيوصي القرآن رسوله المصطفى بقوله له: ﴿قُلِ اللَّهُ تَزَوَّجَهُمْ فِي خَوَاصِّهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنعام ٩١).

أثر الشقة في الحاضر

أدرك الإسلام أن مقاومة «شرائع» الاعتقاد، لا تتأتى فقط ببيان ما فيها من عمى وعوار، ولا بدحضها بالحجة، والتفت بوعى رشيد إلى أن الناس لا يقبضون على ماضيهم بعناد وتعصب وإصرار إلا حين لا ينجح الحاضر في اكتساب ثقتهم. وحين ينفروهم هذا الحاضر ويزعجهم، وحين تضيق زوايا ومساحات رؤيتهم فلا يدركون جوهر ومعالم وإيجابيات «البديل» الوافد أو المطروح.. أمسك الإسلام بالخيط الصحيح بالتفاتة ولقته إلى أن الدين وسيلة للإصلاح، وأن هذا الإصلاح هو الغاية المثلى التي من أجلها قدم الإسلام منهاجا شاملا وشريعة متكاملة وصورة للحياة تشد الإنسان حيث كان من وهدة الجمود والتحوصل أو التحجر - إلى واحة لحاضر حي ومستقبل أكثر حياة وإشراقا.

الإسلام دعوة إصلاحية تستنهض الناس من آفات الاعتقاد، لأنه عقيدة شاملة أحاطت الحياة بكل ما يحتاجه التعامل مع معطياتها السالبة والموجبة، وليس يحتاج الباحث إلى كثير عناء ليدرك شمولية عقيدة الإسلام، فهي مرئية بوضوح وجلاء في آيات القرآن المجيد التي يسمع تلاوتها وترتيلها من يقوته قراءتها، ثم هي ملحوظة - هذه الشمولية - في أحوال المسلم في معيشتة وعبادته.. يكفي للمتأمل أن يرى المسلم متجها بعبادته مباشرة إلى ربه مستقلا بها عن الهيكل والصنم والأيقونة والوثن، ليعلم من ذلك وغيره أن الدين الإسلامي وحدة متكاملة في تناول المسلم أينما يولى فثم وجه الله.

هذا الجانب الإصلاحى، فى المنهج الإسلامى، هو ديناميكيته الفاعلة فى ملاحقة الحياة والتعامل المستمر مع مستجداتها واحتواء ما عساه تفرزه مآرب الناس من «مذمات» أو «نقائص»، وإزاحة الجمود الضرير المتحوصل فى شرائق من فعل المصالح والمآرب التى لا تنقطع عنها أغراض الناس، ودعوة الإسلام الإصلاحية دعوة قد توفرت لها - فى منهاجه - كافة الأدوات والآليات اللازمة للنهوض بها فى الحاضر وفى المستقبل، مثلما تم النهوض بها فى الماضى وأنجزت بها ما حققته من أمجاد فى إطار الغاية المثلى والمعنى الكلى.

لم يكتف الإسلام بتقديم "مفتاحه" ممثلاً فى الهداية والعقل والتفكير، وإنما قدم نظاماً شاملاً متكاملًا، التأم فيه العلم والحض عليه ووجوب الأخذ بأسبابه، مع العقل أداة الفهم والتفكير، مع احترام العمل والعاملين، فى إطار منظومة أخلاقية وارفة لم تستبعد الأغيار من دوحتهما، وإنما شملتهم بغطائها، فى باحة نظام متكامل يحدد ضوابط المسؤولية، وغاية العدالة، مجدولة بالمساواة والإسماح، ليتضافر ذلك كله فى توفير الآليات التى تتصدى لشرائق الجمود والاعتیاد، «نقائص» المآرب وجنوح الأغراض، ويوفر الصورة الواعدة البديلة التى تشد أزر الناس وتشجعهم وتحفزهم على الخروج من شرنقة ما اعتادوه وتجمدوا فيه بلا فهم ولا وعى، إلى أمل صادق فى مستقبل أكثر إشراقاً وحياة.



اقتضت عالمية وشمولية عقيدة الإسلام، أن يقدم للإنسانية مفتاحاً تواجه به العضلات وآفات الجمود والاعتیاد الغابرة، والحاضرة، والمستقبلية.. أن يقدم إلى الإنسانية هداية موصولة تحاصر كل ضلالة ناشبة أو واردة أو محتملة النشوب.. لم يحصر الإسلام غايته أو منهاجه فى مقاومة وعلاج شرنقة اعتیاد كفر وضلال الآباء الغابرين، وإنما عمد إلى غيرها من شرنقات ماضية أو حاضرة أو واردة، سواء ارتدت إلى اتباع عبادة الآباء والأجداد بغير فهم ولا وعى، أم ارتدت إلى السلطة الدينية أو المتشحة بالدين، أم ارتدت إلى السلطة الدنيوية.. هذه المنابع لآفات أو شرنقات الاعتیاد لا تتحوصل بمصالحها فى زمن ما ثم تكف عن التحوصل وإنشباب مخالبتها فى حياة الناس، وإنما هى تحمل دائماً أسبابها أو مآربها التى لا تنقضى، وتلبس مع تطورات الحياة فى صور وأشكال كثيراً ما تخدع أو تخادع الناس عن حقيقتها وأغراضها الكامنة فى حويصلاتها!!

اعتناق الإسلام للعقل، والتنويه به، والدعوة إلى الاحتكام إليه هو قوة الدفع الذاتية - وبآلية دافقة لا تنقطع - لاستخلاص الإنسانية من وهدة الشرائق المختلفة المتغايرة التي تريد أن تطفئ نور الحياة والتجدد.. هو طاقتها الديناميكية الواعية لاحتواء وإزاحة وعلاج «المذمات» و «النقائص» التي تفرخها رغائب ومسالك ودروب مآرب وتدابير الناس أمس واليوم وغدا!!.

عبادة الأسلاف، أو سلطان الآباء في تسريب الباطل والضلال إلى الأبناء، ليس مجرد آفة غابرة واجهها الإسلام وسعى إلى انتزاع أثرها المزيع من وجدان الماضين، وإنما هي آفة محتملة النشوب في كل زمن، تستولدها ظروف ما في مكان ما في زمن ما، لذلك كان التفات الإسلام ولفته وتنبيهه إلى وجوب التيقظ وعدم الانقياد إلى أى ضلالة تتحوصل اليوم أو غدا في «تابوهات» تستدعى لنفسها قداسة من الاحترام الواجب للآباء!!.. القداسة في شرعة الإسلام، ومفتاح «العقل» الذى تبناه، لا تكون إلا للموضوع أو للفكرة أو للحق.. عن طريق معرفة الحق يُعرف أهله، لا العكس.. لم يكتف القرآن المجيد بما بثه من آيات تورى بفساد تعطيل العقول والانقياد الضرير لضلالات الآباء والغابرين، مع أن عمومية الخطاب فيها تغطي الزمن الحاضر والزمن القابل مثلما غطت الزمن الماضى.. هذه الآيات يقرأها المسلم اليوم فيفهم منها ما فهمه من استقبلوا القرآن في زمن التنزيل، من بيان شاف رشيد لضلال الاتباع الأعمى بلا فهم ولا وعى، من مثل: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا آَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة ١٧٠) أيضا (المائدة ١٠٤، الأعراف ٢٨، الشعراء ٧٤، الصافات ٦٩، الزخرف ٢٣، ٢٢).. بيد أن القرآن المجيد لم يفته أن يضيف إليها خطابا عاما آمرا بالالتفات والتيقظ والانتباه والإعراض عن أى دعوة - ماضية أو حاضرة أو آتية - لاتباع الباطل!!.

هداية الإسلام الموصولة، ودعوته الإصلاحية تتجلى في تصديه لهذه الآفة مثلما تتجلى في غيرها.. فأوامره ونواهيه ليست جُزْراً متفرقة، وإنما تضمها فلسفة شاملة عميقة وواعية ومتسامقة تقيم توازنا دقيقا مرعيا ومقصودا، بين كافة الاعتبارات مهما اختلفت أو حتى تضادت، فنرى القرآن المجيد يحرص حرصا ناضحا ناديا على وجوب محبة

وتوقير واحترام وتبجيل الآباء والإحسان معهم وإليهم، دون أن يغفل أو يسقط أن ذلك كله لا يجوز اتباعهم في الشرك أو الباطل أو الضلالة أو الفواحش أو المذمات !! .
القرآن المجيد، وهو يعرى ضلالات الآباء الغابرين، لم يغفل أن تتوالى وصاياه للإحسان للوالدين، في إيقاع متلاحق لافت، فتتردد في آياته وصايا : ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (البقرة ٨٣، النساء ٣٦، الأنعام ١٥١، الإسراء ٢٣) .. تقرن الآيات شكر الوالدين بالشكر لله عز وجل : ﴿إِن شَكَرْتُمْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ (١٦) ﴿لَقَمَان ١٤﴾ .. وتكرر الوصايا الإلهية بالبر بهم والإحسان إليهم : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ (٨) ﴿العنكبوت ٨﴾ ..

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ (١٥) ﴿الأحقاف ١٥﴾ .. ثم في بلاغة وجمال، تقول الآيات في وصاياها الربانية : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٢٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (٢٤) ﴿الإسراء ٢٣، ٢٤﴾ ..

هذه المكانة السامية العلية التي للآباء، محبة ورحمة وعطفا وتوقيرا وتبجيلا، لا تبرر في نظر الإسلام الانصياع الأعمى ولا المتابعة الضريرة في الضلال والشرك .. من ذلك يحذر القرآن المجيد، دون حض على نكران المعروف والإحسان، فيقول عز وجل : ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثَمَرٍ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٥) ﴿لقمان ١٥ - أيضا العنكبوت ٨﴾ ..

شرقة الكهانة من قديم

واقع الحال، إن الكهانة ظاهرة سابقة على نزول الأديان الكتابية، وقد وجدت الكهانة والرؤية بين العبرانيين من أقدم عصورهم كما وجدت في سائر الأمم السابقة، وهي في مجملها حرفة تستتر بالأديان بعامة، وتدعى مطالعة الغيب وكشف حجبه، والإخبار بالأسرار والحوادث المستقبلية والماضية، وتحكّر لنفسها من هذا المدخل سلطة الوساطة بين المخلوق والخالق، وتختص بفك رموز الدين، وتحديده، وتستأثر بالشفاعات،

وتضطلع بالمراسم الدينية، وتقديم القرابين والذبائح، ومنح الأسرار، والتبشير بكلمة الله.. تتلبس بلباس تتخيره لكل دين ولكل زمن، عرفها بنو إسرائيل من قديم، وكان «الكهنة» الإسرائيليون هم الذين تصدوا لدعوة السيد المسيح، وقادوا الأحداث لأساة الصلب، بغض النظر عن الخلاف في "شخص" المصلوب، هل هو ذات المسيح كما يقول المسيحيون، أم شبيه له كما يقول القرآن المجيد.. إلى هؤلاء الكهنة كانت رعاية «الهيكل»، برئاسة «الكاهن الأعظم».. وهذا هو المقابل العربي للكلمة العبرية: «كوهن هاجدول».. ومع أن وظيفة الكاهن الأعظم كانت دينية، وكذلك الكهنة، فقد كانت لها أبعادها الدنيوية حتى كان كبير الكهنة يعد من رجالات المملكة العبرانية وجزءاً من الأرستقراطية الحاكمة!! بل كان الملك ذاته يضطلع أحياناً بوظيفة كبير الكهنة بنفسه، كما فعل داود (١٠٠٤-٩٦٥ ق.م).. وفي سفر صموئيل الثاني ١٢/٦-١٩: «فأخبر الملك داود وقيل له قد بارك الرب بيت عوبيد أدوم وكل ماله بسبب تابوت الله. فذهب داود وأصعد تابوت الله من بيت عوبيد أدوم إلى مدينة داود بفرح. وكان كلما خطا حاملو تابوت الرب ست خطوات يذبح ثوراً وعجلاً معلوفاً. وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب».. وقد تكررت كلمة «كهن» ومشتقاتها نحو ٧٧ مرة في العهد القديم، كما تكررت كلمة «لاوى» - وهو السبط الذي كان منه الكهنة - ٢٨٠ مرة!، كما تكررت ١٨٥ مرة في سفر اللاويين وحده، ولم يقتصر استخدام الكلمة على الكهنة العبرانيين، بل أطلقت أيضاً على الكهنة المصريين في زمن القدماء والكهنة الفلسطينيين وكهنة البعل وكهنة «كموش».

وعرف العرب الكهانة قبل الإسلام، واشتهر من الكهنة والعرافين في الجاهلية والإسلام، «شق أنمار» و«سُطيح»، ومن النساء «زرقاء اليمامة» و«سجاح بنت الحارث» التي لحقت بالإسلام ثم ادعت النبوة ونزلت اليمامة تريد حرب أبي بكر واتقاهم مسيلمه الكذاب بالزواج منها، حتى إذا ما قتل أسلمت وهاجرت إلى البصرة وفيها توفيت. وكانت الكهانة لدى العرب على ثلاثة أضرب، أولها أن يكون للإنسان ولى من الجن يخبره بما يستتره من السمع من السماء، وثانيها يدعى الإخبار بغيبات الزمان القادم أو المكان البعيد، أما ثالثها فيقوم على العرافة والتنجيم.

منزلق ومخاطر السلطة الدينية!

هذه السلطة الدينية، منزلق هائل للسيطرة على وعى وأفهام ووجدان الناس، وسلب لإرادتهم وتغييب لعقولهم، لتسييرهم كالعميان إلى حيث يراد لهم وبهم.. سيطرة الكهان وأضرابهم، هي تسلط على عقول ورقاب الناس باسم الدين، وتعطيل لملكة العقل التي ميز الله تعالى بها الإنسان على سائر المخلوقات والكائنات!!

الإسلام يعلى العقل ويرفض الكهانة

لم يقبل الإسلام من المسلم أن يلغى عقله أو يسلسه بلا فهم إلى غيره، وإنما حرص بآيات القرآن المجيد على مخاطبة العقل الذى يعصم الضمير ويدرك الحقائق ويميز بين الأمور، ويفرز ويوازن بين الأضداد ويتبصر ويتدبر ويحسن التفكير، هذا العقل يستلزمه لباب وجوهر الإسلام الذى رفض الكهانة بكل صورها، ولم يجعل لكهنة أو سدنة أو أحبار وظيفه الوساطة بين المخلوق والخالق، ولا شفاعة للإنسان إلا شفاعة عمله وعطائه وتوجهه إلى الله تعالى بضمير مخلص وقلب منيب.

عقل المسلم حرّ طليق من سلطان الكهان الذين يتخذون من الأديان حرفة وصناعة، ومن سلطان الهياكل والمحاريب سبيلا للتحكم فى ضمائر وألباب اللاعنين والسفهاء الذين يتخذونهم أربابا من دون الله، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم وضلالهم! وكثير منهم يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون فى الحقيقة عن سبيل الله!.

القرآن المجيد، قول رسول كريم، لا قول حبر ولا كاهن : ﴿ وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرًا قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ (١١) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿١٢﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣﴾ (الحاقة ٤١-٤٣).. الكهانة تقترب فى البيان القرآنى بالجنون .. يقول رب العزة لنبيه المصطفى : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ (٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّبَرَّصُ بِهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣﴾ (الطور ٢٩-٣٠)..

لم يتخذ الإسلام هذا الموقف الرافض للكهانة والكهان، بمعزل عن رؤية شاملة تقدم للآدمي هدايته بلا حاجة إلى وساطة أو شفاعة أو تحكم حبر ولا كاهن.. صلة الإنسان بربه سبحانه وتعالى صلة ممدودة موصولة لا يخفيها ولا يحجبها شيء.. فحيثما وجد المسلم يستطيع أن يتوجه إلى الله، وأن يثبت دعاءه ويؤدى صلاته وقيامه وتهجده، وصومه وحجه.. يطمئنه القرآن المجيد إلى أن حبله إلى الله لا ينقطع.. ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة ١١٥).. لا حاجة بالإنسان إلى كهانة ولا إلى هيكل، ولا حاجة به إلى وساطة وسيط ولا إلى شفاعة متشفع، لأن وزنه أمام الله بعمله وتقواه، ومصيره معلق بيده وما يقدمه لا بما يتوسط أو يتشفع له به سواه.. ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (الإسراء ١٣).. ﴿كُلُّ أَمْرٍ عَلَيْنَا كَسْبٌ رَّهِيْنٌ﴾ (الطور ٢١).. الإنسان يثاب وينجو بعمله لا بوساطة الكهان والأحبار.. يحمل وزره لا وزر غيره.. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام ١٦٤) - وأيضا فاطر ١٨، الإسراء ١٥، النجم ٣٨، ٣٩.. فى القرآن المجيد أن الإنسان بسعيه، وأنه ليس له إلا ما سعى، وأن سعيه مرصود معروف فى الملاء الأعلى.. ﴿وَأَنْ لِّسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (النجم ٣٩-٤١).

الله فى عقيدة الإسلام، هو العليم الواسع المحيط، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، يعلم ما يظهره الإنسان وما يخفيه، وما يدور بدخائل الصدور هو سبحانه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء شهيد، وعنده توزن الأعمال بموازينه وعدله، وما كان سبحانه بظلام للعبيد. أبواب السماء مفتوحة بلا وساطات، والله تعالى أقرب لعباده من حبل الوريد.. يخبرهم فى محكم تنزيله أنه ﴿إِنْ رَّبِّيَ لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (ابراهيم ٣٩)، ويوجه سبحانه دعوة مفتوحة إلى عباده باللجوء إلى رحابه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر ٦٠).. ويطمئنهم عز وجل لتبليته فيقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة ١٨٦) وهذه العقيدة تغنى آدمي فى باب الاعتقاد، وتغنيه أيضا عن وساطات مدعى الوساطة، أو مدعى الشفاعة، وتغلق أبواب الدجل على الدخلاء، رافعة لافتة بعنوان: «الوسطاء يمتنعون»!

هذه الباحة الربانية، والضوابط المحكمة للمسئولية، تغلق أبواب الدجل على الدخلاء والوسطاء وكل أشكال الكهانة التي تتخذ لكل مجال لباسه، ولكل زمان وميدان سبله ومسالكه، وتتسرب من الأديان إلى غيرها، فتتحوصل حول السياسة أو الاقتصاد أو غيرهما، كهانة تدعى امتلاك الحكمة والمعرفة دون سواها، وتوغل في الركوب على وعى وعقول وضمائر الناس، تفرض الهيمنة عليهم بحكم «اعتیاد» الاتباع لهم والإخلاق إلى سلطانهم وما يُظن أنهم يمتلكون به الحكمة والصواب فضلا عن مفاتيح السماء وصكوك الغفران!. رَفَضَ الإسلام كل صور الكهانة، ولم يجعل للمسلم أو على المسلم من سلطان غير سلطان العقل والنظر الصحيح والموعظة الحسنة.. فلا اختصاص في الإسلام لأحد بحق الفهم والتفسير، ولا باحتكار الصواب، أو بامتلاك مفاتيح السماء.. بذلك أسقط الإسلام سلطان الكهانة ونفوذ الأحرار، ولم يقبل من المسلم أن يلغى عقله صدوعا أو خضوعا أو خوفا من أى سلطان غير سلطان العقل والحكمة والصواب.. بل بلغ من احترام الإسلام للعقل أن قدمه على ظاهر الشرع عند التعارض، وجعل الأرجحية لما دل عليه العقل إذا تعارض مع النقل.

ليس في الإسلام سلطة - فيما يقول الإمام محمد عبده - سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر.. ولم يجعل الإسلام لأحد بعد الله ورسوله سلطانا على عقيدة أحد، ولا سيطرة على إيمانه.. نبوة الرسول ذاته نبوة هداية قوامها الإبلاغ والتذكير بلا سيطرة ولا تجبر.. ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (٢٢) (الغاشية ٢١، ٢٢) ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (٥٥) ﴿ق ٤٥﴾.. سبيله في دعوته إلى ربه الحكمة والموعظة الحسنة.. ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَّهُم بَالَتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ يَمْنُ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٢٥) (النحل ١٢٥).

رفض الإسلام للكهانة بكافة أشكالها وصورها، ليس إهدارا أو إشاحة عن علوم الدين والاهتمام به ورعايته، وإنما هي توسعة محمودة لذلك كله بترك الباب مفتوحا لمن يستقيم قصده ويملك ملكاته لينهل ويغترف من العلم الدني وأحكام الدين حتى يمتلك أدواته وتتسع قاعدة علمه ومعارفه ويستطيع بهذا كله أن يدلى بدلوه في تيار الدين وبحوره الواسعة، دون

أن يكون مشروطاً لذلك الانتماء إلى سلطة دينية أو التحصن بها أو اتخاذها باباً ووسيلة للهيمنة ورعاية المصالح. ليس كالإسلام دين يحض على احترام العلم والعلماء والرجوع إلى أهل الذكر، ولا يرتفع المسلم بفضيلة كما يرتفع بفضيلة العلم، ولا يستوى في شرعة القرآن ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر ٩، فاطر ٢٨)، ولم يستغن الإسلام في إعلائه للعقل عن العلم والعلماء، فإذا أعوز الإنسان العلم بما يريد، فأمامه أهل الذكر من العلماء والدارسين العارفين.. في القرآن المجيد: ﴿فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل ٤٣). فارق بين امتلاك العلم والحكمة، وبين امتلاك السلطة.. بين من يتعلم العلم ويبدله للناس، وبين من يدعى احتكار السماء والأسرار.. الفوارق بين العلماء وأهل الذكر في الإسلام، وبين الكهانة، فوارق هائلة فارقة، فمادة العلماء العلم والمعرفة وليس التنبؤ أو السحر أو التنجيم، وفارق بين المعرفة والعرافة، وبين الهداية والسحر والتنجيم.. العلماء وأهل الذكر لا قداسة لهم ولا يدعون قداسة كما يدعى الكهان والرائثون والعرافون، ويؤدون الفرائض والمناسك والشعائر التي يؤديها المسلمون، ولا يباشرون طقوساً أو مراسم خاصة أو يختصون بقرايين ولا بشفاعات كما يفعل ويتاجر رجال الكهنوت. وعلماء الإسلام وأهل الذكر لا يرسمون بطقوس ولا بمباخر ولا بذبائح، ولا يدعون الإصغاء لصوت الله ولا يتكلمون باسمه، ويتميزون بعلمهم لا بطبقاتهم، ولا يتخذون الدين حرفة للتجارة.. إن العلماء وأهل الذكر في الإسلام شموع تضيء دون أن تصدر على عقول الناس، تنشذ بذل العلم والهداية بلا ادعاء ولا استعلاء ولا ركوب على رقاب الناس، فلا سحر ولا عرافة ولا كهانة ولا حواصل تتشرنق فيها المصالح والمآرب والأهواء، وإنما هو مفتاح العقل والضمير الذي ينشد به الإنسان ما يشاء حيث يشاء، ويتجه به إلى الخالق بقلب منيب!

معجزة القرآن

يقرأ المطالع للقرآن الحكيم من قول الحق جل شأنه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْقَرْتَهُ قُلْ فَاتُوا بَعْشَرَ سُورِ مِثْلِهِ مُفَرَّيْنِ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود ١٣)،

ويقراً من سورة يونس: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتَّبِعُوا إِسْرَافَ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (يونس: ٣٨)، ويقراً في سورة البقرة: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة: ٢٣)، ومن سورة الإسراء: ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٨).

وقد مضى على نزول القرآن الحكيم نيف وأربعة عشر قرناً، فما استطاع أحد أن يجاوب هذا التحدى أو يأتي بشيء مثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.. وقل أن يوجد في الكتاب العزيز آية ليس فيها ذكر الله عز وجل أو تمهيد أو تعقب لذكره. وقد نزل الكتاب المبين على مدى ثلاث وعشرين سنة وهو ملازم لهذه الحال وهذا التركيز التلقائي إلى أن انقطع نزوله بوفاة الرسول عليه السلام.

وما جاء في الكتاب الحكيم من الأحكام أو القصص إنما جاء تفريعاً على التذكير بالله سبحانه وتعالى.. يبدأ منه ليعود إليه. لم ينقطع هذا التذكير قط في أية سورة مهما صغر حجمها وقل عدد آياتها.

وبهذا تفرد الكتاب المجيد عن كل كتاب آخر.. مقدس أو غير مقدس. واستحال أن يكون موضع تقليد سواء بالنسبة لسورة منه أو لعشر، وذلك لاستحالة توجيه أى إرادة واعية لذاتها إلى ذلك التركيز التلقائي المطرد على ذكر الله وبداية كل شيء منه وإليه ثلاثة وعشرين عاماً. لأن الإرادة الواعية لذاتها أياً كان حظها من الاقتدار والاستغراق سرعان ما تمل وتجهد من وحدة الموضوع الذى لا يزيد ولا ينقص، وتعجز عن المحاكاة دون أن يظهر فيها الاصطناع والتكلف لستر الملل والإجهاد.

قالوا إن نزول الوحي على الرسول المصطفى كان دائماً شديد الوطأة بدنياً، وكان يتخلف عن مجيئه رضا وثقة هائلان لديه عليه الصلاة والسلام، فلم يكن ما يوحى به إليه ثمرة تدبر وتفكير ونظر لوعى يراقب ذاته فيما يعيه ويتتبع مشاهداته ومعلوماته وأفكاره وخوابره ومصداقاته إلى أقصى ما يستطيع وينتقى عباراته فى روية وصبر وبعد موازنة ومفاضلة.

لم يكن عليه السلام يرتقب وعيه لتقييد ما قد يوحى به إليه فيكون ردًا حصل عليه واقتنصه وصار منتسبا إلى ذاته كنتاج من نواتج قدرته.

لم يكن ما يوحى به إليه من عمله هو، أو مصدره ذاته هو، وعقله أو إرادته هو، أو أن من حقه أن يحجبه أو يمس به أى تعديل أو حذف، لا هو ولا غيره. فكل آية نزلت عليه من آيات الكتاب المجيد وكل سورة من سورة ليس لها مصدر بشرى على الإطلاق، ويستحيل من ثم عليه هو أو على غيره من البشر أن يأتى بمثلها تقليداً أو محاكاة لها. لأن مصدرها هو الله تعالى، وهى من عند الله عز شأنه الذى انصرفت آيات الكتاب المبين إلى التذكير أو التمهيد للتذكير به أو التعقيب على هذا التذكير.

وبرغم ابتعاد اللغة العربية الآن - مقولة أو مكتوبة - عما كانت عليه إبان التنزيل، برغم ذلك ومع زيادة الاختلاف فى اللهجات والأنواق والثقافات خلال أربعة عشر قرناً فى البقاع التى تتكلم العربية فإنه قد صار الإيمان بإعجاز القرآن جزءاً لا يتجزأ من عقيدة المسلم.. عربياً كان أو أعجمياً. ولم يعد ذلك موضع جدل أو نقاش أو مفتقراً لبينة أو إبانة لأنه جزء من إيمان المسلم. وبات حمل المصحف أو حيازته أو قراءته أو سماع تلاوته قربة إلى الله تعالى وفيه كل الغناء، ولم يعد ثم مجال بأى وجه لتحدى الكتاب المبين أو لأى محاولة لتقليد آياته وسوره رغم تعدد نسخه بملايين الملايين وتعدد المسلمين وقراء العربية بألوف الملايين!

لم يوجد من يفترى آية أو سورة أو سورا على القرآن الكريم، ولم يوجد من يدعى قدرته على شىء من ذلك، ولم يعد يشغل أحدا من المهتمين بالكتاب المجيد سوى حماية طبعاته المتزايدة من حذف كلمة، أو تحريف لفظ أو الإخلال بترتيبه، حماية لهذه المعجزة الربانية الباهرة التى طفقت تهدى البشرية من أربعة عشر قرناً وإلى ما شاء الله.

قراءة القرآن

قراءة القرآن الكريم قراءة متأنية مثابرة آية آية أو جملة جملة مع الاجتهاد فى تصور الجو والظروف والحالة بالنسبة للأشخاص عندما كانت الملة فى بدايتها دعوة وليدة تلتبس

من يصدقها وينضم إليها ويؤيدها، ويقاوم الواقع الغامر السائد الذى يعاديهما لأنها تحاول تغييره وتشتد عداوته لها ومحاربتة إياها كلما زاد عدد المصدقين والمنضمين والمؤيدين! .
هذه القراءة للقرآن الحكيم شئ، يختلف اختلافا كليا عن القراءة المقصود بها التعبد أو المقصود بها التفقه أو المقصود بها التفطن لما فيه من البلاغة والفصاحة المعجزة غير العادية مع الحكمة والعمق. فهذه كلها تجريدات جزئية واشتقاقات فرعية لا ترى الواقع الأول للقرآن إلا من بعيد.. رؤية جزئية جدا تخفى حجم وحقيقة واقعه الأول، أى حقيقة وماهية حياة الدعوة على مدى ثلاثة وعشرين عاما.

هذه القراءة المصحوبة بتصور الجوّ والظروف والحالة بالنسبة للأشخاص - عند كل آية أى عند كل جملة - تحمل «شحنة» مصدرها الجوّ والظروف والحالة - هذه القراءة هى وحدها التى تعطى القارئ حجم وحقيقة واقع القرآن - إلى تاريخ وفاة النبي ﷺ وهى قراءة ممكنة لكل من لديه قدر كافٍ من المعرفة بتاريخ الدعوة والبيئة العربية التى ولدت وانتشرت فيها، والنبي نفسه - عليه السلام - لم يأمر بتدوين إلا القرآن، ولم يدون أحد أحداث الدعوة تباعا فى أوقات حدوثها، ولم يُبدأ فى تدوين السيرة إلا بعد عشرات السنين من وفاة الرسول ﷺ وأكد وأوثق مصدر للعلم بأحداث السيرة هو نفس أو نص سور القرآن وآياته. فما عدا ذلك من أخبار قد كتب بعد أمد طويل من مصادر شتى، بينما متن القرآن المجيد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

شئ من هذه الغاية قصدته فى مطول : «السيرة النبوية فى رحاب التنزيل».. صدرت من هذا المطول خمسة مجلدات، ولا يزال السادس والأخير فى ذمتى داعيا الله تعالى أن يمكننى من إتمامه. فى رحاب التنزيل جدلت أحداث السيرة النبوية موصولة بنزول آيات القرآن المجيد وما صاحب هذا التنزيل من جو وظروف لم أشأ أن أسميها «أسباب النزول»، وإنما تتبعت فقط مناسباتها، باذلا قصارى مستطاعى لاستحضار صور الأحداث كما جرت فى زمانها، بلسان وعبارات أصحابها، مقرونة بما كان يتنزل تباعا من آيات الذكر الحكيم على صفى السماء المبعوث رحمة للعالمين. عنيت فيها قصدا أن تتوارى ذاتى، وأن أترك المشاهد تتحدث بنفسها وتقدم للمتلقى مكنونها ومعالمها ونبضها.. راميا أن أتيح له أن

يتنسم عبق السيرة وجو ونفحات التنزيل، وأن يعايش زمانها ويستروح أنفاسه، ليرى كيف انساب المدد الإلهي برسالة المصطفى ﷺ ليهدى البشرية من ظلام الكفر والشرك إلى نور اليقين.

تمهيد في منشأ فكرة التوحيد والوحدانية

ترى من أين جاء أصل الفكرة التي نعبر عنها بكلمة «الوحدانية» أو «كلمة التوحيد»؟.. لعله بدأ في فكرة الواحد العددي، أو من فكرة الواحد.. بمعنى الأنا أو الذات حين ترى نفسها وحدها وترى كل من عداها وما عداها خارجي وغيرها دائما، وحين تتصل به أو تصل إليه بالعواطف والأفكار والأفعال والموافقة والمخالفة دون امتزاج حقيقي بالأنا التي تبقى في وحدتها وتفردا سليمة كانت أو مريضة من مولدها إلى مماتها، أو من فكرة الكلي العام في لغات الآدميين حيث يشير اللفظ الواحد الدال على فرد غير معين أو إلى جمع من الأفراد لجنس أو نوع أو طائفة أو أسرة أو مصطلح يندرج تحته جميع أفراد كل قسم بحكم اشتراكهم في معنى عام جامع ملحوظ في التقسيم برغم اختلاف كل في خصائصه الفردية عن بقية الأفراد، أو عن فكرة الشيء الجامع لأجزاء متعددة باعتبار كل شيء حى أو غير حى مكونا من أجزاء تتألف منها في عقل الآدمي وحدته أو ذاتيته التي تبقى مع وجود أجزائه المختلفة تكوينا أو وظيفة.. وهو ما يشاهده الآدمي العادى في الكون والعالم والطبيعة كما يشاهده في مقلة الذباب وحبّة الرمل.

أو لعلها بدأت وانتهت في عقل الآدمي وطرائق عمله فإنه دائم على مداولة بين التحليل والترتيب طول الوقت.. وفي كل وحدانية أو توحيد اجتماع تحليل وتركيب.. لأنها من عمليات عقل الآدمي المطردة خلال حياته والتي يترك آثارها بوسيلة أو أخرى لعقبه من بعده.

فأصل فكرة الوحدانية والتوحيد - فيما يبدو - لا يتجاوز طبيعة عقل الآدمي ولا يمكن أن يتخطى مساعى عقول الناس وتصورهم لذواتهم وعالمهم الداخلى والخارجى بقدر إمكانات هذا التصور وقدرات هذه المساعى.. وهو دائما تصور جزئى محدود يتسع ويضيق

بقدر ما يتسع له ويضيق عقل الآدمي في زمان ما ومكان ما مع الظروف المواتية أو المعادية.. وهو لا يمكن أن يصدق على الكون بأسره أو الطبيعة بأسرها إلا صدقا جزئيا نسبيا قابلا للاتساع مع زيادة الفهم وقابلا للضييق والتقلص مع ضيق الفهم ونقصه.

ثم لم تلتفت عامة الناس إلى فكرة الوجدانية والتوحيد إلا بعد عصور متطاولة من التعددية والكثرة.. ويبدو أن ذلك كانت بدايته من قبائل الرعاة التي وافقت بساطتها ما في فكرة التوحيد من بساطة وخلو من التعقيد وقابلية شديدة للامتزاج بوحدة الأصل للبيئة وضرورة الالتصاق به لكل فرد من أفرادها أينما يكون.. فأصل القبيلة أب واحد كان على الأرض يرعاه ويرعاها أب واحد مكانه في السماء، ورعايتها تكون في تكاثر أفرادها وتكاثر ماشيتها وامتداد أعمارها وتجنبيها شرور الجفاف والقحط والمرض ونصرتها على من يعادياها في العراك والقتال.. وقد امتزج الأبوان مع مرور الوقت في الأب السماوى الذى لا يموت، وصار التعلق به والتعصب له عادة يلقتها كل فرد منذ مولده لأنه يلخص تعلقه الشديد بقبيلته.. وحين انتقل الرعاة إلى المدينة انتقل معهم هذا الأب السماوى واتسع اختصاصه، فامتد إلى ما يبحث فيه أهلها من نشأة الكون وأصل الإنسان وإيجاد السماوات والأرض وامتياز اتباع الأب السماوى على سائر الخليقة ومحاسبة كل منهم عن سلوكه ومثوبته وعقابه عنه في حياة أخرى يعود إليها بعد الموت.

ولم يكن ذلك اختلافا أو خديعة أو كذبا أو خرافة متعمدة.. لأن ذلك بعض تلخيص لبعض مسيرة عقل الآدمي وروحه مع الظروف التى وجد فيها خلال قرون طويلة.. إذ لم تكف عقول الناس منذ خلقت عن السؤال عن الأسباب والكيفيات والأغراض والمصائر ونوعية الوصول إلى إجابات والارتياح إلى بعضها، كما لم تكف العقول عن تغيير موقفها حسبما أتيح لها من فرص الاستنارة.. وهى دائما قابلة للزيادة والنقصان مع زيادة الالتفات ونقصه وتوافر الوسائل وندرتها.. وهذا باب مبناه لدى عموم الناس حسن الفطن وسلامة النية وإخلاص الاعتقاد فيما استراح له عقل الآدمي وروحه من إجابات على مقدار وعيه وظروفه.. ولن تتوقف مسيرة عقل الآدمي وروحه عن سيرها إلى الأمام أو إلى الخلف مادام موجودا.. مع ملاحظة أن أمامية الأمام أو خلفية الخلف نفسها جزء من هذه المسيرة.

ومن المحال تصور أن مكونات عقل وروح آدمي في عصرنا متطابقة في كل بلد أو كل مكان أو حتى في الأسرة الواحدة.. ولكن يوجد بالتأكيد قدر من التشابه المشترك بين عامة الخلق.. ومنه ومن تراكمه وثباته النسبي يتكون ما يعبر عنه بكلمة «التراث» أو تراث البشرية.. وتذكرنا لهذا التراث بانتظام يمنعنا من الاندفاع وراء مجازفات التمرد أو الثورة التي لا تنفك تراود في كل وقت فكر بعض الناس هنا وهناك.

ثم ليس في محاولة رؤية ما - ولو قاصرة - للمسيرة المذكورة.. ليس فيها هدم أو إلغاء لها.. لأن إعادة قراءة التاريخ على أي وجه لا يمكن أن تلغي وقائعه ومعارفه وأفكار أهله ومصداقتهم ولا تجاهل أنها في الواقع هي أساس الشطر الأعظم والأهم من حياتنا الآن كأفراد ومجاميع في مادياتها ومعنوياتها.

والوحدانية هي الأساس الأكبر والأهم للأديان السماوية الثلاثة وجوهر البناء الديني لكل منها.. تسود كتبها المقدسة وتعاليم رؤسائها ويدين بها مع أتباعها من الأفراد القائمون على خدمة الدين وخدمة معابده ومعاهده ومأثوراته وآثاره ومطبوعاته وفرقه وطوائفه وطقوسه وأزيائه.. وهي وحدانية رئاسة عليا متفردة بالعالم كله.. خلفت كل شيء فيه، قادرة على كل شيء، بيدها ملكوت كل شيء في الأرض وفي السماء، وفي طاعتها ما لا حصر له من الملائكة والأرواح والقديسين والأولياء والصديقين لا يعصون ويفعلون ما يؤمرون.. وهذه الوحدانية القاهرة الغامرة لا يكاد يوجد بينها وبين أب قبيلة الرعاة وربها أي سبب جامع.. لكن وجد ويوجد بينها وبين قلب وعقل كل آدمي علاقة حميمة جدا مليئة بالصعوبات والمشاكل والإشكاليات، وينبغي ديانة أن تُقابل بالتسليم والرضوخ والتفويض على أن يفوز الصابر بالثبوتية وعظيم الأجر في الآخرة.

ويبدو - والله تعالى أعلم - أن انتشار الأديان السماوية ووحدانية معبودها يعود إلى فشل التعددية في كبح تتابع واتساع المظالم والفساد والإفساد، وتشوق العامة - في شقائها الذي فاق الحد - تشوقها إلى من يبسط الرحمة والمساواة العادلة المستقيمة على الجميع، ويحاسب الكل حسابا صارما لا يتحامل ولا يجامل ولا يقلت منه كبير أو صغير ولو مات. وساعد على ذلك اعتقاد الناس في أهمية آدمي وتميزه وتميز أرضه، وأنه هو وأرضه سرّة

العالم بأسره يدور حوله كل ما يدور فى العالم لمنفعة الآدمى وخدمة نوعه ولتمكينه من أن يكون خليفة فيه وعليه.

ومنذ القرن السابع عشر سار العلم الطبيعى بإصرار فى طريق خاص يبتعد ويزداد باستمرار ابتعادا عن الاتصال بالدين الذى يبتعد هو الآخر عنه ، ولم تصحب كتلة الناس العلم الطبيعى فى طريقه ، وما زالت كتلة الناس أقرب إلى الدين منها إلى طريق العلم الطبيعى برغم امتزاجها فى معظم مساعيها بنواتج العلم الطبيعى فى الصناعة والزراعة والطب والفلك والنقل والاتصال والفنون.. وهذا هو مصدر الوهن الملحوظ فى تدين كتلة الناس فى أيامنا.. لأنها لا تستطيع أن تقاوم - عن طريق اللاوعى وحده - ضغط العلم الطبيعى والحضارة المبنية عليه على حياتها.. وبصفة خاصة ضغط مركبات الفضاء الكشفية ودقة المراسد وضبط المساحات التى لا يتصورها عقل الآدمى لاتساع العالم وكثرة وضخامة ما فيه مما هو قريب قربا نسبيا إلى أرضنا التى تبلغ بالنسبة إليه حجم حبة الرمل أو أصغرا! إن تقدم العلم الطبيعى الحديث وسعة نظرتة وسعة الكون الهائلة التى كشفها بعنف لعيون الآدميين .. كل ذلك قد هوّن قيمة الآدمى وقيمة ما بناه الآدمى وما عرفه وما سيعرفه فى عين نفسه ، ولم ينج من ذلك أديان الآدمى بطبيعة الحال.. وهذه هى النتيجة الحتمية لابتعاد الدين عن العلم الطبيعى وابتعاد العلم الطبيعى عن الدين وانقسام عقول الناس ثم انقسام ضمائرهم تبعا لذلك.



أصاب الأستاذ عباس العقاد فيما أورده بكتابه : «الله».. من أن الإنسان ترقى فى العقائد كما ترقى فى العلوم والصناعات ، فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته (البدائية) الأولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته ، وقد أدار الشق الأول من بحوث كتابه الضافى حول أطوار نشأة العقيدة الإلهية منذ اتخذ الإنسان أربابا إلى أن عرف الله الواحد الأحد ، واهتدى إلى نزاهة التوحيد ، فكانت هذه الهداية ختام رحلة طويلة للبشرية عبر قرون نحيل فى تفاصيلها إلى ما ورد بكتاب العقاد حول نشأة العقيدة الإلهية وما مرّ بها من أطوار. ونحن نرى اليوم أنه قد آمنت بالتوحيد والوحدانية غالبية المنتمين للأديان السماوية ومازالوا بها

يؤمنون، مع بقاء الواحد الأحد سرا لا سبيل إلى معرفة ماهيته ولا إلى الإحاطة به بأية وسيلة أو توجيهه وفق المشيئة الآدمية على الإطلاق.. إذ هو ليس فقط خارج الزمان والمكان والملاحظة والرصد والتنويع، بل هو مبدع عقل الآدمي وعقله وخالق الكون بكل ما فيه من مادة أو طاقة أو حياة. وهم يتوجهون إليه ويدعونه سبحانه بأسماء وأوصاف من لغاتهم هم ولهجاتهم.. بها يبتهلون ويتعبدون ويستعينون ويشكون ويستغيثون ويلتمسون ويستقبلون مواليدهم ويودعون موتاهم.. ولا يشكون لحظة في وجود المخاطب جلّ وعلا ولا في سماعه ولا في اقتداره ولا في رحمته ولا في مغفرته ولا في عونه ولا في بركاته ونعمه.

ومع ذلك فلم تكن الوحداية واضحة المعالم على معنى واحد في أذهان الناس بل ورجال الأديان في كل العصور.. مضت عصور حتى فهم الناس أن النبوة هداية وليست من باب الكهانة والتنبيؤ بالغيب أو العرافة والعيافة أو السحر أو التنجيم والأحلام والرؤى، ومضت عصور حتى تجلّت فكرة التوحيد وتخلّصت من شوائب الأوهام أو العصبيات للدولة أو الأمة أو الجماعة أو القبيلة.. ففي عهود جاءت الدعوة إلى التوحيد عن طريق توحيد الدولة وفرض سلطانها الواحد وعبادتها الواحدة على من ينسبط عليهم سلطانها، وعلى هذه السنة جرى الرومان على إخضاع اليهود حين فرضوا عليهم عبادة «الإمبراطور».. لاهداية ولا اعترافا بالمساواة، بل للإخضاع وتحريم كل معبود غير معبود الدولة.. وكان الإله عند العبريين هو فقط «إله إسرائيل»، وهذا المصطلح مكرر مئات المرات في عبارات العهد القديم المفهرسة في المعجم المفهرس لأسفاره.. ودامت هذه العقيدة إلى عصر ميلاد السيد المسيح عليه السلام - الذي تحولت دعوته عن بنى إسرائيل إلى الأمم بعامّة دون أن تكون مقصورة على بنى إسرائيل، الذين لم تخرج الأديان من قبلهم عن نطاق القومية وإنما ظلت محصورة فيها تخاطب قوما دون أقوام، فلما جاء الإسلام جاء داعيا إلى ديانة واحدة للعالمين، في هداية تتسع للبشر جميعا وللناس كافة، فبرأ عقيدة النبوة مما كان قد علق بها في أساطير الأولين. كما جلّى عقيدة التوحيد والإيمان برب واحد لا إله غيره.

وعلم التوحيد فيما أبدى الإمام محمد عبده في رسالة التوحيد، هو علم يبحث في وجود الله، وما يجب أن يثبت له من صفات، وما يجوز أن يوصف به، وما يجب أن ينفي عنه

وعن الرسل لإثبات رسالتهم، وما يجب أن يكونوا عليه وما لا يجوز أن ينسب إليهم، وما يمتنع أن يلحق بهم. وأن أصل معنى التوحيد: هو الاعتقاد بأن الله تعالى واحد لا شريك له. وسُمي هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه، وهو إثبات الوحدة لله في الذات والفعل في خلق الأكوان، وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد، وهذه هي الغاية العظمى.

والمعلوم أقسامه ثلاثة: مستحيل لذاته، وممكن لذاته، وواجب لذاته. وحكم المستحيل لذاته أنه لا يطرأ عليه وجود، لأن العدم من لوازمه، أما الممكن فلا وجود له ولا عدم من ذاته، وإنما يوجد لموجد ويعدم لعدم وجود سبب وجوده، بمعنى أنه لا يوجد إلا بسبب ولا يعدم إلا بسبب. فهو إذن معلق بسببية. أما الواجب فهو ما كان وجوده لذاته من حيث هي، بحيث لا يحتاج إلى سبب لوجوده، بل إنه هو سبب إيجاد الممكن أو نفيه، فوجود الممكن يقتضي بالضرورة وجود الواجب، لأن كل ممكن يحتاج إلى سبب يعطيه الوجود، فوجب أن يكون السبب أو الواجب هو وراء كل الممكنات، فهو واجب الوجود لذاته، وهو السبب الأول الذي لا يحتاج إلى سبب آخر لإيجاده، وما عدا السبب الأول فلا يستقل بالتأثير بل لا يؤثر البتة إلا بانضمام سبب آخر إليه وانتفاء مانع يمنع تأثيره، فكل سبب من أمثال هذه الأسباب موقوف على سبب أو أسباب أخرى، إلا الله تعالى الواحد القهار، فهو السبب الأول، مستقل بذاته، وهو - سبحانه - الواجب الوجود لذاته.. من صفاته القدم والبقاء ونفى التركيب، والحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة والاختيار، والوحدة ذاتا ووصفا ووجودا وفعلا، إلى آخر الصفات المستمدة من أسماء الله الحسنى.

وقيل إن هذه الصفات من أحكام الواجب الوجود لذاته، فلو لم يكن قديما أزليا لكان حادثا، والحادث ما سبق وجوده عدم، وكل ما سبق بعدم يحتاج إلى علة تعطيه الوجود. فلو لم يكن الواجب قديما ما كان وجوده لذاته. ومن أحكامه أن لا يطرأ عليه عدم، وإلا لزم سلب ما هو للذات عنها وهو محال. ومن أحكامه أن لا يكون مركبا، إذ لو تركب لتقدم وجود كل جزء من أجزائه على وجود جملته التي هي ذاته. والواجب ما كان وجوبه لذاته من حيث هي ذاته. وكما لا يكون الواجب مركبا لا يكون قابلا للقسمه، لأنه بها يعود إلى غير وجوده الأول الواجب لذاته، والقول بغير ذلك معناه تعدد

الوجودات بتعدد الأجزاء الحاصلة من القسمة، بينما هو الواجب وجوده لذاته من حيث هى ذاته. ومن كمال هذا الوجود قوته بكمال هذا المعنى، حيث إن وجود الواجب هو مصدر كل وجود ممكن، فيكون هذا الوجود الواجب مستتبعا للصفات الوجودية التى تقتضيها هذه المرتبة، فواجب الوجود حى، وهو واهب الوجود وما يتبعه، فالحياة له كما أنه مصدرها، وصفة الحياة هى التى تستتبع العلم والإرادة، فواجب الوجود عالم، ومن أدلة ثبوت العلم الواجب، ما نشاهده فى نظام الممكنات من الإحكام والإتقان، ولما كان الواجب هو مبدع الكائنات على مقتضى علمه وإرادته، فلا ريب أن يكون قادرا بالبداهة، وثبوت هذه القدرة مع العلم والإرادة يستلزم بالضرورة ثبوت الاختيار.. فهو سبحانه الفاعل المختار. ومما يجب له صفة الوحدة ذاتا ووصفا ووجودا وفعلا. وليس فى كافة الموجودات ما يساوى واجب الوجود فى وحدة وفى مرتبة الوجود، ولا فى التفرد بوجوب الوجود. وبهذا الوجود البالغ أعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل والإرادة المطلقة. فصدر ويصدر على هذا النمط الرفيع ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٥) وهذا هو معنى قولهم: أفعاله سبحانه لا تعلل بالأغراض، ولكنها تتنزه عن العيب، ويستحيل أن تخلو من الحكم، وإن خفى شىء من حكمتهما عن الأنظار. والله تعالى أعلم.

وعقلانيا تتصل فكرة الوجدانية والتوحيد بفكرة القضاء والقدر والسببية والاحتامية من عدة جهات.. منها أن الإرادة البشرية بطبيعتها محكومة فى الأغلب الأعم.. سواء بالنسبة لما يجرى داخل الآدمى أو فى الكون.. وتبدو للآدمى دائما محملة بمشيئة عليا خارجة لا يمكن أن تغالب أو تنافس.. وهو خاضع - أى الآدمى - فى كل لحظة لنواميس فعالة جارية داخله وخارجه تساير ولا تغاير.. ويرتبط حظه بنجاحه فى هذه المسيرة ومبلغ ما لديه من الالتفات والفهم لتحقيقها.. ولديه منذ مولده أجهزة ملائمة لذلك.. وأى تمرد من جانبه شذوذ ينتهى حتما بنهاية وجوده الموقوت الفردى العرضى الزائل الفانى.. وقد لخص الآدمى لنفسه ذلك ونحوه فى فكرة القضاء والقدر.. كما أن وسيلته الأولى والأخيرة

إلى العيش هي حظه من الوعي لوجوده وللوجود الذى هو فيه . وهو ما تقوم به المشاهدة والمخيلة وتحفظه الذاكرة.. ووعيه «خلقاً» وأصلاً موضوعه ما يدخل فى مرمى حواسه ومألوفها مع ما قد يتصور وجوده فى الخيال أو الاعتقاد. وهو بطبيعة العقل يمارس ذلك من خلال عملية ترتيب وتنظيم بسيطة أو معقدة.. فيها يجعل سابق الأحداث سبباً لتاليها إذا تكررت فى ظروف يراها متماثلة ويستنبط من ذلك فروضاً وقواعد ونواميس يستعملها فى التوقع والتنبؤ.. وهو فى هذا المجرى العادى للوعي البشرى يرى الكون كله كيانا واحداً مبنيًا بناءً حتمياً على نواميس محددة مقدماً أبدية لا تتخلف.

وتأتى فى هذا السياق فكرة البشر عن الأزلية والأبدية والكون والفساد أو الإنشاء والإفناء.. وأهل الأديان السماوية يدينون بعقيدة خلق الكون وفنائه فى موعده وأبدية وأزلية خالقه سبحانه.. وهو جانب فكرى من جوانب الوحدانية والتوحيد.. فالخالق عز وجل هو الأصل والمصدر الدائم لكل ما هو موجود، وهو سبحانه وتعالى الأول والآخر والظاهر والباطن والمحى والمميت.. وهذه صيغ إن تكن مألوفاً الألفاظ إلا أن تركيبها ومعناها لا يتصور إلا من جهة آثاره فينا وفى أجزاء العالم التى نراها أو نحس بها، ولا يمكن أن يتصور معناها لدينا من جهته سبحانه وتعالى مباشرة.. لأن تصورنا كله يرتبط بالزمان والمكان لا يفارقهما.. ولا يتأتى إقرار وعينا به تعالى من طريق التصور ولكن من طريق الإيمان فقط.. وهذا هو واقع أهل الأديان السماوية من قديم الزمان.. ونحن مسئولون عن إخلاصنا فى الإيمان بالله سبحانه وتعالى وبوحدانيته، وتسليم عقولنا وقلوبنا له ورعاية هذا الإيمان بكل عناية فى سلوكنا كله إلى أن نفارق الحياة الدنيا ونحن على هذا الإيمان الراسخ بالواحد الأحد رب العالمين.



العقيدة الإلهية في الإسلام



لعل من أفضل، إن لم يكن أفضل، ما كتب في العقيدة الإلهية في الإسلام، هو الكتاب الضافى «الله» .. بحث في العقيدة الإلهية، كتبه الأستاذ المفكر الجليل عباس محمود العقاد.

في تقديمه للكتاب يقول العقاد: «موضوع هذا الكتاب نشأة العقيدة الإلهية، منذ اتخذ الإنسان ربا إلى أن عرف الله الأحد، واهتدى إلى نزاهة التوحيد. وقد بدأناه بأصل الاعتقاد في الأقوام البدائية، ثم لخصنا عقائد الأقوام التي تقدمت في عصور الحضارة، ثم عقائد المؤمنين بالكتب السماوية، وشفعنا ذلك بمذاهب الفلاسفة الأسبقين، ومذاهب الفلاسفة التابعين، وختمناه بمذاهب الفلسفة العصرية، وكلمة العلم الحديث في مسألة الإيمان. وكانت عنايتنا فيه بالعقيدة الإلهية دون غيرها. فلم نقصد فيه إلى تفصيل شعائر الأديان ولا إلى تقسيم أصول العبادات، لأن الموضوع على حصره في نطاقه هذا أوسع من أن يستقصى كل الاستقصاء في كتاب. وأن موضوعا كهذا الموضوع المحيط لعرضه للتشعب والتطويل كيفما تناوله الكاتب ومن أي جانب تحراه، فلا بد فيه من إيجاز، ولا بد فيه من اكتفاء. غير أننا تحررنا الإيجاز وتحررنا معه أن يغنينا فيما قصدناه، وذاك هو الإلمام بأطوار العقيدة الإلهية على وجهتها إلى التوحيد، وإن تكن هذه الأطوار مفهومة العلل والمقدمات وأن الله الذي هدى الأمم كافة على هذا النهج البعيد، لكفيل أن يهدينا عليه، وأن يوفقنا لسداد النظر فيه. فلا هداية إلّا به، ولا معول إلا عليه. إنه سميع بصير مجيب».

إيمان العقاد، ودعاؤه إلى ربه أن يهديه فيما يكتبه، لم يتعارض بداهة مع خطته في بحث أطوار العقيدة الإلهية .. فالإنسان ترقى في العقائد كما ترقى في العلوم والصناعات.. فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى، وكذلك كانت علومه وصناعاته. فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات، وليست عناصر الحقيقة في واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الأخرى. وينبغي أن تكون محاولات الإنسان في سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات، لأن حقيقة الكون الكبرى أشق

مطلباً وأطول طريقاً من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التي يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى. وقد جهل الناس شأن الشمس الساطعة وهي أظهر ما تراه العيون وتحسه الأبدان، ولبثوا إلى زمن قريب يقولون بدورائها حول الأرض ويفسرون حركاتها وعوارضها كما تفسر الألفاظ والأحلام. ولم يخطر لأحد أن ينكر وجود الشمس لأن العقول كانت في ظلام من أمرها فوق ظلام، ولعلها لا تزال. فالرجوع إلى أصول الأديان في عصور الجاهلية الأولى لا يدل على بطلان التدين، ولا على أنها تبحث عن محال. وكل ما يدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة في عصر واحد.

في هذا الكتاب الضافى الذي صدرت منه عدة طبعات منذ نُشر لأول مرة في سبتمبر ١٩٥٤ في كتاب الهلال، تناول العقاد بعد مقدمة ضافية في العقيدة الإلهية، تناول هذه العقيدة في دول الحضارة القديمة، كما تناولها في الأديان السماوية، وفي مذاهب الفلاسفة السابقين، وفي آراء الفلاسفة المعاصرين، ثم رأى العلم الحديث. ولا تعارض في هذا التناول، ولا مساس بداهة، بالعقيدة الإلهية كما خلصت إليها الأديان واضحة جلية مصفاة. فتاريخ أطوار العقيدة شيء، وجوهر العقيدة شيء آخر لم يرتق إليه الإنسان إلا عبر رحلة طويلة.

يعرف علماء المقابلة بين الأديان، فيما أورد العقاد، أن العقيدة الإلهية مرت لدى الأمم البدائية في اعتقادها بالآلهة والأرباب بثلاثة أطوار: دور التعدد، ودور التمييز والترجيح، ودور الوحدةانية. وفي مرحلة التعدد كانت الأرباب أنواعاً شتى: (١) أرباب الطبيعة، كالشمس والقمر وقوى الطبيعة (٢) أرباب الإنسانية، وهي الأرباب التي تقترب بأعمال الأبطال والقادة المحبوبين أو المرهوبين (٣) أرباب الأسرة من الأسلاف الغابرين (٤) أرباب المعاني، كرب الحرب أو العشق وما شابه (٥) أرباب البيت، كرب الموقد أو البئر (٦) أرباب النسل والخصب، وغالبيتها العامة صورة الإناث أو الأمهات واهبات الخلود (٧) آلهة الخلق التي ينسب إليها خلق السماء والأرض والإنسان والكائنات (٨) الآلهة العليا، وهي آلهة الخلق التي تدين عبادها بشرائع الخير وتحاسبهم عليها وتجمع المثل العليا للمحاسن والأخلاق، وتضمن السعادة الأبدية للأرواح في عالم البقاء.

واختلفت الأمم والشعوب فيما أخذت أو لم تأخذ به - في عبادتها - من هذه الأرباب ، فكفار العرب كانوا قبل البعثة المحمدية يذكرون الله على ألسنتهم ، ويسمون أبناءهم عبد الله وتيم الله ، وبعضهم يعبد الأسلاف فى صورة الأصنام ، وأناس آخرون دان بعضهم بالمسيحية ، وبعضهم باليهودية . وفى مصر وصل المصريون إلى التوحيد ، وبقيت أسماء الإله الواحد متعددة حسب التعدد فى مظاهر التجلي ، فأوزيريس هو إله الشمس ، و «رع» الإله الخالق ، و «خنوم» الإله المعلم الحكيم ، وهكذا ..

ونعرف أن اليهود عبدوا العجل بعد عبادة الله الواحد ، وسموا الإله الواحد باسم الجمع وهو فى العبرية «الوهيم» أو الآلهة .. ثم أصبح الجمع علامة التعظيم . أما التوحيد فكان نهاية تلك الأطوار كافة فى جميع الحضارات الكبرى ، ثم كانت الأديان الكتابية بعد كل هذا هى التى بلغت بالتوحيد غاية مرتقاه .



ويبدو أن ديانة الشمس ، كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح ، لأنها كانت - فيما أورد العقاد أكبر ما تقع عليه العين وتعلل به الخليفة والحياة . وأغلب الظنون المدعمة بقرائن معقولة - أن مصر القديمة بدأت بتوحيد الدين كما بدأت بتوحيد الدولة . وبعد فصل ممتع عن الملكات النفسية تمهيدا لاستكشاف صلتها بالاعتقاد ، انتقل العقاد للحديث تفصيلا عن العقيدة الإلهية فى دول الحضارة القديمة ، فى مصر ، ولدى العبرانيين ، وفى الهند التى تعززت فيها عبادة «الطواطم» بعقيدتهم فى وحدة الوجود وتناسخ الأرواح كما تعززت بعقيدة الحلول .. فعبدوا الحيوان على اعتباره جدا حقيقيا أورمزيا للأسرة ثم القبيلة ، ثم تخلفت عبادة الحيوان حتى آمنوا بأن الله يتجلى فى كل موجود أو يخص بعض الأحياء بالحلول فيه وآمنوا بتناسخ الأرواح حتى جاز عندهم أن يكون الحيوان جدا قديما أو صديقا عائدا للحياة . لكنهم خلصوا كما خلص غيرهم من هذه العبادات إلى الإيمان بالإله الواحد ، وإن اختلفوا فى المنهج الذى سلكوه .

تحدث العقاد فى هذا السياق عن الكارما Karma أى القانون الأبدى . وعما قامت عليه البوذية التى بَشَّر بها البوذا جوتاما قبل الميلاد المسيحى بحوالى خمسة قرون . ومن

قبله آمن البرهميون بالدورة في وجود الكون والدورة في وجود الإنسان، وخلاصة البوذية - التي لا تعتبر إضافة في صميم العقائد بل إضافة في آداب السلوك وفلسفة الحياة - أن هناك عذابا وشقاءً، وأن لذلك سببا، وأنه قابل للزوال، وأن الوصول إلى هذه الغاية موجود لمن يختار.

أما سبب الشقاء فهل الجهل الذى صرفنا بالأوهام عن لباب الأمور، وجعلنا نعرض عن الجوهر الأصيل. وعلى هذا النحو، ولأن العرض هو كل ما يزول ويتغير، ينكر البوذا وحدة «الشخصية الإنسانية» لأنها لا تتجاوز أن تكون تلاحقا مستمرا للأحاسيس يبدو لنا كأنه حزمة مضمومة في كيان واحد.

انتقل العقاد من الهند إلى الصين واليابان، ملاحظا ترامى وتنوع أنواع العبادات فى الصين - من أدناها إلى أرقاها - تبعا لضخامة الصين وكثرة شعوبها، وأنها على كثرة العبادات التى دانت بها لا تحسب من أمم الرسالات الدينية كمصر وبابل والهند وفارس وبلاد العرب وفلسطين، لأنها لم تخرج للعالم قيما دينية يتلقاها منها. وليس لأهل الصين رسل وأنبياء بل لهم معلمون ومربون، مثل «كونفوشيوس»، وأصل اسمه «كنج فو» وأضيفت إليه «بلاوتسى» أى المعلم لاو. وهو يوصى بمقابلة السيئة بالعدل والإحسان بالإحسان.

فشعائر الدين بين أهل الصين هى شعائر الطريق أو شعائر «السلوك» وفرائض التهذيب والتثقيف ومحورها الحلم والسلم والتحذير من العنف والغضب والإفراط والإسراف.

وموقف اليابان من الرسالة الدينية كموقف الصين على الإجمال، ولا مخالفة بينهما إلا إفراط أهل اليابان فى تأليه صاحب العرش واعتدال أهل الصين فى تقديسه كاعتدالهم فى جميع الشئون. وإذا كان لأهل اليابان سمة خصوصية فى العبادات، فهى أنهم اختاروا ربة أنثى لعبادة السلف الأعلى حين وحدوا الأسلاف فى أكبرها وأعلاها، وتلك الربة هى «أمتيراسوا - أموكامى»، ويؤخذ من الأساطير اليابانية أنها ربة الغزاة الذين أغاروا فيما قبل التاريخ على جزيرة كيوشو وأخضعوا أهلها وطردهم منهزمين إلى الجبال. ولا يعتقد اليابانيون أن هذه الربة خلقت الكون أو خلقت الإنسان، لأنهم يعتقدون أن عهدا قد سبقته عهود عديدة تنازع فيها الأمر عشرات الألوف من الأرباب.. وهذه الأرباب عندهم

هى بمثابة الملائكة والجنة والشياطين من عناصر الخير والشر عند الأمم الكتابية، ويسمّون الواحد منها «كامى».

أما الخلق فهو منسوب عند اليابانيين إلى إله السماء «أزاناجى - نوميكوتو» وزوجته وأخته إلهة الأرض «أزانامى - نوميكوتو». فولدا جزر اليابان وألقاها ببذور الآلهة وجاء أبناء اليابان الآدميون من سلالة الآلهة!

أما تاريخ الديانة فى فارس، فتوجد وشائج بينه وبين الديانات الهندية والطورانية والبابلية واليونانية، ومرتبطة هذا التاريخ بالسابق له واللاحق به، واقتبست الديانة الفارسية من غيرها واقتبس غيرها منها، وتقدمت الفكرة الإلهية عندهم على يد «زرادشت» صاحب الشريعة القومية فى بلاد فارس. وبسبب السلالات التقى الأقدمون من فارس مع الهند فى عبارة «مقرا» إله النور وفى تسميات الإله وإن اختلفوا فى إطلاقه على عناصر الخير والشر. واستعار الفرس من البابليين كما أعاروهم، ولم تخل الديانة المجوسية لدى فارس من عقائد الطورانيين، لأن «زرادشت» عاش بينهم زمنا وبشرهم بديانته. وقد آمن المجوس بالعالم الآخر كما آمن به المصريون القدماء، وبالثواب والعقاب فى الدار الآخرة على تفصيلات يتتبع العقاد جذورها ومظاهرها وصورها ورواياتها.

وعلى قدم الحضارة البابلية، فإنه لم يكتب لها أن تؤدى رسالة ممتازة فى تاريخ الوحدانية، لأسباب فصل العقاد الحديث فيها، ملاحظا أن قصص الخلق عندهم مناسبة لموقع بلادهم واشتغال أهلها من قديم برصد الكواكب ومراقبة الأنواء. وتدل قصة الطوفان على أنها من ماثورات قوم عريقين فى سكنى تلك البلاد، لأن الباحثين يعتبرون أن الطوفان قد غمر ما بين النهرين إلى الشمال، وأن الجبل الذى استقرت عنده سفينة نوح هو الجبل المعروف اليوم بجبل أرات .

أما تاريخ العقيدة فى بلاد اليونان، فقد حفل بجميع أنواع العقائد البدائية قبل أرباب «الأوليمب» الذين خلدوا فى أشعار هوميرو وهزيود، فعبدوا الأسلاف والطواطم ومظاهر الطبيعة وأعضاء التناسل، ومزجوا هذه العبادات جميعا بطلاسم السحر والشعوذة. فلمّا شاعت بين الإغريق عبادة «أرباب الأوليمب» كان من الواضح أنها أرباب مستعارة من الأمم السابقة.

فالإله «زيوس» أكبر أرباب الأوليمب هو الإله «دموس» المعروف في الديانة الهندية الآرية القديمة، والرّبة «أرتميس» - ومثلها الرّبة أفروديت أو فينوس - هي الرّبة عشتار اليمانية البابلية.. ومنها كلمة «ستار» التي تدل على النجم في بعض اللغات الأوروبية الحديثة، والرّبة «ديمتر» هي «إزيس» المصرية كما قال هيرودوت، وهي واحدة من أرباب كثيرة تشابهت عبادتها في بلاد الإغريق وعبادتها بين قدماء المصريين. وبعد بيان ما تطرقت إليه كل هذه الديانات الغابرة، يتوقف العقاد على أعتاب: العقيدة الإلهية في الأديان السماوية.



في تجواله بعقيدة التوحيد بالأديان السماوية، يبدأ العقاد ببنى إسرائيل أو العبرانيين، فيلاحظ أنهم مثل جميع الأمم الغابرة في تطور العقيدة قد دانوا زمنا بعبادة الأسلاف كما دانوا بعبادة الأوثان والكواكب وظواهر الطبيعة وطواطم الحجارة والأشجار والحيوان. وقد دعاهم موسى عليه السلام إلى التوحيد ونبذ الأصنام والأوثان. وقيل إنه عليه السلام أول من سمى الإله «يهوا»، وهو اسم لا يعرف اشتقاقه على التحقيق، فيصح أن يكون من مادة الحياة، ويصح أنه نداء لضمير الغائب، أو غير ذلك من الفروض. وأنهم ظلوا إلى ما بعد أيام موسى عليه السلام ينسبون إلى الإله أعمال الإنسان وحركاته، وقد خلت الكتب الإسرائيلية من ذكر البعث، وأول إشارة إليه وردت في الإصحاح الرابع والعشرين من كتاب أشعيا الذي عاش نحو القرن الثالث قبل الميلاد، وجاءت إشارة أخرى - أصرح - إلى يوم البعث والدينونة في الإصحاح الثاني عشر من كتاب دانيال. وكان معنى الكفر في الإسرائيلية الأولى كمعنى الخيانة الوطنية هذه الأيام، فكانت للشعوب آلهة يؤمن الإسرائيليون بوجودها، ولكنهم يحرمون عبادتها كتحريم الانتماء إلى دولة أجنبية، وظلوا على ذلك إلى أن فهموا «الوحدانية» التي تتعالى على الشبيه والنظير.. وذلك في أيام أشعيا الثاني القائل بلسان الرب: «بمن تشبهوننى وتسووننى وتمثلوننى لنتشابه؟».. وأشعيا هو الذى شدد النكير عليهم قائلا إن الله هو الأول منذ القدم، وهو المخبر منذ البدء بالأخير، ونعى عليهم أن يعبدوا صنما «يرفعونه على الكتف ويحملونه ويضعونه في مكانه ليقف في موضع لا يبرحه، ويناديه الداعى فلا يجيب»!.

والغالب في وصفهم للإله - سبحانه عز وجل عن هذه الأوصاف! - بأنه غيور شديد البطش متعطش إلى الدماء، سريع الغضب ينتقم من شعبه كما ينتقم من أعداء شعبه، ولكن موسى عليه السلام وصفه بالرحمة وفريقا من أنبيائهم وصفوه بالحب واللطف وعلموهم أنه يحب عباده ويطلب منهم أن يحيوه. ويلاحظ العقاد أن العقائد الإسرائيلية شغلت حيزا من مقارنات الأديان، لأنها نقطة التحول بين العبادات القديمة والعبادات في الأديان الكتابية، ولأنها ثانيا قد صحبت التطور في فكرة المسيح المنتظر من مبدئها، ولأنها ثالثا موضوع مقابلة مستفيضة بينها وبين عقائد البابليين والمصريين والفرس والهنود الأقدمين، ولها صلة قريبة بعقائد اليونان قبل عصر الفلسفة وبعدها إلى عصر السيد المسيح عليه السلام. فكانت العقائد الإسرائيلية نقطة تحول لأسباب يفصلها العقاد، ثم يورد أنه هنا لا تعنينا مقارنات إلا من جانب واحد، هو جانب التطور البشرى في إدراك صفات الله، وأنه متى قصرنا النظر على هذا الجانب فإن الثابت من تاريخ الديانة الإسرائيلية أنها انقلبت بعد عصر إبراهيم عليه السلام إلى وثنية كالوثنية البابلية، وأن التوحيد الذى بَشَّرَ به إخناتون في مصر القديمة سابق لشيوع التوحيد في شعوب إسرائيل، ولكن العقيدة الإسرائيلية عاشت بعد اختفاء عقيدة إخناتون وبعد عصر موسى عليه السلام.. فكانت هي كما تقدم في تطور الاعتقاد بالله بين الأمم التي تؤمن اليوم بالأديان الكتابية.

هنا يتوقف الأستاذ عباس العقاد ليعقد فصلا وافيا عن الفلسفة، ملاحظا أنه كلما ترقى النوع الإنسانى بتفكيره وبأخلاقه وأحواله تهيأ لقبول عقيدة التوحيد، وترقى في هذا الاتجاه من تنزيهه إلى تنزيهه، ومن كمال إلى كمال، وأن ذلك تجلى في الأديان القديمة التي أتمت نضجها وبلغت مستقرها في زمانها واستكملت من قبل جميع شعائرها. وأنه من الدين تلقى الفلاسفة فكرتهم عند الروح، وفكرتهم عن بطلان الظواهر المادية، ومنه تعلموا التفرقة بين العقل والمادة فتعلموا كيف ينفذون إلى ما وراء الحس ويوغلون في تصفية كنه الموجودات إلى أعمال لا تغوص فيها الأجسام وآفاق لا تدركها الأبصار. وهنا يقف العقاد عند بعض الفلاسفة في اليونان وفي الشرق فيتحدث عن «أنكسماندر» القائل بالتطهير والتفكير في دورات الخلق المتعاقبة، وعند تلميذه «أناكسمين» الذى لم يزد شيئا يذكر عن

أقوال أستاذه، وما أنجبته آسيا الصغرى وما حولها من فلاسفة فى الجيل التالى لجيل «طاليس» وزملائه، وعن رسالة «أكسينوفان» الكبرى التى أنحت بشدة على كل تشبيه أو تمثيل توصف به الأرباب، لأن حقيقة الإله من وراء خيال الإنسان، كما يتوقف العقاد عند «هيرقليطس» الذى يراه أعظم فلاسفة آسيا الصغرى وما حولها. ولا ينهى العقاد هذا الفصل قبل أن يتحدث عن فيثاغوراس ومن بعده «انكسغوراس» الذى عمّم كلام «هيرقليطس» عن الكلمة Logos وسماها Nous أى العقل ووصفه بأنه جوهر مجرد خالد واحد لا يتعدد، وأنه هو مصدر حركة دوارة تدفع ما خف إلى أعلى الكون وتهبط بما أسفل إلى مركزه، وأنه ما من شىء إلا فيه امتداد، إلا العقل فإنه منزّه عن التعدد والتناقض.. وهو الله أو هو الصلة بين الله والعالم. ولا ينسى العقاد المدرسة الإيطالية التى يرجع نشاطها إلى مدارس آسيا الصغرى، فيتحدث عن لباب مذهب بارمنيد، وعن زينون الإيلى، أبرع المدافعين عن مذهب أستاذه «بارمنيد»، مجتزئاً أمثلة على طريقة هذه المدرسة فى إثبات الوحدة الكونية ونفى التعديد والتغيير. ثم يتحدث عن «كليانتس» Cleanthes الذى ولد على الأرجح سنة ٣٣١ ق.م بعد زينون بسنوات، ورأيه فى أن الله روح يسرى فى جميع أجزاء الكون، وأنه لا بد أن يكون الموجود الحى الكامل شيئاً غير الإنسان، وأن يكون مستكملاً للفضائل منزهاً عن كل سوء. ومثل هذا الموجود يطابق صفات الإله. فالإله إذن موجود. ثم يتحدث العقاد عن «شريسبس» Chrisippus، ثم مدرسة أبيقور التى كانت وسطاً بين مدرسة الرواقيين ومدرسة أثينا الكبرى، ثم المدرسة الأثينية: مدرسة سقراط وأفلاطون وأرسطو، ورأسها سقراط الذى كان من أصحاب الهواتف الخفية، وأثر عنه إيمانه بخلود الروح وسلامتها من الفساد مع الجسد بعد الموت، وأنها ترجع إلى معدنها الأول من الصفاء المنزه عن التجسيد والتركيب. ومن بعده جاء أفلاطون الذى يرى أن العقل المطلق كمال لا يحده الزمان والمكان ولا يصدر عنه إلا الخير والفضيلة. ومن بعده تلميذه العظيم «أرسطو» الذى توسع فيما بعد الطبيعة توسعاً غير مسبوق بين الفلاسفة الأوائل، ووضع علم المنطق، وقال إن الله هو العلة الأولى والمحرك الأول. محرك بذاته، أو محرك لا يتحرك. وأن هذا المحرك الذى لا يتحرك لا بد أن يكون سرمداً لا أول له ولا آخر، وأن يكون كاملاً منزهاً

عن النقص والتركيب والتعدد، وأن يكون مستغنيا بوجوده عن كل موجود. هذا المحرك الأول سابق للعالم في وجوده سبق العلة لا سبق الزمان. وعلى هذا قال أرسطو بقدّم العالم على سبيل الترجيح الذي يقارب اليقين، إلا أن إحداث العالم يستلزم تغييرا في إرادة الله والله - جل جلاله - منزّه عن ذلك. ويقول أرسطو بوجود الروح ولكنه لا يقول ببقاء الروح الفردية بعد الموت. فالروح من عالم العقل والفعل واحد في جميع الأفراد، وهم إذا اختلفوا بالأذواق الجسدية لم يختلفوا بالمدرجات العقلية. فلا اختلاف بين إنسانين في إدراك الحقائق المجردة، ومؤدى هذا عنده أن العقل المجرد لا فردية فيه، وأن الروح تعود إلى العقل العامل بعد فراقها للجسد. فلا فردية لها بعد الموت، ولكنها لا تفنى ولا تقبل الفناء. وهنا نقف مع الأستاذ عباس العقاد على عتبة حديثه التالي عن المسيحية.



للعقاد كتاب ضاف عن المسيح عليه السلام، ولكنه في كتاب «الله» - كبحث في نشأة وتطور وتاريخ العقيدة الإلهية - يوجز الحديث في المقدمات، لينتقل إلى جوهر بحثه عن العقيدة الإلهية في المسيحية.. عند ميلاد المسيح عليه السلام، والأرجح أنه ولد قبل التاريخ المشهور بأربع سنوات، كان اليهود يترقبون المسيح المنتظر على رأس الألف الخامسة للخلقة، وكان الأردن وما حوله مفعما بدعوة يحيى بن زكريا أو يوحنا المغطس المشهور بالمعمدان، وراح النبی يحيى يدعوهم إلى التوبة والاعتسال من الذنوب، ويرمز إلى التطهر من الدنس بالتطهر في نهر الأردن على يديه، ويبشّرههم أو ينذرهم بقرب «ملكوت الله» أو «ملكوت السماء»، وكان اليهود قد فهموا «ملكوت الله» على معنى غير الذي فهموه وتوارثوه من أيام السبي، فقد كانوا ينتظرون ملكا «مسيحا» من قبيل ملوكهم الذين كانوا يمسحونهم بالزيت المقدس ويسمونهم من أجل ذلك بمسحاء الرب أو المسحاء. وتجدد رجاء اليهود في مسيح من هذا القبيل بعد سقوط أعدائهم الأقوياء، فلما تطاول الزمن ووقعوا في قبضة الدولة الرومانية وعجزوا عن مقاومتها، وتحولوا إلى الرجاء في قيام مسيح غير مسحاء العروش والتيجان، فترقبوه في عالم الروح، وعلم الصالحون منهم أن الخلاص المنتظر إنما هو خلاص النفوس والضائر بالتوبة والتطهير. ولكن بعد أن كان أنبياءهم قد بشروا بذلك

المسيح قبل عصر الميلاد بعدة قرون، أوفت فلسفة الفلاسفة الذين تناولهم العقاد في الفصل السابق على غايتها، ومن هؤلاء الفلاسفة من بشر بالكلمة الإلهية وقال إن هذه الكلمة - ويعنى بها العقل الإلهي - هي مبعث كل حركة ومصدر كل وجود، فتقابلت دعوة «فيلون» الفيلسوف تمهيد في نطاق الفلسفة وفي نطاق الديانة في وقت واحد، فتقابلت دعوة «فيلون» الفيلسوف الإلهي المولود بالإسكندرية مع دعوة «يحيى» أو «يوحنا المعمدان»، وفي هذا الجو المتطلع إلى الرسالة الروحية ولد السيد المسيح عليه السلام، وكان يستمع العظات من يوحنا المعمدان ويتقبل «العمادة» من يديه، فلما قتل يوحنا لم يرهبه مصرعه الأليم، ونهض بأمانة الدعوة بعده في بلاد الجليل ثم في بيت المقدس.

فلم ينتظر المسيح ملكوت الله في حادث من الحوادث الدنيوية، بل علم الناس أن ملكوت الله قائم في ضمائرهم وموجود في كل حقبة وكل مكان: «ولا يأتي على موعد مرتقب. ولا يقولون هي ذا هنا أو هو ذا هناك. لأن ملكوت الله فيكم».

ولم يشهد التاريخ - فيما يقول العقاد - قبل السيد المسيح عليه السلام رسولا رفع الضمير الإنساني كما رفعه، ورد عليه العقيدة كلها كما ردها إليه.. فقد جعله كفؤا للعالم بأسره بل يزيد عليه فلا نفع فيمن يريح العالم ويخسر ضميره.. فهذه صفقة خاسرة: «وماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه، وماذا يعطى الإنسان فداء عن نفسه؟!..

والطهر كل الطهر في نقاء الضمير. فمناط الخير كله فيه ومرجع اليقين كله إليه: «فليس من شيء من خارج الإنسان يدنسه، بل ما يخرج من الإنسان هو الذي يدنس الإنسان».

كان المسيح عليه السلام يقول لهم: «نقّوا الكأس من داخلها» فظاهاها لا يضير ما فيها وكان ينكر كل ما يُراد به الظاهر ولا ينبعث من أعماق الوجدان، فلا إحسان عنده لمن يرأى بالإحسان.. فذلك تاجر قد أخذ ربحه فلا حق له عند الله.. «احذروا من صدقة تصنعونها أمام الناس، وإلا فلا أجر لكم عند أبيكم (ربكم) الذي في السموات، وإذا بذلت الصدقة فلا تنفخ أمامك بالأبواق كما يفعل المراءون تفاخرا بين الناس، فالحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم.. فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك.. فأبوك (ربك) الذي يراك في الخفاء يجزيك في العلانية»، كل شيء في عالم الحس ينقاد لقوة الضمير.. فجانبا الضمير

هى الذى توجهت إليه رسالة السيد المسيح، ورعاية الله لروح الإنسان هى الملاذ الذى رأى الناس منصرفين عنه فعاد بهم إليه.

نسى من آمنوا بالله وعبدوه وتوقفوا عند حسابهم على الطاعة والعصيان رعاية الله ولم يريدوا أن يحبوه كما أرادوا أن يطيعوه، فعلمهم المسيح عليه السلام أن الله محبة وأن أقرب الناس إلى الله من أحب الله وأحب خلق الله، ومنهم المطرودون والعصاة، ولا يستحق غفرانه - سبحانه وتعالى - من لم يتعلم كيف يغفر للمسيئين إليه: «...إن أخطأ إليك أخوك فوبخه، وإن تاب فاغفر له، وإن أخطأ إليك سبعا فى اليوم، فاقبل توبته واغفر له».

ينبغى أن تُفهم عبارة المسيح: «ما جئت لأنقض الناموس بل لأكمّله» على أنه عليه السلام لم يأت بإلغاء الشريعة أو إسقاط الجزاء، ولكنه نقل الإيمان بالله من الحرف إلى المعنى، ومن القشور إلى اللباب، ومن ظواهر الرياء إلى حقائق الخير الذى لا رقابة عليه لغير الضمير.

وقد أشار السيد المسيح إلى نفسه بتعريفات كثيرة رواها عنه كتاب الأناجيل، فكان إذا تكلم عن نفسه قال: «أنا ابن الإنسان» أو «أنا نور العالم» أو «أنا خبز الحياة» أو «أنا الطريق والحق والحياة» أو «أنا القيامة والحياة» أو «أنا الراعى الصالح، وأنا المعلم والسيد» أو «أنا الكرمة الحقيقية».. ولم يذكر نفسه باسم المسيح ولكنه بارك الحواري بطرس حين سماه به، وقال له إنه اهتدى إلى حقيقته بنفحة من نفحات الروح.

ومن وراء العقاد، قرأت الأناجيل بإمعان، وعقدت فصلا فى كتاب الأديان والزمن والناس (كتاب الهلال - العدد ٦٦٩ - سبتمبر ٢٠٠٦) - فوجدت عبارات صريحة للسيد المسيح عن وحدانية الله، فأورد الإنجيل بقراءة مرقس إجابة يسوع: «الرب إلهنا رب واحد، فأحب الرب إلهك بكل قلبك وبكل نفسك وبكل قوتك» (مرقس ١٢: ٢٩، ٣٠). وفى الآية التالية قال له الكاتب: «صحيح يا معلم! حسب الحق تكلمت. فإن الله واحد وليس آخر سواه» (مرقس ١٢: ٣٢)، وفى نصوص الإنجيل كثير من الآيات التى أفصحت فى عشرات المواضع أن لفظ «الأب» مستخدم بمعنى الرب.. وفى إنجيل متى على لسان السيد المسيح: «ولا تدعوا أحدا على الأرض أباً لكم: لأن أباكم واحد، وهو الأب الذى فى السموات». (متى ٢٣: ٩ - ١٠)

وأورد الأستاذ العقاد أن العلاقة بين الإنسان وخالقه فى بشارة السيد المسيح هى العلاقة بين الروح ومصدرها وبين الحياة وينبوعها وبين المكفول وكافله ، وبين الرعاية وراعيها ، ولم تتفق هذه الصفة فى ديانة واحدة من ديانات ذلك العصر كما اتفقت فى الديانة المسيحية . وهنا نتوقف مع العقاد على أعتاب حديثه عن العقيدة الإلهية فى الإسلام ختام الأديان الكتابية والرسالات السماوية .



يستهل العقاد حديثه عن الإسلام بأنه جاء بعد مرور نحو ستة قرون على مولد السيد المسيح ، تشعبت خلالها المذاهب المسيحية بين قائل بطبيعة واحدة للسيد المسيح وقائل بطبيعتين اثنتين : هما الإنسانية والإلهية ، أو الناسوت واللاهوت ، وبين مؤله للسيدة مريم ومنكر لهذا التأليه . وبين مفسر لنبوة السيد المسيح بأنه ابن الله . ولكنها بنوة على المجاز بمعنى القرب والإيثار على سائر المخلوقات ، وقائل بأنه ابن الله على الحقيقة التى يفهمها المؤمن على نحو يليق بالذات الإلهية .

وتسربت هذه المذاهب جميعا للجزيرة العربية مقرونة بالبراهين الجدلية التى يستند إليها أو يستدل بها كل فريق ، وكثير من هذه البراهين مستمد من المنطق ومذاهب حكماء اليونان ، فقد كان أوريجين ونسطور وأريوس أصحاب الآراء الفلسفية واللاهوتية - التى جاءت بها الفرق المختلفة - كانوا من المطلعين على الفلسفة الإغريقية وعلى التخصيص بآراء هيرقليطس وأفلاطون وأرسطو وزينون .

وعن هذه الخلافات والهزات التى قيلت فى طبيعة السيد المسيح ، أورد قداسة البابا شنودة الثالث فى مقدمة كتابه «طبيعة المسيح» (ط ٩ مارس ٢٠٠٤) : «موضوع طبيعة المسيح موضوع هام جدا ، كان سبب انقسام خطير فى الكنيسة فى منتصف القرن الخامس (سنة ٤٥١ م)» ، وأنه بعد الشقاق الذى حدث سنة ٤٥١ م ، رفضت الكنيسة الأرثوذكسية مجمع خلقدونية وتحديداته اللاهوتية ، وعرفت فيمن عرفوا بأصحاب «الطبيعة الواحدة» MONOPHYSITES .

وتحدث قداسته عن هرطقة أريوس التي شجبها مجمع نيقية المسكونى سنة ٣٢٥م، وعن نسطور الذى حرمه مجمع أفسس المسكونى (سنة ٤١٨م) ومع ذلك امتدت جذور النسطورية إلى مجمع خلقدونية الذى ظهر فيه انفصال الطبيعتين، وتلاه انشقاق ضخم تبعها لاختلاف الرؤى والتفسيرات تحدث عنه قداسته وعن الاتفاق الذى حررت بشأنه عام ١٩٨٨ وثيقة مشتركة بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنائس الكاثوليكية. (طبيعة المسيح للببا شنودة الثالث ص ٨ - ١٢)، ومن الانتقال والترحال والهجرات، عرف العرب أطرافا من هذه المذاهب، كما تسربت إلى الجزيرة العربية مذاهب اليهودية، وظلت تتسرب بعد ظهور المسيحية واحتكاك اليهود بالنصارى، وكانت لليهود مذاهب فى الدين تمتزج بالفلسفة حيناً وبالتأويلات اللاهوتية حيناً آخر، كما أن العرب لم يتلقوا المسيحية من مصدر واحد، أو من الشمال فقط، فقد كانت للحبشة نصرانية ممزوجة بالوثنية التى تخلفت عن عقائدها الأولى، ودان قليل من العرب بهذه الديانات الوافدة على أوضاعها الكثيرة التى يندر فيها الإيمان بالوحدانية وعقيدة التنزيه والتجريد، بينما كان الأكثرون يعبدون الأسلاف فى صور الأصنام، وبعضهم يعرفون الله ويقولون إنهم يعبدون الأصنام ليتقربوا بها إلى الله.

فلما ظهر الإسلام فى الجزيرة العربية، كان عليه أن يصحح أفكارا كثيرة لا فكرة واحدة عن الذات الإلهية، وكان عليه أن يجرد الفكرة الإلهية من أخلاط شتى من بقايا العبادات الأولى وزيادات المتنازعين على تأويل الديانات الكتابية.

ويورد العقاد كيف أن الإسلام كان أول دين تتم الفكرة الإلهية وصححها مما عرض لها فى أطوار الديانات الغابرة. فالفكرة الإلهية فى الإسلام «فكرة تامة» لا يتغلب فيها جانب على جانب، ولا تسمح بعارض من عوارض الشرك والمشابهة، ولا تجعل لله مثيلا فى الحس ولا فى الضمير، بل له «المثل الأعلى» وليس كمثل شىء. فالله وحده «لا شريك له».. «ولم يكن له شركاء فى الملك».. «فتعالى الله عما يشركون».

والإسلام رفض الأصنام على أى وضع من أوضاع التمثيل أو الرمز أو التقريب، ولله المثل الأعلى من كافة صفات الكمال وله الأسماء الحسنى، ولا تغلب لديه سبحانه صفة على صفة أو قوة على قوة، فهو سبحانه عزيز ذو انتقام، وهو أيضا رحمن رحيم وغفور كريم.

ومن صفاته عز وجل العلم، فهو سبحانه «عالم الغيب والشهادة».. و «لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض».. و «عليم بما في الصدور».. وسع كل شيء علما، وهو كذلك مريد فعال لما يريد، فكانت العقيدة الإلهية في الإسلام هي التامة المتممة لأفكار كثيرة موزعة في العقائد الدينية والمذاهب الفلسفية، وجملة ما يقال في عقيدة الذات الإلهية التي جاء بها الإسلام إن الذات الإلهية غاية ما يتصوره العقل البشرى من الكمال في أشرف الصفات. فالله تعالى هو «المثل الأعلى».. وهو الواحد الأحد الصمد الذي لا يحيط به الزمان والمكان، وهو سبحانه المحيط بالزمان والمكان، و ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۚ﴾ (الحديد: ٣) .. ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ﴾ (البقرة: ٢٥٥) .. وهو عز وجل ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ (٥٤) .. والله تعالى ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ (الفرقان: ٥٨) .. ﴿وَاللَّهُ يَمُوتُ ۖ﴾ (آل عمران: ١٥٦) .. ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ﴾ (القصص: ٨٨) .

قد اقتضت خاتمية وعموم وشمول رسالة الإسلام، أن تكون من رب العالمين إلى العالمين.. الله سبحانه وتعالى هو الواحد الأحد، الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا احد.. هو سبحانه الحي الذي لا يموت، الموجود من الأزل، والباقي إلى الأبد.. كل من عليها فان إلا وجهه سبحانه ذو الجلال والإكرام.. الله تعالى رب العالمين، فليس الرب كما يقول العهد القديم «رب إسرائيل»، أو رب قوم آخرين من مخلوقات الله، وإنما هو - عز شأنه - «رب العالمين».. وهذا التعبير متعدد التكرار في القرآن المبين، وتردد في آياته أكثر من سبعين مرة.. واقتضت النبوة الخاتمية، العامة الشاملة، أن تكون الرسالة للعالمين وللناس كافة، لا يختص به قوم ولا عرق ولا زمان ولا مكان.. هذه الرسالة العامة الشاملة التي بعث بها الله تعالى محمدا عليه السلام «في أم القرى» لم تكن رسالة لأهل مكة فقط، ولا للقرشيين بخاصة، ولا لأهل الجزيرة العربية دون سواهم، وإنما هي نبوة هداية عامة شاملة تتجه بخطابها إلى الناس كافة، وإلى العالمين إلى يوم الدين! .

كان العالم فى حاجة إلى هذه العقيدة كما كان فى حاجة إلى العقيدة المسيحية من قبلها، وتلقى العالم كلا منهما فى أوانه المقدور، فكانت المسيحية هى رسالة الحب وأول ديانة تقيم العبادة على «الضمير الإنسانى»، وكان الإسلام رسالة الحق التى أتمت فكرة الألوهية، وربما تلخصت المسيحية فى كلمة واحدة هى «الحب»، وربما تلخص الإسلام فى كلمة واحدة هى «الحق».

«ذلك بأن الله هو الحق».. «إنا أرسلناك بالحق بشيرا».. «فتعالى الملك الحق»، فإذا بقى الإيمان بالحق فقد بقى أساس الشريعة لكل جيل، وفى كل حال، فماذا تداخلت به مذاهب الفلاسفة فى الأديان الكتابية: اليهودية والمسيحية والإسلام، وماذا صار حال الفلسفة بعد الأديان الكتابية؟ وما هى البراهين القرآنية على إثبات وجود الله ووحدانيته، وما هى آراء الفلاسفة المعاصرين؟ هذه الفصول أفاض فيها العقاد على تفصيل لا يتسع له هذا الحيز، قبل أن يتوقف عند الفصل الأخير: «خاتمة المطاف».



فى ختام كتاب: «الله»، عقد الأستاذ المفكر الجليل عباس محمود العقاد فصلا بعنوان «نهاية المطاف».. يورد فى مستهله أنه مهما يكن من تشعب الرحلة التى قضيناها على صفحات هذا الكتاب، فهى نقلة يسيرة بالقياس إلى الرحلة الإنسانية الكبرى فى هذا السبيل، وأنه قد أوجز ما لا بد من إيجاز توخى فيه ألا يتخطى حد الضرورة، وحد الضرورة أن يكون البيان كافيا للإشارة إلى الوجهة العامة وكافيا لتقرير النتائج التى يرتضيها العقل ويتطلبها الضمير.

وخاتمة المطاف، انتهت بالعقاد إلى النتائج الآتية:

- إن التوحيد هو أشرف العقائد الإلهية وأجدرها بالإنسان فى أرفع حالاته العقلية والخلقية. ولكن الإنسان لم يصل إلى التوحيد دفعة واحدة. ولم يفهمه على وجهه الأقوم عندما وصل إليه.

بل تعثر في سعيه، وأخطأ في وعيه، ولم يزل مقيدا بأطوار الاجتماع وحدود المعرفة عصرا بعد عصر وحالا بعد حال. فلم يلهم من هذه العقيدة إلا بمقدار ما يفهم، ولم يهتد إلى خطوة جديدة فيها إلا بعد تمهيد أسبابها وتثبيت مقدماتها، فكان الإيمان مساويا للخلق والعرفان.

• إن الإله الأحد «ذات» ولا يسوغ في العقل أن يراه غير ذلك. وقد مرت بنا أقوال تضاربت فيها الآراء، وأحكام تنوعت فيها المقاييس، ولكننا وجدنا بينها إجماعا على شيء واحد مع صعوبة الإجماع في هذه الأمور، وهو أن «الذاتية» أعلى ما نتصوره من مراتب الكائنات على الإطلاق، والكائن الأكمل لن يكون مجردا من الذات، ولن يتخيله العقل عقلا مجردا من الذاتية كما توهم بعض أصحاب الديانات، وناقضوا أنفسهم فيما توهموه، فالعقل يعقل وجوده لا محالة، ومتى عقل وجوده فهو ذات.

• إن كل شرط يذهب إليه الداهيون لتقييد «الذات» الإلهية بصفة من الصفات المعهودة لدينا، فهو شرط يقوم على غير أساس، فلا أساس للقول بأن «الله» لا تكون له صفات متعددة لأنه جوهر بسيط، ولا أساس للقول بأن الله لا يريد لأن الإرادة اختيار بين أحوال والله منزّه عن الأحوال، ولا أساس للقول بأن «الله» لا يعلم الجزئيات لأنه يعلم أشرف المعقولات وهو ذات الله.

فمن أين لنا أن إرادة الله من قبيل إرادتنا؟ وأن علم الله من قبيل علمنا؟ وكيف يكون الوجود إن لم يكن وجودا يفعل ويخالف العدم؟ وكيف يخالف العدم إذا كان سلبا لا أثر له على سبيل الثبوت؟.

هنا نعلم - فيما يقول العقاد - أن الله جلّ وعلا «ليس كمثله شيء»، فكل ما نعلمه أنه جلّ وعلا «كمال مطلق» وأن العقل المحدود لا يحيط بالكمال المطلق الذي ليست له حدود، وليس لهذا العقل (المحدود) أن يقول للكمال المطلق كيف يكون وكيف يفعل وكيف يريد.

• إن هذا كله يقضى إلى نتيجة رابعة، وهي الصلة بين العقل والإيمان، ذلك أنه غير معقول أن يستحيل الإيمان مع وجود الإله الذي يتصف بأكمل الصفات، والصلة بين

الخالق وخلقه لا تتوقف على العقل وحده. فهل يعنى هذا أن العقل الإنسانى لا عمل له فى مسألة الإيمان؟ كلا.. بل له عمل كبير، ولكنه ليس بالعمل الوحيد، وفرق بين أن يعرف العقل حدوده وبين أن يبطل عمله.. فإن العقل ليستطيع التفرقة بين عقيدة الشرك وعقيدة التوحيد، ويستطيع التفرقة بين عقيدة الشرك وأدلة التعطيل، ويستطيع التفرقة بين ضمير مؤمن وضمير عطل من الإيمان، ويستطيع - أى عقل الإنسان - أن يبلغ غاية حدوده ثم لا ينكر ما وراءها لأنه وراء تلك الحدود، وهنا لابد من الاعتراف «بالوعى الدينى»، لأنه ضرورة لا محيص عنها، ولأنه واقع ملازم للإنسان فى محاولاته الأولى، ولن يزال ملازماً له فى مقبل عصوره إلى أبد الآبدين.

هناك من تساءلوا فى سياق الكلام عن كمال الذات الإلهية: كيف يتفق هذا الكمال وما نحسه فى هذا العالم من النقص والشر والعذاب؟ وهو سؤال عجيب، لأن الكمال المطلق صفة الخالق جل شأنه وليس صفة المخلوقات، وكل مخلوق محدود فلا بد فيه من نقص على صورة من الصور: صورة قبح أو صورة شر أو صورة عذاب.

ومن أين لنا أن نعرف أن النقص الذى يرضينا هو أقرب إلى الكمال من النقص الذى نرضاه؟ إن الواقع يشهد أننا نرى هذه الآلام وسيلة الارتقاء بتنازع أو تدافع الأحياء ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١)، ويشهد أيضاً بأن هذا التدافع هو وسيلة التهذيب والازدياد فى نمو فضائل الإنسان.

ويرى العقاد أننا نظلم نصيب الحس إذا قلنا إن مسألة الإيمان مسألة عقل ومسألة «وعى» ليس للحس فيها من نصيب. فنحن نستطيع أن نرى بأعيننا أن الإيمان ظاهرة طبيعية فى هذه الحياة، وأن غير المؤمن هو «غير طبيعى».. نعاين ذلك من حيرته واضطرابه وانعزاله عن المحيط الذى يعيش فيه، فهذا هو الشذوذ، وليس هو القاعدة فى الحياة الإنسانية وفى الظواهر الطبيعية.

ومن أعجب العجب أن يقال إن الإنسان خلق فى هذا الكون ليستقر على الإيمان من الوهم المحض، أو يسلب هذا القرار أو الاستقرار.

حول منطق المنكرين، يتابع العقاد فيما يتابعه فى خاتمة المطاف لكتابه: «الله» حول نشأة وتطور وتاريخ العقيدة الإلهية، يورد العقاد أنه ليست حجة للمنكر أن يقول إن الإنكار ممكن فى العقول، بل حجة للمؤمن أن يقول إن حال المنكر ليست بأحسن الأحوال، وأنه إذا أنكر عن اضطرار تبين لنا على الفور أنه فى حال «غير الحال الطبيعى» الذى يستقيم عليه وجود الأحياء.

وخاتمة المطاف، فيما يقول العقاد، أن الحس والعقل والوعى والبديهة جميعا تستقيم على سواء الخلق حين تستقيم على الإيمان بالذات الإلهية، وأن هذا الإيمان الرشيد بالواحد الأحد - هو خير تفسير لسر الخليفة يعقله المؤمن ويدين به الفكر والضمير ويتطلبه الطبع السليم.

لقد جاء القرآن المجيد بكل برهان من البراهين التى تقنع العقل والوعى والحس والضمير، وجعل الهدى من الله عن طريق العقل والإلهام والصواب.

﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة: ١٤٢)

﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى﴾ (البقرة: ١٢٠)

﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِرَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (يونس: ١٠٠)

(يونس: ١٠٠)

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ (الأنعام: ١٢٥)

وآيات الله مكشوفة لمن يريد بها ويستقيم إلى مغزاها، ولكنها هى وحدها لا تقنع من لا يريد ولا يستقيم، وفى ذلك يقول رب العزة فى القرآن المجيد: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (١١) ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ مُسْحُورُونَ﴾ (١٥) (الحجر: ١٤-١٥)

فحتى رؤية العين والمعاناة بالبصر والسمع، لا تكفى لإقناع من صرف عقله فى سبيل الإقناع، لأنه يتهم بصره وسمعه فيما رأى بعيينه وسمع بأذنيه، وكل شىء فى الأرض والسماء كان لمن جرد عقله من أسباب الإنكار والإصرار.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ الْمَنِّيَكُمْ وَالْوَكْرَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الروم: ٢٢)

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۝١ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٢ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٣ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٤ وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِّبَاسًا ۝٥ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝٦ وَنَبِّئُكُمْ سِيعًا شِدَادًا ۝٧ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝٨ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝٩ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٠ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝١١ ﴾ (النبا: ٦ - ١٦)

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مِّنْجَبُورَتٌ وَجَنَّتٌ مِّنْ أَعْنَبٍ وَخَيْلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِلٍ وَتُقْفَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤ ﴾ (الرعد: ٤)

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة: ٢٥٥)

ليست هذه جميع الآيات التي وردت في القرآن الحكيم بإقامة البرهان على وجود الله ووحدانيته ، ولكنها أمثلة تجمع أنواعها ونرى منها - فيما يقول العقاد - إنها قد أحاطت بأهم البراهين التي يستدل بها على وجوده سبحانه ووحدانيته : براهين الخلق والإبداع ، وبراهين القصد والنظام ، وبراهين الكمال والاستعلاء والمثل الأعلى ، سبحانه وتعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (١١) ﴿الشورى: ١١﴾ ، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦٠) ﴿النحل: ٦٠﴾ ، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ﴾ (٧٦) ﴿يوسف: ٧٦﴾ .

بقي أن أقول إن هذا الكتاب الذي عرضته لك في هذه السطور ، من أعمق وأروع ما قرأته في بابهِ . فيه خلق العقاد تحليقا لا يستطيعه سواه ، فإذا كان هذا ليس غريبا على العقاد ، إلا أنه صعد في هذا الكتاب إلى قمة لا مرتقى بعدها لأحد ، لقد قرأت هذا الكتاب أكثر من مرة ، ومع ذلك ما عدت مرة إلى قراءته إلا وأعطاني المزيد وكشف لي كل ممتع ومشبع في موضوعه الجليل ، اجتمع له جلال اسمه وجلال موضوعه وصدق عزيمة وعمق فكر الأستاذ عباس العقاد ، ما جعله على قمة ما يرتجيه قارئ ينشد معرفة أطوار الاعتقاد حتى اهتدت إلى الواحد الأحد رب العالمين .

النبوة الإسلامية



ينتمي جميع الرسل والأنبياء إلى شجرة واحدة، هم جميعا مبعوثون من رب العالمين، حمل كل منهم رسالته ونهض بها وأداها إلى قومه في زمنه، وحمل كل منهم إلى المبعوث إليهم حجة صدق تحملهم على التصديق برسالته، والاستجابة إلى هدايته، فبعث نوحا - عليه السلام - إلى قومه، فكان الطوفان آية للمكذبين، وأنجاه الله تعالى والذين معه في الفلك وأغرق الذين كذبوا بآياته بمن فيهم ابنه الذي أبى واستكبر وظن أنه بمسطيع أن يلوذ بجبل يعصمه من الماء فكان من المغرقين.. كانت حجة نوح - عليه السلام - تبكيه قبل الطوفان بصناعة السفينة بأمر ربه، فنجته ومن معه، ولاقى هود من قومه عاد ما لاقاه نوح عليهما السلام، وسخرت عاد من هود وكذبه، فكانت آية الله لهم الريح الصرصر العاتية التي دمرت كل شيء بأمر ربها (الأحقاف ٢٤، ٢٥)، سخرها الله تعالى عليهم ﴿وَأَمَّا عَادُ فَاهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۖ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَابُ غَحَلٍ خَاوِيٍّ ۚ﴾ (٧) ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ۚ﴾ (٨) (الحاقة ٦-٨)، وأنجى الله تعالى هودا وقطع دابر الذين كذبوه.. أما صالح عليه السلام، فقد كان مرجوا في قومه ثمود حتى دعاهم إلى عبادة الله فصار مشكوكا في أمره فهو يدعوهم - فيما ظنوا - إلى شيء مريب، وما هو إلا بشر من السحرين، وسألوه وهم يمارونه أن يخرج لهم من الصخر ناقة، فأيده الله سبحانه وتعالى بناقة انشق عنها الصخر لتكون لهم آية أمرهم الله ألا يمسوها، إلا أنهم كابروا وخالفوا وعقروها فأخذتهم «الصيحة» فأصبحوا في ديارهم جاثمين!! (هود ٦١-٦٨)، ولاقى لوط عليه السلام الأمرين من قومه الذين كانوا يفعلون السيئات ولا يرضون عنها بديلا، وأرادوا أن يغلبوه على ضيوفه رسل السماء، فدمر الحق تبارك وتعالى قريتهم وجعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود!! (هود ٧٧ - ٨٣).. ومدين قوم شعيب، الذين حذرهم من نقصهم الكيل والميزان أن يصيبهم مثل ما أصاب أقوام نوح وهود وصالح ولوط فلما أبوا واعتدوا وسفهاوا نبيهم وكذبوه وهددوه

أخذتهم «الصححة» مثلما أخذت ثمود! (هود ٦٤) واتفقت كلمات هؤلاء الأقوام على أنهم يعبدون ما وجدوا عليه آباءهم الأولين، وكما فعل هؤلاء فعل أيضا قوم إبراهيم الخليل عليه السلام، فهم يعبدون التماثيل التي وجدوا آباءهم لها عابدين، ولا يتفطنون لقول إبراهيم الخليل لأبيه فيما رواه القرآن المجيد: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (مريم ٤٢)، ولم يثنهم عن لجاجتهم النار التي جعلها الله تعالى بردا وسلاما على خليله إبراهيم!.

كان الأمر الذي تترس به هؤلاء الكفار والمشركون هو آفة الاعتياد وما ورثوه من أضراليل عن أسلافهم وآبائهم الأولين، ولم تنفع معهم حجج الصدق التي أتاها بها أنبياءهم بأمر ربهم، فأمعنوا في نكرانهم ومقاومتهم وتعلقهم بعبادة الأضراليل التي عبدها أسلافهم!! وهكذا كان حال الكفار والمشركون في شبه الجزيرة العربية قبل مبعث النبي المصطفى محمد عليه الصلاة والسلام.

لقد قص القرآن الحكيم ما كان من ضيق منطق هؤلاء الأقوام مع نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى وعيسى وغيرهم في سورة البقرة والمائدة والأعراف والأنبياء ونوح وإبراهيم والفرقان والشعراء والمؤمنون والقصص والصفات وص ولقمان والقمر وغيرها، وحاجاهم القرآن المجيد في سورة البقرة بقولهم عنهم: ﴿وَإِذْ أَيْقَلَ لَهُمْ أَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَسْتَعِمْ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَوْكَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة ١٧٠) وفي سورة المائدة: ﴿وَإِذْ أَيْقَلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَوْكَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (المائدة ١٠٤) فبين القرآن كيف أن استسلام هؤلاء وأولاء وتعلقهم بما درج عليهم الآباء هو الذي حال بينهم وبين الهداية، ومنعهم من أن يتفطنوا إلى حجج الصدق التي أتاها بها الأنبياء تباعا بأمر ربهم!.

كانت لجاجة الكفار دائما بلا منطق ولا حجة، ولاقى الأنبياء منهم كل إنكار وصد وتكذيب وإيذاء، ولم تجد معهم المعجزات وحجج الصدق، فسارعوا كالعادة - رعونة وطيشا

وصدا - إلى إنكار كل هذه الخوارق وتلمسوا الأسباب والتعلات لتجاهلها والاستهزاء بها، وانتقل هذا التكذيب الضال، وبصورة أكبر، إلى اللاحقين عليهم، فهم لم يشاهدوا الخوارق التي شهدتها الأسلاف ومع ذلك أنكروها، فكيف بهم يصدقونها وهم لم يروها ولم يعاينوها؟! وانطمر فضلا عن ذلك أثرها بفعل الزمن! وصور القرآن المجيد حال هؤلاء المكابرين المنكرين أصدق تصوير، فقال عز من قائل: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّتَحَوِّرُونَ ﴿١٥﴾﴾ (الحجر ١٤، ١٥) ..

أراد الحق عز وجل لنبوة الإسلام أن تكون نبوة فهم وهداية، لا ترمى إلى إفحام العقل بالحجة المسكتة، وإنما تتغيا تفتيحه وتبصيره ودعوته واستثارته إلى التفكير والتأمل والتدبر والفهم.. لذلك كان القرآن المجيد هو آية الإسلام الكبرى، وحجته الممدودة في عصر التنزيل وفي كل ما يأتي بعده من عصور، لأن حجة القرآن لا تنطمر بمضى الزمن، وإنما يزداد فهم الناس إلى ما فيه من الحق والنور والجمال.. فلم يكن القرآن الحكيم محض معجزة تجرى مجرى الخوارق الحسية التي كانت عليها حجج صدق الديانات السابقة، وإنما هو نور وهداية وزاد موصول ومدد لا ينتهى يجعل من نبوة الإسلام نبوة هداية وإنارة تخاطب الوجدان والعقل والضمير، وتستنفر وتستحث هذه الملكات لاستقبال فيوض هذا المدد الدائم واستيعابه واستحضاره والإمساك به كيما لا يقلت من الإنسان تعلقه المنشود بالمعنى الكلى والغاية المثلى للإسلام فى إصلاح وصالح الحياة والأحياء إلى يوم الدين.



النبوة الإسلامية ليست نبوة استطلاع للغيب ولا إفحام للعقول بالخوارق المفحمة المسكتة، وإنما هى نبوة هداية أراد الله تعالى لها أن تخاطب وتفتح «العقول» و«البصائر»، لا أن تفحمها وتقعدها عن النظر والتأمل والتدبر والتفكير والفهم.. هذا المعنى الفارق لم يكن محض تصور متروك لاستخلاص الناس أصابوا فى ذلك أم أخطأوا، وإنما هو توجيه قرآنى صادر بأمر ربانى صريح إلى النبى أن يبدى للناس أنه ليس إلا بشرا رسولا اصطفاه ربه لحمل وأداء الرسالة - ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٣﴾﴾ (الإسراء ٩٣) ..

هذا الأمر الرباني ببيان جوهر الرسالة المحمدية، ورد في معرض نقد تعلق الناس بالخوارق الحسية التي ثبت بتجارب البشرية أن مآل أثرها إلى الانقضاء والانطمار.. في ذات سورة الإسراء تقدمه لهذا الأمر والبيان الإلهي، تنبيه واضح إلى الفارق الجوهرى بين نبوة هداية قوامها القرآن، وبين التعلق الضير بالخوارق الحسية!.. تقول الآيات الحكيمات: ﴿قُلْ لِّمَنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَيُّ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٨٩﴾ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعًا ﴿٩٠﴾ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب تفجر الأنهر خلالها فجيرًا ﴿٩١﴾ أو تسقط السماء كما رزمت علينا كسفاً أو تأتى بالله ففجر الملائكة قبلاً ﴿٩٢﴾ أو يكون لك بيت من زخرف أو ترفى في السماء ولن نؤمن لرؤيتك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه. قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴿٩٣﴾ (الإسراء ٨٨ - ٩٣) .. في تماحى أثر الخوارق، وتلمس المكابرين التعلات والأسباب للتخلص منها، يقول القرآن المجيد: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١١ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٢﴾ (الحجر ١٤ ، ١٥) .. فليست الخوارق مما يغنى فى دعوة المكابر المعاند المفتون، ولا هى أداة الدعوات لمواجهة ما يأتى به قابل الأيام!!

لذلك أراد الإسلام لنبوة القرآن أن تكون نبوة فهم وهداية تدعو بكتابها المبين إلى النظر والتأمل والتفكير، وليست نبوة استطلاع وتنجيم وخوارق وأهوال.. النبى ليس منجما ولا عالما بالغيب، وليست النبوة نبوة سحر أو رؤى أو أحلام أو قراءة طوابع وأفلاك .. ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْبَرْتُ مِنْ آلِ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٨﴾ (الأعراف ١٨٨) .. لذلك حرص رسول القرآن أن ينحى عن أذهان الناس سمعة المعجزة المسكتة عندما جاءته ميسرة يوم كسفت الشمس وظن الناس أنها كسفت لموت ابنه إبراهيم، فأبى عليهم ذلك، ونبههم إلى أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفن لموت أحد ولا لحياته.. ومع تعدد ما ورد فى الماثورات عن المعجزات والآيات التى صاحبت مولد محمد عليه السلام

وظفولته، إلا أن عنايته الكبرى كانت بلفت انتباه الناس إلى معجزة القرآن وما ينطوى عليه من آيات ومدد لا ينقطع.

والقرآن المجيد، حجة الإسلام الباقية إلى يوم الدين، خاطب العقل كما خاطب الوجدان والضمير، في منهاج عميق دعا إليه حتى في مسائل الإيمان والعقيدة.. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١١) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ رِسًا مَّا خَلَقَتْ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٣﴾ (آل عمران ١٩٠، ١٩١) هذا التأمل المتعبد الفاهم الواعي، هو قوة دفع ذاتية بآلية دافقة لا تنقطع.. تكفل للمتأمل فيها ديمومة المدد والأثر الفاعل في الهداية والاستمسك بالعروة الوثقى إلى ما شاء الله رب العالمين.



ولا يختلف أحد على أن الرسالة المحمدية، هي آخر الرسالات الكبرى في تاريخ الإنسانية، وأنها عمت الدنيا وصار أتباعها المؤمنون بها بمئات الملايين، وأنه لم تتلوها رسالة أو ديانة يمكن لزاعم مهما اشتط أن يحسبها من رسالات السماء.. وخاتمية الرسالة المحمدية، قد اقتضت أشياء هي من مقومات هذه الخاتمية من ناحية، ودالة عليها وعلى مصدر هذه الرسالة من ناحية أخرى.. فالخطاب الذي كان في الأديان السالفة محدودا بحدود الأقوام والزمان والمكان، واقتربت فيه النبوة اقترانا محدودا بقوم النبي الذين أرسل إليهم، خرجت النبوة المحمدية من هذا الحد المحدود إلى الميدان الواسع الفسيح لتشمل العالمين، وبغير حد في الزمان أو المكان، وبغير اقتصار في الخطاب على قوم دون أقوام أو على عرق دون أعراق! واقتضت هذه الخاتمية - فيما اقتضت - كمال وتمام الشريعة، وتطهير وإصلاح كل ما لا يس تدين الغابرين من بعد عن الدين، أو التلبيس في أمر الأنبياء والخلط بشأنهم بين النبوة الحقيقية وبين العرافة والرؤيا والأحلام والاستطلاع والتنجيم والكهانة والجذب وقراءة الغيب والسحر بل وأضراب من الجنون فيما أسموه بالجنون المقدس!. واقتضت هذه الخاتمية فيما اقتضت

التعريف بالأنبياء الحقيقيين وتجلية صورهم وتطهيرها مما علق بها من إساءات التطاول أو التحريف، والارتفاع بهذه النبوات الحقيقية إلى مقامها الرفيع السامق كاصطفاء إلهي من السماء للهداية والإصلاح!

وأول ما اقتضته خاتمية وعموم وشمول رسالة الإسلام، أن تكون من رب العالمين إلى العالمين.. الله سبحانه وتعالى هو الواحد الأحد، الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد.. هو سبحانه الحي الذي لا يموت، الموجود من الأزل، والباقي إلى الأبد.. كل من عليها فإن إلا وجهه سبحانه ذو الجلال والإكرام.. الله تعالى رب العالمين، فليس الرب كما يقول العهد القديم «رب اسرائيل»، أو رب قوم آخرين من مخلوقات الله، وإنما هو - عز شأنه - «رب العالمين».. وهذا التعبير متعدد التكرار في القرآن المبين، وتردد في آياته أكثر من سبعين مرة.. واقتضت النبوة الخاتمية، العامة الشاملة، أن تكون رسالة النبي الخاتم للعالمين وللناس كافة، لا يختص به قوم ولا عرق ولا زمان ولا مكان.. هذه الرسالة العامة الشاملة التي بعث بها الله تعالى محمدا عليه السلام «في أم القرى» مكة المكرمة - لم تكن رسالة للمكيين ولا لأهل مكة فقط، ولا للقرشيين أهل محمد عليه السلام بخاصة، ولا لأهل الجزيرة العربية خاصة دون سواهم، وإنما هي نبوة هداية عامة شاملة تتجه بخطابها إلى الناس كافة، وإلى العالمين إلى يوم الدين!.

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ (الفرقان ١)
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٨ ﴾ (سبا ٢٨)
﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥٨ ﴾ (الأعراف ١٥٨)

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ۝٣٣ ﴾ (التوبة ٣٣)

هذا الخطاب العام الشامل، اقتضت عموميته وخاتمته أن يصحح عقيدة النبوة من الأوضار التي شابتها في أفهام الغابرين، وأن يضع الرسل والأنبياء السابقين موضعهم اللائق بما حملوه من رسالات إلهية اقتضتها الحكمة الإلهية في أوانها لإمداد أقوام هنا وهناك - في زمن معين - بهداية تستنقذهم من وهدة الكفر والضلال الذي ران عليهم، وتشد أبصارهم إلى الواجد الماجد عز وجل.. لم يكن الجنوح في فهم عقيدة النبوات السابقة، أو خلطها بصناعة التنجيم والعرافة والاستطلاع والرؤيا والجذب والكهانة والجنون المقدس، وما إلى ذلك -.. لم يكن هذا الجنوح أو الخلط تابعا من ذات عقيدة النبوة في الأديان السابقة، وإنما شجر الجنوح والخلط من التباس وحنوح أفهام الناس، ومن سيادة الجهالة والأساطير، ومن لجاجات لم تتوقف في أغلاطها ولا في شططها عند حد!.

آية إلهية الرسالة المحمدية أنها لم تتركب على أغلاط الناس في عقائد النبوات السالفة مثلما تفعل الدعوات السياسية والإنسانية بعامة للركوب على ماسبقها بإبراز عيوب السالف والتنويه بمحاسن ما أتت هي به حاملة إياه إلى الناس.. لم تفعل الرسالة المحمدية ذلك، بل أبرأت النبوات السالفة من أغلاط والتباسات وأوضار الناس، وفরزت النبوات الصحيحة من أساطير التنجيم وجذب الجنون والكهانة، وكرمت الأنبياء ودرأت عنهم ما ألصقته بهم بغير حق كتابات أدرجت في أسفار قديمة داخلها التحريف في التدوين الذي استمر مئات السنين، ثم التحريف في الجمع الذي جاوز بدوره نحو ألف سنة!.

لم تقفز الرسالة المحمدية فوق الرسالات السابقة، ولم تدر لها ظهرها، ولم تعادها، بل وحضت على الإيمان بكافة الرسل والأنبياء المبعوثين من الله جل شأنه، ونهبت إلى وحدة هذه الرسالات جميعا وإلى اكتمالها بالدعوة الإسلامية الخاتمة.. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَسْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ ﴿١٤﴾ (النحل ٤٣، ٤٤) .. ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَعَائِدَنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ (١٣) (النساء ١٦٣) ..

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ (الشورى ١٣) ..

بذلك نبه القرآن المجيد إلى أن أصول الرسالات والنبوات واحد من خلال منظومة واحدة متتابعة متكاملة ختمت بالإسلام.. ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (المائدة ٣) ..

لذلك لم يكن غريباً، بل هو لب الرسالة الخاتمة، أن تتخذ من الإيمان بالرسالات والنبوات السابقة، قاعدة ينطلق منها الإيمان والتسليم بالإسلام.. ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة ١٣٦، آل عمران ٨٤) .. والأنبياء في كتاب العقيدة الإسلامية، أعز وأجل من الأوصار التي ألصقتها بهم الكتابات السابقة.. فهم جميعاً اصطفاة الله تعالى، ومحل تكريمه سبحانه وعنايته.. عنهم تحدث القرآن المجيد بكل الاحترام والتوقير والإجلال.. ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران ٣٣) .. ﴿ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ (الصافات ٧٩) .. وعن أبى الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام يقول الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (البقرة ١٣٠) .. ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ (النساء ١٢٥) .. ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ (هود ٧٥) .. ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ (مريم ٤١) .. ﴿ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ (الصافات ١٠٩) ..

الصحف الأولى في القرآن المجيد، هي صحف إبراهيم وموسى.. ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ (١٨) ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ (١٩) « (الأعلى ١٨، ١٩) .. ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ (٥١) ﴿ (مريم ٥١) .. ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ (النساء ١٦٤) .. ﴿ سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ (١٣٠) ﴿ (الصافات ١٢٠) .. ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ

يُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨١﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ (الأنعام ٨٤، ٨٥) .. ﴿٨٥﴾ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ (ص ٤٥) .. ﴿٤٥﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٢﴾ (الصافات ١٢٣) .. ﴿١٢٢﴾ سَلِّمْ عَلَى إِبْلِيسَ ﴿١٣٠﴾ (الصافات ١٣٠) .. ﴿١٣٠﴾ أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ (ص ١٧) ..

وأبلغ ما قيل من حديث عن زكريا ويحيى، ومريم، والسيد المسيح عليه السلام..
أورده القرآن المجيد: فروى في آيات بليغة عامرة، كيف رزق زكريا وامرأته على الكبير بيحيى عليه السلام، وروى كيف نذرت امرأة عمران ما في بطنها لخدمة الله رب العالمين، فلما وضعت حملها أنثى جعلت تقول لربها كأنها تعتذر إليه فيما رواه القرآن الكريم:
﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّىٰ لَدَيْ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذٰلِكَ أَلَفَعَلَّ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾﴾ (آل عمران ٣٦ - ٤٠) ..

ويخبر القرآن الحكيم كيف طهر الله مريم واصطفاه على نساء العالمين: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلٰٓئِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفٰٓكَ وَطَهَّرَكَ وَاصْطَفٰٓكَ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعٰلَمِيْنَ ﴿٤٢﴾﴾ (آل عمران ٤٢) .. وكيف بشرها سبحانه وتعالى بالمسيح عليه السلام كلمة منه ووجيها في الدنيا والآخرة..
﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلٰٓئِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (آل عمران ٤٥، ٤٦) .. وكيف آتاه الله البينات وأيده بروح القدس.. ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴿٨٧﴾﴾ (البقرة ٨٧، ٨٨) ..

كما روى القرآن الكريم كيف امتدت رعايته للمسيح عليه السلام ورفعته وطهره من كفر بنى إسرائيل الذين مكروا ومكر الله والله خير الماكرين.. هنالك ناداه ربه سبحانه.. ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ٱصْبِرْ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَٱرْأُفْعَكَ إِلَىٰ مَوْقِعِى ۖ وَٱمُطَهِّرْكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ۚ﴾ (٥٥) ﴿فَٱمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَٱعَذِّبْهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ ۝﴾ (٥٦) (آل عمران ٥٥، ٥٦).. هؤلاء الذين كفروا فقالوا على مريم البتول بهتاناً عظيماً..

﴿وَكُفِّرْهُمْ وَقُولِهِم عَلَىٰ مَرْيَمَ بِهَتْنًا عَظِيمًا ۝﴾ (١٥٦) ﴿وَقُولِهِم ۖ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظُّلُمِ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝﴾ (١٥٧) ﴿بَلْ رَفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝﴾ (١٥٨) (النساء ١٥٦ - ١٥٨).

وكما اقتضت عمومية الرسالة المحمدية الخاتمة، احترام وتوقير كافة النبوات والرسالات السابقة، وتوقير وتبجيل هؤلاء الأنبياء الذين نقلوا رسالات ربهم، فإنها قد اقتضت أيضاً فى عموم خطابها ألا تفرق بين الناس لعرق أو جنس أو عصبية أو لون أو مال أو جاه أو سلطان، وجعلت التقوى والعمل الصالح مناط خيرية الإنسان، لا حسبه أو نسبه أو أصله أو جاهه أو ماله، فيقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ أَتْقٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝﴾ (الحجرات ١٣)..

هذا فرع على أصل الإنسانية الواحد الذى كرر القرآن المجيد لفت الأنظار إليه.. ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَوَحَدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِى نَسَأَ لَوْنُ بِهِ ۚ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝﴾ (١) ﴿(النساء ١)..﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَوَحَدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۝﴾ (١٨٩) (الأعراف ١٨٩).

هذه القاعدة هى التى استوى عليها خطاب النبوة المحمدية الخاتمة، تتجه من رب العالمين، إلى العالمين جميعاً والناس كافة.. لا تتحدد بمكان ولا بزمان، ولا تقتصر على أقوام أو أعراق، وإنما هو خطاب السماء إلى الدنيا بأسرها.. قيمة الإنسان بعمله وتقواه، وأبواب السماء مفتوحة على مصاريعها للعالمين تستقبل دعاء وابتهالات المؤمنين، وتتسع لضراعات التائبين والتائبين!

قد اقتضى قيام النبوة المحمدية بهذه المهام الكبرى، أن تكون نبوة هداية للقلب والوجدان والعقل والضمير.. أن يكون عمادها الأول على خطاب العقل وهدايته، لا على إفحامه وتكبيله وقمعه.. فقد رأينا في تاريخ الإنسانية كيف ولّت وانطمرت مع الزمن حجج الصدق المادية الحسية التي بررها في زمانها خصوصية كل دعوة إلى قوم وإلى مكان محدد في زمن محدد! وكيف أن الناس وقد جبلوا على الصد والمعادنة والإنكار، لم يعدموا من يجادل فيما رآه وشاهده بعينه وسمع بأذنه، وأنه مع تباعد الزمن وتراكمات السنين وتوالى الأجيال وانقراض شهود الرؤية أخذ أثر هذه الخوارق الحسية يبهت في ذاكرة وعقائد الناس.. وهذا الانطمار أو الخفوت أو التناقص في أثر المعجزة أو الخارقة لا تحتمله دعوة جعلت مرادها العالمين جميعا إلى يوم الدين.. وليس يفى بأغراضها الموصولة الممتدة في المكان والزمان بغير حدود، أن تقتصر حجتها على جماعة محدودة شاهدة أو سمعت في مكان وزمان، وإنما هي تتغيا ويجب أن تتغيا حجة موصولة ممتدة يراها الحاضرون واللاحقون كما رآها الغابرون، فلا ينقضى أو ينطمّر أثرها، ولا تتباعد صورتها في أذهان وعقول وصفحات وجدان الناس بتباعد المكان أو بمضى الزمان.. لذلك كان «القرآن المجيد» هو حجة الإسلام الباقية التي لا تنطمّر ولا يتباعد أثرها بعيد شقة أو بانصرام زمن، بل إن القرآن يزداد للناس جلاء مع مضي الزمن بما يستطيعه اللاحقون من تعمق أكثر في معانيه وفي فهم مرامييه، ومن استشهاد بمفرزات العلم ومكتشفاته، وقدرة أوسع على إدراك مالم يكن عند التنزيل متاحا للإمام به لقصور الأفهام من ناحية، أو لأن بعضا أو كثيرا من الحقائق العلمية أو التاريخية لم يكن قد تجلى للناس بعد!.

قمة وغاية الصدق والسداد في بيان امتداد حجة القرآن المجيد ما ورد عنه بحديث رسول القرآن عليه السلام من أنه «لا تنقضى عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد».. فأياته وبياناته، وانتظام ودقة وعمق أحكامه، باقية بين دفتيه، لا يدركها زمن، ولا يأكلها مرور وقت!.. وجرسه ومعماراه الموسيقي لصيق بحروفه وكلماته يتغشى من يتلوه اليوم مثلما - أو ربما بأكثر - مما تغشى من تلوه أو استمعوا إليه بأمس.. إن علم القراءات وفنونها التي جاد بها الزمن، قد جعلت الإحساس بأعماق الجرس الموسيقي لآيات القرآن أكثر نفاذا

وتأثيرا وعراضة مما كان متاحا للناس من مئات السنين.. وما يكشفه العلم كل يوم يزيد رؤية وإدراك الناس لحكمة وصدق وإعجاز ما ورد بالقرآن الذى تنزل على رسول الإسلام عليه السلام من أربعة عشر قرنا.. ثم إن عطاء القرآن قد مكن الفاهمين المجددين أن يجدوا فى أحكامه وفى الاستنباطات الصحيحة منها ما يصلح لمواكبة وملاحقة وعلاج كل ما تلقى به العصور اللاحقة من مستجدات أو مستحدثات أو مشاكل وأقضية!.

النبوة المحمدية هى إذن نبوة هداية للعقل والضمير، وليست نبوة استطلاع وتنجيم، ولا هى نبوة عرافة أو عيافة أو كهانة، ولا هى نبوة شعر ولا جنون مقدس، لا هى نبوة قراءة للغيب وإنباء بآتيات الزمن القابل، ولا هى شطحات كذب وتضليل.. قد بلغ سوء الظن فى النبوات غابرا - فيما يقول العقاد - حد إطلاق وصف «أنبياء كذبة» على بعض الأنبياء فى العهدين القديم والجديد.. فنجد فى سفر أشعياء حديثا عن «النبى الكذاب» فيقول: «الشيخ المعتبر هو الرأس والنبى بالكذب هو الذئب»! (أشعياء ٩ - ١٥).. وفى إنجيل متى: «ويقوم أنبياء كذبة كثيرون، ويضلون كثيرين»! (متى ٢٤ - ١١)، وفى إنجيل لوقا: «لأنه هكذا كان يفعل آبائهم بالأنبياء الكذبة» (لوقا ٦ : ٢٦)، ويصف يوحنا فى رؤيته خروج الأرواح النجسة من فم «النبى الكذاب».

لقد أتت شبهة المعجزة سهلة ميسورة إلى رسول القرآن، مهياة للاقتناص والاستغلال لمن يريد الكذب بها على الناس، يوم أن كسفت الشمس أثناء دفن إبراهيم ابن النبى عليه السلام، فتصايح الناس أنها آية من آيات الله للنبى المصطفى عليه السلام ونجلاه، بيد أن رسول القرآن رفض هذه الفرصة التى يتحينها الكذابون أو طلاب الدنيا والخداع والمنافع، ولم يشأ عليه السلام أن يترك الناس فى ظنهم الذى يضيف إليه فى نظرهم فضلا وآية، فطفق ينبههم ويحذرهم من هذا الفهم الخاطئ الذى سارعوا إليه، ويقول لهم: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد أو لحياته!.

قد روت الأخبار المأثورة كثيرا من المعجزات والخوارق التى صاحبت مولد محمد ﷺ وطفولته، ولكن محمدا عليه السلام لم يذكر هذه المعجزات، ولا أثر عنه أنه كان معنيا بأى إشارة إلى أى معجزة من المعجزات المتصلة بشخصه أو برسالته، بل كان حفيا بالقرآن

يوصى الناس جميعا به، بل ويخشى عليهم من كتابة السنة مخافة أن تختلط بكتاب الله المبين، فيقول لهم: «لا تكتبوا عنى غير القرآن، وحدثوا عنى ولا حرج، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»!

نبوة القرآن نبوة فهم وهداية للعقل والضمير، بالنظر والتأمل والتفكير.. لم تتوسل النبوة القرآنية فى هدايتها للعقل والضمير بالاعتماد على خوارق المعجزات الحسية، بل عنيت بصرف الناس عن التعلق بها والتنبيه إلى احتمالات تعطيلها للملكة العقل فى استقبال هداية الله.. عن نفسه يسارع نبي القرآن فيقول للمؤمنين إنه ليس إلا بشرا رسولا: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (الإسراء ٩٣).. ويقول لهم من قول ربه تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآلَيْنَا سُودَ النَّاقَةِ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (الإسراء ٥٩).. يعلمهم عليه السلام أن المعجزة لا تنفع من لا ينفعه عقله، ولا تقنع المكابر المبطل إذا أصر على العناد واللجاجة فى باطله.. فيتلو عليهم مما تنزل عليه: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (الحجر ١٤).. ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (يونس ٢٠).

فى النبوة المحمدية، فضلا عن عنايتها الجمّة بجانب الروح والنفس، اعتراف جاد بالعالم المادى الظاهر، وأنه واقع ضرورى لا يجوز تجاهله وليس منه مفر لأى حى أو غير حى، لأن الحى وغير الحى جزء موجود من العالم المادى لا محالة.

وفى النبوة إيمان فطرى بأن ذلك العالم بما فيه من أحياء، محكوم بحكمة خالصة. وفى هذه النبوة إيمان فطرى بأن الفارق الجوهرى بين الآدمى وبين غيره، أن الآدمى مسئول أمام خالقه عن الإفساد والفساد الذى يقع بقصد أو بغير قصد أو باختيار الآدمى، فهو الوحيد - أى الإنسان - الكائن المكلف المسئول عما يفعل وعما يدع وعما يحسن وعما يسيء.

وحياة نبي القرآن - عليه الصلاة والسلام - يميزها عن حياة غيره، كونها مركزة على هذه المسئولية بدعوة داخلية قاهرة ملازمة، لا يستطيع أن يهرب النّبي من «صوتها» فى نهار أو ليل فى أى مكان أو زمان.

وهذه الدعوة القاهرة ملحة، جعلت ممارسات النبي عليه السلام لحياته، في السر والعلن، خالية من طابع الاستغراق والاستئثار والرغبة الشخصية في الاستزادة، هذا الاستئثار الذي يطبع النفس عند آدمي عادة، ولكنك لا تجده إطلاقاً في ممارسة النبي، فممارساته عليه السلام وإن كانت بلا أدنى شك طبيعية واختيارية وليس فيها ما هو غير آدمي، لكنها كانت خالية دائماً من أى طابع للاستغراق أو الاستئثار أو الرغبة الشخصية في الاستزادة، بدا ذا نتائج عملية ظلت مصاحبة وجليّة في النبوة المحمدية..منها انقطاع صلته عليه السلام بالتملك الشخصي انقطاعاً يكاد يكون كلياً، فلم يملك ﷺ مالا يحسده عليه أحد، أو يطمع فيه أحد من الآدميين.

ومن هذه النتائج أو الآيات، انقطاع صلته بالتترف والأبهة والفخامة التي تقوم مقام التملك أو التمول.

ومن هذه الآيات خلوصه من كل دواعي الشره ودواعي البطر والتنعم والتترف، ومنها أنه عليه السلام، وهو أهمها، قد عاش حياته بالغ التواضع، راعياً للمظلوم واليتيم، زاماً مجافياً للكبر والخيلاء، راعياً للمحتاج، باراً بالضعفاء والمساكين، محسناً للفقراء مضيفاً لهم حانياً عليهم، لقد ملك عليه السلام قلوب الضعفاء والفقراء والمحرومين والمستعبدين.. ملك قلوبهم إلى أبد الأبد.



لقد حدد القرآن المجيد معنى كلمة «النبوة»، فأوضح أن النبي هو مبعوث الله ومصفاه لينقل للناس - بلا زيادة ولا نقصان - ما أوحى إليه ربه وأمره بتبليغه.. النبي ليس بساحر، وما كان للسحر أن يفلح أو تنهض عليه دعوة تنقل عن السماء.. ﴿وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ (طه ٦٩).

وليس قول النبي أو ما ينقله عن ربه بقول شاعر.. ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ (الحاقة ٤١).. ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (يس ٦٩).

وليست النبوة ضربا من ضروب الكهانة، ولا النبي كاهن يتعاطى الكهانة ويلقيها إلى الناس : ﴿ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ ﴾ (١٢) ﴿ (الحاقة ٤٢) .. ﴾ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿ (١٩) ﴾ (الطور ٢٩).

وليست النبوة ضربا من الجذب أو الجنون المقدس .. ﴿ تَوَّالْفَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (١) ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ (٢) ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ (٣) ﴿ وَإِنَّكَ لَمَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٤) ﴿ (القلم ١-٤) ﴾

عن هذه النبوة يورد القرآن المجيد في سورة الحاقة : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ (١٠) ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ (١١) ﴿ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ ﴾ (١٢) ﴿ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٣) ﴿ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ ﴾ (١٤) ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ (١٥) ﴿ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ (١٦) ﴿ فَمَا يَسْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ (١٧) ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٨) ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴾ (١٩) ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٠) ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ (٢١) ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (٢٢) ﴿ (الحاقة ٤٠ - ٥٢) .

عقيدة النبوة في القرآن المجيد هي بهذا الصفاء والوضوح، لا تختلط بشعر ولا بسحر ولا باستطلاع ولا بتنجيم ولا بكهانة ولا بعرافة .. هي تبليغ عن الله تعالى الخالق الواجد الماجد، لا يدعى رسول القرآن العلم بالغيب أو الإخبار بآتيات الأيام .. يقول للناس من قول ربه : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ (٣٦) ﴿ (الأنعام ٥٩) .. ﴾ وَيَتْلُو عَلَيْهِمْ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْظُرُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ مَنْ أَلْمُنِظِرِينَ ﴾ (٢٠) ﴿ (يونس ٢٠) .. ﴾ وَيَقُولُ لَهُمْ : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا أَنْتِجُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٥٠) ﴿ (الأنعام ٥٠) .

حامل الرسالة بشر رسول، أدبه ربه فأحسن تأديبه، وأمله بأدبه هذا العظيم لحمل رسالة الإسلام إلى الناس كافة .. هاديا، وبشيرا، ونذيرا ..

- ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (١١) ﴿ (النحل ٤٤) ﴾
- ﴿ بَيِّنَاتٍ لِّلنَّبِيِّ إِنْ أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (١٥) ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (١٦) ﴿ (الأحزاب ٤٥ ، ٤٦) ﴾

- ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (٢٨) ﴿(الفتح ٢٨)﴾
- ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢) ﴿(الشورى ٥٢)﴾
- ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (٦٧) ﴿(المائدة ٦٧)﴾

هذه هي النبوة المحمدية، نبوة تبليغ وهداية، التأمت مع العقيدة الإلهية في منظومة كاملة متكاملة تهدي الإنسان حيث كان إلى ما شاء الله.



بين الإلهام والوحي



كلمة «الإلهام»، كلمة تتردد كثيرا على ألسنتنا، ترددا قد لا يتوقف متأملا واعيا لعناها، وقد نطيل الحديث عن «الإلهام» دون أن نحاول معرفة شئ من واقعه معرفة جادة وربما اتفق معظمنا بصورة غير واضحة على أن الإلهام فكرة طارئة تطرأ فجأة على البال عندى أو عندك ولم يكن إنتظارها متوقعا بل ربما لم يكن طروؤها متصور الإمكان، فإذا بهذه الفكرة الطارئة بالإلهام فكرة منتجة إنتاجا حقيقيا استطعنا بها أن نتفادى حدثا ضارا أو مؤذيا، أو نقبل على عمل أو خطوة ناجحة، أو نمتلك مفاتيح مشكلة باتت عويصة أو أخرى يئسنا من استيجاد حل لها.

ونحن نكاد نتفق على أن إلهاما كهذا قليل الحدوث، لا يتكرر ولا يتتابع بكثرة أو بانتظام لافى مواقيت وأزمنة إستقباله، ولا فى موضوعاته، ويعتبره كل منا مزية شخصية، وهبة ذاتية خصصنا بها بتوفيق من الله تعالى.

ولندرة «الإلهامات»، وتفاوت مجيئها زمانا ومكانا وموضوعا، وتغاير نصيب الأفراد منها، وقلة مشاهدتنا لها، لا ندخلها فى أعداد المواهب الممنوحة لبعضنا دون أغلبيتنا مثلما نفعل بالنسبة للمواهب التى تلفت نظر المتابع بظهورها الواضح المبكر غالبا وبنموها المتدرج، سواء كانت الموهبة قدرة غير مألوفة على الإستيعاب مثلا أو الحفظ والتذكر، أو ذكاء متقدما غير عادى، أو قوة بدنية خارقة، أو فصاحة نادرة فى الأداء، أو اقتدارا عجيبا على إقناع المتلقى أيا كان، أو كانت الموهبة تفوقا غير معتاد فى البحث والتدقيق فى الاختيار والتجربة، أو عبقرية فى التصميم والتصور والتخيل، أو إدراكا فذا لكل ماهو جوهرى وحشده وإبرازه بقوة مع تحاشى التشويش عليه بالرخيص المظهرى، أو كانت الموهبة براعة فطرية فائقة فى الغناء أو الرقص أو التلحين أو التمثيل أو الإخراج أو التصوير أو الرسم أو النحت أو أى فن من الفنون.

ثم ان يقظة الآدمى لموهبة ظهرت أو ظننها ظهرت لديه دائما يصحبها - كالسيل العرم - شعور متدفق بالإنشء والرضاء الذى لا يوصف عن الذات وتميزها الواضح على الغير،

مع العُجب الداخلي الغير محدود. ذلك لأن ارتباط شعور آدمي بموهبته بشعوره بذاته وإعزازه وإعتزازه به وبها هو ارتباط لاينفصم ومحال أن ينفصم إلى آخر لحظة من وعيه على هذه الأرض. فالموهب دائما ذاتية بالنسبة لأصحابها، أكياسا كانوا أو لم يكونوا، ولكنها غيرية بالنسبة للآخرين.

وهذا الفارق النفعي والنفسي الهائل بين الموهبة كقيمة مملوكة لصاحبها وذات صاحبها في المجتمع. وبين الإلهام، ذلك الإلهام العرضي الوقتي المجرد من تلك القيمة والذي سنده الغيب دائما وأبدا والذي لا يملكه ولا يسيطر على استحضاره من يصادفه ولا يملك الانتفاع به مثلما وكما ينتفع كل آدمي بمواهبه .. هذا الفارق هو الذي أبقي - فيما يبدو - «الإلهام» في أسرارهِ وعلياته بعيدا عن التلوث الذي يمكن أن يصيب «المواهب» البشرية بالأنانية والأثرة والحسد والحقد.

الموهبة عنصر من عناصر قيمة الموهوب، وهي بذلك رصيد لذاته يترجم إلى رصيد منظور وإلى مكاسب وأرباح أدبية ومادية أيضا، إلا أنك لن تجد آدميا يتجر بإلهامه المزعوم إلا الساحر والمنجم.. فأى منهما لا يبالى فى سعيه لتلك التجارة باستغلال بساطة وسذاجة وإضطرار وتهافت المستعین بالسحر والتنجيم إلى أقصى ما يمكنه.. أما غير هؤلاء الساقطين من البشر، فلا يجسرون على المجازفة بتحدى الغيب للكسب الشخصى المادى.

وقد ترى الساحر والمنجم يتدثر بدثار «الأولياء» للخداع واجتذاب الجمهور إلى الاعتقاد فى صدق حيله ودعاواه سترًا لاستغلاله إياه، وإبعادا لنفسه عن طائلة القانون وسلطات الأمن، فاحتراف الإلهام الغيبى العلوى مستحيل غاية الاستحالة لدى المستقيمين الأشراف، وقد يبدد الواحد منهم ثروته أو ثروة أهله وذويه فى إقناع من حوله بصدق ما صدقه هو من الإلهام مع إقراره بأنه لا سلطان له عليه ولا يعرف متى يجئ ومتى ينقطع وبموته حين يموت بلا مال فى أسماه.. مخلقا أهلا ضعافا بلا تركة يقاتون بها أو منها، مستسلما للمصير الذى ارتضاه له مصدر إلهامه تبارك وتعالى !.

هذا النوع، لايفارقه إصراره حتى نهاية عمره على تلك الخدمة المطردة المستمرة منظور إليها كوحدة مترابطة موجهة لخدمة الناس سرا وعلانية دون أى مغنم ولا غرض ولا مطمع فى أى مقابل دنيوى مادى أو معنوى، بل ومع الالتزام الشخصى بمعونة المستجيبين المقتنعين غير القادرين على قوت يومهم، وهو موقف نادر بالغ الندرة فيما نعرف من تاريخ البشرية.

ما من أحد يجزؤ فى زماننا، ولا فى آتى الزمان، على أن يقول باسم العلم إن الإلهام بالغيب مستحيل، لأنه إذا جزم باستحالته، وجب عليه قبل ذلك - فيما يقول العقاد - أن يجزم بأمور كثيرة لا يستطيع عالم أن يقرها معتمدا على حجة أو سند قويم.. يجب على العالم الذى يدعى أو يجزم باستحالة الإلهام بالغيب، أن يقرر لنا أنه عرف حقيقة الزمن ومن ثم حقيقة المستقبل، فماهى حقيقة الزمن؟.. هل هو موجود فى الماضى والحاضر والمستقبل أو هو يوجد لحظة واحدة ثم يزول؟.. وماهى هذه اللحظة الواحدة؟ وما مدى إحاطتها بالبعيد والقريب فى الأمكنة الشاسعة فى هذه الأكوان اللامتناهية؟ وهل المستقبل موجود الآن أو هو «عدم» يوجد لحظة بعد لحظة؟ وكيف يوجد عدم بعد أن لم يكن له وجود؟.

هذه التساؤلات العميقة التى يطرحها العقاد، يطرحها لينتهى منها إلى أن العالم الذى يجزم فى قول من هذه الأقوال باسم العلم إنما يدعى على العلم كذبا وينم على عقل ضيق لا يصلح للنظر فى هذه الآفاق.. فإذا كان ذلك، وكنا لا ننفى ومحال أن ننفى وجود المستقبل فهو يصير فى الغد وبعد الغد واقعا حقيقيا مجسدا ماثلا أمامنا، صار واضحا أن «الغيب» لا إستحالة فيه ولا يدخل العلم به عن طريق الإلهام فى باب الممنوعات أو غير المعقولات الأنبياء والرسل، قمة القمم فى تلقى الوحي والإلهام، ينفردون بذلك الوحي الإلهى عن باقى البشر، وينفردون أيضا بقيامهم بأعباء النبوة والرسالة الإلهية، يعانون فى حملها وأدائها مشقة هائلة، لا يبتغون فى بذلها فضلا ولا عوضا، لا يملكون ولا يعينهم أن يملكو شيئا.. كلهم بما لديهم لله تبارك وتعالى.. الأنبياء والرسل ينفردون دون باقى خلق

الله للقيام بهذه الرسالة العظمى عن الناس جميعا.. يصدر عن إحساس عميق، وعقيدة، بأنهم مدينون للناس جميعا وليسوا دائنين لهم أو لأى منهم.. هذا الموقف الكلى يجب الوقوف فى جلال وتأمل إليه وفهمه فى كليته.. إذ يستحيل تجزئته لأن حقيقته الأساسية تختفى وتضيع فى محاولة تجزئته إلى عناصر منفصلة، فهم هذا الموقف الكلى المتوحد والموحد الموحد يقتضى المحافظة على وحدته والإحساس بوجوده تاما، إذ بغير ذلك تفلت أو يمكن أن تفلت منا حقيقة الرسالة أو النبوة.

الناس قد يصرفها عن جوهر وروح الرسالة والنبوة، انحصارها فى الجدل حول المقولات والآراء والأصول والعبارات الفقهية، وما إلى ذلك من المصطلحات التى يجرى بها التناول أو المعالجة فى المسائل الدينية أعنى بذلك المعالجة السطحية التى لا تتجاوز السطح أو القشرة، ولا تنساب إلى الأعماق أبدا.

الوقوف عند السطح، وعدم تجاوزه إلى ما تحته وتحت القشرة، لم يكن ذنب العقيدة، أو لأن العقيدة ليس لها أصل عميق بل لأن عمقها كائن كامن فى وحدتها ووحدة موقفها وموقف النبى أو الرسول من الحياة والأحياء والكون وخالق الكون والماضى والحاضر والمستقبل.. بدون هذا الإحساس العميق بهذه الوحدة الشاملة يصبح النظر لأى عنصر من عناصر الملة أو الدين نظرا ناقصا يتوقف عند السطح والقشور ولا يغوص إلى الجوهر والأعماق.

والنبوة المحمدية هى المثل الأعلى للنبوات والرسالات فى ذوبان وتوارى الذات التصاقا بالمعنى الكلى والولاء لله وحده لاسواه.. نبي الإسلام جاء مجددا ومكملا للرسالات السابقة لأن رسالته هى رسالة الله.. ماكان للنبى محمد أن يكرم هذا التكريم مسبقه من نبوات ورسالات، ولا أن يعظم ويجل ويعلى قدر هؤلاء الأنبياء والرسل، مالم تكن الذات المحمدية قد ذابت وتوارت فى المعنى الكلى للرسالة الإلهية التى حملها إلى الناس كافة، منكرا ذاته، غير ملتفت إليها ولا حفى بها ولا منحاز لها.. لايهمه أن ينسب فضلا ولا مجدا لنفسه، وإنما هو برسالته عليه الصلاة والسلام لله، ناقلا فيها عن

الله وعما أوحى به إليه ربه، ساعيا إلى إيمان الناس بالله، والإلتزام بدينه وشريعته.. لا يطلب من الدنيا صيتا ولا مكانة ولا مجدا ولا مغنما، ولا يسعى لثراء ولا غنى، بل ولا يهيمه أن يمتلك من الدنيا غاليا أو رخيصا، ثمينا أو بخسا.. «يا» الملكية ملغاة لديه، يقول ولا يفتأ يقول «نحن الأنبياء لا نورث، وما تركناه صدقة».. يقول لأبى ذر الغفارى وهو يشير إلى جبل أحد «ما أحب أن أحدا ذاك عندى ذهب، أسى ثالثة عندى منه دينار إلا دينارا أرصده لدينى، إلا أن أقول به فى عباد الله هكذا.. هكذا».. وأخذ عليه السلام يحثو بين يديه ثم عن يمينه ثم عن شماله، ثم يقول لصاحبه: إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من أعطاه الله خيرا ففتح فيه يمينه وشماله بين يديه ووراءه وعمل فيه خيرا».. ذوبان والتصاق وتوارى الذات المحمدية فى الله، والله.. واضح جلى فى أحاديثه، وفيما نقله إلى الناس من القرآن الذى أوحى به إليه ربه.. هو لا يعلم ولا يدعى أنه يعلم الغيب: ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ (يونس ٢٠) .. ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا تَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (الأنعام ٥٠) - هو محض رسول من الله إلى الناس، يحمل إليهم رسالته سبحانه.. تتوارى ذاته تواريا تاما أمام هذا الجوهر للرسالة.. ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ (هود ١٢٣) .. ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ (٦٩) (الأنعام ٥٩) .. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ نَقَلْتُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْتَلُونَكُمْ كَأَنَّكَ حَفِئْتُ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف ١٨٧) .. ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف ١٨٨) ..

هذا نبى رسول، ذابت وتوارت ذاته، وأقل عاش خارج ذاته.. ما من آدمى عادى إلا ويشعر بذاته شعورا لا يفارقه.. هذا الشعور هو من لوازم الإحساس بالحياة ذاتها.. وقليل من الناس من استطاعوا النفاذ من أسوار عالم الذات إلى خارجه.. الأنبياء والقديسون

هم فقط القادرون على الحياة خارج عالم الذات الذى يقع الآدميون العاديون صرعى فيه.. والنبوّة، هذه المتجلىّة بقوة فى الرسالة المحمدية، هى أوضح صور ونماذج القدرة على الخروج من عالم الذات إلى عالم «اللاذات».. لذلك فالنبوة ليست عملا إراديا يقدم عليه آدمى فيختار أو يقرر لنفسه أن يكون نبيا.. أو يبغى من هذه النبوة مكانة أو مجدا.. النبوة «اصطفاء» إلهى.. هذا الإصطفاء فرض يأتى المصطفى للنبوة قوامه المدد والوحي والإلهام الإلهى.. لذلك فإنه سفسة ولغو اتهام النبوات بالسحر أو بالعرافة أو الكهانة، فذلك إتهام تكرر فى تاريخ البشرية، وتكرر فشله وإخفاقه، لأنه يتجاهل الشعور الملازم للنبوة بالإضطرار والخضوع والتسليم للإصطفاء والاستسلام الداخلى التام له، فالنبوة ليست رغبة إرادية فى نول المكانة أو المجد أو الصيت أو المال حتى يحتال صاحبها بالسحر أو العرافة أو الكهانة، وإنما هى اصطفاء إلهى وفرض وخضوع وتسليم.. هذا «التسليم» ينطوى من النبى والرسول، مثلما تجلى فى النبوة المحمدية، على خضوع الإرادة الذاتية خضوعا تلقائيا لذلك الغيب وحده وبلا شريك، هذا الشعور اللازم والملازم للنبوة فصل كذلك بينها وبين التصوف والتنسك، وبين كل محاولة لطلب أو بناء القداسة بالتدريب أو عن طريق التدريب، فشتان بين حيل السحرة والعرافين والمنجمين والكهان أو من يصطنعون الكرامة، وبين النبوة التى يصطفى الله لها من يشاء حيث شاء!.

تأمل معى دعاء رسول القرآن لترى كيف تمثلت كل هذه المعانى فيه وفى نبوته ورسالته.. كان من أفضل أدعياته: «اللهم اجعلنى فى عين نفسك صغيرا».. هذا دعاء إلى الله يتجه اتجاهها مباشرا إلى طلب توارى الذات تواريا تاما أمام الله.

إنعدام الالتفات للذات، والالتصاق بالمعنى الكلى، والولاء التام لله، واضح ظاهر جلى فى مسارعة رسول القرآن إلى نفى أن حقائق وآيات الكون سخرت له أو لخاطره أو لمواساته.. العراف والمنجم والكاهن يسارع إلى التقاط أى مصادفة من فعل المقادير ليعطيها مدلولات يردها بها إلى ذاته المعنى بها المنصرف إليها.. أتت هذه المصادفة ساعية واضحة جلية ويسيرة الاقتناص والاغتنام لردها إلى المجد الشخصى أو الذاتى، عندما

تصادف أن كسفت الشمس يوم مات إبراهيم بن المصطفى ﷺ وقال الناس إنها كسفت لموته، بيد أن محمدا يأبى على الناس ذلك، ولا يمهلهم - رغم حزنه - أن يسترسلوا في ظنهم هذا الذي يحقق له المزيد من المجد والمكانة، وإنما يرددهم لفوره عن ظنهم قائلا لهم: «إنما الشمس والقمر آيتان من آيات الله ولا تكسفان لموت أحد».

ليس في النبوة المحمدية سحر ولا كهانة، ولا هي شعر يزخرفه قائلة: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ۝﴾ (الحاقة ٤٢) ..

الولاء المحمدي للوحي، ولاء مطلق، وخضوع تام وتسليم.. وذوبان في المعنى الكلي ذوبانا تنمحي أمامه تماما أى عناية أو احتفال بالذات.. الولاء المحمدي لا يعنيه شخصه ولا أن يتجمل أمام الناس، فلا يحجب عنهم حتى عتاب القرآن له.. لا يلتفت في هذا الخضوع التام للوحي الذى يأتيه إلى ذاته أو ماعساها تحبه أو ترضاه أو تكرهه أو ترجو خفاءه عن الناس.. لا وليس يعنيهها - فى هذا الخضوع الكامل والولاء التام للوحي الإلهي - بماذا تظهر أولا تظهر أمام أو فى عيون الناس.. نَظَرَ الناس، مسلمهم وكافرهم، فوجدوا وشاهدوا وسمعوا محمدا يخرج إليهم بما أوحاه إليه ربه من عتاب فى قصة الأعمى.. يتلو عليهم فى خضوع وتسليم كلمات ربه: ﴿عَسَىٰ وَنُوَ ۝ أَنْ مَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّهُ بَزَكٌ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَن ت لَهُ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكُ ۝ وَآمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَن ت عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝﴾ (عبس ١-١٠) .. يخرج يومها يتلمس ابن أم مكتوم ليحنو عليه ويتفرق به ويسترضيه، ولا يلقاه بعد ذلك إلا مرحبا به يقول له: «مرحبا بمن عاتبني فيه ربي».

هذا الذوبان فى المعنى الكلى والالتصاق به والخضوع التام والولاء المطلق للوحي الإلهي، تراه حين يخرج رسول القرآن إلى الناس بكلمات ربه التى ظهرت رأى عمر وعاتبت فى أسرى بدر: ﴿مَا كَانَتْ لِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يَخْرُجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝﴾ (الأنفال ٦٧) .. بل ما بال هذه الذات تختفى تماما وتتوارى فلا تضيق ولا تتملل ولا تتردد فى أن تبادر إلى الناس بكلمات

الوحى الإلهى الذى أتى معلما ومعاتبا يقول: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُكَ خَلِيلًا ۝٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ تُبَشِّرَكَ لَقَدْ كُنْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذَا لَا أَذَقْنَكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾ (الإسراء ٧٣ - ٧٥) .. لم ينحصر توارى الذات فى الذات المحمدية، بل امتد إلى بيته وأسرته وقبيلته.. «لا فضل لعربى ولا لقرشى على عجمى».. «يا فاطمة، اعملى، فإننى لن أغنى عنك عند الله شيئا.. يا آل محمد، اعملوا فإنى لن أغنى عنكم عند الله شيئا».

هذه نبوة لله، أداء لرسالة الله.. لا يعينها سوى هذا الولاء المطلق للوحى الإلهى، والذوبان التام الخاضع للمعنى الكلى، وصدق الوفاء به وتبليغه للناس، ليست رسالة زعامة، ولا مكانة، ولاهى مقصورة على إقليم من أقاليم الأرض، ولا على أمة من أممها.. ولاهى قد تغيت مجد أو منفعة قبيلة، ولا منفعة أمة بعينها.. هى رسالة إلهية حملها محمد المصطفى ﷺ، قوامها ان الله حق وهدى، وأن الإيمان به سبحانه مطلوب لأنه حق وهدى، أداها عليه الصلاة والسلام صدوعا وتنفيذا للوحى الإلهى الذى اتصل به مدده حتى وافى ربه جل وعلا.



معاذة السنة للقرآن



القرآن الكريم هو معجزة الإسلام الكبرى.. وحجة رسوله عليه الصلاة والسلام إلى البشرية، ودستور المسلمين كافة في كل شئون دينهم ودنياهم.. معجز في فصاحة ألفاظه، وبلاغة عباراته، وقوة تأثيره.. ومعجز في نظمه البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وغيره.. ومعجز في إخباره بأحوال القرون السابقة.. وفي إخباره عن وقوع حوادث في المستقبل لا يتأتى العلم بها إلا لعلام الغيوب.. ومعجز فيما اشتمل عليه من حقائق الكون وأسراره.. وفي اتساق عباراته ومعانيه، وأحكامه ونظرياته ثم هو معجز في شريعته المحكمة الجامعة التي اشتمل عليها.

وشريعة القرآن الكريم معجزة لكل الناس.. في كل مكان.. وفي كل جيل.. وهي أقوى وجوه القرآن إعجازاً.. لأن إعجازها يفهمه العربي وغير العربي.. ويدركه من يعرف لسان القرآن، ومن لا يعرفه..

وهذه الشريعة القرآنية هي دستور المسلمين الجامع في كل شئون دينهم ودنياهم.. في العقائد، والعبادات، والأحوال الشخصية، والمعاملات، والعقوبات، والشئون الدولية.. ليس من شيء إلا وفي القرآن الكريم بيانه..

يقول جل شأنه: ﴿مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨)

ويخاطب سبحانه وتعالى رسوله الأمين فيقول له: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ

شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩)

○○○

والشريعة القرآنية بأحكامها.. وشمولها.. وإعجازها.. في حاجة إلى رسول يبلغها إلى الناس كافة.. وقد كان المصطفى عليه الصلاة والسلام هو رسول الله الذي اصطفاه من دون الخلق أجمعين للقيام على هذه المهمة الجليلة.. هو الذي حمل إليهم الهدى والنور والحق..

ودعاهم إلى الإيمان بالله الواحد الأحد.. الصمد الذى لا شريك له.. وقام بإرشادهم، وبيان الشريعة القرآنية لهم..

وليس من شك أن دور المصطفى عليه الصلاة والسلام كان دورا لازما لا غناء عنه فى إبلاغ الدعوة وبيانها والهداية إليها.. فالدعوة.. فى حاجة إلى إبلاغ، وبيان.. والرسول هم الموكل إليهم ذلك من الله عز وجل.. فهم من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص.. وقد كانت البشرية فى حاجة إلى رسول يبلغها الدعوة الإسلامية، ويبين لها الآيات القرآنية الكريمة.. وهو بيان تبدو أهميته فى جانب من جوانبه فى أن معظم الأحكام التى شملها القرآن قد جاء كليا مجملا ليناسب شتى العصور، ويصلح لكل مكان.. وذلك من أسرار إعجازه.. ومن ثم كان لابد لهذه الأحكام العامة من تفصيل وتوضيح.. اصطفى الله تعالى نبيه محمدا للقيام به.. وجعل مهمته - بعد التبليغ - أن يبين للناس ما ورد فى القرآن الكريم، ويعلم المؤمنين أحكام دينهم الحنيف وأن يأمرهم باتباعه وطاعته..

يقول عز وجل :

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٤٤)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا حَدِيثًا وَمَا تَنْهَكُم عَنْهُ فَأَنْتَهُمْ ﴾ (الحشر: ٧)

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (النساء: ٥٩)

﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (النساء: ٨٠)

بل وجعل سبحانه من طاعة الرسول، والتسليم بقضائه وحكمه، شرطا للإيمان الصحيح، فيقول جل شأنه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٥)

قد قام محمد عليه الصلاة والسلام بمهمته الجليلة خير قيام.. أبلغ الدعوة بهمة وصدق وأمانة.. وذاق فى سبيل ذلك المشقة والعناء.. فلم تهن عزيمته أو يتزعزع إيمانه.. وهدى الناس إلى دين الحق.. دين الإسلام.. وبين لهم القرآن الكريم على خير ما يكون البيان..

شرح لهم معانيه، وفصل مجمله، وخصص مطلقه، فكان لهم في ذلك نعم القدوة ونعم المعلم بأقواله، وأفعاله، وتقريراته.. قوام السنة المحمدية الشريفة..

والسنة في الاصطلاح الشرعى هى ما صدر عن الرسول عليه الصلاة والسلام من قول، أو فعل، أو تقرير.. وهى - بأنواعها - والقرآن الكريم متعاضان أبداً على استيفاء الحق وإخراجه من مدارج الحكمة.. وعلى بيان الشريعة الإسلامية الغراء..

السنة القولية.. ومنها تتكون معظم السنة المحمدية.. تضم أحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام التى قالها فى مختلف المناسبات والأغراض.. منها قوله عليه السلام: «لا ضرر ولا ضرار»، وقوله: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته».

والسنة الفعلية هى أفعاله عليه الصلاة والسلام.. مثل أدائه الصلاة بهيئاتها وأركانها، وأدائه مناسك الحج، وما شابه ذلك.. وقد كان عليه الصلوات يوصى المسلمين باتباع هذه السنة الفعلية، ومن أحاديثه التى اشتملت على مثل هذه التوجيهات النبوية: «صلوا كما رأيتمونى أصلى».. «خذوا عنى مناسككم»..

أما السنة التقريرية، فهى ما أقره الرسول عليه الصلاة والسلام مما صدر عن بعض أصحابه عليهم الرضوان من أقوال أو أفعال.. سواء بسكوته وعدم إنكاره لها، أو بموافقته عليها وإظهاره استحسانه.. فتستمد من ذلك قوة، وتعتبر بهذا الإقرار، الضمنى أو الصريح، وكأنها صادرة عن النبى نفسه.. وأمثلتها هى الأخرى عديدة.. منها ما روى من إقراره عليه الصلاة والسلام لمن تيمم من الصحابة للصلاة إذا لم يجدوا الماء ثم وجدوه بعد ذلك.. ومنها أيضاً إقراره للإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى الكثير من أفضيته..



والسنة المحمدية بأقسامها الثلاثة.. القولية، والفعلية، والتقريرية.. حجة على المسلمين.. تعد مكملة للقرآن الكريم، ومعزدة له.. ومصدرا من مصادر التشريع الإسلامى بعد الكتاب العزيز مباشرة.. وهى تكتسب هذه الحجية ما دام مقصودا بها التشريع والاقتداء، ونقلت إلينا بسند صحيح يفيد القطع، أو الظن الراجح بصدقه.. فلا يعد من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ما كان يأتيه من تصرفات وأعمال عادية فى مجال حياته اليومية وأمور

معاشه، ما دام لم يقصد بها أن تكون تشريعا للمسلمين أو قدوة يحتذونها.. وحكمة ذلك أن المصطفى ﷺ بشر، ورسول.. وأن سنته الملزمة للمؤمنين بالدعوى الإسلامية إنما تقتصر على ما يصدر عنه بصفته الأخيرة.. أما تلك التي يكون مصدرها إنسانيته، ولم يصدر فيها عن نبوته التي عهد الله عز وجل إليه بها، فإنها لا تكون حجة ملزمة واجبة الاتباع..

وينبغي أيضا في مجال تحديد ما هو من أفعال المصطفى عليه الصلاة والسلام واجب الاتباع، وما ليس بذلك، ينبغي التفارقة بين الأعمال التي صدرت عنه ولها اتصال ببيان الشريعة الإسلامية، كصلاته وحجه، وصومه.. فإنها تكون شرعا ملزما، وبين أفعاله التي قام الدليل على أنها خاصة به وحده.. لا تتعداه إلى غيره..

وليس من شك أنه قد زاد من أهمية السنة المحمدية أن المصطفى عليه الصلاة والسلام أجاب على مدى ثلاث وعشرين سنة على عدد لا يحصى من أسئلة صحابته وغيرهم ممن أخذوا الدين عنه، وآمنوا برسالته.. تارة بما يلهمه الله تعالى به، وتارة بما يؤديه إليه اجتهاده الفطري.. وإن هذه الإجابات المتنوعة في موضوعاتها المحكمة الجامعة في مبادئها النبوية الرشيدة، قد صارت مصدرا خصبا ومفيدا لفهم الإسلام.. ليس فقط في مبادئه وأصوله، وإنما أيضا في شتى فروعه التي تتصل بحياة الناس، وعلاقاتهم، وأمور دينهم.. ودنياهم..

وإذا كانت السنة المحمدية لها هذه المكانة والأهمية التي اكتسبتها بقيمتها الذاتية.. فإن البراهين الأخرى على حجيتها ولزوم اتباعها، ما دام مقصودا بها التشريع والاقتداء، عديدة وقاطعة.. أولها هذه الآيات البينات التي عرضناها، والتي يحثنا سبحانه وتعالى فيها ويأمرنا بطاعة الرسول والإيمان بنبوته.. وثانيها أن هذه السنة المحمدية ما هي في حقيقتها إلا تبليغ لرسالة أمره الله عز وجل بتبليغها.. وأنها من هذا المكن تستمد منزلة تالية للقرآن الكريم مباشرة.. ولذلك أجمع الصحابة عليهم الرضوان على وجوب اتباعها.. ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ (النجم: ٣ - ٤).

ثم إن هذه الحجية، وهذا الإلزام في مجال الاتباع، قاعدة بديهية تفرضها طبائع الأشياء.. ويقود إليها الفكر الصحيح.. الفرائض الأربع.. الصلاة والصوم والزكاة والحج..

قد جاءت في القرآن الكريم مجملة، لا تفصيل لأحكامها، ولا بيان لكيفية أدائها بكافة أركانها.. ولا مرجع يمكن أن يقود المسلم إلى كل ذلك إلا في سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام.. فهي التي تبين بأقسامها كيف تقام الصلاة وتؤتى الزكاة ويؤدى الصوم والحج.

○○○

والسنة المحمدية إذن وثيقة الصلة بالقرآن.. تكمله وتعاضده.. وهى فى علاقتها به أقسام وأنواع..
فهى من ناحية الاحتجاج بها فى المرتبة التالية له.. لأنه أصل التشريع ومصدره الأول..

وهى من ناحية ما ورد فيها من أحكام إما مقررة ومؤكدة حكما جاء فى القرآن.. كالأمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة.. وإما مفصلة ومفسرة ما جاء فيه مجملا.. أو مقيدة ما جاء فيه مطلقا.. أو مخصصة ما جاء فيه عاما.. وإما أن تكون السنة مثبتة ومنشئة لحكم سكت عنه القرآن.. كتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها قياسا على تحريم القرآن الجمع بين الأختين.

○○○

وعندما تكون السنة مقررة ومؤكدة.. فإنه يكون للحكم الذى تضمنته مصدران، وعليه دليان.. دليل مثبت فى آيات الكتاب المبين، ودليل مؤيد ومعضد من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام.. وأمثلة هذا النوع من أنواع السنة المعقدة عديدة: الأمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والنهى عن شهادة الزور.. وعن عقوق الوالدين.. وغير ذلك من الأوامر والنواهي التى دلت عليها الآيات القرآنية، وأيدتها سنن المصطفى عليه الصلاة والسلام..

فالصلاة.. أم العبادات.. فرضها الله سبحانه وتعالى بآيات كريمة فى كتاب مبين.. يقول جل شأنه: ﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٣)
﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (النساء: ١٠٣)

وتأكيدا لهذا الغرض، وتبيينا لأهميته، يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: «الصلاة عماد الدين.. من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين»

أما السنة المفصلة للمجمل، والمقيدة للمطلق، والمخصصة للعام.. فإنها في حقيقتها تبين وتوضح للمراد من الآيات الكريمة.. هذا التبيين الذي أوكله الله جل شأنه إلى صفيه محمد عليه الصلاة والسلام، بصريح نص الكتاب: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: ٤٤)

فالسنة مثلاً هي التي تفصل الأوامر القرآنية المجملة بشأن الصلاة والصوم والحج والزكاة.. وتبين كيفية أداء كل فرض من هذه الفروض..

ففي الصلاة.. يبدأ الرسول عليه الصلاة والسلام.. بعد أن رأيناه يؤكد على فرضيتها.. فيوصي المسلمين باتباع سنته الفعلية في أدائها.. ويقول في ذلك «صلوا كما رأيتموني أصلي».. من خلال سنته الفعلية عليه أفضل الصلوات عرف المسلمون عدد ركعات كل صلاة وكيفية أدائها، وإقامة شعائرها.. كما عرفوا أحكام صلاة المريض، والمسافر، وصلاة العيدين، والجنائز، وغير ذلك من أنواع الصلاة.. ومثل ذلك بالنسبة للحج.. والصوم.. والزكاة.. والأحكام التي شرعت بالسنة المثبتة والمنشئة مصدرها: إما إلهام الله سبحانه وتعالى لرسوله، وإما اجتهاده عليه الصلاة والسلام بعقله وفطرته.. ومن صورها تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها.. وتحريم الحمر الأهلية.. وكل ذى ناب من السباع، ومخلب من الطير.

وواقع الأمر أن كل هذه الأمثلة للأحكام التي وردت في السنة، لها أصل في القرآن الكريم.. ذلك أن اجتهاده عليه الصلاة والسلام أسسه القرآن، وما بثه في نفسه الحساسة الملهمة من روح التشريع ومبادئه.. وتشريعه عليه الصلاة والسلام للأحكام يستند إلى القياس على ما جاء في القرآن، أو إلى تطبيق أصوله ومبادئه العامة.. فتحريم الحمر الأهلية، وسباع البهائم، له أصل في القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

وما حرم المصطفى عليه الصلاة والسلام هذه الأشياء إلا لما فيها من خباثات. وقد كان لجلال السنة المحمدية ومنزلتها وأهميتها في معاضدة القرآن الكريم ومعاونته أن ظهرت الحاجة الماسة لدى المهتمين بالفقه الإسلامى وجمع الحديث وتدوينه، إلى وضع ضوابط.. دقيقة وصارمة.. للتأكد من صدق الحديث وصحة صدوره عن النبى.. خاصة وقد تأخر تدوين السنة تدوينا شاملا حتى القرن الثالث الهجرى.. وعنوا لذلك عناية جمة بفحص الرواة، وتمحيص ما ينقلونه عن المصطفى عليه السلام من أحاديث.. وبعد مجهود شاق قام عليه نفر من أفاضل العلماء، ثم فى القرن الثالث الهجرى جمع الأحاديث النبوية وتبويبها فى مجموعات ظفرت بالثقة.. منها ستة عرفت بكتب صحاح السنة هى صحيح البخارى، وصحيح مسلم، وسنن أبى داود، والنسائى، والترمذى، وابن ماجة.. ويستمد الحديث قوته فى الإسناد للنبى عليه الصلاة والسلام بالبحث فى قوة وتواتر السند المروى عنه، وفى هذا المجال يقسم الفقهاء الأحاديث النبوية إلى متصلة السند، وغير متصلة السند.. يضم النوع الأول المتواتر، والمشهور، وخبر الآحاد.. أما الثانى فيسميه بعض العلماء المرسل.. المتواتر هو الذى يرويه قوم لا يحصى عددهم ويؤمن تواطؤهم على الكذب.. حتى يصل السند إلى النبى ﷺ.. والأحاديث المشهورة هى التى يرويها عن النبى واحد أو اثنان أو نحو ذلك من الصحابة.. أو يرويها عن الصحابى واحد أو اثنان.. ثم تنتشر بعد ذلك فيرويها قوم يؤمن تواطؤهم على الكذب.. أما خبر الآحاد، فهو كل خبر يرويه الواحد أو الاثنان أو الأكثر عن الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا يتوافر فيه شرط المشهور.. وهو يفيد العلم الظنى الراجح، ولكنه لا يفيد العلم القطعى.. لأن الاتصال بالنبى فيه شبهة. والحديث غير متصل السند، أو المرسل حسبما يسميه بعض الفقهاء، هو الذى لا يتصل سنده بالرسول عليه الصلاة والسلام.. أو لا يذكر فيه التابعى اسم الصحابى الذى روى عنه.. وتختلف آراء الفقهاء فى درجة الاحتجاج به.. على تفصيل فى ذلك ليس موضع هذا المقال..

وإذا أردنا أن نتابع صور معاضدة السنة المحمدية الشريفة للقرآن الكريم لوجدنا أنها عديدة.. تناولت كل ما تناوله القرآن من أحكام وأغراض.. بالتأكيد والبيان والتفصيل.. فلم تدع أحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام ناحية من عقيدة أو تشريع إلا وأتت على توضيحه وتفصيله.. تراها تعاضد الكتاب المبين.. معجزة الإسلام ورسوله.. فى العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأحوال الشخصية، والأخلاق، والعقوبات، ونظم الحكم، والشئون والعلاقات الدولية..

وليس من شك أن هذه السنة النبوية كانت، ولا تزال، مصدر خصب ونماء للشريعة الإسلامية.. وباب بيان وتوضيح وتأكيد لأحكامها.. بها عرف الإنسان المسلم.. فى كل زمان، وفى كل مكان.. مركزه من خالقه.. ومركزه أمام الكون.. ومركزه بين خلائق هذا الكون جميعا.. وعرف أيضا القواعد التى تصح عليها حياته، وحياة البشرية جمعاء، وعلى سنة العدل والحق والمساواة..

وقد كانت هذه السنة المحمدية موضع تكريم من الله عز وجل.. أمر سبحانه وتعالى بالتزامها واتباع ما جاء بها.. ثم كانت من آخر ما أوصانا به المصطفى عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع.. وفيها يقول :

«وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، كتاب الله، وسنة نبيه»



السنة النبوية والشريعة الإسلامية



الإسلام ممتحن هذه الأيام بأبنائه، مثلما هو مبتلى بأعدائه.. وتصطرح حوله، تيارات شتى، بين داع ومتحفظ، ومقبل ومدبر، ومرحب ورافض، ومدافع ومهاجم.. وتلك فى ذاتها مظاهر.

صحة، وضريبة على كل «الدعوات» الكبرى فى كل زمان ومكان، بل هى كانت الضريبة التى احتملها الإسلام منذ كان.. فما إن انقضى زمن النبوة، وخلافة الشيخين، وشطر من خلافة عثمان، إلا وماجت الساحة بتيارات عديدة اصطرع وتقارع فيها عديد من المذاهب والفرق والأحزاب.. بين شيعة، وخوارج، ومشبهة، ومرجئة، وروافض، وجبرية، وجهمية، ومعزلة.. وغيرها.. وتفرع عن كل منها عشرات، بل ومئات من الفرق.. وتغلف كثير من الآراء والنظريات المتصارعة التى أُلقيت فى الساحة بأهداف السياسة - بتعبير العصر - ومراميها. وانطوى الدين القيم فى نبعه الصافى، وسط عوادم المعركة، إلا لدى نفر قليل من العلماء الذين أخلصوا لله والدين، وعكفوا على شريعته يحفظونها من شرر المعارك التى كان «الإسلام الحقيقى» آخر اهتماماتها لدى معظم أطرافها.. واستطاعوا وسط أشلاء القتال أن يصونوا للمسلمين شريعتهم، وأن يحفظوا لها مصادرها «النقلية» أو «النصية» من «قرآن» و«سنة» و«إجماع» و«فتاوى الصحابة».. وأن ينمو لها أيضا مصادرها «العقلية»، من «قياس»، و«مصالح مرسل» و«استحسان» و«استصحاب».. بل واستطاعوا أن يجنبوا الحضارة الإسلامية «الثنائية الحادة» التى تتميز فيها معانى «الوسطية» بين التطرف لأقصى النقيضين العقل أو النقل، الروح أو المادة، الدين أو الدنيا.. وتمكنوا - رغم أنصار تلك الثنائية الحادة - أن يحفظوا للإسلام «وسطيته» بمعنى: الموقف الحق بين باطلين، أو الصحيح بين خطأين. وأن يقيموا توازنابقى فيه للنص احترامه، وللعقل أيضا دوره.. آخذين فى الاعتبار أن النص هو فى النهاية تطبيق، وأن التطبيق لا يجرى إلا متوسدا لفهم واع صحيح، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالعقل والتفكير.. يساعدهم - هؤلاء النفر من العلماء

الذين حفظوا للشرع جوهره ونقاءه - فى عبور تلك الأزمة ، أن القوة الإسلامية كانت فى تلك الأيام فى بالغ أوجها ، وإن الحضارة الإسلامية كانت فى قمة رونقها وازدهارها.

إذن !

لم يكن ذلك ، فى أوانه ، شرا محضا ، بل ولم يخل من جانب المنفعة ، فقد كانت المقارعات والمناظرات ، مقدمة لنشأة «علم الكلام» عند المعتزلة ، وهو الإرهاصات الأولى للفلسفة الإسلامية .. فى الوقت الذى أمن «الإسلام» نفسه على أيدي هؤلاء العلماء الذين توافدوا عليه وعلى حفظه ، .. وانصرف نفر منهم إلى حفظ السنة ، المصدر الثانى للتشريع ، إلى جوار القرآن الذى جمع فى خلافة أبى بكر ووجدت مصاحفه فى خلافة عثمان عليهما الرضوان .. فجابوا الأقطار والأمصار يجمعون السنة وفتاوى الصحابة ، وبيحثون فيها ويدققون ، ويفرغون هذه المهمة العظمى فى كتب الصحاح الستة المعروفة : البخارى ، ومسلم ، وسنن أبى داود ، والنسائى ، والترمذى ، وابن ماجه .

إلا أن ما تموج به الساحة الإسلامية فى أواننا ، يختلف عما كان من عدة وجوه ، اختلافا يدعو إلى قلق حقيقى .. ليس مرجعه فقط إلى اختلاف ظروف القوة والحضارة الإسلامية ، بين زمان مضى كانتا فيه فى أوجهما ، ولا خوف من ثم عليهما ، وبين زمان - زمننا - تترنحان فيه ترنحا مخيفا يعوامل النحر الداخلية ، وبهجمات الخارج الشرسة ، وإنما مرجع الخوف أيضاً أن كثيرا من المتقارعين على الصعيدين ، هنا وهناك بغير استثناء . يفتقدون أدوات النظر والبحث والتأمل ، ناهيك بالقدرة على التفسير والاستخلاص واستنباط الأحكام .. صحيح أن الإسلام - وهو دين العقل - لا يصادر حق المسلم فى النظر والتفكير والتأمل والرأى ، بل ويرفض هذه المصادرة التى تجافى روحه ، وتخالف الأصول الإسلامية للدين الحنيف الذى رفض كل صور الكهانة ، ولم يجعل للمسلم أو على المسلم من سلطان غير سلطان العقل والنظر الصحيح والموعظة الحسنة ، وبدون اشتراط جواز مرور من سلطة دينية أو هيئة علمية .. بل وبلغ من احترامه لسلطان العقل أن قدمه على ظاهر الشرع عند التعارض وجعل الأرجحية لما دل عليه العقل إذا تعارض مع النقل .. إلا أن هذا

لا يعنى أن يجترئ على هذه المهمة من لا يملك أدواته، ولا يسيع لمن يجهل أبسط مبادئ اللغة، من بيان ونحو وصرف، فضلا عن الفقه والأصول، أن يتصدى للتفسير واعتساف الأحكام.. فليس كالإسلام دين يحث على توقير العلماء والرجوع إلى أهل الذكر «إن كنتم لا تعلمون»! ثم إن مرجع الخوف أيضا، اختلاط مفهوم «الدعوة» مع مفهوم «الحكومة»، بينما لم يعرف الإسلام قط، ما يسمى «بالحكومة الشيوعية» التي يزعم فيها الحاكم أنه ظل الله في الأرض، وأنه يستمد سلطانه من «الحق الإلهي» ويتوسل - بهذه التعللة - إلى استعباد الأمة التي حرص الإسلام على تبين أن الحاكم هو وكيلها ليس إلا، ولا يستمد شرعيته وسلطته إلا منها.. ثم مرجع الخوف، بل والكارثة أيضا، أن نفرا من الواقفين على الصعيد الآخر، تحت شعار التنوير والترشيد، يتحدثون من قاعدة غير إسلامية، وينكرون كثيرا من الأصول الإسلامية ويصورون الإسلام «حلة» أو «لباسا» يمكن تفصيله، وإعادة تفصيله وترقيعه، وفي كل شيء، بما يناسب في نظرهم كل زمان ومكان، بل وبما يتناسب - ربما!! - كل هوى ومأرب وغرض!! ويمعن آخرون في تصوير الإسلام «سيفا» يبطش، أو «قطعا» و «بترا» يتساءلون هل يقوم بهما الطبيب أم الجزار؟! ويتناسون، عامدين أو غافلين، أن للإسلام في كل ذلك نظرية كاملة متكاملة، تضع إلى جوار العقوبة، أسبابا عديدة وأصيلة للإباحة، وتجعل من «الضرورة» مبدأ عاما تباح به المحظورات. ومن «الشبهة» وبشتى أنواعها موجبا لدرء الحد.. ومن «العفو» فضيلة يندب المسلمون إليها.. ويخفى هؤلاء، وأولاء، عامدين أو غافلين، وجه الإسلام الحقيقي. وحكمة وسماحة شريعته، ورحمة رسالته التي كان حاملها ﷺ رحمة مهداة!!.

وأخطر المخاطر في كل ذلك الذي اختلط فيه الحابل بالنابل واقتحم الساحة متناظرا، أو متصارعا، العالم ونصف العالم والجاهل، والمؤمن والملاحد، والمخلص وغير المخلص الذي يحركه هواه، وتدفعه مآربه.. أخطر المخاطر أن الحوار، أو بالأحرى التراشق، قد بدأ ينزلق إلى الرجم بالتكفير على غير بيئة ولا دليل، وإلى العنف وسيلة للرد وهو أسلوب العجز والإفلاس.. وأن تتداعى تلك الترديات في أشد الأوقات خطرا على الأمة الإسلامية وعلى الإسلام من الخارج، وأن نسهم بشتاتنا وتمزقنا اللذين صنعناهما بأيدينا، في اختراق أرتال

الأعداء لصفوفنا وإعمال مبضعها فينا لمزيد من تمزيقنا وتفتيتنا وتفريقنا.. حتى لا يبقى على الساحة إلا اليوم تنعق، فتكتمل للمخطط - مخطط الخارج للضرب من الداخل - كل أهدافه وغاياته، وليسدل الستار من بعد، ويرين الظلام على أمة كانت، وحضارة مضت وبادت اندثرت!!..

لقد كان المتناظرون قديما. ورغم كل التحفظات والمحاذير. يملكون الأدوات فأفرزوا للحضارة الإسلامية التي كانت في أوجها إضافات، ثم كانت بدورها، وبقوتها في أمان من التحلل أو التعرض للانزهام!!..

ولكن المتناظرين أو المتراشقين اليوم، وعلى المزيد والمزيد من المحاذير والأخطار، لا يملكون الأدوات ولا يضيفون للفكر ولو ذرات، في وقت تتعرض فيه الأمة، ويتعرض الإسلام والمسلمون، لأفدح الأخطار!..

وأغرب الغرابة، أن يصرفنا هذا التراشق «النظري» بل ويصرف «التيار الديني» - وأكاد أقول كله - عن التصدي لأخطر مهامه في زماننا!! ويكفيني تمثيلا لا حصرا، محنة السموم البيضاء التي انتشرت في مصر، بل والمنطقة كالوباء، تأكل - كالجراد - الأخضر واليابس وتطحن شبابنا، عدة المستقبل، طحنا، وتورى بمستقبل قريب أسود، تفقد فيه الأمة الإسلامية كل عدة غدها وتصور إلى حتفها وإلى موت حقيقي لا حياة بعده!..

كيف يمكن للإسلام وهو في الأصل «دعوة» إصلاح للحياة والأحياء.. كيف يمكن أن يغضى حملة مشاعله عن «التوعية» و «الموعظة الحسنة» لمقاومة هذا الخطر الداهم الزاحف والأمثلة عديدة - لو اتسع المجال - وينصرفون إلى جدل عقيم، بينما مطارق الأعداء تقتحم الأبواب والجدران ولم يبق إلا أن تدهام الدور والحجرات، لتعمل في ضحاياها - فينا - مباضع التقتيل والتدمير بالأسلحة البيضاء والسوداء!!..



ما أردت أن أقوله إن الإسلام ممتحن هذه الأيام، وبامتحان عسير، وإن شر ما فيه، إزاء الاشتباك المحتدم، أن غبار المعارك والنوايا أيضا، يكاد يطمس الحقيقة، حتى بات إدراكها عسيرا حتى على كثير من المخلصين.. وحتى صار الطريق إليها - إلى الحقيقة -

مليئاً بالحفر والنجاد والوهاد، محفوفاً بالأهواء والمآرب، مغلفاً بأقنعة وأغراض شتى... وكاد يتوارى وسط هذا الخضم النظر الحيادي والاستقصاء المخلص الحر الذي يطلب الحقيقة ويلتمسها لذاتها، فضلاً عما يكتنف مهمة هؤلاء أصلاً من مصاعب النظر والبحث والفرز في تراث غلف بعضه - من قديم - عوادم ما أشرنا إليه من معارك، مما جعل من تنقيته مطلباً حيويًا.. ومع ذلك لم نكتف بما يصادف الباحث المخلص فيها وما يلاقه من عناء ومشقة، فأسهمنا بتراشقنا في تداخل الخطوط «والتشويش» حتى باتت المهمة بالغة بأصحابها العسر جميعه!!

إن تجلية وجه الإسلام الحقيقي مهمة كبرى تفرض نفسها هذه الأيام!

فكيف السبيل، وما الطريق؟!

إن الجارى على الساحة الآن، لا يطمس الحقيقة وكفى، بل يحول بين الباحث وبين الوصول في أمان إليها.. وهو هو ما يصدق بقدر أو بآخر على ما تلا فترة البعثة المحمدية وخلافة الراشدين.. فقد كان للحوادث وللأغراض أثر كبير على ما حملته إلينا كثير من كتب التراث، ولم يعد استقصاء حقيقة النوايا هو كل ما يواجه الباحث من مشاق في استخراج واستنباط الأحكام الأصولية من خضم التراث ثمينه وغثه، وإنما هناك أيضاً - بفرض استقامة المقاصد وبراءتها من التأثير بظروف العصر - هناك صعوبة التعرف على ما فرضه المبدأ المستمد من أصوله الأولية الإسلامية المجردة، أو بالأحرى المتجردة، ومادعت إليه ضرورات الحوادث من مسالك أو فتاوى أو آراء.. تعبيراً أو استجابة - آنذاك - لواقع قائم، تختلف الرؤية له باختلافه أو تغيره.. أو ما يعرف بالتعامل بين الثوابت والمتغيرات!.

والذى لاشك فيه، أننا في زمان غير ما مضى من أزمنة، وأن ظروف اليوم ومطالبه ومحاذيره أيضاً غير ظروف الأمس.. وأنه إذا كانت المتغيرات السابقة تركز إلى ظروف دعته، أو محاذير فرضتها، إلا أن الثوابت والأصول تبقى على الدوام الوسادة والركيزة الصالحة لتجلية الحقيقة فى كل عصر، ورغم كل ظرف، فتنبئني عليها - فى أمان عدم التنكب - ما تقتضيه ظروف الزمان، وما استجد من تفصيلات.

«الثوابت» إذن وسط هذا الخضم الهائل. المغلف -قديمه وحديثه - بأغراض ومآرب شتى، ينبغي أن تكون مطلب الباحث الآن، وفي كل آن، حتى لا يضل طريقه وسط الغيوم والضباب وغبار الصراع!.

أرجو أن يكون، قد وضع من هذه المقدمة التي لم يكن منها مناص، ولو بعض هدفى للوصول إلى ما أريد تجليته، وبدأت به حديثي عن مناسبة انعقاد مؤتمر السنة والسيرة النبويتين لأوانه!!!.

إن المصدرين الأساسيين للشريعة الإسلامية، هما :

(١) كتاب الله الحكيم..

(٢) وسنة رسوله الأمين..

ولست أريد أن أتوقف هنا، توقف علماء الأصول في بيان ترتيب الأدلة الشرعية التي يرجع إليها أو وسائل وأدوات استنباط الأحكام.. ولا أن أتوقف عند إعجاز القرآن رغم الإغراء.. ولا أن آخذ القارئ في رحلة مع حجية السنة - المصدر الثاني للتشريع - وأدلة حجيتها، ولا حتى عند قول الزاعمين بعدم حجيتها، فبطلان الزعم أوضح من أن يحتاج إلى رد.. ولا أن أشغله بأنواعها من سنة قولية، وفعلية، وتقريرية.. ولا أن أتوقف وإياه عند جهود المحدثين العظيمة في تقصيها وتدوينها وإسنادها، ولا أن أشغله «بالسند» وأقسامه.. من «متواتر» و «مشهور» وأخبار آحاد ومرسل، وحكم كل منها.. بل ولا أريد أن أتوقف عند «السنة» بتعبيرها الاصطلاحي المتعارف عليه من قديم، والذي يفرق بين ما قاله أو فعله أو أقره الرسول عليه الصلاة والسلام قاصداً به التشريع والاقتداء، وهو ما ينصرف إليه التعبير الاصطلاحي «المسنة» كمصدر ثانٍ للتشريع الإسلامي يلي القرآن، ويعاضده، وبين تصرفات الرسول عليه الصلاة والسلام وأعماله العادية في مجال حياته اليومية وأمور معاشه، والتي قر علماء الأصول والحديث على عدم انصراف التعبير الاصطلاحي إليها مادام لم يقصد بها أن تكون تشريعاً للمسلمين أو قدوة يحتذونها!!!.

ما أريده، هو أن أتوقف مع السيرة النبوية برمتها، أو بشقيها.. بالمعنى الاصطلاحي للسنة وغير الاصطلاحي أيضا.. أن أتكلم عن الرسالة المحمدية، بمعناها الشامل، وعن التطبيق النبوي للمفهوم الصحيح للإسلام من خلال السيرة النبوية برمتها.. إن أحدا لم يختلف حول منزلة السنة. بمعناها الاصطلاحي من القرآن وتكملتها ومعاضدتها له، سواء كمصدر ثان وتال له مباشرة للتشريع، أو من ناحية ما اشتملته من أحكام مقررة ومؤكدة ومبينة لأحكام جاءت في القرآن، وأخرى مفصلة ومفسرة لما جاء فيه مجملا، أو مقيدة لما جاء فيه مطلقا أو منشئة لحكم سكت عنه القرآن كتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها..

إن موضع «السنة» من التشريع. ومعاضدتها للقرآن كمصدر تال له، لا خلاف عليهما وما إلى التركيز على ذلك قصدت.

إن همي الآن، إنما ينصرف إلى ما يقع حول تفسير النصوص، قرآنية كانت أو نبوية، من اختلاف قد يقود إلى شيوع مفهوم للنص ليس هو بالضرورة ذات المفهوم في مقصد الشارع الإلهي.. وهنا مكنم الخطر.. وباب الخلاف الذي يشعل أواره المغرضون قبل المخلصين!!

ولكن الذي لا يقع الخلاف عليه، ولا يمكن أن يقع، هو أن المصطفى عليه الصلاة والسلام. هو «التجسيد الحي» و«التطبيق الواعي المخلص» و«الإنساني» أيضا لأحكام الشريعة الغراء، قرآنا وسنة.. وأن الإمام بهذا التجسيد، وذلكم التطبيق، من خلال الإمام بمفهوم الرسالة المحمدية ككل. وبالسيرة النبوية برمتها، إنما هو المشعل الوضاء، والنار الهادي لكل الباحثين أو المتخبطين على الطريق.. ولا أحسب زاعما يمكن أن يزعم أن فوق تدين النبي عليه الصلاة والسلام تدينا، أو أعلى من فهمه للرسالة التي حملها فهما، أو أحرص على الالتزام بأصولها وأحكامها وقواعدها منه!!!.

إن «السنة» ثابتة الورود قطعية الدلالة، ليس حسبها أنها الأصل الثاني من أصول الإسلام الحنيف، وإنما هي، السيرة النبوية، التجسيد الحي، والتطبيق الواعي الأمين للأصل الأول، وهو القرآن، وللشريعة بعمومها، قرآنا. وسنة.. ومنهج حياة!!.

إن «الرسالة» أى رسالة، لا غناء لها عن «رسول»، مؤهل بكل ما يستلزمه حمل الرسالة إلى المكلفين. ﴿اللَّهُ يُصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (الحج: ٧٥) وتلك سنة من سنن الله فى كونه، منذ أولى الرسالات والنبوات، حتى اختتامها بالإسلام.. يقول سبحانه.. ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥) (الإسراء: ١٥)، ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (٢٤) (فاطر: ٢٤)، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٤٧) (يونس: ٤٧).. وعلى ذلك جرت رسالة الإسلام متميزة عما سبقها من رسالات بأنها للناس كافة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٨) (سبأ: ٢٨)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧) (الأنبياء: ١٠٧).. فلا هى لقوم بعينهم، كبنى إسرائيل فى اليهودية والمسيحية، أو عاد وthumb قومى هود وصالح، أو قوم نوح أولوط، ولا إلى قرية بعينها، وإنما هى الدعوة الشاملة إلى الناس والأقوام والأمصار كافة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ؕ أَيْنَتْنَا﴾ (٥٩) (القصص: ٥٩).. ولم يكن هذا العموم هو نصيب الرسالة المحمدية من التميز وكفى، وإنما هى رسالة النور التى اختلفت وتمايزت وتفاضلت على كل ما سبقها من رسالات ونبوات.. فلا هى التى تنطوى فى تكاليف الزعامة، ولا التى تقوم على منفعة أمة من الأمم بعينها، ولا التى ينتظرها قوم بذاتهم تحقيقا لوعود متعاقبة يفسرها كل منهم بما يبتغيه، ولكنها الرسالة الإلهية الشاملة التى لم يستغرقها مقصد من هذه المقاصد، وإنما قوامها أن الله حق وهدى، وأن الإيمان به، جل وعلا، مطلوب لأنه حق وهدى.. ثم هى وإن اتفقت فى «التوحيد» مع ديانات دعت أمما إليه قبل الإسلام، فإنها تمايزت بكونها دين الإنسانية.. الدين الذى يتجه إلى جميع الأمم بدعوة واحدة على سنة المساواة بين الشعوب والأجناس، والتماس الهداية لهم جميعا.. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١٣) (الحجرات: ١٣)..

هذه «الرسالة»، خاتمة الرسالات، لا بد وأن يحملها رسول أمين، جد أمين.. تتلاقى فيه أكرم وأفضل وأميز صفات الأنبياء والرسل أجمعين.. وكيف لا، وهو الذي أدبه ربه، فأحسن تأديبه، وأهله بأدبه هذا العظيم لأن يحمل إلى الناس كافة رسالة الإسلام، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويكون لهم، بتعاليمه، ومنهجه، وعمله وحياته، وسيرته، نعم الأسوة التي بها يتأسون.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤٤) ﴿النحل﴾
﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٩) ﴿الصف﴾
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (٤٦) ﴿الأحزاب ٤٥، ٤٦﴾

﴿وَكَذَلِكَ أَزِيحُ إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مِنْ نُورِنَا وَمِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢) ﴿صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ (٥٣) ﴿الشورى ٥٢، ٥٣﴾
﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ﴾ (٦٧) ﴿المائدة ٦٧﴾

هذا الأمر الإلهي، الذي هو قوام الرسالة، ومناط النبوة، أداه المصطفى عليه الصلاة والسلام فأحسن أداءه.. أنفق ثلاثة وعشرين عاما منذ بعثه الله إلى أن اختاره إلى جواره.. أنفقها معلما، ومبشرا، ونذيرا.. فكان عليه الصلاة والسلام معلما لا كالمعلمين.. يصل في تعليمه المسلمين نهاره بليله. يعلمهم حين يلقاهم، وحين يرونه.. حين يبشرهم، وحين ينذرهم.. حين يفقههم وحين يرشدهم.. حين يأمر، وحين يدع، وحين يفعل، وحين يمسك.. ويعلمهم بسيرته فيهم.. فمن لهم وللمسلمين كافة في كل زمان ومكان، بسيرة أكرم أو أفضل أو أوعى أو أفهم بالإسلام -نصه وروحه - من هذه السيرة، ينهلون منها، ويتأسون بها.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٢١) ﴿الأحزاب ٢١﴾.

ما أريد أن أقوله، إن التأسي برسول الله ﷺ في سنته، وفي سيرته، هو أكمل الطرق وأوعاها وصولاً إلى حقيقة الإسلام ولبه وجوهه.

إن المتأمل في سنة المصطفى عليه السلام وسيرته، سيفهم الإسلام حق فهمه.. سيرى محمداً، أكثر الناس براً بأهله، وحديداً عليهم.. يقول لحبه أسامه بن زيد حين جاءه يتشفع لفاطمه المخزومية لعدم إقامة حد السرقة عليها: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه؛ وإذا سرق فيهم الضعيف حدوه.. وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».. وسيرى مع هذا الحرص على إقامة حدود الله، حين تكتمل أركان الجرم بغير شبهة، ولا عذر من إباحة أو ضرورة؛ أنه عليه الصلاة والسلام هو الذي يرد من جاءه مختاراً يعترف بالزنى فيشيع عنه بوجهه ثلاث مرات ويراجعه في مقالته ثلاثاً أخرى، ثم يبحث له عن مخرج من اعترافه في مس أو جنون أو هذيان سكر.. وسوف يراه يرد أبا هريرة رداً عنيفاً حين أخبره بأنه رد امرأة زنت فحملت فولدت فوأت، رداً عنيفاً حين سأله أيقبل الله توبتها.. ويقول له: «هلكت وأهلك».. فيمضي أبو هريرة هائماً يبحث في طرقات المدينة عن المرأة قبل أن تقتل نفسها يأساً مما نهرها به من عدم قبول الله تعالى لتوبتها.. سيرى محمداً، هذا الذي يبر أهله، ويؤثر عمه العباس بحبه، يرده عن ولاية طلبها ويقول: «من أمر أحداً محاباة فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين».. وسيراه على حبه وإيثاره لأبي ذر الغفاري، حتى قال فيه: «ما أقلت الغبراء، ولا أظلت الخضراء، أصدق لهجة من أبي ذر»، يرده رغم ذلك عن الولاية، لأن به عليه الرضوان ضعفاً، ولأنها أمانة ويوم القيامة خزي وندامة إلا لمن أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها.. وسيراه على شدته في الحق، لا يغلق أمام مخطئ باب التوبة والمغفرة، ولا يحرم أحداً رحمته وعطفه، أو يصادر على سعة رحمة الله تعالى له.. وكيف لا، وهو الذي فيه قال تعالت حكمته: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة ١٢٨).. سيرى الخبرة بالنفس البشرية، بقوتها وضعفها، مهما بلغ أوجها، وسيلمس تسامحه وحلمه،

وتواضعه وبره.. سيرى كيف كان عليه السلام بذاته رحمة مهداة، وكيف كان يعلم أصحابه فيقول لهم: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».. سيرى كيف لم يخرج عليه السلام أيا من كائنات الكون طيرا وحيوانا من رحمته.. سيراه يروى لأصحابه كيف شكر الله تعالى وغفر لعبده ملاً خفه بماء وأمسكه لكلب ظامئ حتى ارتوى.. سيرى كيف أن اعتزازه بعروبتة، وقريشيته، واعتزازه بصحابته، لم يمنعه من أن يقول للمسلمين: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى».. سيرى كيف كان صلوات الله وسلامه عليه ينأى بأصحابه عن الجدل العقيم، ويحذرهم من عواقبه ويستن معهم سنة التعليم والتفقيه والإرشاد والتوعية بالحكمة والموعظة الحسنة.. بسيرته فيهم، وتواضعه لهم وللناس كافة.. حتى كان يردف الفقراء معه على دابته.. يرقع ثوبه وخفه بيده.. ويحمل بنفسه حاجته.. كيف كان على نبوته، ووحى ربه له، لا يترك فرصة لاستشارة أصحابه إلا انتهزها، موصيا إياهم بقوله: «استعينوا على أموركم بالمشاورة».. كيف كان يشاركهم في حفر الخندق في غزوة الأحزاب ولا يستنكف أن يغبر التراب وجهه الكريم.. سيرى كيف كان مع حملته للرسالة، وحرصه الحريص على أحكامها، هو الذي يقول للمسلمين: «إن الله يحب أن تؤتى رخصة كما تؤتى عزائمه».. سيراه يخرج إلى صحابته فرحا مستبشرا حين نزل من سورة الشرح ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ﴾ (الشرح ٥، ٦)..
يقول لهم «أبشروا فلن يغلب عسرٌ يسرين».. سيرى الفهم الواعي لهدف الدين والعقيدة، والتيسير على الناس في غير مشقة ولا إعنات.. ويوصيهم بأن الدين متين، وأن أحدا لن يشاده إلا غلبه، وأن يوغلوا فيه برفق، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى.. سيرى كيف يسر عليه الصلاة والسلام التكاليفات على أصحابه والمسلمين حتى في العقيدة فاكتفى منهم للدلالة على الاعتقاد بالوحدانية ولو بإشارة السبابة إلى السماء.. وكيف يسر لهم في العبادة بالاكْتفاء في طهارة الصلاة بالتيمم إذا خافوا استعمال الماء.. سيرى ويرى ما لا يدركه حصر، ولا يتسع له هذا المقام، وسيعرف في النهاية أن الدين الحنيف، في سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، إنما قصد إلى تزكية النفس، وتطهير القلب، والامتثال

والطاعة، واستشعار عظمة الله وإقرار الخير والصلاح في الأرض على أساس قوى متين من ربط الإنسان بخالقه سبحانه الذي يعلم سره ونجواه.

أيمكن لنا، فهما لدينا، واتقاء لشُرور ما نحن فيه من شحناء، صرفتنا - بجدل عقيم - عن أمس وأخطر ما أمرنا به ربنا تبارك وتعالى؟ أيمكن لنا، أن نجد فهما خيرا من فهم المصطفى عليه الصلاة والسلام، أو تجسيدا حيا لهذا الفهم الواعي خيرا من تجسيده عليه السلام له، في سنته وفي سيرته؟!.

تلك الرسالة التي حملها هذا اليتيم في غير ذلة، العزيز في غير قسوة. كيف به، والدنيا بأسرها تزين له وللناس طريقا غير الطريق، فيغلب الدنيا على ما تريد، ويهديها هو بعزيمته إلى غير تلك الطرق التي تزينها.. وينهض وهو الرجل الواحد بما يأباه قومه، ويأباه معهم أقوام زمانه؟.. كيف به بمفرده يقوم بذلك كله، اللهم إلا أن تكون قدرة الخالق فيما خلق، يوليها من يشاء حيث شاء.

إن محمدا، عليه الصلاة والسلام، الذي أولاه الحق تبارك وتعالى ما أولاه، هو هو الذي أمرنا الله سبحانه في محكم تنزيله بأن نسمع له وبأن نطيع، وبأن نحكمه فيما قد يشجر بيننا من خلاف.

يقول، عز من قائل :-

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ فَاتَّقِ اللَّهَ مَا ظَهَرَ لَكَ مِنْهُ وَأَتَّقِ الْغَيْبُوتَ ۚ إِنَّكَ فِيهَا تُنَبِّئُ ۚ إِنَّكَ بِعَيْنِنَا ۚ﴾ (الحشر ٧)

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۚ﴾ (النساء ٨٠)

﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ۚ﴾ (النساء ٦٥)

فهل آن الأوان، لأن نتأمل بوعى في سنة الرسول عليه الصلاة والسلام وفي سيرته وأن نسمع له ونطيع، وأن نحكمه - بسنته وسيرته - فيما شجر بيننا من خلاف؟!!

سؤال، لا أملك بعده إلا الرجاء!

وصدق عليه الصلاة والسلام، إذ يقول : «تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا

كتاب الله، وسنتي».

الإجماع المهجور!



يدرك القاهمون لإلهية الإسلام، وعالميته، الملتفتون إلى دلائل هذه العالمية، وعناصرها، المعبرة عن قدرة الحق سبحانه، وتدبيره المحكم لغايته لديانة أرادها - عز شأنه - ديانة للعالمين إلى يوم الدين، تمتد في الزمان مثلما تمتد في المكان بلا حدود، أن من آيات هذه العالمية، أن معجزة الدين ذاته كانت ذلك القرآن المجيد الذى حوى أوامر الحق تجلت حكمته ونواحيه، فى العبادات، والعقائد، والأخلاق والمعاملات، فكان حجة أبدية لا تنطمر - كما تنطمر الحجج الحسية أو المادية - بمضى الزمن، وإنما تزداد وتزدان على الأيام بما يضيفه العلم ومستحدثاته، وحقائق الكون وما يتكشف منها، إلى فهم الناس لآيات هذا الكتاب المجيد وإلى إيمانهم العميق به، وكان إلى ذلك معجزة فى بلاغته ومعمارها، مثلما هو معجز فى إثباته الغيب، سابقه وقابله، وفى إحكام قواعده، فضلا عن معجزته الكبرى التى تضمن حياة الدين وصلاحيته للامتداد الذى تغيبته الحكمة الإلهية، والتى تتجلى فى التفاته وحرصه على التمييز بين الأصول والثوابت، وبين المتغيرات التى تفرضها تطورات الحياة وصنوف الحوادث.. فاكتمت فى حكمة تصادقها الأيام بإيراد الأصول والمبادئ والقواعد فيما تتغير تفاصيله بمرور الزمن دون المساس بالأصول والمبادئ، فلم يورد فى الشورى - مثلا - تفصيلا كالذى أورده فى المواريث، ولم يقيد الناس فى تفاصيل المتغيرات الاقتصادية، مكتفيا بإيراد المبادئ الجامعة التى تضمن أن يكون المال فى خدمة الناس، وألا يكون دولة بين الأغنياء، وألا يحتكر أو يكتنز إضرارا بالمصالح العامة والخاصة على السواء... هذا النظر فى هذه المواضع وغيرها، هو الذى أعطى الإسلام هذه القدرة على ملاحقة تصاريح الحوادث وتطورات حيوات الناس بما يلبيها فى إطار الحكمة والمبادئ القرآنية المجيدة.

يدرك القاهمون، مما اختطه الدين الحنيف، أن الأديان لا تُفرض بالقسر والإرغام، وإنما تنتشر وتعيش وتحيا وتبقى بالاقتناع.. وأنه من أجل ذلك كانت حياة الدين - أى دين -

فى حياة مبادئه وقواعده وأحكامه وقدرتها على ملاحقة وتغطية ما يعرض للناس غدا وبعد غد، مثل قدرتها على تغطية ما عرض لهم بأمس وأول أمس! .
من نفحات هذا الدين، أنه طوى على ما يكفل قدرة أهل الذكر من العالمين العارفين لا المتنطعين ولا الغالين، أن يستخلصوا ويستنبطوا أحكامه، وأن يستخرجوا من كنوز قواعده ما يلحق حاجات الناس على امتداد الزمن.. علم أصول الفقه، وهو علم المناهج التى انتهجها وينتهجها الأئمة المجتهدون فى استنباطهم وتعرف الأحكام الشرعية من النصوص القرآنية أو النبوية والبناء عليها باستخراج العلل التى تبني عليها الأحكام، وتلمس المصالح التى قصد إليها الشرع الحكيم، وأشار إليها القرآن المجيد وصرحت بها أو أمأت إليها السنة النبوية والهدى المحمدى.. هذا العلم - الذى بدأ الإمام الشافعى من قرون فى وضع أحكامه فى «الرسالة» وفى مقدمة كتابه «الأم»، ونما على الأيام - هو علم مستقى من أصول القرآن المجيد والسنة، وكفل على الأيام حسن وسداد الاعتراف من الكنوز القرآنية، سواء ما اتبعه الأوائل فى عصر التدوين والأئمة المجتهدين، أم فيما يلى من عصور يجب أن يؤدى علماؤها العارفون القادرون دورهم فى سبيل الاجتهاد الذى دلهم عليه قواعد وأصول علم أصول الفقه.

من كنوز علم أصول الفقه، الذى أحصى فيما أحصاه مصادر الشرع «الإجماع» كمصدر من مصادر الشرع يلى الكتاب والسنة مباشرة، ويتلوه فتوى الصحابى، والقياس، والاستحسان، ثم العرف والمصالح المرسلة والذرائع والاستصحاب، وأخيرا شرع من قبلنا فيما لم يطأه التحريف والتبديل والتغيير ولا يختلف مع الأصول الإسلامية باعتبار الشرائع السماوية جميعها من نبع واحد، احترامها الإسلام واحتواها واحترم رسالاتها وأنبياءها وكان الدين الوحيد الذى كرم جميع الأنبياء والرسل وبأكثر مما ورد فى كتب أديانهم، وأطلق أسماء العديدين منهم على كثير من سورة (يونس، هود، يوسف، إبراهيم، مريم، نوح) غير سورة «الأنبياء» وسورة طه ومحمد، واعتبر الإيمان بالرسالات السابقة جزءا من الإيمان به، مما استقر على الزمن فى نسيج أبنائه الذين انفردوا دون أبناء الأديان الأخرى باتخاذ جميع الأنبياء أسماء لأولادهم وذرائعهم على مدار الأزمنة والعصور..

«الإجماع» كنز من كنوز قدرة الإسلام على التجديد وملاحقة التطورات في إطار القواعد الكلية والمبادئ الأصولية التي سنّها القرآن المجيد والسنة المطهرة.. فهو مصدر من مصادر الشرع الإسلامي يلى مباشرة النصوص: الكتاب والسنة، ويعتمد عليها، ويفتح الباب للنظر والتأمل والاجتهاد المأمون الذي يجد أمانه في اتفاق «الإجماع» على القاعدة أو الحكم المستنبط من أصول ونصوص الشرع الحيم.. والإجماع - شرعا - هو اتفاق المجتهدين من الأمة بالقول أو الفعل أو التقرير، في عصر من العصور بعد النبي ﷺ على حكم شرعى في أمر من الأمور العملية ديني ودنيوي وعقلي ولغوي.. وغنى عن البيان أن اشتراط أن يكون تاليا لحياة رسول القرآن يفرضه أن الإجماع تال للنصوص لا يسبقها، بل ويعتمد عليها، ومحال والأمر كذلك أن يزاحم المصدر النصي طالما كان منبعه موجودا بوجود مصدره المتمثل في الرسول - عليه السلام - الذي إليه السنة المطهرة وإليه السن والتشريع والتقرير فيها ما بقى - عليه السلام - حيا.. فلا محل ولا موضع للإجماع إلا بعد انقطاع المصدر الثاني للشرعية.. هذا الإجماع هو باتفاق علماء المسلمين حجة، يلقي سنده في القرآن المجيد، وفي السنة النبوية.. في الحديث الشريف، أن الأمة لاتجتمع على ضلالة، وأن ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن، يقول رسول القرآن «لاتجتمع أمتى على ضلالة».. هذه الأمة التي قال فيها القرآن «كنتم خير أمة أخرجت للناس».. وقال: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس».. ويقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: «مارآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن».. واشتهر على لسان الثقات من أقواله ﷺ «لم يكن الله ليجمع أمتى على ضلالة».. «سألت الله ألا يجمع أمتى على ضلالة فأعطانيه».. ومن قوله فيما رواه الشافعى عن عمر رضى الله عنه: «ألا فمن سره بحبحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الغذ، وهو من الاثنين أبعد».. وفي القرآن الحكيم: ﴿وَمَنْ يُضَاقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُنِنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ عِثْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۚ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ١١٥).. فتحریم اتباع غير سبيل المؤمنين، ووصمه بأنه شقاق لله تعالى ورسوله، جزاؤه جهنم .. يعنى

بمفهوم المخالفة أن اتباع سبيل المؤمنين واجب، فمن يخالفهم يشاقق الله والرسول، وجزاؤه في الآية ﴿جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١١٥) .. وفي سورة الأنفال يقول عز من قائل: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَاُكِبَ اللَّهُ سَديدُ الْعِقَابِ﴾ (١٣) (الأنفال ١٣) ..

الإجماع مصدر غنى مانح من مصادر الشرع الإسلامي، إليه - في زمن الصحابة - قاعدة أن الجدة تأخذ السدس تنفرد به الواحدة وتشارك فيه الأكثر من واحدة، وإليه - في زمن الصحابة أيضا - عدم جواز الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، وعلى أن الإخوة والأخوات لأب يقومون مقام الأشقاء إن لم يكن أشقاء، وبطلان زواج المسلمة بغير المسلم، وعلى أن الأراضي المفتوحة لا توزع كسائر الغنائم والأنفال.. وإلى الإجماع الاتفاق على إطلاق اسماء «الصانع» و «الموجود» و «الواجب» و «القديم» على الله سبحانه وتعالى، والإجماع على أن الماء إذا تغير لونه أو طعمه أو ريحه بنجاسة فهو نجس لا يجوز التطهر به من الحدث، وليس لهذا الحكم دليل آخر غير الإجماع، وإلى الإجماع أيضا قاعدة أن سداد دين المتوفى من ماله مقدم ليس فقط على ميراث التركة، وإنما أيضا على تنفيذ وصيته، وإلى الإجماع حكم أنه لا زكاة في أعيان الشجر، وميراث بنت الابن مع البنت.. إلى غير ذلك من الأمثلة والأحكام التي كان مردها إلى «الإجماع».

هذا «الإجماع» - الذي هو لدى جمهور فقهاء المسلمين - المصدر الثالث من مصادر الشرع، وحكمه في مسألة هو «حكم قطعي» حتى وإن كان السند الذي قام عليه الإجماع ظنيا، مثل ما أجمع عليه الفقهاء من أن الجمع بين المحارم حرام، وذلك حكم قطعي لا مجال للاحتمال فيه، بينما سند الإجماع ظني في مرتبة سند الحديث المكون إليه: «لاتنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها».. كذلك ثبوت ميراث الجدة، حكمه قطعي.. وإن كان سند الإجماع خبرا أحاديا، وهو ما قرره المغيرة بن شعبة من أنه رأى النبي عليه السلام أعطاها السدس، كذلك إقامة الإخوة والأخوات لأب مقام الأشقاء ثبت بالإجماع، وهو قطعي، والسند كان ظنيا.

هذا الباب المفتوح لإثراء أحكام الدين، وملاحقة تطورات الحياة، بإجماع المجتهدين إجماعا يستند إلى القواعد الكلية والأصول القرآنية والنبوية.. صار من أسف مصدرا مهجورا،

تتجمع غيوم كثيرة حول أسباب أو مآرب هجرانه، لعل فى مقدمتها أغراض ومآرب الحكام والملوك والأمراء فى عصور الهبوط والاضمحلال التى قذفت إلى الساحة بنظريات الحكم المطلق الذى يستند - كذبا - إلى الحق والسلطان الإلهى، فرأى من الخطر عليه، وعلى ما يرمى فى كثير من الحوادث والمناسبات إليه، أن تتصادم رغاب ومطامع الملك المطلق الذى ابتليت به الأمة الإسلامية بعد عصر الراشدين، مع هذا الأصل الثالث الثرى المانح من أصول الشرع الإسلامى، وأعظم السنن التى تفتح أبوابا لغناء وثناء وتجدد الشرع لا يريد المستبدون لها أن تفتح!

من العجيب اللافت أن ذات الفقهاء، فى عصر الهبوط والجمود والاضمحلال، هم الذين أعطوا التكنة والذريعة، لم يكفهم التشدد فى شروط الإجماع التى غالى فيها بعضهم، فالتقطوا ثم روجوا الطعم أو الفخ القائم على أن الإجماع بعد عصر النبوة قد بات مستحيلا لتفرق الفقهاء والمجتهدين فى الأقاليم والأمصار، واستحالة أن يتلاقوا مع بعد الشقة بينهم والمسافات ناهيك بالتلاقى على حكم واحد!

الذين تأولوا هذا التأويل، وتقولوا هذه المغالطة، والمستسلمون لها وحتى الآن من أسف، إنما استسلموا لعلة مغلوبة مردودة، ويصادرون فى الوقت نفسه على المطلوب، ويغلقون فى النهاية، مهما كانت النوايا، بابا فذا من أبواب نماء الرؤية والفقه والتجديد الإسلامى! . غريب جدا، أن قبل الفقهاء قديما ورددوا هذه المقولة، ودرجوا عليها واستسلموا لها، ولكن غرابة الاستسلام فى زماننا - بأفة الاعتياد - أكبر وأدهش، التقط فقهاء الزمن الغابر هذه المغالطة بعد عصر الاجتهاد والتدوين، لأن عصرهم كان عصر هبوط وانحطاط وجمود واضمحلال، وهيمنت فيه التيجان ونظريات الملك المطلق هيمنة غلقت الأبواب وعصفت بفقهاء ونكلت بهم وقتلت بعضهم صبورا، فخاف الكل انصياعا لحكمة رأس الذئب الطائر، بيد أن زماننا الآن غير ذلك الزمان، ولم يعد بمستطاع حاكم مهما كان استبداده أن يخيف جمهور الفقهاء المجتهدين على امتداد العالم الإسلامى الذى ملأ الدنيا، وشغل أقطارا متعددة من المحال على حاكم أن ييسط عليها كلها سطوته وقبضته واستبداده، أيا كان نفوذه، وأيا كانت أدواته، فى الوقت الذى تماحت فيه تماما ذريعة أو تعلقة تفرق الفقهاء

المجتهدين في الأقاليم والأمصار، فعالم اليوم الذى اقتحم الفضاء واقتحم عوالم النجوم واللاسلكيات والإلكترونيات، وصار بالفضائيات وشبكات الإنترنت ونظائرها قرية صغيرة يستطيع كافة علماء الدنيا أن يلتقوا يوميا على شاشاتها، وأن يتبادلوا الآراء والفتاوى والأحكام، وأن يتناوبوا معالجة المشاكل وطوارئ الأحداث والقضايا وأن يتبادلوا الرأى والحلول فيها، وإن يحصوا قدر ما يتحقق أو لا يتحقق من إجماع أو أغلبية أو أقلية فى مسائل غاية فى الأهمية يحار فيها الناس ولا تتحمل الإبطاء أو التراخى أو الانتظار!

فى مصر - أحد أقطار الإسلام - على سبيل المثال، كان المؤتمر الإسلامى، وآلآن يوجد المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ومجمع البحوث الإسلامية، ودار الإفتاء، والأزهر الشريف بهيئاته، وجامعة الأزهر بمعاهدها وكلياتها وأساتذتها، وفى السعودية رابطة العالم الإسلامى، ونظائر لكل هذه التجمعات والهيئات والجامعات الإسلامية فى شتى بقاع وأقطار العالم الإسلامى.. وهؤلاء جميعا وفيهم العلماء المجتهدون، قادرون على طرح القضايا والمشاكل، وتجميع البحوث، وتبادل الرأى على مستوى علماء العالم الإسلامى المجتهدين لوضع الحلول والأحكام من واقع القواعد الكلية والأصول والمبادئ التى أوردتها القرآن المجيد، وبينتها وعاضدها السنة النبوية المطهرة..

ومن الغريب اللافت أن هؤلاء جميعا يجتمعون بالفعل فى أكثر من مؤتمر إسلامى كل عام، يختارون له أحد أقطار وبلاد العالم الإسلامى، ويعقدون فيها حلقات نقاش واسعة وضيقة، ويتباحثون ويتناولون ويتبادلون البحوث والآراء فى أهم وأعوص القضايا، ولكن دون أن ينتقلوا بذلك إلى رصد وتجميع يصح أن يقال إنه قد تحقق به - أو لم يتحقق - إجماع يضيف إلى الفقه الإسلامى ويجدد فى الشريعة ما تلاقى به قضايا اليوم ومستحدثاته.. ماذا يقول علماء الإسلام المجتهدون فى أقطاره جميعا - بالنسبة للفارق بين الانتحار والاستشهاد، وما تكييف ما يبذله أبناء الأوطان فى الدفاع عن أرواحهم وممتلكاتهم وثرى أوطانهم، وهل يبيح الدين أو لا يبيح أن تمتد عمليات المقاومة والكفاح المشروعة إلى الأبرياء من الأغيار أو النساء والشيوخ والأطفال، وما الرأى بالنسبة للموقف الذى على المسلمين أن يتخذوه حيال الغزاة الذين ينتهكون قطرا من أقطار الإسلام، هل التعاون مع هؤلاء الغزاة

مباح أو غير مباح يرفضه الدين ويأباه، وما الحل حين تشجر المعضلات، والحروب أحيانا، بين قطرين أو أكثر من أقطار العالم الإسلامي.. ماذا على مجموع المسلمين أن يتخذوه، وما هو موقف الدين في الفوائد المصرفية وصناديق التوفير وشركات أو عقود التأمين.. وكلها قضايا عصرية طال فيها الجدل وتحتاج إلى حكم إجماع يرتضيه ويطمئن إليه جمهور المسلمين، ما هو حكم الدين في الشورى الآن في زماننا، وما الذى تبيحه أو لا تبيحه المبادئ العامة التى وردت بالقرآن المجيد والسنة النبوية عن الشورى تاركة للمسلمين تحديد أطرها وتفصيلها ومعالها ومعطياتها تبعا لتغير ظروف الزمان والمكان!.

ليس مقصودى هنا - ولا يتسع المجال - إحصاء القضايا والمشاكل الحيوية التى ينبغى ويجب أن يعرض لها العلماء المجتهدون فى العالم الإسلامى برمته، ليستنبطوا الحلول والأحكام والقواعد، ومن واقع الأصول الكلية فى القرآن المجيد والسنة المحمدية المفسرة المبينة المعاضدة، وليتواصلوا تواصلًا يتغيا الاستهداء إلى «إجماع» تستنير به الأمة الإسلامية، وتتعرف خطاها، وتستنقذ نفسها من الغلاة أو المتنطعين من ناحية، ومن الأعداء المتربصين المهاجمين المفترين على الإسلام من ناحية أخرى، ولعل جمهور هؤلاء العلماء الذين لهم قوة أدبية هائلة تتجاوز حدود الأقطار، أن يحددوا للمسلمين ما القول فى حكاية تجديد الخطاب الدينى، التى يتحدث فيها العارفون، ويتجرأ عليها الجهلاء، ويديرها الأعداء إدارة تبغى ضرب الإسلام نفسه فى الصميم والقضاء على أمة المسلمين!

أيها الناس، أعيدوا لنا الإجماع المهجور!

○○○

دليل العقل إلى قيم التراث



يشترك المتدينون عامتهم وخاصتهم - في أشواق تشدهم إلى الإلمام بمشاهد التراث التي حفظتها مدونات السير وتواريخ الأديان .. يقبلون عليها في نهم وشغف وينهلون منها ما يشبع أشواقهم إلى الصفحات التي سطرها الأقدمون حين تلاقت دعوة السماء بأهل الأرض، وينشدون فيها ما يعطيهم عقب معاشة أنفاس الأحداث والصور التي خطها الأسلاف .

يتمثل المطالع للتراث الإسلامي، في شوق وإعجاب، مشهد الصحابي الجليل سلمان الفارسي، وهو والٍ من قبل الفاروق عمر بن الخطاب على المدائن.. لا يفارق - على رغم الولاية! - ملابسه الخشنة، ولا يركن لعطائه الذي يغنيه، وإنما يأبى إلا أن يكسب قوته من عمل يده.. يجدل الخوص ليصنع منه أوعية ومكاتل يبيعها ويتعيش منها.. يقول للناس: «إنني أشتري خوصا بدرهم، فأعمله - ثم أبيعه بثلاثة دراهم، فأعيد درهما فيه، وأنفق درهما على عيالي، وأتصدق بالثالث.. ولو أن عمر بن الخطاب نهاني عن ذلك ما انتهيت!»

ثم هذه الصورة الرائعة للصحابي الجليل سعيد بن عامر الوالي على حمص، حين تفقده الفاروق عمر في ولايته، فما وجده إلا في إهاب بسيط خشن، لا تصرفه الإمارة عن تواضعه وبساطته وزهده، ولكن مابال أهل حمص يشكون منه أنه لا يخرج إليهم حتى يتعالى النهار، ولا يجيب أحدا بليل، وله في الشهر يومان لا يخرج فيهما إليهم ولا يرونه إلا آخر النهار!.. يسأله الفاروق مشفقا أن تكون قد خابت فراسته فيه، إلا أن الجواب يسفر عن عظمة لم يتوقعها أحد من المتسائلين!.. إنه لا يخرج حتى يتعالى النهار، لأنه ليس لأهله خادم، فيعجن لأهله العجين ويدعه حتى يختمر، ثم يخبز خبزه، ثم يتوضأ للضحى ويخرج إليهم.. ولا يجيب أحدا بليل لأنه جعل النهار لهم، والليل لربه يعبد به ويتهجده إليه.. ولا يخرج يومين في الشهر، لأنه لا ثياب له إلا ثوبه الذي يستره، فهو يغسله وينتظر حتى يجف، ثم يخرج إليهم في آخر النهار!

يجد المطالع في صفحات التراث الإسلامي، المشهد الرائع للفاروق عمر، وهو أمير المؤمنين - يجرى مرهقا وراء بعير شارد من إبل الصدقة!!.. ومشهد واليه على المدائن، حذيفة بن اليمان.. يخرج أهل المدائن أفواجا تسبقهم أشواقهم إلى مشارفها انتظارا لمقدم الوالى الجديد، فلا يرون إلا راكبا آتيا على حمار على ظهره إكاف قديم، وقد أسدل ساقيه، بيده كسرة خبز هي كل طعامه.. يستطلعون منه خبر الوالى الذى ينتظرونه، فيفجأهم أنه هو.. هذا البسيط العظيم فى بساطته.. يبادرهم فيقول لهم: «ياكم ومواقف القتن!.. فلما سألوه ما هي؟ - قال: أبواب الأمراء.. يدخل أحدكم على الأمير أو الوالى، فيصدقه بالكذب ويمتدحه بما ليس فيه»!!

طبيعى، وحاصل، أن ينبهر القارئ لهذه المواقف، بما فيها من صور أخاذة، ومشاهد جاذبة خلاصة، على أن الخطر أن يصرفنا الإعجاب الشديد والانبهار بها - عن استخلاص مغزاها والقيم الصادرة عنها.. القيم هي الخالدة الباقية، أما الصور فمتغيرة.. هذا التغير تابع للزمان والمكان، ولذلك فإن الانحصار فى «الصورة» قد يفلت القيمة والمغزى والمعنى، بل وقد يرتد بصاحبه إلى الوراء ويحبسه فى أشكال مهجورة يتخلف بها عن ركب الحياة!.

صناعة الوالى للمكاتل ليتكسب منها، وركوبه الأتان بدلا من الخيول المطهمة، وغسله ثوبه الوحيد وانتظاره حتى يجف، ومشاركة أهل الدار فى الخبيز، والجرى وراء بعير شارد من إبل الصدقة، هي صور رائعة، ستبقى جليلة مبهرة، لأنها قد وافقت زمانها من ناحية، ثم هي مردودة إلى «قيم» رفيعة سامية.. هذه القيم هي الخالدة الباقية وهي التعفف عن المال العام والحرص عليه، والإحجام عن الإفراط فيه، والتزام حفظه ورعايته وصيانتة والترفق فى التعامل معه.. هذه القيم تلزم زماننا وما يأتى بعد زماننا، مثلما لزمنا زمن أسلافنا.. تلزم الكبير والصغير، وتلزم الوزير إلى الخفير، والمكلف بخدمة عامة تكليفا مستمرا، أو المنتدب لها انتدابا مؤقتا، والنائب فى البرلمان، وعضو المجالس الشعبية والمحلية، وأعضاء النقابات والجمعيات والنوادر التى جعل القانون -والواقع- أموالها فى حكم الأموال العامة.

الالتفات للقيم المستمدة من التأمل في هذه الأمثلة من التراث يوجب الاكتفاء بما يلزم للعمل العام دون إسراف ولا إفراط، إذا كانت العربية الصغيرة مؤدية للمطلوب، فلا محل للعربات الفارحة، وإذا كانت الحجرة المتوسطة وأثاثها المعقول كافية لمكتب المسئول ومستلزمات الحركة والأداء فيه، فإسراف وتفریط في المال العام - شغل المكاتب لمساحات هائلة، وفرشها بالأثاث الفاخرة.. الالتفات إلى التعفف عن المال العام، يلزم المسئول ومن يراقبه، بالألا يحصل إلا على المعقول الذى يكفيه ويقابل ما يؤديه دون توليد «مسميات» و«لجان» و«انتدابات» و«عضويات» و«إضافات» و«بدلات» وغيرها - يؤدى فى النهاية إلى الارتفاع بالأجر إلى أرقام فلكية لا تتفق مع وجوب الترفق بالمال العام والقصد والاعتدال فى التعامل معه، والقناعة والترفع عن التغول عليه والاغتراف منه!

الانحصار فى «الصورة» دون «القيمة» على رغم امتداد الزمن، وتغاير الظروف - تخلف يؤدى إلى نتائج معكوسة! ويقلب «القيمة» إلى «إخلال» و«خيبة» و«تفريط». الحاكم أو الوالى أو المسئول فى الزمن الغابر، كان يستطيع مع سلاسة الحياة، وقلة المشاكل والمعضلات، واتساع الوقت وسهولة تسيير حاجات الناس - أن يبلغ بتعففه حد أن يجدل المكاتل ليتعيش منها مستغنيا عن الراتب أو الأجر، وأن يزهّد فيكتفى بثوب واحد لا يرى بأسا من أن يغسله بنفسه ويجلس فى انتظار أن يجف ما دامت ظروف العمل وضغوط واجباته لا تتأثر بهذا الانقطاع، إلا أن تعقيدات الحياة فى زماننا، وتزايد الأعباء العامة، وتنامى المهام والمشاكل والمعضلات، يحتاج من الرجل العام إلى صرف وقته واهتمامه إليها بحيث يغدو تفريطا معيبا وضارا بالعمل الذى يتولاه، وبمصالح الناس، أن ينقطع عنه ليكسب قوته من عمل يده، أو يقوم بالخبيز فى بيته، أو ينحبس فيه إلى أن يجف ثوبه الذى زهد فلم يعد له سواه.. أيسر وأجدى وأنفع للعمل فى عصرنا أن يكفل للعامل راتبه والمعقول من احتياجاته، ليصرف كل وقته وجهده لأداء ما عليه رعاية لمصالح الناس، وإلا توقف دولاب الحياة!

فى مشاهد التراث، واقعات ووصايا لغسل النجاسة بالتراب، وهى فى أوانها كانت لازمة ومطلوبة لتحقيق الغاية، فهل «القيمة» فى النظافة والطهارة، أم فى «صورة»

الغسيل بالتراب بالذات؟!.. وهل إذا أتاحت المدنية الصابون والمطهرات، تظل «صورة» الغسيل بالتراب هي الجديرة بالإحياء؟!..

إن إحياء التراث يكون بإحياء «قيمه»، وليس بالضرورة إحياء «صوره»، فالصور والهيئات والأشكال متغيرة، و«القيم» هي الخالدة الباقية.. لا جدوى للتراث إذا لم تنسكب قيمه في صفحة وعى الناس وسلوكهم، وإحياء هذه «القيم» ليس بهيئات ولا صور ولا أشكال.. ليس بارتداء جلباب، أو عباءة، أو ركوب أتان.. غاية النفوس العاقلة أن تتسامى في دنيا الحوادث المتغيرة، قديمها وحديثها، لتمسك بالقيم العليا التي تحكم سلوكها وتدفعها إلى مزيد المزيد فيما ترجوه في تطلعها إلى الأفضل.. الاقتداء بالأقدمين ليس اقتداء بصور وأشكال، وملابس وهيئات!.. الاقتداء هو «الإمساك» بالقيم النبيلة السامية التي مثلوها وصدروا عنها!..

الغث في التراث !

على أن المطالع للتراث في مدونات وتواريخ الأديان بعامة، لا تصادفه الجواهر فقط التي عليه بعقله أن ينفذ إلى قيمها وما وراءها، وإنما يصادفه أيضا ما تسرب إليها - في عصور الهبوط والاضمحلال - من الخرافات والبدع والأساطير التي ألحقت به وهي ليست منه.. ولم يكن تسرب الخرافات والبدع، مقصورا على كتب بعينها من كتب التراث، وإنما تسرب أحيانا إلى أمهات الكتب والمصادر لأئمة عظام.. لم تنج من ذلك كتب ومدونات كثيرة للأديان بعامة.. في تفسير الإمام القرطبي إسرائيليات يشير إليها المتخصصون.. ولم يعدم تاريخ الطبري على عظمته وعظمته واضعه، أن يحمل بعض الخرافات أو البدع أو الإسرائيليات، أوردتها كما هي دون نقد أو تعليق، وبقيت في الطبقات الحديثة على رغم ماورد عليها من تحقيق لعلماء محققين مدققين، في تاريخ الطبري - نقلا عن الرواة، أن زوجة النبي إسحق.. حملت بسلامين في بطن، فلما أرادت أن تضع - اقتتل الغلامان في بطنها، فأراد يعقوب أن يخرج قبل عيص، فقال عيص: والله لئن خرجت قبلي لأعترضن في بطن أمي ولأقتلنهما، فتأخر يعقوب، فخرج عيص قبله، وأخذ يعقوب بعقب عيص،

فخرج، فسمى (عيص)، لأنه عصى فخرج قبل يعقوب، وسمى يعقوب، لأنه خرج آخذاً بعقب عيص..» (ط دار المعارف ج ١ ص ٣١٩) - وهذا قريب مما ورد في الإصحاح ٢٥ من سفر التكوين بالتوراة، ويورد ذات التاريخ (ج١ - ص١٤٥) أن قابيل لما قتل أخاه هابيل، أنشد شعراً «بالعربية» يسوقه الكتاب، مع أن اللغة العربية لم تكن قد ولدت بعد زمن آدم وولديه القاتل والمقتول.. وأورد الطبرى أيضاً فى قصة آدم أخباراً مستقاة من التوراة ومن شروح اليهود للتوراة، كقوله: «لما أسكن الله تعالى آدم وزوجته الجنة، وأراد إبليس أن يستنزلهما، دخل فى جوف الحية، وكان لها أربعة قوائم، كأنها بختية من أحسن دابة خلقها الله تعالى، فلما دخلت الجنة خرج من جوفها فجاء بها إلى حواء فقال: انظرى إلى هذه الشجرة، ما أطيب ريحها، وأطيب طعمها، وأحسن لونها فأخذت حواء فأكلت منها، ثم ذهبت بها إلى آدم فقالت: انظر إلى هذه الشجرة، ما أطيب ريحها، وأطيب طعمها، وأحسن لونها. فأكل منها آدم. فبذت لهما سواتهما، فدخل آدم فى جوف الشجرة، فناداه ربه: يا آدم أين أنت؟ قال: أنا هذا يا ربى. قال ألا تخرج؟ قال: أستحي منك يا رب، قال: ملعونة الأرض التى خلقت منها، ثم قال: يا حواء: أنت التى غررت عبدى فإنك لا تحمليين حملاً إلا حملته كرها، فإذا أردت أن تضعى ما فى بطنك أشرفت على الموت مراراً..»، وهذا شديد الشبه بما ورد فى التوراة فى الإصحاح الثالث من سفر التكوين.. ربما عذر الطبرى أنه أراد الالتزام بدقة النقل ولكن ذلك لا يعفى القارئ من وجوب الاسترشاد بدليل العقل فى قراءته لهذا التراث.

هذا وغيره مما يجده المطالع للمدونات القديمة للأديان، يجب أن يستدعى عقله لينظر ويتأمل ويفرز الغث من السمين، ويستعيد ما كان دخيلاً على الدين من الخرافات أو البدع أو الموروثات أو الخزعبلات التى يابأها العقل والدين!

القارئ طرف أساسى فى المعادلة

قارئ التراث، كأي قارئ لأي نص - طرف أساسى فى حصيصة القراءة.. النص قيمة مجردة - نعم، ولكنه قيمة نسبية فى مفهوم من يتلقاه، يكون جلاؤه على قدر فهم واستيعاب

مستقبله.. توجد علاقة جدلية أشار إليها أفلاطون بين النص والقارئ، بل إن القارئ هو جسر النص إلى الحياة.. هذا القارئ قد يفلح في الإحاطة بالنص، وقد يخفق - بقصوره - في النفاذ إلى أعماق وأبعاد النص، وقد يشرّد في استيعاب دلالاته، مثلما قد يصيب في فهم وتحصيل مدلوله.. مستويات علم وفهم وإدراك القارئ كانت ولا تزال عنصراً أساسياً في مفهوم النص.. في مقدمة «كليلة ودمنة» الذي نقله ابن المقفع للعربية، أن «كلام الكتاب» - «ظاهره لهو للخواص والعوام، وباطنه رياضة لعقول الخاصة».. وكأن العقاد قد خشى أن يضيع نفيس ما يكتب لدى الجهلاء أو ناشد التسلية وإزجاء الفراغ، فينبه إلى أن الأدب في لبابه قيمة إنسانية وليس قيمة لفظية، وأن الكاتب صاحب رسالة في عالم العقل والروح، وأن العلاقة بين الكتاب (النص) وقارئه «علاقة تعاون واشتراك لا يغني فيها الجهد المفرد عن الجهدين المتساندين»! بل يشتد فيقول: «إن القارئ الذي يفرد الكتاب (النص) بواجب التفهيم لا يستحق الالتفات إليه».

ليس يهم النظريات التي تدور حول التراث والتعامل معه.. لا بأس على الآدمي أن يعتنق من النظريات ما يشاء، الضيقة أو الموسعة أو الجامدة أو المرنة أو المدققة أو المتحفظة، طالما أن العقل رايته ودليله.. للآدمي «بوصلة» ذاتية، هادية ومرشدة.. لا تخطئ مادامت أجهزتها استقامت وسلمت، وكان عمادها الإخلاص وسلامة القصد وصنق النية.. في الحديث النبوي منارة هادية لهذه البوصلة، أشار إليها رسول القرآن حين قال لسائله إن: «الخير ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس وإن أفتاك الناس وأفتوك».. يتوقف كثير من المتلقين لهذا الحديث عند معنى الحلال والحرام، ولا يغوصون إلى دلالاته الهادية إلى بوصلة الآدمي الذاتية، فيقيّدون دلالة هذا الحديث الرائع بلا مقيد، ويحجبون المعنى العميق الذي يتضمنه، وإشارته الواضحة المستفادة إلى «بوصلة» الآدمي التي هي كفيلة بإرشاده وهدايته إلى الصواب مهما قال الناس أو تزيّدوا أو انتقصوا أو تحفظوا أو غالوا أو بالغوا أو اقتصدوا أو تنطعوا أو أنصفوا أو فارقهم الإنصاف!.. هذه «البوصلة الذاتية تتشكل من «حزمة» العقل والقلب والضمير والوجدان، قيادها إلى «العقل» الذي إليه مرد كل شيء، أعماله فريضة

من فرائض دين القرآن ، والاحتكام إليه صمام أمان ودليل يفتح للمتأمل الفكر مغاليق ما يشاهد أو يرى أو ينظر أو يقرأ.. هو الذى يحلق به فى السموات ليرد ما يصادفه إلى الله تعالى وإلى الرسول عليه السلام.. يأبى العقل أن يصادق على ما خالف الأحكام والمبادئ المستمدة من القرآن والسنة، ويأبى تصديق الخرافات والبدع والإضافات المتراكمة فى عصور الانحطاط والانطفاء.. فإن أعياه النظر، أو أعجزته أدواته وقاعدة علمه ومعارفه، لجأ إلى أهل الذكر الذين حض القرآن على الرجوع إليهم بلا كهانة، فقال: ﴿فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣) .. إعمال العقل هو انتصار للدين، واهتداء إليه - وليس للخروج عنه.. العقل لا يصطدم بالدين، ولا يفارقه.. إنما هو يعمق فهمه، ويلتئم مع هداية القلب والضمير لإرشاد الآدمى إلى السواء والصواب.. إعمال العقل هو الذى يحمى صفحة وعى الآدمى من غث التراث المطوى على الخرافات والأساطير والخزعبلات والبدع، ويعينه على تعمق التراث الصحيح واستخلاص مغزاه والقيم الخالدة المستمدة منه والجديرة بالإعلاء والإعمال مهما تغايرت الصور وألشكال والهيئات.. القيم هى الخالدة والصور بطبيعتها متعددة ومتغيرة.



دوحة الإسلام



الإسلام فى نصوصه وفى مهجته وفى روحه ، دين هداية ، يأتى فيه أى شىء تابعاً لهذه «الهداية» التى هى رسالة الإسلام إلى الدنيا.. القرآن المجيد نور وهداية.. ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾ (البقرة: ٢) .. والنبوة المحمدية نبوة هداية ، وليست نبوة استعلاء ولا استطلاع ولا كهانة ولا تنجيم ولا خوارق ولا أهوال !! .. إن «الهادى» اسم من أسماء الله الحسنى ، بعث نبيه المصطفى بالهداية : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (التوبة: ٣٣) .. يوصيه ليقول للناس كافة : ﴿ قُلْ إِنِّي هُدًى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمَرَ النُّسُلَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام: ٧١) .. (البقرة: ١٢٠) .. نبي الهدى لا يتغيا ملكاً ولا مجداً ، ولا يبحث عن موجبات أو أدوات أو لوازم مجد.. ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْرَثْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ١٨٨) .. ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْعَ إِلَّا مَا يَوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأنعام: ٥٠) ..

فهم المسلمون الأوائل من القرآن المجيد ، وسنة رسوله - أن المجد الحقيقي الذى تغياه الإسلام - هو هداية الإنسانية كلها على أساس تصح وتستقيم وتطمئن وتنطلق وتتطور وتتقدم به حياة وقيم وأعمال وسلوكيات الأحياء.. الكرامة فى القرآن ، هى كرامة الإنسان.. ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَنَاءِ وَالْبَحْرِ وَرَفَعْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٠) .. لم ينزل الإسلام إلى أمة بخاصة ، ولا لقوم بخاصة ، ولا لمكان بخاصة .. وإنما اتجه بدعوته إلى العالمين.. إلى الإنسان حيث كان ، وبعث رسوله بالهدى إلى الناس كافة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبا: ٢٨) ..

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ۝١٥٨ ﴾ (الأعراف ١٥٨).. لا أحد مختص بالدعوة والهداية دون أحد، ولا مجد لأحد على أحد.. الإنسانية أسرة واحدة، مردها إلى أصل واحد.. ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَنَجَدَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۝١ ﴾ (النساء ١).

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَنَجَدَ ۝٩٨ ﴾ (الأنعام ٩٨ - الأعراف ١٨٩).. يخاطب الإسلام الناس كافة على سنن الهداية والافتقار.. الاتساع الكوني لرسالة الإسلام جعل باب دوحته مفتوحا للعالمين بلا سطوة ولا تسلط ولا استعلاء، وبلا بحث عن علو أو أمجاد!.. قدم الإسلام للإنسانية دوحة وارفة دستورها القرآن : معجزته الكبرى الممدودة إلى الدنيا إلى يوم الدين، يجعل من الإيمان بكافة الرسالات والنبوات، جزءا لا يتجزأ من الإسلام وهداية الإسلام.. القرآن يخاطب المسلمين فيقول لهم : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۝١٣٦ ﴾ (البقرة ١٣٦ - أيضا آل عمران ٨٤) .. فى هداية الإسلام للدنيا، جعل العقل - مع الضمير والوجدان - منارا لهداية الإنسان حيث كان، وجعل العلم روح الإسلام ليقدم للإنسانية كلها حياة يلتئم فيه نبضها بلا استعلاء.. فى هذه الحضارة التام اليهودى والمسيحى مع المسلم لعمارة الحياة، فلم تتباه هداية الإسلام على غير المسلم، وفتحت للجميع فرصا غير محدودة للبقاء للأسرة الإنسانية.. فبرز فى دوحة الإسلام نجوم لا ينتمون إليه، أعطوا فى مناخ عماده الإخاء والتسامح والمحبة والسلام.. يظل الجميع - بلا تمييز ولا استعلاء - منظومة أخلاقية عنيت كل حبة من حياتها برعاية الآخر.. هذا الجانب (رعاية الغني ملحوظ فى كل سجايا الإسلام، كالعدل، والصدق، والأمانة، والوفاء، والحلم، والكرم، والتواضع، والعفو، والإسماح، والصفح، والإحسان، وكفالة اليتيم والأسير والمساكين، والتكافل، والإخلاص.. وغيرها، مثلما هو ملحوظ فى النواهي التى حرمت وحظرت الظلم، وبخس الكيل والميزان، وكتمان الشهادة، وقول الزور وغير ذلك من المنكرات.. هذه الباقية من الأوامر والنواهي وجهت عنايتها للأغيار، لأنها فى غايتها السامية تحفل بالآخر وترعاه وتصونه

من أن يلحق به أذى أو مكروه، ولذلك نزعنا هذه الباقية الأخلاقية من وجدان المتلقى أى ميل للاستعلاء أو التكبر أو التجبر أو البحث عن «الأمجاد» الزائفة.. الإسلام زرع فى وجدان المسلمين هذا العطاء الواجب - بلا من ولا أذى!.. فهمجته الحق والهداية إليه، وللإنسان فى مظلته قيمة بذاته.. روحه مقدسة، وكرامته محفوظة، والعدل واجب إزاءه، والتجنى والافتئات عليه محظور.. واحة الإسلام عمادها الإخاء والمساواة والتسامح والأمان.. الأخوة الإنسانية أخوة شاملة تطوى الجميع فى حناياها.. يقول القرآن المجيد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ١٣﴾ (الحجرات ١٣).. ساوى الإسلام فى واحته بين الجميع، لم يستبعد من المساواة كتابيا ولا ذميا ولا أحدا من أهل الذمة الذين يقيمون فى دار الإسلام.. لا مجد ولا تعظيم لأحد، يقول رسول القرآن للناس: «لا تقوموا لى كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا».. «إنما أنا عبد من عباد الله آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس».. يقول لمن أخذته رعدة من هيبتة: «هون عليك يا أخى، فإنى لست بملك ولا جبار، وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد فى مكة».. هذه المساواة هى رسالة الإسلام إلى الدنيا وإلى الناس كافة، أنهم فى ظل دوحته الوارفة، يلتئمون جميعا فى شجرة واحدة عمودها المساواة، وأنهم فى رحابه ينتمون إلى شجرة الإنسانية التى يتساوى فيها الجميع فى دوحة المساواة والإخاء والحرية والإسماح!

هذا العالم الجديد، هو مجد الإسلام الحقيقى.. هو «الهداية» التى أفاء بها على الإنسانية، وأتاح لها ما يتحقق به «مجد الإنسان» فى بناء رام وحرص الإسلام أن يتسع للإنسانية كلها.. لأسرتها الكبرى، بلا تمحور أو انصراف إلى تجبر أو استعلاء أو «أوهام» «أمجاد» زائفة تصرف الإنسان عن المعنى الجامع والمثل الأعلى والغاية السامية العليا للحياة التى يتجه فيها الإنسان اتجاهها صادقا إلى خالقه.. مجد الإسلام هو هذا العالم الجديد الذى وضع أساسه وقيمه ومبادئه وأحكامه، واتسعت رقعته لتضم فى حناياه الأسرة الإنسانية بلا حواجز لا سدود، ولا عصبية ولا نعرات، ودون ما تجبر ولا استعلاء.. هذا العالم الجديد مهجته الرحمة والتراحم، لا الاستعلاء والتجبر أو المجد الزائف.. رسالة الإسلام نور وهداية، ورسول القرآن، رحمة إلى

الناس مهداة من السماء.. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء ١٠٧).. فالرحمن، والرحيم - من أسماء الله الحسنى، عن صفة رحمته ينبئ الذكر الحكيم فيقول: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ (غافر ٧).. ويأمر حامل الرسالة - عليه السلام - بإبلاغها إلى الناس.. كل الناس: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الحجر ٤٩).. يقول رسول القرآن لاتباع الإسلام: «الراحمون يرحمهم الرحمن.. ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء».. وفى الحديث القدسى «اطلبوا الخير عند الرحماء من أمتى تعيشوا فى أكنافهم، فإن فيههم رحمتى».. معيار التفاضل بين الناس هو «التقوى والعمل الصالح».. «كلكنم لآدم.. وآدم من تراب».. لا فضل لعربى على سواه إلا بالتقوى.. يقول لهم نبي الهدى: «يا بنى هاشم، لا يجيئنى الناس بالأعمال وتجيئونى بالأنساب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم».. أمة الإسلام مدعوة إلى الخير وبذل المعروف، لا إلى التميز والتجبر والعلو فى الأرض.. ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران ١٠٤).. العزة الحقيقية فى التقوى لا فى المجد الزائف - «من لم تعزه التقوى فلا عز له».. الإسلام يطلب الرفعة. نعم، ويطلب القوة. نعم، ولكن ذلك كله فى الحق ولأجل الحق.. التمايز لا يطلب فى الإسلام للعلو أو طلب المجد، وإنما لتكون القدرة المتحصلة مسخرة لرعاية الكافة.. - قوة القوى فى جبر ضعف الضعيف، وغنى الموسر لكفالة المحتاج والفقير، وعقل العاقل لرتق وهن عقل العليل.. لذلك لا يسمح الإسلام بأن تمس الاختلافات بين البشر، ما ينبغى أن يسود العالم من أخوة وانتماء إنسانى تذوب فى أخوته الإنسانية الشاملة - كل فوارق الجنس واللغة والأعراق والألوان والصفات والمكنات والقدرات.. هذا المعنى الجامع لا يدع محلا لأوهام المجد الزائف، ولا يترك ثغرة للانصراف عن القيمة والحق والهداية، إلى أوهام العلو والركوب على رقاب الناس أو استلاب حقوقهم وحررياتهم وكراماتهم ومصالحهم وأموالهم!

هذا العالم الجديد كل الجدة، لم يبينه الإسلام ويضع أساسه وكفى، وإنما أعطى مفتاحه إلى الدنيا ليلج إليه من يريد هداية الله وصدق التوجه إليه، وسلامة الوجدان والضمير!.. كيف كان هذا المفتاح الذى أعطاه الإسلام للدنيا.

العالم الجديد الذى أقامه الإسلام، كان عماده الهداية وكرامة الإنسان حيث كان.. لم يطلب الإسلام مجدا للعلو فى الأرض، وإنما تغيا وبث هداية إلى الناس كافة.. مرجعية «المجد» الذى صاحب الإسلام - هى إلى دوحة النور والهداية التى أقامها وقدمها للإنسانية، ووضع مفتاحها أمام أيدي الناس للولوج إلى عالم جديد كل الجدة مختلف كل الاختلاف عن العالم المعتم الذى كان سائدا وقت نزول الإسلام.

العالم الجديد الذى وضع الإسلام مفتاحه أمام الناس، هو عالم عماده الهداية والتوحيد والإسماح. ومفتاحه الإصرار على الوفاء والإصرار على الأمان من جانب المسلم.. الوفاء بالوعد الذى يعده المسلم لغير المسلم والإصرار على الأمان الذى يجير به المسلم غير المسلم ويبقى وفيًا به ملتزما بمقتضياته إلى أن يبلغ غير المسلم مأمنه.. ظل المسلمون على ذلك وصاحبهم الوفاء والأمان فى مراحل تكوين إمبراطوريتهم وازدهار حضارتهم - هذه الحضارة التى أقامت بمنظومتها الرفيعة مجدا حقيقيا للإنسانية، وبقي المسلمون على ذلك إلى أن دخلوا مع الناس فيما اصطلح عليه الناس - وما زالوا فيه بآلامهم وآمالهم إلى اليوم!

قد كان يمكن للحراك الذى نشهده الآن وقبل الآن، أن يمسك بالحبل الصحيح وهو تسلم ذلك «المفتاح» البسيط الملى بالثقة والود والإسماح والأمان. بيد أن هذا الخيط يطمسه أو تحاصره الحملات الضارية على الإسلام والمسلمين، ولواعج الشعور بالهوان الدنيوى والتطلع إلى استعادة العزة والمنزلة والمكانة والسؤدد والثروة، وهذه اللواعج ومضاعفاتها وما يقترن بها ويصاحبها من تقول أقوياء اليوم وجموح شطحاتهم وتهجمهم الوحشى المغلوط يصرف بعض المسلمين عن الجوهر الحقيقى لهذا «المفتاح» الذى كان بشارة العالم الجديد الذى هز به الإسلام أركان العالم الذى كان سائدا وقت نزوله!

الهجوم المتوحش الذى يتعرض له الإسلام والمسلمون!

فالمسلمون يتعرضون هذه الأيام لهجوم متوحش جهول، ويلاقون معه عداوة وكراهية وعدوانا وافتئاتا.. يستقبلون كل صباح، وعلى شاشات الإنترنت، سيولا لاتنقطع من

السياب واللعنات والبذات والافتراءات والتناول حتى على رسول الإسلام.. تتعاقب حملات الكراهية مع هجمات الجيوش وقصف المدافع والصواريخ والطائرات وحملات الغزو التي بدأت بأفغانستان، وثنت بالعراق، ويترقب العالم والمسلمون إلى أين تتجه الغزوة الثالثة!!.. طبعى أن تستدعى هذه اللواعج ما كان للإسلام والمسلمين من «أمجاد»، وأن تستنفر - برد الفعل - تحفزا لدرء ما يراد للمسلمين وبهم فى هذا الزمن الأسود!!.. وأن يولد هذا كله - مع الإحساس العميق بالظلم - التفاتا أكثر وأكثر إلى الأخطار المحدقة بهم وما تستدعيه من صفحات «المجد» الذى كان!

روح وعمود الإسلام

هداية الإسلام هى التى حققت ما كان من أمجاد.. عمود الإسلام، الذى غير واقع الدنيا، هو اتجاه العبد إلى خالقه بكلياته وجزئياته بإخلاص تام وأمانة كاملة مع الشعور بفيض الرحمة والود الذى يثيره حتما ذلك الاتجاه.. فكل اتجاه جاد يشعر الآدمى بجده نحو خالقه - هو اتجاه مقبول عند المسلم يصاحبه - لكى يصبح مسلما - الإيمان بالعقائد والاعتراف بالشعائر المقررة على كل مسلم، ومن هنا توطدت أسس العلاقات السلمية فى القرآن بين المسلمين وبين غير المسلمين وأهل الكتاب.. لم تغمض عيون الإسلام قط عن أن الناس خلقوا مختلفين، وأن هذا الاختلاف يجرى بين الأفراد فى عقولهم وقدراتهم وملكاتهم وفهمهم وعقائدهم ومذاهبهم.. فى القرآن المجيد بيان لهذه السنة الكونية : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود ١١٨).. روح وعمود الإسلام التفاته المحمود إلى هذا «الاختلاف» وموافاته بما يقتضيه من محافظة على العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين.. أباح الإسلام للمسلم طعام أهل الكتاب وأن يتزوج منهم وأن تبقى الزوجة على دينها وهو على دينه، مثلها فى كل شئ مثل الزوجة المسلمة سواء بسواء.. فى القرآن الحكيم

﴿يَوْمَ أَجَلَ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَانَسْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ

عَيْرَ مُسْتَفْهِجِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
الْخَسِرِينَ ﴿ (المائدة ٥).

أمان الإسلام

الأمان المعطى فى الإسلام، مقرون بالوفاء. الوفاء بالوعد والعهد وبالمواثيق، مبدأ عام أوصى به القرآن المجيد فقال: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَثْوًى لَكُمْ ﴾ (الإسراء ٣٤).. وجعله من صفات المؤمنين، فقال عنهم: ﴿ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ (البقرة ١٧٧).. حق العهد والوفاء به مقدم فى الإسلام على كل ما سواه.. حتى على حق الدين.. فى القرآن المجيد: ﴿ وَإِنْ أَسْنَصِرْكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الأنفال ٧٢).. بذلك قدم القرآن بصريح وأمر لفظه، احترام ورعاية العهد والوعد والميثاق - على نصرة من يستنصر المسلمين فى الدين.. وفى حديث رسول القرآن: «إن حسن العهد من الإيمان» دل الإسلام على أن الوفاء بالوعد هو خلق الأنبياء والرسل الصالحين : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ (مريم ٥٤).. ووعد الموفين بالعهد بأنهم ﴿ الَّذِينَ يَرْتُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (المؤمنون ١١)..

لا يقبل الإسلام تحت أى ذريعة نقض العهود والمواثيق.. وفى حديث رسول القرآن: «من كان بينه وبين قوم عهد، فلا يحلنّ عهدا، ولا يشدنه، حتى يمضى أمدّه أو ينبذ إليهم على سواء».

تقدم الإسلام وعاش، بوفائه ووفاء رسوله ووفاء المسلمين بالعهد.. وكان هذا الوفاء والإصرار عليه وعلى أمان الجوار للمسلم هو الأداة الرئيسية لنشر وانتشار دعوة الإسلام. أمان الجوار للمسلم، لا يخرج منه أحد.. يعطى ويبذل للمسلم والكتابى ولغير الكتابى، وللعربى ولغير العربى، الطريق الفسيح لأولئك أو غيرهم لاعتناق الإسلام والحرص عليه

هو الثقة التامة فى كلمة المسلم ووعده وعهده، وفى جيرة وجوار مصحوبين بأمان يمنحه المسلم لإنسان يخاف حتى يبلغ مأمنه.. لا يستثنى المسلم أحدا ولا المشركين من هذا الأمان.. ففى القرآن المجيد: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتْلُغْهُ مَأْمِنًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة ٦).

أى آدمى يدخل إلى هذا العالم، مصحوبا بهذا الوفاء والأمان، يدخل إلى عالم جديد مختلف عما يتركه وراءه فى العالم الآخر المشوب من قديم بالخديعة والغدر والخسة والخيانة والمراوغات التى يتداولها الخلق فى دنيا الناس!.

لماذا تقدم الإسلام؟

لم يتقدم الإسلام لأنه قوض إمبراطوريات، أو هدم أنظمة، أو بعثر جيوشا.. انفتاح الإسلام على الدنيا إنما كان يرمى إلى إزالة الصد عن سبيل الله، وبث هداية الله إلى الإنسان حيث كان.. لم يكن هدفه إلى تقويض أو هدم لذاته، ولا إلى علو أو تجبر فى الأرض، وإنما كان منصرفا إلى إقامة (عالم جديد) كل الجدة، قوامه النور والتوحيد والهداية، وأساسه الصلاح والأمان والإخاء.

يدلنا التاريخ القديم والحديث، على فشل وإخفاق الثورات التى هدمت ودمرت القديم، دون أن تنشئ كيانا جديدا وشيئا باقيا.. الناس فى شعوب الأرض على عاداتها وأحوالها ومصداقاتها وأعرافها مالم تتقدم قوة باعثة تتبنى وتنهض على رؤية جديدة تصلح ما اعوج أو انحرف أو ضل من أحوال الناس، وهذا هو مافعله الإسلام فيما امتد إليه من أقطار.

تقدم الإسلام والمسلمون، وأقاموا الإمبراطورية العظمى، والحضارة الرفيعة، لأن عيون الدعوة كانت ملتفتة من واقع الدين نفسه ومبادئه ومثله وأحكامه إلى البناء وإقامة ما ينفع الناس من هداية ونظام وصلاح هو رسالة الإسلام ذاته إلى الدنيا. لم تكن الرسالة تقويض إمبراطورية الفرس أو الرومان، أو اجتياح بلدان، وإنما هى رسالة نور وهداية..

تتغيا تغيير الواقع الكئيب إلى «خفقات» جديدة تشد الحياة والأحياء إلى الأمام بقيم باقية تختلف عما كان فيه الناس!

الهداية والإصلاح والتغيير، هي عمود وروح الإسلام، وهي مع وفائه وأمانه، التي أتاحت هذا النماء الذي إليه الحضارة الغابرة.. الانحصر في التغنى بالفتح أو التقويض! هو التفات ضرير عن القيمة الحقيقية لعوامل الهداية والإصلاح والتواصل والبناء الذي عمرت به الحياة الجديدة في أقطار الإسلام!.

روح وعمود الإسلام هو في هذا الجوهر الذي عَمَّر به الإسلام حياة الدنيا ووصل به حيوات الناس.. قيمة الإسلام في «هاديته» وما قدمه إلى الدنيا لتستقبل به عالما جديدا كل الجدة، قوامه الهدى والنور والإيمان والإحساس بالأمان.. لا يحصر الإسلام نفسه في محض ما أنجزه المسلمون وحققوه من «أمجاد».. مجد الإسلام الحقيقي هو تلك الروح التي استطاع بها أن ينقل الدنيا من عهد مظلم إلى نور جديد.. قيمة التراث هي في قدرته على بعث عقول ونفوس جديدة مزودة بهذه الروح التي بها خطا المسلمون خطوات سبقوا بها زمانهم وعالمهم إلى مزيد حققوه من الوفاء والأمان.. ومن السلام والعطاء، ومن الاستنارة والمعرفة والعلم.. لم يكن المسلمون الماضون قادرين على تحقيق ما حققوه، وإنجاز ما أنجزوه لولا هذه الروح أو هذا العمود أو ذلك المفتاح الذي أعطى به الإسلام الأمان والسلام وغير وجه الحياة.

تاريخ المسلمين أو دول المسلمين ليس هو الإسلام في كل الأحوال.. لم يكن الإسلام هو بعض الحكام الذين حادوا أو تجبروا أو طغوا أو استعلوا أو طلبوا الصيت والهيلمان أو ركبوا على رقاب الناس، مثلما لم يكن فيمن شردوا وابتعدوا في شرودهم عن الدين نفسه، وتكلموا بلسانهم لا بلسان الدين، وتصرفوا برؤيتهم لا برؤية ومبادئ وقيم وأحكام الدين.. ابتعاد الغلاة أو المتطرفين كثيرا أو قليلا عن الدين لا ينال من الدين، فهو باق على حاله.. ذلك الدين الذي قال عنه رسول القرآن: «إن هذا الدين متين، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فأوغلوا فيه برفق، فإن المنبت لا أرضا قطع، ولا ظهرا أبقى».. هذا الدين المتين بقي على الدوام في قلوب عامة المسلمين.. في حنايا البسطاء الرحماء الذين لم تصرفهم غوايات

الدنيا عن جوهر رسالة السماء التي آمنوا بها واعتنقوها والتزموا حدودها في صمت وتواضع وسكون ووقار دون أن يطلبوا السمعة أو يسعوا إلى مجد زائف.. الإسلام عائش ولا يزال في قلوب هؤلاء الملايين الذي ملئوا المعمورة شمالا وجنوبا، شرقا وغربا.. يلتزمون حدود العالم الجديد المجيد، بقيمه ومبادئه وأخلاقه، الذي رسمه الإسلام وبثه وقدمه إلى الدنيا!.. مقومات المجد الحقيقي، كانت في روح الإسلام ومفتاحه الجديد العاشر بالقيم والأخلاق والتسامح والوفاء الذي قدمه الدين للناس وهداهم إليه.. في ذلك الأمان الوارف الجاذب الذي قدمه الإسلام والمسلمون لأبناء الأديان والملل والنحل الأخرى وأحاطهم به، في ذلك التعايش الذي تعايش به الإسلام بمنظومته الرفيعة الخلافة مع كل الأديان والحضارات!..

إن الأديان تقاس بما تبعته من هداية، وبما تصحح وتوقظ به الضمير، وبما تسكبه في نفوس الإنسان من قيم.. إن المسلم الحامل للشمائل الإسلامية، هو رسالة الإسلام إلى الدنيا في كل مكان وعلى امتداد الزمان.. هو ذلك الذي يفهم ويدرك أن الإسلام تقدم، لأنه دين جاذب جامع.. يحبيب ولا ينفّر، وأنه يخرج عن رسالته الكبرى من يعيب أو يشوه هذا الوجه البهي الجميل البديع المعطر لهذا الدين.. يعرف المسلم السوى الفاهم العاقل المخلص أنه مؤتمن بأخلاقه ومناقبه وخصاله وشمائله وسجاياه التي زرعا وبثها الإسلام فيه، على هذه الصورة الندية الفواحة التي شددت الأرواح والأفئدة وعاش بها هذا الدين في ضمير العالمين.



عمود الإسلام



ينشغل المسلمون، انشغالا محمودا، بمجد الإسلام كدين باق لما شاء الله، بيد أن هذا المجد ليس مرجعه كله أو بعضه - كما قد يتوهم البعض - للفتوحات الإسلامية العجيبة التي دانت للمسلمين في فترة وجيزة، ولا لحضارة الإسلام الأشد عجبا التي نبتت ونمت وازدهرت في بلاد الإمبراطورية الواسعة التي اعتنقت الإسلام.

ليس يمارى أحد فيما صاحب ذلك من شعور بالقوة النفسية والبدنية، ومن يقظة فكرية غير عادية وإحساس بالتفوق.. إلا أن عصارة مرجعية مجد الإسلام إنما هي إلى وضعه «المفتاح» أمام أيدي الناس للولوج إلى عالم جديد كل الجدة على العالم السائد الذي كان سائدا وقت نزول الإسلام.

العالم الجديد الذي وضع الإسلام مفتاحه أمام الناس، عالم مفتاحه الإصرار على الوفاء والإصرار على الأمان من جانب المسلم.. الوفاء بالوعد الذي يعده المسلم لغير المسلم والإصرار على الأمان الذي يجير به المسلم غير المسلم ويبقى وفيا به ملتزما بمقتضياته إلى أن يبلغ غير المسلم مأمنه.. ظل المسلمون على ذلك وصاحبهم الوفاء والأمان في مراحل تكوين إمبراطوريتهم وازدهار حضارتهم إلى أن دخلوا مع الناس فيما اصطلح عليه الناس وما زالوا فيه بآلامهم وآمالهم إلى اليوم.

قد كان يمكن للصخب الذي نسمعه الآن وقبل الآن، أن يمسك بالحبل الصحيح وهو تسلم ذلك «المفتاح» البسيط المليء بالثقة والروح والأمان والإيمان. بيد أن هذا الخيط يطمسه أو تحاصره لواعج الشعور بالهوان والديوى والتطلع إلى استعادة العزة والمنزلة والمكانة والسؤدد والثروة، وهذه اللواعج ومضاعفاتها وما يقتترن بها ويصاحبها من تغول أقوياء اليوم وجموح شطحاتهم وهجومهم الوحشى على الإسلام والمسلمين يصرف المسلمين عن الجوهر الحقيقي لهذا «المفتاح» الذي كان بشارة العالم الجديد الذي هز به الإسلام أركان العالم الذي كان سائدا وقت نزوله!.

عمود الإسلام. الذى غير واقع الدنيا، هو اتجاه العبد إلى خالقه بكليياته وجزئياته بإخلاص تام وأمانة كاملة مع الشعور بفيض الرحمة والود الذى يثيره حتما ذلك الاتجاه.. هذا الاتجاه لا يتغير إذ الخالق جل وعلا لا يتغير، وإنما الذى يتغير هو اتجاه الآدميين إليه سبحانه، وجودا وعدما، قربا وبعدا، جدا وهزلا، فهما وغباء، علما وجهلا.. وذلك على قدر بيت وبيئة الآدمى ووسطه وعصره وزمانه ومحيطه. فكل اتجاه جاد يشعر الآدمى بجده نحو خالقه هو اتجاه مقبول عند المسلم يصاحبه - لكى يصبح مسلما - الإيمان بالعقائد والاعتراف بالشعائر المقررة على كل مسلم، ومن هنا توطدت أسس العلاقات السلمية فى القرآن بين المسلمين وبين غير المسلمين وأهل الكتاب.. لم تغمض عيون الإسلام قط عن أن الناس خلقوا مختلفين، وأن هذا الاختلاف يجرى بين الأفراد عقولهم وقدراتهم وملكاتهم وفهمهم وعقائدهم ومذاهبهم.. فى القرآن المجيد بيان لهذه السنة الكونية: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ تَخِلْفِينَ﴾ (١١٨) ﴿(هود ١١٨)﴾.. روح وعمود الإسلام التفاته المحمود إلى هذا «الاختلاف» وموافاته بما يقتضيه من محافظة على العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين.. فى القرآن الحكيم: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مَخْذِيٍّ أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (المائدة ٥)..
أهل الكتاب وأن يتزوج منهم وأن تبقى الزوجة على دينها وهو على دينه، مثلها فى كل شئ مثل الزوجة المسلمة سواء بسواء..

الوفاء بالوعد والعهد وبالمواثيق، مبدأ عام أوصى به القرآن المجيد: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء ٣٤)..
﴿وَأَلْفَوْهُنَّ يَوْمَ أَكُنَّ مِنَ الْأُمَّةِ الْأُولَى﴾ (البقرة ١٧٧)..
﴿وَأَلْفَوْهُنَّ يَوْمَ أَكُنَّ مِنَ الْأُمَّةِ الْأُولَى﴾ (البقرة ١٧٧)..
وبأى شكل من أشكال إبدائه أو إثباته.. العهد الشفوى كالكتابى، والعهد بصيغته العامة

وبأى عبارة يقال، كالعقد الذى يبرم ويعقد بين أطراف.. فى القرآن الحكيم: ﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (١) (المائدة ١).. يمتد هذا الوفاء المأمور به إلى وجوب أن تصادق الأفعال الأقوال..

حق العهد والوفاء به مقدم فى الإسلام على حق الدين.. فى القرآن المجيد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يَهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ مِّبْنَكُم وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ (٢٢) (الأنفال ٧٢).. قدم القرآن بصريح وأمر لفظه، احترام ورعاية العهد والوعد والميثاق على نصره من يستنصر المسلمين فى الدين.. وفى الحديث النبوى: «إن حسن العهد من الإيمان».

دل الإسلام - كما قلنا سلفا - على أن الوفاء بالوعد هو خلق الأنبياء والرسل الصالحين: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ (٥٤) (مريم ٥٤).. الجنة هى ثواب الوفاء بالعهد: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لَا مُنْتَهَى لَهُمْ وَعَهْدُهُمْ رَاعُونَ﴾ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)﴾ (المؤمنون ٨ - ١١)..

لا شىء يبرر - فى أحكام الإسلام - نقض العهود والمواثيق، حتى خيانة من اتفق وعاهد وخان.. لا يزين الإسلام للمسلمين - بل يأبى عليهم - أن يتخذوا من خيانة المعاهد ذريعة للتردى فى مثلها، وإنما لهم فقط أن يواجهوا خيانتته بما يرداها عليه ودون أن يتعدوا ذلك إلى الجور والتنكيل.. فى القرآن الحكيم: ﴿وَإِنِ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ (١٣) (النحل ١٢٦).. وفى حديث رسول القرآن: «من كان بينه وبين قوم عهد، فلا يحلنَّ عهدها، ولا يشدنه، حتى يمضى أمده أو ينذ إليهم على سواء».

تقدم الإسلام وعاش - كما قلنا مرار - بوفائه ووفاء رسوله ووفاء المسلمين بالعهد.. وكان هذا الوفاء والإصرار عليه وعلى أمان الجوار للمسلم هو الأداة الرئيسية لنشر وانتشار دعوة الإسلام.. أمان الجوار للمسلم، لا يخرج منه أحد.. يعطى ويبدل للمسلم والكتابى ولغير الكتابى،

وللعربي ولغير العربي، الطريق الفسيح لأولئك أو غيرهم لاعتناق الإسلام والحرص عليه هو الثقة التامة في كلمة المسلم ووعده وعهده، وفي جيرة وجوار يمنحه المسلم لإنسان يخاف حتى يبلغ مأمنه.. ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتِّلْهُ مَأْمَنَهُ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ (التوبة: ٦).

أى آدمى يدخل إلى هذا العالم، مصحوبا بهذا الوفاء والأمان، يدخل إلى عالم جديد مختلف عما يتركه وراءه في العالم الآخر المشوب من قديم بالخدعة والغدر والخسة التي يتداولها الخلق في دنيا الناس!.

لم يتقدم الإسلام لأنه قوض إمبراطوريات، أو هدم أنظمة، أو بعثر جيوشا، فالتقويض أو الهدم أو البعثرة أو التدمير - محض إزالة فحسب، لا تقيم بذاتها جديدا، ولا تتضمن بالحتم تصميمًا على إعادة ما تم تدميره.. وإنما يرتبط التقدم بالقدرة على «البناء الجديد».. فى إقامة المشروع المستوحى من الدين، أو المعتقد فى صدور وعقول ورءوس رجال يلتفتون إلى إقامة وإحلال جديد ثرى خصيب محل القديم المجذب!!

يدلنا التاريخ القديم والحديث، على فشل وإخفاق الثورات التى هدمت ودمرت القديم، دون أن تنشئ كيانا جديدا وشيئا باقيا.. الناس فى شعوب الأرض على عاداتها وأحوالها ومصداقاتها وأعرافها مالم تتقدم قوة باعثة تتبنى وتنهض على رؤية جديدة تصلح ما اعوج أو انحرف أو ضل من أحوال الناس، وهذا هو ما فعله الإسلام فيما امتد إليه من أقطار.

تقدم الإسلام والمسلمون، وأقاموا الإمبراطورية العظمى، والحضارة الرفيعة، لأن عيون الدعوة كانت ملتفتة من واقع الدين نفسه ومبادئه ومثله وأحكامه إلى البناء وإقامة ما ينفع الناس من هداية ونظام وصلاح هو رسالة الإسلام ذاته إلى الدنيا. لم تكن الرسالة تقويض إمبراطورية الفرس أو الرومان، أو اجتياح بلدان، وإنما هى رسالة نور وهداية.. تتغيا تغيير الواقع الكئيب إلى «خفقات» جديدة تشد الحياة والأحياء إلى الأمام بقيم باقية تختلف عما كان فيه الناس!.

شحنة الهداية والإصلاح والتغيير، هى عمود وروح الإسلام، وهى مع وفائه وأمانه، التى أتاحت هذا النماء الذى إليه الحضارة الغابرة.. الانحصار فى التغنى بالفتح أو التقويض! هو

التفات ضرير عن القيمة الحقيقية لعوامل الهداية والإصلاح والتواصل والبناء الذى عمرت به الحياة الجديدة فى أقطار الإسلام!.

روح وعمود الإسلام، هو فى هذا الجوهر الذى عَمَّر به الإسلام حياة الدنيا ووصل به حيوات الناس.. لذلك فإن قيمة الإسلام لا تنحصر فى محض ما أنجزه وحققه، وإنما فى تلك الروح التى استطاع بها أن يكون قاطرة البشرية من عهد مظلم إلى نور جديد.. قيمة التراث هى فى قدرته على بعث عقول ونفوس جديدة مزودة بهذه الروح التى بها خطا المسلمون خطوات سبقوا بها زمانهم وعالمهم إلى مزيد حققوه من الوفاء والأمان، ومن السلام والعطاء، ومن الاستنارة والمعرفة والعلم.. لم يكن المسلمون الماضون قادرين على تحقيق ما حققوه، وإنجاز ما أنجزوه لولا هذه الروح أو هذا العمود أو ذلك المفتاح الذى أعطى به الإسلام الأمان والسلام وغير وجه الحياة. يجدى المسلمين أن يلتفتوا إلى هذا كله، ولا يجديهم - بل يعود بهم إلى مزيد من الوراثة والتقهقر - أن يتوهموا أن الجلبة والصياح والصخب وإثارة وإلهاب مشاعر العوام والعاطلين هى الطريق إلى المجد الذى كان!.

مقومات المجد، كانت فى روح الإسلام ومفتاح العالم الجديد العامر بالقيم والأخلاق والتسامح والوفاء الذى قدمه الدين للناس وهدهم إليه.. فى ذلك الأمان الوارف الجاذب الذى قدمه الإسلام والمسلمون لأبناء الأديان والملل والنحل الأخرى وأحاطهم به، فى ذلك التعايش الذى تعايش به الإسلام بمنظومته الرفيعة الخلابة مع كل الأديان والحضارات، فجذب الناس وشدهم إليه، واستظلوا به، وأعطوا فى دوحته، فكان هذا وذاك هو «مائدته» الرشيدة الحكيمة التى هدت القلوب والأفئدة إليه، فأقدموا طائعين محبين راغبين على الاقتراب منه ثم الدخول إليه.

المسلم الحامل للشمائل الإسلامية، هو رسالة الإسلام إلى الدنيا فى كل مكان وعلى امتداد الزمان.. هو ذلك الذى يفهم ويدرك أن الإسلام تقدم، لأنه دين جاذب جامع.. يحجب ولا ينفر، وأنه يخرج عن رسالته الكبرى من يعبت أو يشوه هذا الوجه البهى الجميل البديع المعطر لهذا الدين.. يعرف المسلم السوى القاهم العاقل المخلص أنه مؤتمن بأخلاقه ومناقبه وخصاله وسجاياه التى زرعها وبثها الإسلام فيه، على هذه الصورة الندية الفواحة التى شدت الأرواح والأفئدة وعاش بها هذا الدين فى ضمير العالمين.

شجرة المساواة وحقوق الإنسان في الإسلام



تتضمن حقوق الإنسان في الإسلام وفي مقدمتها مبدأ «المساواة» إلى شجرة باسقة، في دوحة ظليلة تمثل ركنا ركينا من أركان هذه الدعوة العالمية التي أراد لها الله ألا تكون محدودة بحدود مكان، أو قاصرة على أقوام، أو مطوية في زمن واحد من الأزمان.. عالمية الإسلام تعنى أنه دين العالمين من يوم نزلت الرسالة وإلى يوم الدين.. لا تحده أرض، ولا ينقضى بزمان، ولا يستأثر أو يختص به قوم دون أقوام، ولا جيل دون أجيال. هذا الاتساع الكوني للدعوة، جعلها تطوى في حناياها كل الرسائل، وأوجب أن تتسع لكل الناس.. هذه الدعوة يتجه خطابها إلى الناس كافة.. أمس، واليوم، وغدا.. على اختلاف أجناسهم وأعراقهم وظروفهم وأحوالهم !!

شجرة حقوق الإنسان في الإسلام، تقوم كما رأينا على جناحين. الأول: مبدأ المساواة، والثاني: وحدة الأصل البشري.. لم يعبر كتاب من كتب الأديان عن وحدة الأصل - مدخل المساواة - كما عبر عنه القرآن المجيد، ولا اعتبر الناس إخوة في أسرة إنسانية كبيرة كما اعتبرهم القرآن الحكيم. لذلك لم تمس الاختلافات بين البشر، وهذه سنة كونية، ما بينهم من أخوة وانتماء إنساني تذوب في أخوته الإنسانية الشاملة كل فوارق.. الإنسان الفرد، أمام الإسلام، قيمة في ذاته لا ينتهكها استعلاء ولا تجبر ولا مال ولا هيلمان.. الكل سواء أمام الله، وأمام القانون.. من حرص الإسلام على هذه المساواة، ورفضه الطبقية بشتى صورها وأشكالها، أنه لم يجعل للدين أو رجاله طبقة، ولم يقبل أن يكون لهم طبقة.. فلا كهانة في الإسلام، ولا واسطة بين العبد وربيه.. باب السماء مفتوح لكل إنسان بلا كاهن ولا حبر إلا اتجاهه إلى الله تعالى بإخلاص وقلب منيب.. إن أعياء التعرف إلى شيء، فأمامه أهل الذكر والعلم، يلجأ إليهم - بلا كهانة - ويتلمس لديهم ما قصر عنه علمه أو فهمه.. فالقرآن المجيد يقول: ﴿فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣) فلا مصادرة على المؤمن في النظر والتأمل والتفكر، ولا سلطان عليه غير

سلطان العقل والنظر الصحيح والموعظة الحسنة.. فضيلة أهل العلم ليست فضيلة طبقة ولا سلطة وإنما فضيلة اتساع علم وقدرة على البيان والتوضيح والإرشاد والموعظة الحسنة. المساواة أمام القانون، فرع على هذه الشجرة الوارفة التي يتساوى فيها أفراد الأسرة الإنسانية، يعبر عنها نبي القرآن عليه السلام في حديث بالغ الدلالة، محدد العبارة، قاطع الحكم، يمتد بصريح عبارته إلى الناس كافة لا إلى المسلمين خاصة.. يقول عليه الصلاة والسلام: «الناس متساوون كأسنان المشط».. في دوحة القرآن لا تحل الكلمات محل الأعمال، فلا قيمة لكلام مزخرف لا يقابله واقع حاصل مطبق.. في القرآن الحكيم ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف ٣).. من يراجع السيرة المحمدية، وسيرة الراشدين، يرى صورة مثلى لمصادقة الأفعال والأعمال للأقوال.. في مرضه الأخير، خرج النبي ﷺ متحاملا على نفسه إلى المسجد ليقول للناس: «يا أيها الناس من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منه، ومن أخذت له مالا فهذا مالي فياخذ منه. ولا يخشى الشحنة من قبلي فإنها ليست من شأني، ألا إن أحبكم إلى من أخذ مني حقا إن كان له أو حللني فلقيت ربي وأنا طيب النفس».. وهو هو - عليه السلام - الذي رفض غاضبا وساطة حبه أسامة بن زيد لإعفاء فاطمة المخزومية القرشية من حد السرقة، وقال للناس: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»!

هذا وتنوع الخلق لا حدود له، وتفاوتهم - من ثم - تفاوت واقع حادث لا حد لأشكاله ولا موقف لسننه.. خطاب الدعوة العالمية يتجه إلى معمرات وحضارات، وإلى فيافي وصحارى وقفار.. إلى بقاع باردة، وأخرى حارة.. إلى أراض غنية، وأخرى بلقع.. يتجه إلى الذكور، وإلى الإناث.. إلى الشيوخ والكهول، وإلى الشباب والأطفال.. إلى المرضى، وإلى الأصحاء، إلى الفقراء، وإلى الأغنياء إلى الضعفاء وإلى الأقوياء، وتفاوت هؤلاء وأولاء حقيقة كونية، فكيف تكون بينهم «مساواة»، وكيف يلتئم هؤلاء جميعا على رغم هذه الاختلافات

الهائلة والتفاوت الحتمي: الخلق، والمكتسب.. كيف يلتئمون جميعا فى شجرة واحدة عمودها «المساواة»؟.

عبقريّة الإسلام، هذه الدعوة العالمية، أن تحل هذه المعضلة، فتتعامل مع واقع الاختلاف والتفاوت، ولا تنزع عن آدمى - فى الوقت نفسه - إحساسه بالانتماء، وعلى قدم المساواة، إلى هذه الشجرة الإنسانية التى عمادها الإخاء والحرية والمساواة!.

الآدمى - أى آدمى - نسخة غير مكررة من باقى الآدميين، يختلف بالضرورة عنهم ويختلفون عنه، يتفاوت وإياهم، ويتفاوتون وإياه على قدر حظ كل فرد من «المواهب» الخَلْقِيَّة (بكسر الخاء) أو من المزايا المكتسبة بالتعلم والدراسة والخبرة والاجتهاد، من المحال أن يكون الآدميون جميعا نسخا كربونية متماثلة، فالتنوع حتمى فضلا عن أنه ضرورى لتدافع الحياة وتقاسم الأدوار فيها.. فكيف يمكن أن تتحقق المساواة بين غير المتساويين؟!

وكيف يمكن أن تجرى سنفن الأحياء، وتستقيم حوافز الناس ودوافعهم وبواعثهم إذا تساوى العالم والجاهل، والنشط والقاعد، العامل والكسلان، المجاهد والمتخاذل، الجاد والهازل، الساعى والخامل؟! ثم كيف تكون «المساواة» - الشجرة الباسقة التى أرادها الإسلام بعالمية دعوته، لهؤلاء الناس جميعا على اختلافاتهم التى لا تبدل لسننها!.

إنكار الواقع غفلة غبية من المحال أن تقع فيها الدعوة الإلهية العالمية، ثم أن هذا الإنكار للواقع لن يقود إلى شىء، ويحمل فى ذاته معاول هدمه.. الناس متفاوتون - ولا بد أن يتفاوتوا - بالعلم والفضيلة، فلم ينكر القرآن ذلك، وقال ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١) ﴿الزمر ٩﴾ ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (١١) ﴿المجادلة ١١﴾.. والناس متفاوتون - ولا بد أن يتفاوتوا - فى العمل والبذل والعطاء والكد، فلم يشح القرآن المجيد عن ذلك، وقال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٤) ﴿الأنفال ٤﴾.. ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ (٢٠) ﴿الأحقاف ٢٠﴾، الأنعام (١٣٢).. والناس متفاوتون - ولا بد أن يتفاوتوا -

فى الجهاد، فلم يتجاهل القرآن الكريم ذلك وقال: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۝ (١٥)﴾ (النساء ٩٥).. والناس متفاوتون - ولا بد أن يتفاوتوا - فى أنصبتهم من الرزق وأسباب المعيشة.. وفى القرآن الحكيم: ﴿وَنَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ۝ (٣٣)﴾ (الزخرف ٣٣).

بيد أن هذا التفاوت الذى يشير إليه القرآن، لا يحظى من القرآن بصك أو موافقة أو دعم أو تأييد تقوم به العلاقات أو تجرى التمييزات بين الناس، أو يصفنون به إلى «طبقات»!.. فأنت تلاحظ أن القرآن المجيد لم يستخدم بتاتا لفظ «طبقة» أو «طبقات» وإنما حرص على أن يحدد العبارة فى لفظ «درجة» أو «درجات».. فلا طبقات فى الإسلام، ولا تمايز فى الإسلام بين طبقة وأخرى، أو بين عرق وأعراق أو بين جنس وأجناس، أو بين عصبيات، أو بين أغنياء وفقراء، أو بين أقوياء وضعفاء.. وإنما هى شجرة واحدة، لأسرة واحدة، يجمعها رباط واحد، لا فرق فيه بين إنسان وإنسان، و.. «إنما المؤمنون إخوة».

وليس أجزى للإنسان، حيث كان، من دين يطوى الناس فى أمة واحدة لا تفاضل بين أفرادها إلا «بالعمل»، لا بالحسب ولا بالنسب ولا بالأعراق ولا بالأموال.. الإسلام أقر بوجود التنوع والاختلاف والتفاوت، وأعطى فى الوقت نفسه للمساواة حقها.. فى القرآن الحكيم فى خطاب موجه إلى الناس كافة، لا إلى المسلمين خاصة، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝ (١٣)﴾ (الحجرات ١٣).

هذه الآية الجامعة، تلفت الأنظار إلى أصل الإنسانية الواحد، والخطاب فى هذا متكرر فى القرآن المجيد، وهو لفت الإنسان إلى حجر الزاوية الأول فى مبدأ المساواة بين الناس، وهو أن الناس جميعا ينتمون إلى أصل واحد.. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۝ (١)﴾ (النساء ١) وهو الذى أنشأكم من

نَفْسٍ وَجِدَةٍ ﴿١٨﴾ (الأنعام ٨٩).. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (الأعراف ١٨٩).. هذا التنبيه القرآني المتكرر إلى أصل الإنسانية الواحد، تنهدم به دعاوى العنصرية والعصبيات، وينفصح الطريق ممهدا واسعا على مصراعيه للأخوة التي لفت القرآن الأنظار إليها بين الناس جميعا.. هذه الأخوة، عماد المساواة، تسلس إلى الركاز الثاني في مبدأ المساواة.. هذا الركاز ينصب في مناط المفاضلة التي لا تكون إلا «بالعمل» لا بالأعراق والأحساب والأنساب ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات ١٣) حين ترتد المفاضلة إلى هذا الميزان فإنها تجمع بين العدل وبين الحكمة جميعا، فلا تخذل النشاط العالم الساعي المجاهد التقى الورع، ولا تغلق في الوقت نفسه أبواب الرجاء أمام غيره وإنما تبقى الباب مفتوحا وفي إطار الأخوة التي تحدث عنها القرآن - لارتداد سبل التنافس والتبارى على نول المكانة التي معيارها الوحيد «التقوى والعمل الصالح».. ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطففين ٢٦)..

عظمة وحكمة «المساواة» في الإسلام أنها لا تبطل سنن الحياة، ولا تبطل سباق الأحياء في صوالح الأعمال.. فلن ينقطع سباق الحياة بين الناس، مثلما لم ولن ينقطع التفاوت بينهم.. ولا معنى للتفاوت ولا للمساواة إذا تساوى القادر والعاجز، وتساوى العامل والخامل، وتساوى النشاط والكسلان وأصبح الكسلان يكسل ويقعد ولا يخاف على وجوده، والعامل يعمل ويكد ويتعب ولا يأمل أو يطمح في أفضلية أو رجحان.. لذلك فإن المتابع للفلسفة القرآنية يرى أن تقرير «الأخوة» و«المساواة» الإنسانية لم يمنع من التفاضل بين الناس، بيد أن هذا التفاضل لا يرتد إلى منصب أو جاه أو سلطان أو عصبية أو أعراق أو قوة أو بطش أو جبروت، وإنما مناطه الوحيد هو «العمل الصالح».

أدلة معيار المفاضلة، وإنحصارها في «العمل» لا في العرق أو النسب أو الجاه أو السلطان، أدلة متعددة أيضا في السنة المحمدية.. معيار المفاضلة بين الناس إنما هو في أعمالهم لا في «أنسابهم».. وفي الحديث: «ليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر - فضل إلا بالتقوى».. يتحدث النبي عليه

السلام إلى قومه بنى هاشم فيقول لهم : «يا بنى هاشم لا يجئني الناس بالأعمال وتجيئوني بالأنساب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم..»

هذا المعيار معيار «العمل» لا الحسب ولا العرق ولا النسب ولا الجاه - الذى إليه مناط المفاضلة، يفسر ما يظن البعض أنه ينطوى على «شبهة» «عدم مساواة» فى الإسلام.. فهذه المفاضلة المردودة إلى «العمل»، هى جوهر «المساواة». فالمساواة بين غير المتساويين ظلم، وإبطال فى الوقت نفسه لسنن الحياة وتدافع الناس لترتقى بهم وبأعمالهم الحياة.. فحكمة التفاوت ظاهرة فى تكامل الحياة فى الكون، كما أن آفة التماثل أو التطابق بين الناس أظهر، لأن الحياة ستظل أبدا تحتاج وتفتقر إلى «المزايا» -إذا قصرت حركتها - فيما يقول العقاد - على تكرير صورة واحدة ونسخة واحدة تتطابق فى جميع الأفراد!!

معيار «العمل» كمنافس للمفاضلة، وبث حوافز الحياة، ودفع حركتها - يتماس معه أيضا ما يكون مرده إلى إختلاف الأحوال أو الظروف فيحسبه البعض دالا على عدم مساواة فى الإسلام، بينما هو لب وجوهر «المساواة» التى يتوجب عليها أن تدخل فى موازينها هذه الفروق الناجمة عن إختلاف الظروف والأحوال لتتوزع للجميع إلى «المساواة» التى منبعها «الأخوة» الإنسانية وتساند وتكافل الناس. إن الفاهم المدرك لقضية المساواة، سوف يدرك أن الإسلام قفز بالبشرية كلها إلى الأمام إعلاء لهذا المبدأ، وسوف يفهم أنه سبق الشرائع جميعا فى تقرير المساواة بين المرأة والرجل، وسيفهم أن «قوامة» الرجل المقررة فى القرآن ليس مردها إلى تفرقة وتمييز، وإنما إلى تقسيم واجبات وأعباء، وتقنين لما تستقيم به أحوال وشنون الأسرة.. من يتأمل معنى وغاية الحديث النبوى: «الضعيف أمير الركب»، سوف يدرك أنه ليس تمييزا لضعيف وإنما هو تقرير لواجب الأصحاء أو الأقوياء فى رعاية الضعفاء.. فليس يستوى الضعيف والقوى فى الركب، القوى قادر بينما الضعيف لا يقدر، لذلك كانت «المساواة» تعنى لدى الإسلام - فى معناها السامق - أن يكون الضعيف هو أمير الركب، ليجبر الصحيح القوى - ضعف المريض أو الضعيف، ولتكون «المساواة» المقصودة المرعية هى التى ترد الناس إلى «الأخوة الإنسانية» فى صورتها الرفيعة السامقة!

لا يستبعد الإسلام من واحة المساواة أهل الذمة الذين يقيمون في دار الإسلام.. فهم أحرار في عقائدهم وفي إقامة شعائرهم وفي ممارسة نشاطهم وفي ولاية الوظائف، ولهم أيضا نصيبهم في بيت المال، ويتمتعون بمظلمته التي تقيهم العوز والحاجة. روى عن الفاروق عمر عليه الرضوان أنه صادف شيخا يهوديا ضريرا يتكفف الناس، فأخذه بيده إلى بيت المال يقول لعامله عليه: «انظر هذا وضرباه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم»!

إحساس الناس، في واحة الإسلام، بأنهم متساوون أمام القانون، نابع من منظومة قرآنية تعاضدها السنة النبوية، ونابع أيضا من تطبيقات متتالية كرس لدى الناس أنهم أمام القانون سواء، وأن هذا هو حقهم جميعا في الإسلام الذي لا يجمال في هذه المساواة أحدا مهما بلغت مكانته أو اشتدت عزوته أو ثارت خشية أو مخاوف من معاداته للإسلام أو نكوصه عنه.

يساوى المجتمع الإسلامى بين الناس في تولى الوظائف العامة، لا يميز أحدا لنسبه أو لعرقه أو لحسبه أو لماله، ويحذر النبي ﷺ من المحاباة في اختيار الولاة وأرباب الخدمة العامة، فيقول: «من ولى أحدا محاباة فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين» لا إثثار لأحد لجنسه ولا لماله أو جاهه أو مكانته أو عزوته»!

هذه المساواة في تولى الوظائف العامة تنطلق من المبدأ العام لمعنى المساواة في الإسلام.. ليس معناها أن يُقدم الجاهل على العالم في ولاية الوظائف، ولا أن يُقدم الفاسد على الصالح، فولاية الوظائف أمانة، والاختيار لها يخضع ويجب أن يخضع لمعايير ضامنا لحقوق الناس الذين تبذل الوظائف العامة من أجل رعاية مصالحهم.. وفي القرآن الحكيم: ﴿إِنَّكَ بِخَيْرٍ مِّنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوِيَ الْأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦) - ويقول أهل الفقه والنظر إن كل ولاية بحسبها، فإن كانت الوظيفة للمال قدمت الأمانة، وإن كانت لقيادة الجيوش قدمت القوة.. وفي جميع الأحوال فإن الاختيار أمانة للصالح العام.. من أجل ذلك لم يتحرج رسول القرآن عليه السلام من أن يقول لأبى ذر الغفارى على حبه وإيثاره له حين طلب ولاية: «يا أبا ذر إن بك ضعفا، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة - إلا لمن أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها».

هي إذن ليست مساواة حسابية وإنما مساواة قانونية لا تفرق بين الناس لجنس أو حسب أو لون أو جاه، وتختار الأصل بغض النظر عن أى اعتبار من هذه الاعتبارات. وصاحب الوظيفة ذاته، لا يتميز على الناس، ولا يفضلهم بشئ، حتى وإن كان أميراً عاماً للمؤمنين.. يسمع الناس فى الإسلام، أبا بكر الصديق يقول للناس يوم ولوه الخلافة: «لقد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنتم فأعينوني! وإن أسأت فقوموني».. ومن بعده سمع الناس للفاروق رضى الله عنه يقول لهم: «إنما أمير المؤمنين رجل منكم ولكنه أثقلكم حملاً».. فهم هؤلاء من إمام مدرسة النبوة ﷺ أن ولاية الوظائف العامة واجب وحمل وتكليف وليست تسلطاً، وأن قوامها العدل والحق والمساواة، وليس السيف أو السوط أو هوان عباد الله!

هذه المساواة الإسلامية، امتدت إلى كل المظاهر فى الحقوق والواجبات.. فى العطاء، وفى واجب الجهاد أو ما يصطلح الآن على تسميته بالخدمة العسكرية، وفى الضرائب، وفى نصيب الناس من حمل أعباء الجماعة، وفى حق كل منهم فى بيت المال.. لا تميز السياسة العامة للمال فى الإسلام بين الأفراد فيما يستحقون وفيما يأخذون كل بحسب عطائه وبحسب نصيبه، لا يُمنح أحد ويُحرَم آخر، ولا يفرق بين ذكر وأنثى، أو بين مسلم وذمى.

النعيم المستقى منه هذا وغيره من أحكام المساواة، يرجع إلى واحة ظليلة وارفة، وضعها القرآن المجيد، ونهض عليها الرسول الأمين ﷺ.. يأبى عليه السلام على الناس أن يعظموه، ويقول لهم: «لا تقوموا لى كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً».. «إنما أنا عبد من عباد الله آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس».. يقول حانيا رفيقا لمن أخذته الرعدة من هيبتة: «هون عليك يا أخى، فإنى لست بملك ولا جبار، وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد فى مكة».. يجالس عليه السلام أصحابه من العبيد والفقراء والمساكين، يحنو عليهم ويؤاكلهم ويعود مرضاهم ويرفض دعوة قريش للتعالي عليهم.. يخصف نعله بيده، ويكنس بيته، ويحلب شاته، ويعقل بعيره، ويؤاكل خادمه أنس بن مالك، ويرفض أن يتميز على أصحابه.. يسبقهم فى حفر الخندق ونقل الأحجار فى غزوة الأحزاب حتى

عفر التراب جبينه، ويسبقهم إلى تحضير الطعام ولا يأنف من جمع الحطب والوقود، ويأبى دعوة أصحابه إليه أن يحلوا محله، ويقول لهم: «أعلم أنكم تكفونى، ولكن الله يكره من العبد أن يكون متميزا على أصحابه».. يسبق صحابته إلى مواطن الخطر فى الجهاد، حتى قال على بن أبى طالب نجيب مدرسة النبوة: «إنا كنا إذا اشتد اليأس، وحمل الوطيس، واحمرت الحدى، احتميننا برسول الله، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه».. فى بناء المسجد بالمدينة يراه المسلمون يده مع أيديهم فى البناء، يجمع ويحمل معهم الأحجار من هنا وهناك، ويشاهده أحد المسلمين عارضا لبنة على بطنه، ويظن أنها شقت عليه، فيطير إليه يقول له: يا رسول الله ناولنيها.. بيد أنه ﷺ يأبى عليه ويجيبه: «خذ غيرها، لا عيش إلا عيش الآخرة»، فلما ألح عليه، قال له عليه السلام «اذهب فاحتمل غيرها فإنك لست بأفقر إلى الله منى!».

«القدرة» فى شرعة الإسلام، تكاليفها ثقيلة، وأعباؤها جسيمة، لذلك فإن الإسلام حين يفرض واجبات أو قوامة أو أعباء أو مهام على القادر، إنما يفرضها رعاية لبدأ المساواة وتحقيقا له فى صورته السامية لإعادة السواء - بروح الأخوة الإنسانية - لما ينبغى أن يكون بين الناس، وهذا المَعْلَم الإسلامى، هو من أهم خصائص عالميته التى يفهم منها الناس جميعا على إختلاف خلقهم ومواهبهم وحظوظهم وملكاتهم وقدراتهم وعلمهم وفهمهم وطاقاتهم - أنهم سواء فى واحة الإسلام، لافرق بين غنى ولا فقير، ولا قوى ولا ضعيف، ولا تفاضل بالأعراق، ولا بالأحساب والأنساب ومنازل الآباء، وإنما كل بقدر عمله وبذله، فإن قعد به عجز، أو مرض، أو ضعف، أو غير ذلك، تداركته المساواة الإسلامية بروح الأخوة الإنسانية التى تبذل له ما يعينه على مرضه أوضعفه أو عجزه أو غير ذلك من العوارض!

من اللافت، الجدير بالاستشهاد، أن هذه المعانى السامية العميقة لم تغب عن بعض الدارسين للإسلام من غير المسلمين.. فى مؤلف للبروفيسور روشبروك وليامز (RUSHPROOK WILLIAMS) عن دولة باكستان، يقول عن تقاليد الإسلام: «إن هذه التقاليد تشمل مبادئ المساواة بين الأرواح الإنسانية أمام الله وتقرير أواصر الأخوة العالمية

بغير نظر إلى العنصر أو اللون، كما تقرر فريضة الدفاع عن الضعيف وحمايته ممن يجورون عليه، وإغاثة المعوزين والمحرومين وبذل الحياة نفسها في سبيل الصراط المستقيم... أما الكاتب الشهير هـ. ج. ويلز WEILLS - فيقول في كتابه الشهير «موجز تاريخ العالم» (Short History of the world) ما نص ترجمته عن الإنجليزية: «وثمة عنصر ثالث للقوة يكمن في إصرار المسلمين على أن المؤمنين جميعا أخوة متساوون تماما أمام الله مهما اختلفت ألوانهم وأصولهم أو مراكزهم» هذه «المساواة» التي رفعها الإسلام، كانت أول ما شق على الأرستقراطية القرشية والعصبية الجاهلية المخلوطة بالثراء والمكانة.. كان أعظم ما إستهولته قریش وكبارها، أن يجمع النبي عليه السلام - في مجلس واحد - بينهم على ثرائهم وشرف أنسابهم وكريم محتدهم، وبين العبيد والفقراء والمستضعفين فيتقدم رؤوس القرشيين إلى النبي عليه السلام معارضين طامعين في حل.. كيف يجلس إليه، ويريدهم معهم، أمثال بلال الحبشى، وعمار بن ياسر، وصهيب بن سنان، والعبيد وعامة الناس.. يريدون منه أن يطردهم وينحيهم عنه، أو يخصص لهم يوما وللقرشيين آخر رعاية لحسبهم ومنزلتهم وأعرافهم وجاههم.. فيأبى عليهم النبي ما يريدون، ويتنزل في ذلك من الذكر الحكيم ما يقول للنبي تأكيداً لما قاله لهم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام ٥٢).

هذه المساواة الإسلامية، في شجرتها الباسقة، لم تقف فقط عند المعاني والمقاصد التي تتوقف عندها دساتير اليوم، وإنما جاوزتها إلى ما يلحق بها كل مساندة أو عون أو جبر أو كفكفة عن مريض أو ضعيف أو عاجز، ولتلق الجميع بالمجتمع الإسلامى - في دوحة يتساند الكل في ظلها بأخوة وتكافل ومساواة وتحاب وسلام - هذه الأخوة الإنسانية التي عبر عنها نبي القرآن بقوله: «من آذى ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة».. هذه الأخوة التي تنتمى إليها المساواة التي لا مفاضلة في رحابها إلا بالتقوى وصالحات الأعمال.. الكل أمام القانون وأمام القضاء سواء، والكل في الأعباء العامة وفي الضرائب سواء، والكل في تولى الوظائف العامة وفي العطاء سواء، وفي الخدمة العسكرية سواء،

أما تفاصيل ما تضمنه هذه الدوحة الزاهرة الفياضة ، فغاية عريضة تحتاج إلى مساحة أوسع من هذا المقام.

هذه الواحة الوارفة للمساواة في الإسلام ، معلم أساسى من معالم عالميته التى تتسع للناس جميعا على امتداد المكان والزمان ! ، وركيزة أساسية لأمان المجتمع الإسلامى الذى يحس فيه الفرد بانتماؤه إلى المجموع بغير تمييز ولا محاباة ولا تفاضل ولا تظالم ، وإنما قوام التقدير : «التقوى والعمل الصالح».

الأديان المتجهة إلى أقوام ، أديان مغلقة ، لاتعطى للآدمى ما يعطيه الإسلام من إحساس عميق بآدميته وبانتماؤه والناس طرا إلى أصل واحد ، وانضواؤه وإياهم فى أسرة واحدة لا يتمايز فيها أحد بجنسه أو عرقه أو لونه أو حسبه أو نسبه أو عمله أو منصبه أو جاهه أو ماله أو ثرائه .. هذه «المساواة» هى رسالة الإسلام إلى الدنيا وإلى الناس كافة ، أنهم فى ظل دوحته الوارفة ، يلتئمون جميعا فى شجرة واحدة عمودها وأمانها المساواة ، وأنهم فى رحاب هذا الدين العالمى ينتمون إلى شجرة الإنسانية التى يتساوى فيها الجميع فى رحاب الله وفى إطار دعوته العالمية إلى الناس كافة وعمادها الإخاء والحرية والمساواة!.



السماحة وعالمية الإسلام!



سماحة الإسلام فرع على معالم عالميته، وعلى خصال وشمائل فيه عديدة، أو هي خصلة جامعة لخصاله، صدى لها، ومعبرة عنها، ثم هي تلتئم مع كل هذه المعالم والسمات في اتساع الإسلام للعالمين إلى يوم الدين، وامتداد واحتة إلى من لم يؤمن به مثلما هي للمؤمنين به.. الدين العالمى دين يحمل بذوره وقدرة الامتداد الواسع العريض، فى الزمان والمكان.. لا تحده أرض، ولا ينقضى بزمان، ولا يستأثر أو يختص به قوم دون أقوام، ولا جنس دون أجناس، ولا بلد دون بلدان، ولا عرق دون أعراق، ولا جيل دون أجيال، وإنما هو دين يخاطب العالمين، وبخطاب صالح لكل الأزمنة والأماكن والعصور.. يخاطب الناس كافة على سنن الهداية والبيان والاقناع الذى يخاطب الألباب والضمائر والوجدان، ولا يغلق دون أحد بابيه، ولا يوصد واحتة أو يعطى ظهره فى وجه أحد.. الاتساع الكونى لرسالة الإسلام جعل بابها مفتوحا للعالمين، واستلزم منظومة معطرة من الأخلاق والسجايا والخصال جعلت من واحة هذا الدين عنوانا للتسامح، سواء بين بنية المؤمنين به، أم بينهم وبين باقى الناس، كل الناس، على اختلاف أديانهم ومللهم وعقائدهم ومذاهبهم وأعراقهم وأجناسهم وبلدانهم.. تسامح الإسلام هذا الشامل، تسامح ينبع من أنداء عطره وخصال رحمته وعدله وإحسانه وعفوه وغفرانه.. عدل الإسلام، عدل مع الناس كافة، يتجه إليهم بسواء موازينه دونما تفرقة لأديان أو ملل أو تحل أو أعراق أو أحساب أو أنساب.. منظومة الأخلاق الإسلامية، تلك البديعة الرائعة، الشاملة الجامعة المانعة أرادت للمسلم ورسمت له وحضته وأكدت عليه وأرشدته أن يكون فى الدنيا ينبوع خير ومحبة وألفة ورفق وعطاء وتواصل.. سماحة الإسلام مع منظومة سجاياه رسالة إلى الدنيا فرقت بين عهدين.. تسالم وتبث المحبة والإسماح ولا تبادلئ بعداء، ولا تلفظ من رحابها أبناء الملل والديانات الأخرى، بل هي تؤمن الكافر وتجيره حتى يسمع كلام الله ثم تبلغه مأمنه.. فى القرآن المجيد: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتْلُغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦) (التوبة ٦).. كفر الكافر وشركه دال على جهله وانعدام أو فقر

علمه، فإن علم كان العلم كفيلا بهدايته.. لذلك لا ييأس الإسلام قط من الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.. ولا تنسلخ بتاتا من سعيها الدائم الرفيق إلى البيان والإقناع والهداية.. الإسلام دين مفتوح، جامع جاذب كالعدسة اللامعة.. يتعانق مع الدنيا، ويفتح أبواب رحمته وعطائه للناس جميعا في حب وإسماح.. دين أباد لبنيه أن يكونوا نفحة عطاء وعطرا للآخرين..

بدأ الإسلام فرفض كل أنواع العصبية وهى عدوة السماحة والإسماح.. ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (١٣) (الحجرات ١٣) .. «كلكم لآدم.. وآدم من تراب.. إن أكرمكم عند الله أتقاكم» يتسامح الناس، ويتسامح المتدينون، حين يدركون أن أصلهم واحد، وأن انتماءهم إلى شجرة واحدة.. إلى ذلك لفت القرآن الحكيم، حين نوه في العديد من آياته إلى أن الناس جميعا ينتمون إلى أصل واحد ونفس واحدة.. ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (١) (النساء ١) .. ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾ (١٨) (الأنعام ٩٨) .. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (١٨٩) (الأعراف ١٨٩) .. هذا التنبيه القرآني المتكرر إلى أصل الإنسانية الواحد، تنهدم به نغرات العنصرية والعصبية، وتتسع الباحة الإسلامية الوارفة إلى الناس جميعا على سنة الهداية والإسماح.. لا معيار للمفاضلة إلا بالعمل والتقوى.. ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (٣٩) ﴿وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ (٤٠) (النجم ٣٩، ٤٠) .. غاية الإسلام أن يهدي من لم يهتد، وهذه الهداية قوامها الإقناع بالحجة والبيان، بالحكمة والموعظة الحسنة وائتلاف الناس بالحب والرفق والإسماح.. «المؤمن ألف ومألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف».. «مادخل الرفق في شئ إلا زانه، وما خرج من شئ إلا شأنه».. الهداية الإسلامية لا تفرض بالقسر والإرغام، وإنما هي دعوة هادية بالمحبة والبيان.. ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَأَتَمَّ يَهْدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَأَنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥) (الإسراء ١٥) .. ﴿قُلِ اللَّهُ تَعَالَىٰ تَعَالَىٰ عَنْ خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (١١) (الأنعام ٩١) ..

لا يسعى الإسلام لفرض دين، ولا يجبر على هداية.. سماحته في الدعوة عنوان لثانة بنائه واستقامة عناصره.. ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِاللَّيِّ هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل ١٢٥).. رسول القرآن عليه البلاغ والإرشاد لا الفرض ولا الإكبار.. ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ (الشورى ٤٨).. ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ (٢٣) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (١١) ﴿فَاطْرَأْ﴾ (٢٤، ٢٣).. ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يُهْدِي مِنْ شَاءٍ﴾ (البقرة ٢٧٢).. ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (القصص ٥٦).. لا يتعقب الإسلام ولا يطارد أحداً أو يفرض نفسه عليه.. ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة ٢٥٦).. ﴿أَفَأَنْتَ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس ٩٩).. ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدَىٰ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّٰ فَأِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (يونس ١٠٨).

المسلم غنى بهديته، لا يفقره ولا يضره ضلال غيره.. ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُهُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّٰ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة ١٠٥).. الإسلام يمد يده بالسلام والمحبة والإسماح.. السماحة خصلة أصيلة وشميلة رفيعة من خصاله وشمائله.. يصدر عنها المسلم في علاقته بالمسلمين، وفي تعامله مع غير المسلمين.. في بيعه وفي شرائه، وفي استئذائه وفي أدائه.. في الحديث النبوي: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى».. المسلم مأمور بالأخذ بروح الإسلام ومهجته وتسامحه.. ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف ١٩٩)..

على كثرة وضخامة وجسامة ما تعرض له المسلمون من أذى شديد من الكفار، أمروا بالإعتصام بالصبر والإسماح.. وصبروا.. ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (آل عمران ١٨٦)..

الإسلام لا يبادر ولا يبادئ أحداً بعداء، ولا يأذن بقتال إلا لضرورة صد العدوان وإيقاف التجبر والعتو والإفتئات.. ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلُمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ

﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿٤٠﴾ (الحج ٣٩، ٤٠) .. فإذا جنح المعتدى للسلم لبى الإسلام وقابل السلام بسلام لأن الإسلام دين محبة وسلام .. ﴿وَإِنْ جُنَحُوا لِلْسَّلَامِ فَأَجْنَحْ لَهُا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال ٦١) ..

أيادى الإسلام ممدودة إلى الدنيا بالمحبة والإسماح والسلام .. لا يجزع الإسلام ولا يخشى السلام ثقة منه بقوة الحق الذى هو عليه .. لفظ «السلام» هو تحية الإسلام .. ولفظ «الإسلام» ذاته منحوت من مادة «السلام» .. نبي القرآن «رحمة مهداة»، وهدية من السماء إلى العالمين .. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء ١٠٧) .. يقول رسول القرآن: إن الله جعل السلام تحية لأمتنا، وأمانا لأهل أمتنا .. «السلام قبل الكلام» .. «لا تؤمنوا حتى تحابوا: ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم» .. السلام والإسماح، مهجة وروح الإسلام .. تحية الله تعالى للمؤمنين تحية سلام: ﴿يَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامًا﴾ (الأحزاب ٤٤) .. ومستقر الصالحين هى دار الأمن والسلام: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (يونس ٢٥) .. ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (الأنعام ١٢٧) .. وأهل الجنة الموعودة لا يسمعون لغوا من القول، ولا يتحدثون بغير لغة السلام: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ (٥٥) ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ (٥٦) (الواقعة ٢٥، ٢٦) ..

من أعجب العجائب أن يُتهم الإسلام الذى أفرز حضارة عالمية تأخت فيها الأديان بأنه دين إرهاب وعنف .. كيف؟! .. إنه على ما لقي المسلمون من إعنات وأذى المشركين، أمروا فى القرآن المجيد بحسن معاملة وبر من لم يقاتلوهم أو يخرجوهم .. ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المتحنة ٨) .. فأين هذا الإسماح مما ورد فى التوراة بالإصحاح العشرين (١١-١٧) من سفر التثنية: «حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير (!!) (ويستعبد لك !!!) وإن لم تسالك بل عملت معك حربا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إليك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف (!!) وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة وكل غنيمتها

فتغنمها لنفسك (!!!) وتأكل غنيمة أعدائك (!!!) التي أعطاك الرب إلهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا . أما مدن الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبقى منها نسمة ما بل تحرمها تحريما !!!.. أو ما جاء في الإصحاح ١٣ (١٦- ١٧) من سفر التثنية عن المدن التي لا تدين بديانة إسرائيل : «فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف (!!) وتحرمها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف (!!) تجمع كل أمتعتها (!!) إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار (!!).. المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك ، فتكون تلا إلى الأبد لا تبنى بعده» !.

ليس مرامنا هنا أن نهاجم أحدا ، أو نعرض بدين ، ولكننا نورد فقط بعض ما ورد في العهد القديم الذي يحلو للبعض أن يفتروا على الإسلام ورسول الإسلام ، في سفر الخروج ، الإصحاح ٣٢ (٢٥-٢٩) أن بنى اللاوى قتلوا ثلاثة آلاف رجل من الشعب لعبادتهم العجل .. وفي سفر العدد ، الإصحاح ٣١ (١) أن النبي موسى أرسل اثني عشر ألف مقاتل لمحاربة أهل مدين ، «فقتلوا كل ذكر ، وقتلوا خمسة من ملوك مدين بالسيف» ، «وسبى بنو إسرائيل نساء مدين وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم ، وأحرقوا جميع مدنهاهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار . وأخذوا كل الغنيمة وكل النهب من الناس والبهائم» .. وأنهم لما رجعوا قوبلوا بالغضب على استبقائهم النساء والأطفال ، ثم أمروا بقتل كل طفل ذكر ، وكل امرأة ثيب ، وأبقوا الأبقار ، وكان عددهن اثنتين وثلاثين ألفا .. وفي سفر صمويل الأول ، الإصحاح ٢٧ (٩-١٢) أن النبي داود «ضرب الأرض ولم يستبق رجلا ولا امرأة وأخذ غنما وبقرا وحميرا وجمالا وثيابا وجاء إلى أخيش فقال أخيش إذن لم تغزو اليوم . فقال داود بلى» . وعاد داود فلم يستبق رجلا حتى أتى إلى جات «..» . وفي سفر صمويل الثاني ، الإصحاح ١٢ (٣١) أن النبي داود كان يمثل بمن يقتلهم أشنع تمثيل .. «فجمع داود ... وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد وأمرهم في أتون الآجر (موقد كبير من الآجر) وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون» .

المسلمون لا يستغلون هذا الذي ورد نصا في العهد القديم ليهاجموا الديانة اليهودية ، أو النبيين موسى وداود .. بل احترم الإسلام كافة الديانات والرسالات ، ووقر جميع الأنبياء

والرسل، وجعل الإيمان بهم وبرسالاتهم شرطاً من شروط الإيمان.. في القرآن المجيد:

﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ (البقرة ٢٨٥) .. ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة ١٣٦) .. موسى في القرآن هو كليم الله، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (النساء ١٦٤) .. ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ (البقرة ٥٣) .. ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ (مريم ٥١) .. داود عليه السلام وقره القرآن وبجله، وقال فيه: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ ءَوَّابٌ﴾ (ص ١٧) .. ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ (الإسراء ٥٥) ..

يجتزئى الافتراء والمفترون على الإسلام نتفا وشذرات يخرجونها من سياقها ليتهموا الإسلام كذبا بالعنف والعدوان والإرهاب.. مع أن القرآن المجيد يقول في صراحة ووضوح وجلاء: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة ٢) .. يعلم المسلم من قرآنه المجيد أن السيد المسيح جاء بالمحبة والسلام ولم يجئ بالعدوان.. لذلك لا يتوقف المسلم أمام تنف أو شذرات يجتزئها من الأناجيل لينسب العنف للمسيح أو المسيحية على خلاف الحقيقة الواضحة التي تنضح بها رسالة عيسى عليه السلام.. في الإصحاح العاشر (٣٤) من إنجيل متى: «لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاما على الأرض. ما جئت لألقى سلاما بل سيفاً».. وفي الإصحاح الثالث عشر (٤٩-٥٢) من إنجيل لوقا: «جئت لألقى نارا على الأرض، فماذا أريد لو اضطربت ولى صبغة أصطبغها وكيف انحصر حتى تكمل، أظنون أنى جئت لأعطي سلاما على الأرض. كلا أقول لكم، بل انقساماً».

لم يحدث أن انتزع مسلم هذه العبارات أو تلك ليفصلها عن السياق العام وروح ومهجة المسيحية ليفترى عليها أو يتهمها إتهاما طائشاً لا ظل له من الحقيقة أو الصواب.. لم يتحدث القرآن المجيد عن المسيح عيسى بن مريم إلا بكل حب وتوقير وإجلال.. فيه يقول عز من قائل: ﴿الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ (المائدة ٤٦) .. ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ

أَلْبَيِّنَتِ وَأَيَّدَنَّهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴿٨٧﴾ (البقرة ٨٧).. ولم يتحدث كتاب من كتب الأديان عن المسيح بمثل الحديث البليغ الرائع الذى ورد فى القرآن المجيد: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِبَشْرِكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُفْرَيْنَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (آل عمران ٤٥، ٤٦)

إن استقراء الأديان واستلهاهم رسالتها وعناصرها مهمة كبرى محكومة ويجب أن تكون محكومة بالاحترام والموضوعية والوقار، وبحسن المقاصد والغايات.. بيد أن هناك من أسف من يتجرأ ويفترى كذبا ويستيسر التجنى على الإسلام ورسول الإسلام عليه الصلاة والسلام، ولا يلتفت فيما يفتريه ويتجنأه إلى جوهر وروح وعناصر ومعالم الإسلام - الدين العالمى، الذى عم المعمورة حاملا للناس كافة رسالة الهداية والإسماح والمحبة والسلام.

التهمج البذئ الضال على الإسلام ورسول الإسلام - المسلمين، مرض قديم.. صُنفت فيه المؤلفات والكتب، وساهم فيه فلاسفة وأباطرة، وزاد شناعة مع إتساع الأطماع فى أرض وخيرات المسلمين.. تدبج فيه المقالات، وتبث له المواقع على شبكات الإنترنت.. تفترى كذبا على الإسلام ورسوله، تتهمهما بالعنف والتعطش للدماء، وتتجنى عليهما بأنكر الاتهامات، بينما سماحة الإسلام تكف المسلمين عن الرد بالمثل.. نعم، عادوا ويعادون الصهيونية، ولكن كمذهب سياسى عنصري عدوانى، مثلما دفعوا الموجات الصليبية كعدوان يتشخ بالصليب والصليب منها براء، ولكن المسلمين لم يتورطوا قط فى الرد بالمثل على هذه البذاءات المتجنية التى تمس دينهم ورسولهم وعقيدتهم.. احترمو ولا يزالون الشريعة الموسوية، مثلما احترمو ولا يزالون ديانة المسيح عليه السلام.. هذه «السماحة» الإسلامية ليست غفلة ولا ضعفا، وإنما هى خلق وسماحة الإسلام وعرفان المسلمين بدينهم الذى احترم الرسالات والنبوات السابقة، والأنبياء والرسل الذين وقرهم قرآنهم وحض على توقييرهم.. ويخطئ خطاب الآخرين حين يعزو تعفف الإسلام عن الرد بالمثل إلى الضعف أو الغفلة، أو يبنى حساباته على أن هذه «السماحة» عجز لا حيلة فيه، أو ضمان أبدي لا تحول عنه.. فى كل الديانات حركات غالية، لم ينبج من ذلك دين،

ماذا لو ضاقت الصدور ونفذ الصبر وانفلت العيار.. إن دخول الغلاة أو الغاضبين إلى ساحة
المقارعة قد يكون ثمننا فادحا لشطحات المتغولين المتجنبيين على الإسلام والمسلمين.. يومئذ
يفقد العالم، وتفقد الإنسانية، ما نجح الإسلام للآن في الحفاظ عليه في توفير الوقار
والإحترام للحوار حول الأديان، فهدم الأديان - أيا كانت! - هو هدم للسقوف التي
حفظت وتحفظ الإنسانية من شطحات وضلالات لا يستطيع أحد حساب تداعياتها حين
تدهس الأديان في حوار طائش يمس الناس - عموم الناس - في أديانهم ومعتقداتهم..
يومها لن يكون على الدنيا سلام!!!



عاش الإسلام



عاش الإسلام معطرا ببقا ما تحلى به من سجايا وخصال وشمائل، موصولا بالناس - كل الناس، المسلم وغير المسلم، بسماحته التي صاحبت رسالته منذ نزلت ولآن - ومن اللافت أن سماحة الإسلام لم تتوار حتى في فترات الهبوط والإنحدار أو استبداد وبطش بعض الملوك والحكام والأمراء والولاة.. وهذه حجة مضاعفة لسماحة الإسلام التي لم تستطع صور البطش التي سقطت فيها بعض فترات الحكم في هذا القطر أو ذاك، دون حضور سماحة وإسماح الإسلام، وإلى هذا الحضور سر الحضارة الإسلامية التي مضت متسامقة على رغم كل شيء، تتسع بقيم ومبادئ، وسماحة الإسلام للمسلم وغير المسلم، وتفسح لكل قادر أيا كانت ملته أو ديانتة ليصب عطاءه في نهر هذه الحضارة التي ظلت دافقة متدفقة لعدة قرون.

انطبع في نسيج المسلمين، ما توالى في سنة رسول القرآن، قولية أو فعلية أو تقريرية، وما اقتدى به خلفاؤه الراشدون وصحابته الأبرار من صور الإسماع.. لم يفلح طغيان قريش في إخراج النبي عليه السلام عن سماحته، فكان يقابل أذاهم بدعائه الضارع إلى ربه: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».. يأبى على عمر بن الخطاب أن يمثل بسهيل بن عمرو أسير بدر لقاء ما سلف منه في إيذاء الإسلام ورسوله.. يقول لعمر في إسماع رائع: «لا يا عمر.. لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبيا».. يطلق أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي من أسر بدر بغير فداء، رعاية لعياله الذين يعول برغم ما سبق منه من نكايه وأذى.. يمضى عليه السلام في إسماعه حتى يقبل فداء من فقراء أسرى بدر أن يعلم الواحد منهم عشرة من غلمان المدينة القراءة والكتابة.. لم يثنه حزنه الشديد على عمه حمزة أن يوصي فيقول: «إياكم بالمثلثة ولو بالكلب العقور»، ولم ينسه أله الهائل على التمثيل بجثة حمزة في أحد ما تطبع به خلقه وتعطر به الإسلام من عفو وإسماع.. ينتظر الناس يوم فتح مكة أن يثار من «وحشى» الحبشى قاتل حمزة المثل به، بيد أنه عليه السلام يصفح عنه وعن الجميع في عفو وإسماع.. يطلق فيمن أطلق قائلا لهم «اذهبوا فأنتم الطلقاء».. ولا يزال عليه السلام يدعو المسلمين إلى التسامح الكريم ويقول لهم: «من سره أن ترفع له

الدرجات (عند ربه) فليعف عمن ظلمه، ويعط من حرمه، ويصل من قطعه .. حمل عليه السلام إلى الناس شريعة فارقة بين الظلام والنور، وبين الضلال والتعصب، والهداية والسماحة.. لم تكن للأسير قبل الإسلام حقوق.. جميع الأسارى والسبايا كانوا يقتلون أو يستعبدون، فإذا بالإسلام يأتي في قرآنه المجيد فيوقف استرقاق الأسرى، ويخير بين المن وبين الفداء، ويجعل المن سابقا على الفداء، فيقول عز من قائل: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَخْتَمْتُمُوهُم مَّا فَدَتْهُمُ الرِّقَابُ فَمَا مَتَّاعٌ بَعْدَ ذَلِكَ فَمَا فَدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ﴾ (محمد ٤) .. يضيف الأسير إلى من تجب لهم الصدقة والرحمة والإطعام، فيقول عز وجل في صفات المؤمنين الصالحين: ﴿ وَيُطْعَمُونَ أَلْفَ عَشْرٍ حَتَّىٰ يُؤْتُوا مَتَّاعَهُمْ فِي مَقَامِعِهِمْ جَنَّاتٍ ۖ وَأَنْهَارٌ مِنْ أَسْفَلِهَا يُتْرَكُ يَجْرِي فِي الْوُجُوهِ ۖ وَأَنْهَارٌ مِنْ أَسْفَلِهَا يُتْرَكُ يَجْرِي فِي الْوُجُوهِ ۖ وَأَنْهَارٌ مِنْ أَسْفَلِهَا يُتْرَكُ يَجْرِي فِي الْوُجُوهِ ۖ وَأَنْهَارٌ مِنْ أَسْفَلِهَا يُتْرَكُ يَجْرِي فِي الْوُجُوهِ ۖ ﴾ (الإنسان ٨) ..



يعتق الإسلام، ويعرف المسلمون من قرآنهم المجيد، أن الناس قد خلقوا مختلفين في عقولهم وقدراتهم، وفي فهمهم وعقائدهم.. هذه السنة الكونية تحدث عنها القرآن الحكيم فقال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا يَزَالُ النَّاسُ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (هود ١١٨) .. لا يقابل الإسلام هذا الاختلاف بالازدراء أو بالعداء، وإنما يعد له الهداية والإسماح.. لا يجبر الإسلام أحدا على اعتناقه، وليس صحيحا أن الجزية للإكراه على الدين أو مقابل لعدم الإسلام، وإنما هي ضريبة لا تحميل فيها.. فغير المسلم يتمتع بكافة مرافق ومنافع وحماية دار الإسلام التي يتمتع بها المسلم، ولا يؤدي الزكاة التي يؤديها المسلم، لأنها تعبدية فكان من سماحة الإسلام وعدل وسلامة منطقته أن لا يلزم بها غير المسلم.. الجزية إذن ضريبة يؤديها غير المسلم الذي لا تفرض عليه الزكاة لأنها فريضة تعبدية، ومن ثم كانت الجزية مساهمة اجتماعية فيما يعود على مؤديها من حماية ونفع من العدل أن يتساند المجتمع كله - المسلم وغير المسلم - في الوفاء بمستلزماته، ومع ذلك فإن الجزية - على عكس الزكاة - ترد إلى دافعها إذا حال عائق يحول دون الدفاع عنه، وتسقط عن المرضى والضعفاء والمساكين وغير القادرين .. الذي مصون في ماله ودمه، محفوظ في عرضه وشرفه، متاح له نصيبه من بيت المال ومن الوظائف العامة والخاصة.. ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۚ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ۚ ﴾ (المائدة ٥) .. في عهد النبي عليه السلام

لأهل نجران: «ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله.. ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر».. الذميون في الحديث: «لهم مالنا وعليهم ما علينا».. أموالهم وحقوقهم كأموال المسلمين وحقوقهم.. ينتصر لهم رسول القرآن فينهى عن أذاهم أو ظلمهم أو التعرض لهم.. يقول للمسلمين: «من آذى ذمياً فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة».. ويقول: «ألا من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقتة أو انتقصه أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجُه يوم القيامة».. غير المسلم على دينه، لا يلويه أحد ولا يجبره على ترك دينه.. في كتاب النبي عليه السلام إلى عامله باليمن: «من كان على يهودية أو نصرانية فلا يفتنن عنها».. وفي خلافة الصديق عاهد خالد بن الوليد أهل الحيرة على ألا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة ولا قصراً، وعلى ألا يمنعوا من ضرب نواقيسهم أو إخراج الصليان في عيدهم، وعلى أن يعفى من الجزية (الضريبة) من أصابته آفة أو افتقر، بل ويعال هو وأولاده من بيت المال ما أقام بدار الإسلام.

لم تكن الصورة الرائعة التي قدمها الصحابة والتابعون ومن تلاهم حتى بعد ذلك في فترات الانحدار، إلا صدق وفهما مطبوعاً في نسيجهم عن روح ومهجة وسماحة الإسلام لا ينظر أحدهم خلفه مستحضراً صفحات السيرة، إلا طالعتة مواقف رائعة موحية، تضيف إلى شجرة التسامح الباسقة، حبات للعقد الفريد الذي اكتملت به منظومة الإسلام التي ضربت للبشرية أعظم وأحكم المبادئ والأمثال لحقوق الإنسان حيث كان.

منذ عهد الراشدين، عاملوا الصابئة عبدة الكواكب في شمال العراق معاملة أهل الكتاب، واتسعت سماحتهم حتى للمجوس عبدة النار الذين ظلت معابدهم تملأ أراضى الإسلام لقرون في بغداد وفارس وكرمان وسجستان وخراسان وأذربيجان، مثلما اتسعت سماحتهم لأهل الكتاب.. عاش أهل تلك العقائد والأديان، على تنوعها واختلافها، مستقرين آمنين في دوحة الإسلام.. هذا الأمان طمأنهم إلى حاضرهم وغدهم، فأقبلوا طائعين مختارين على تعاظم الحضارة الإسلامية ودراسة لغتها ثم الإسهام فيها، ومنهم من بزغ نجماً لامعاً في سماءها!.

لم تميز الحضارة الإسلامية بروح إسماحها، بين المسلم وغير المسلم، نعم فيها اليهود بكل الحقوق والمزايا على رغم ميلهم إلى العزلة وحرصهم بفكرة «الجيتو» على التمايز وعدم الانخراط

فى النسيج العام.. لم يتح لليهود فى حضارة من الحضارات ما أتيح لهم فى واحة الحضارة الإسلامية.. وهى الإسماع الإسلامى أن يبرز منهم نجوم.. منهم تمثيلا لاحتصار، موسى بن ميمون الطبيب الأندلسى الشهير، وإسحق بن سليمان الإسرائيلى المولود بمصر ٨٥٠ م، ونبيغ فى الطب والفلسفة والحساب والهندسة وتأليف اللحن وعلم النجوم، ومعاصره إسحق بن عمران الطبيب اليهودى الذى بدأ ببغداد ونبيغ وذاع صيته فى المغرب العربى، من هؤلاء اليهود هبة الله بن جميع، الطبيب المصرى اليهودى الذى كان طبيبا للناصر صلاح الدين.. استوزر الخلفاء منهم، فاستتاب الخليفة العزيز بالله الفاطمى فى الشام رجلا يهوديا يدعى منشأ بن إبراهيم. صحيح أنه مال وجنح وظلم وأثار السخط ومع ذلك تبقى دلالة استخدامه آية على إسماع الإسلام وانساع دوحته لجميع أهل الأديان.. فتحت الأندلس الإسلامية مصاريحها لليهود على مدى ثمانية قرون.. احتماوا فى ظلها من اضطهاد الغرب.. وها هو ذا «حسدای بن شبروط» يصير وزيرا لعبد الرحمن الناصر، وأفسح له فائظ يبعث حركة للدراسات التلمودية، مضت نشيطة متخففة حتى صارت الأندلس برضاء الحكم الإسلامى مركزا للدراسات العبرية.. حين أزيح المسلمون من الأندلس بسقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢م) وانطلق الإسبان يعيثون فى اليهود إيذاء واضطهادا بعد غياب شمس الإسلام عن البلاد، لم يجد اليهود فرارا من طغيان واضطهاد الملك فيليب الثالث لهم، إلا النزوح إلى ديار الإسلام فعبروا مضيق جبل طارق هاربين لائذين بتسامح الإسلام والمسلمين فى المغرب العربى..

سماحة الإسلام مع النصارى وأتباع السيد المسيح، سماحة لازمت نزول الذكر الحكيم.. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ إِنَّكَ دَٰلِكَ بِأَن مِّنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرَهْبَانًا أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۚ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ۝﴾ (المائدة ٨٢، ٨٣) .. هؤلاء أوصى رسول القرآن بهم خيرا فقال لأصحابه: «إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبض خيرا فإن لهم ذمة ورحما».. فى كتاب النبى عليه السلام إلى عامله باليمن ألا يفتتن نصرانى عن ملته.. عاش هذا كله فى نسيج وحنايا المسلمين

حتى شاهد العالم صورة للتسامح الإسلامى فى معاملة النصارى تجل عن أى وصف.. ها هو ذا عمر ابن الخطاب يتحرج من الصلاة فى كنيسة القيامة مخافة أن يطمح المسلمون فى اتخاذها مسجدا.. فى مشهد آخر يتراجع عمر بن الخطاب على صرامته عما كان قد شرع فيه من نهى عن استقبال النصارى له بالشام باللعب بالسيوف والريحان أمامه كما تعودوا فى احتفالاتهم بالعظماء.. ما يكاد أبو عبيدة بن الجراح يلفت نظره إلى أن هذه عاداتهم وأنهم قد يعدون ذلك النهى نقضا للعهد الذى أعطاه لهم حتى يرجع عمر عما شرع فيه من نهى، ويقول فى سماحة ومودة: (دعوهم.. عمر وآل عمر فى طاعة مارآه أبوعبيد).. وهذا هو عمرو بن العاص، يدخل مصر فيعطى أقباطها الأمان على كنائسهم وصلبانهم ولا يمد يده قط إلى شىء من أملاك الكنائس ولا يتدخل فى شأن من شئونها.

هذه الشجرة الباسقة للتسامح الإسلامى ظلت فروعها ممتدة إلى العصر الحديث.. اتخاذ صلاح الدين طبيبا مصريا يهوديا له هو هبة الله بن جميع، من مئات السنين، له أمثلة حية فى عصرنا الحاضر.. موسى قطاوى باشا، اليهودى المصرى، ولى وزارة المالية المصرية فى القرن الماضى، وولى نوبار باشا الأرمنى الأصل رئاسة الوزارة المصرية، ومكرم عبيد كان شعلة حية للطاء بلا فوارق دينية سواء فى مرحلته مع الوفد المصرى، أم بعد خروجه وتأليفه حزب الكتلة الوفدية. المزارات المسيحية فى مصر الإسلامية، مزارات للمسلمين أيضا.. مزارات سانت كاترين، والقديس مار جرجس، والقديسة دميانة بالدقهلية، وسانت تريز بشبرا، ودير المحرق بأسىوط وغيرها، مزارات يوقرها ويوزورها ويتبرك بها المسلمون.. هذه الصورة الرائعة للتآخى بين الأديان، محال أن تراها فى غير الإسلام.. الغرب الذى يتغنى بالحرية والإخاء، محال أن يتخذ أحد منه مزارا إسلاميا يتبرك فيه رعاياه.. لم يحدث، ولا أظنه يحدث، أن يتسمى أبناء اليهودية أو المسيحية باسم محمد عليه السلام، أو باسم من الأسماء الإسلامية التى ارتبطت بالصحابه والتابعين وأعلام الإسلام، بينما أقبل المسلمون بسماحة الإسلام، على تسمية أولادهم بأسماء أنبياء الأديان والرسالات الأخرى لا يستثنون من ذلك أنبياء بنى إسرائيل.. فى البلدان الإسلامية ترى فى المسلمين أسماء نوح وموسى ويعقوب وعيسى وداود وسليمان ويوسف وإسحق وهود ويونس وهارون وعمران ومريم وشعيب.. لا يجد المسلمون فى ذلك غضاضة، بل ولا يلتفتون إليه لأنه صار

جزءاً من نسيجهم طبعوا عليه من سماحة الإسلام وتوقيره وإجلاله لكل الأنبياء ولجميع الأديان والرسالات.

التعائق الفريد، بين «المساواة» و «التسامح» في الإسلام، شكل ملمحاً ناصعاً من ملامح عالمية هذا الدين.. لا يطلب الإنسان.. أى إنسان.. من دين لا يدين به، أكثر من أن يحس فى كنفه بالمساواة مع الجميع.. قد خلق الناس مختلفين متميزين.. تتسع الديانة للعالمين حين تراعى هذا، فتفتح قلبها بالمساواة والتسامح ليحيا الجميع فى دوحتها فى مساواة لاتمييز ولا تعالى ولا اضطهاد فيها.. عبقرية الإسلام أن «الأمان» الذى تبني دوحته، يؤمه ويستظل به غير المسلم مع المسلم، لا يصدر على أحد فى دينه أو ملته أو معتقده.

عاش الإسلام، وسيعيش، بهذه الباقية التى ضمت التسامح إلى جانب ما فيه من جميل السجايا والشمائل والأخلاق والخصال، ويخطئ من يظن أن التسامح تفريط أو يؤدى إلى تفريط.. تسامح الأديان والمتدينين معلم أساسى من معالم الدعوات المفتوحة.. الدعوات المفتوحة دعوات جامعة تدعو وتشد وتجدب جذبا قوامه الحب والإعجاب والاقتناع والارتياح.. لم يكن التسامح فى الإسلام محض دعوة توردها آيات القرآن المجيد أو ترددها السنة النبوية المطهرة أو تلهج بها ألسنة الصحابة والتابعين.. وإنما كان منهاجا عاما وشاملا يجاوز فى ثرائه الأقوال أو النصوص المكتوبة أو الحكايات المروية.. ولم يحدث قط أن خسر الإسلام أو خسر المسلمون من هذا التسامح - خذ مثلا تسامح رسول القرآن يوم فتح مكة مع طواغيت قريش الذين أذاقوا المسلمين صنوفا هائلة من العذاب والاعنات.. يقول لهم النبى من موقف القدرة على الحساب على ما كان.. «اذهبوا فأنتم الطلقاء».. هل خسر الإسلام والمسلمون بهذا التسامح؟ أم كان أساسا لمراجعة اجتاحت نفوس وعقول وألباب وضمائر ووجدان هؤلاء الطغاة الذين بثوا سالفاً عداءهم للإسلام.. هذه المراجعة كانت لصالح الإسلام الدين العالمى الجاذب، وليست ضده.. يومها اهتدت قلوب هؤلاء وأفندتهم إلى نور الاسلام، ودخلوا فى دين الله أفواجا.. ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٢﴾ (النصر ١ - ٣).

طبائع الناس وقيم العدل فى الإسلام !



تتفق منظومات الأخلاق ، وضوابط القانون ، مع دعوة الأديان بعامة للعدل والإنصاف.. ومع ذلك فالتأمل فى أحوال الناس يلاحظ أن معظمهم لم يستطع إلى الآن إقناع نفسه بأن العدل قيمة مطلقة ، وأنه يتلخص فى الإقرار والاعتراف بحقوق الآخرين واحترامها والكف عن التعدى عليها أو الطمع فيها.. وأن هذا الاحترام واجب مهما كانت إغراءات الاستقواء بالمال أو بالقوة أو المكانة أو الجاه أو المنصب أو القدرة أو السلطان.. وبغض النظر عن الفوارق فى المكانة أو الأهمية بين الناس بعضهم البعض !

فلم ينقطع مثلا افتئات البالغين من الذكور على حقوق القصر أو الإناث ، ولا طمع الأولياء أو الأوصياء فى أموال الأيتام ، ولا توقف استيلاء الطامعين على مال المالك الغائب أو العاجز أو المقعد أو المريض أو المشغول بأعماله عن متابعة ومراقبة ماله ، ولا انقطعت مماطلة المدين فى حقوق الدائن الذى لم يتحوط بكتابة أو ضاعت منه ، ولم يرعوا انتهاز المستأجرين أو يتوقف تحريضهم لتأليب الحكام أو القوانين على المالكين ، أو الادعاء عليهم كذبا بما يضنى ويهرق ويظلم.. ولم تتراجع الأطماع أو إساءة الانتفاع بما بالحيازة أو تحت اليد من عين أو أرض أو عقار.. كما لم ينقطع تجبر الأقوياء على الضعفاء ، ولا استقواء الحكام بسلطانهم على المحكومين ، مثلما لم ترع الدول القوية أو العظمى أو تنصف ولو بعض الإنصاف فى تعاملها أو بالأحرى تغولها على حقوق الدول الضعيفة التى لا تملك إيقاف عبث الكبار بمصالحها ومقدراتها !.

ولم ينقطع أحد من هؤلاء ، شخصا طبيعيا كان أو اعتباريا ، جماعة أو حزبا أو حكومة أو دولة ، عن استيجاد المبررات والذرائع لتبرير مفارقة العدل والإنصاف ، وإساءة التحيف والجور على حقوق الآخرين.. لا يقدم الأقوياء أسبابا مفهومة ناهيك بالمقنعة لاعتراضهم على ما يجب للضعيف من إنصاف ، ولا مبررا لاصطناعهم الوسائل لتقليل وتعجيز فرصته فى مواجهة القوى ، ولا يكفون عن مصادرة أى مقاومة للروخ أو الانحناء !.

لا يخجل الأقوياء من تبرير تحيفهم بأنه قانون القوة والافتدأر، وأن من حق القوى الانتفاع بقوته واغتنام الفرص بقدرته، وعلى الضعيف أن يدفع ثمن عجزه وخوره.. فالمال كالحق - لا بد له في نظرهم من قوة تقره وتحميه.. والمساواة - هكذا يبررون! - قضية نظرية تركز إليها الكثرة الخاملة العازفة عن بذل الجهد والمناضلة واتخاذ الأسباب.. القاعدة عن بذل ما يبوئها الجدارة والاستحقاق، بينما العدل - هكذا يرى المتحيفون! - لا يكون إلا بحسب المواهب والقدرات، فيكون المال في يد من يقوى على الانتفاع به في أغراضه، لا في يد الغافل أو السفيه أو الأحمق أو العديم الخبرة.. والعدل والمنطق أن تؤول غلته أو معظمها لمن يحسن استغلاله لا لمن لا يفكر في استغلاله أو لا يحسنه.. هذا الاستدلال سمعناه من فريق من مستأجرى الأراضى الزراعية يطالبون بملكيته قانونا لزراعيها وليس لسواهم بمقولة إن «الأرض لمن يزرعها فعلا».. معنى ملكيتها ينحصر عندهم في زراعتها التى هى شاهد ملكيتها.. وهذه مغالطة تردنا إلى ما قبل التاريخ وقبل وجود الملكية الفردية!.. فالمالك فى زماننا غير المالك بالماضى السحيق، والأرض فى عالم اليوم كغيرها من عناصر الملك، قد يزرعها المالك بنفسه، وقد يزرعها بأجراء.. وقد يعتل فيؤجرها لمن يزرعها، وقد يموت فلا يترك إلا نساء، وقد يترك ذكرا بالغاً لا يمارس الزراعة.. فمباشرة المالك للزراعة بنفسه وجه واحد فقط من الوجوه العديدة التى من حقه أن يستخدمها أو يستعملها لانتفاعه بأرضه!

لا ينفى ذلك أنه يجب على المالك أن يهتم بأرضه.. سواء زرعها بنفسه أو زرعها غيره مقابل أجرة.. يجب هذا الاهتمام بأفعال إيجابية تشهد بأنه يشعر بمسئوليته ومسئولية إنتاجيتها لأنها من عناصر الإنتاج القومى الأساسية.. وملكيتها يجب أن تكون مصحوبة دائما بالإحساس بتلك المسئولية.. وهذا يقتضى من المالك ألا ينقطع اتصاله بها بالطريق التى يرى أنها كافية مؤدية لهذا الاتصال.. فهى ليست ملكية مال مودع أو مقرض أو مصدر إيراد اصطلاحى كالسندات وغيرها مما قد لا يقلق عليه صاحبه مادام الإيراد لا ينقطع أو لا يقل أو يتناقص.. وإنما هى ملكية متميزة لشيء فيه حياة لا للمالك وحده وإنما لعموم الحياة والناس، ولذلك يجب على مالكها أن يحافظ على حيويتها وإنتاجيتها وأن يزداد ذلك مع الزمن وحسن الخدمة والتبصر.. وإذا كان همّ المستأجر فى العادة هو الحصول على منفعته هو العاجلة مدة عقده مهما أهلك الأرض

أو أضعف خصوبتها، فإن المالك العاقل يهتم بالمنفعة الآجلة للأرض قبل العاجلة، وقد أطمع مستأجرى الأراضى الزراعية طول حيازتهم لما تحت يدهم برغم أنف المالكين وثبات أجرتها ثباتاً لا يكاد يتغير برغم تغير الأوقات وارتفاع أسعار المحاصيل وشدة تدهور قوة النقود على الشراء!.. وهذا وذاك حرماً للمالك من ميزتين أساسيتين هما توقيت الإجارة وإمكان زيادة الأجرة مما أدى إلى فقدان التوازن بين مركز المالك ومركز المستأجر، فصار المالك مجرداً من الحماية أو يكاد، وصار المستأجر متخماً بالحماية تسانده الدولة بقوانينها وسلطاتها.. ولم يعد فى مقدور المالك إلا أن يحتال بحيل معظمها غير مجيد للخلاص من هذين القيدتين الثقيلين.. ولم يعد المستأجر يصبر عن طلب الاعتراف به كمالك قانونى لما تحت يده من أرض بعدما باتت فى يده سنوات طويلة، صارت بها فى نظره فى حكم المملوك له.. ولأولاده من بعده! وإذا أراد المالك أن يبيعها باعها والمستأجر عليها بالبخص وإلا قاسمه المستأجر ثمنها فأخذ نصفه ما لم يطمع المستأجر فى المزيد!

هذا ولم يعد الآدميون يستقبحون أو يجدون أى غضاضة فى أن تتحول الحيازة إلى استيلاء، ولا فى أن يتحول الاستيلاء على المال بغير حق بمرور الزمن إلى ملكية.. لأن الأساس الأصلى للملكية فى أذهانهم لا يزال للغلبة التى يدل عليها طول مدة وجود الشئ، فى وضع يد حائزه الفعلى وعدم مقاومته فى هذه الغلبة التى انتقلت من الأفراد إلى الجماعات، ومن الجماعات إلى الحكومات، ومنها إلى الدول التى صار كبيرها يستبيح صغيرها ويعتبر الغلبة حقاً لا يقاوم للأقوياء!.

هذا المثال، يردنا إلى الظاهرة العامة التى بها بدأنا.. نضوب الإحساس بالعدل والافتناع بقيمته المطلقة، سواء لدى الأفراد أو الجماعات أو الحكومات أو الدول.. هذه الآفة آفة ظاهرة صارت قاسماً مشتركاً فى الكثير من التصرفات والأفعال، والخلافات والصراعات، ولم يعد باستطاعة وسيلة دنيوية أن ترد الناس الذين انفلت عيارهم إلى القصد والاعتدال!

وسط هذه العتامة المظلمة، تغدو واحة العدل الإسلامية هى الخيط والحبل، وهى الأمل والغاية جميعاً.. إقامة العدل فى الإسلام، ليست فضيلة مطلوبة وكفى، وإنما هى إقامة للحياة ذاتها على أسس آمنة، منصفة وحكيمة، تستقيم عليها حياة الناس فى طمأنينة وأمان وسلام!.

في الدوحة الإسلامية، يعرف المسلم أن «العدل» من أسماء الله الحسنى، وصفة من صفاته.. ويعرف أن عدله سبحانه وتعالى مطلق، وعدلنا - إن كان - نسبي!.. وبالعدل أنزل سبحانه كتبه ورسله وشريعته لإقامة الحق والقسط.. ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (٢٥) ﴿(الحديد ٢٥).. العدل ركن ركين من شريعة الإسلام، ودعامة رسالته إلى العالمين، وبه أمر تبارك وتعالى نبيه المصطفى ﷺ: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ (١٥) ﴿(الشورى ١٥).. وفى الحديث القدسى : «يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً.. فلا تظالموا».. لا يحول شئ مهما كان فى وجوب العدل.. ففى القرآن المجيد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٨) ﴿(المائدة ٨).

جبل الناس على كراهة الحق والعدل، فنبه القرآن المجيد إلى ذلك: ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ (٧٨) ﴿(الزخرف ٧٨).. وفى سورة «المؤمنون»: ﴿وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ (٧٠) ﴿(المؤمنون ٧٠).. أرسل سبحانه - رسوله المصطفى ليهدى الناس بالحق إلى الحق: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٩) ﴿(الصف ٩).. يبلغهم رسالة ربه بأنه عز وجل يأمر بالعدل والإحسان: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (٩٠) ﴿(النحل ٩٠).. المسلم مأمور فى شريعته السمحة بالعدل والقسط والإنصاف، ولو على نفسه.. فى الحديث الشريف: «لو أنصف المتقاضى لاستراح القاضي».. وفى الذكر الحكيم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ (١٣٥) ﴿(النساء ١٣٥).

من آفات الآدمى أن يخبو فيه الالتفات إلى الحق والصواب، وقد يطمع فى الإفلات من الجزاء.. فيقول له القرآن الحكيم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤٢) ﴿(مُطَفِّعِينَ مُقْنِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدَّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنِدْتُمْ هَؤُلَاءِ

﴿٤٣﴾ (إبراهيم ٤٢، ٤٣).. هؤلاء يتوعدهم القرآن المجيد، ويذكرهم: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (الفرقان ٢٧).. وفي سورة غافر ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (غافر ٥٢).

من جمال وحكمة شرعة القرآن، أن جعلت العدل عملاً وغاية، ومن عزم الأمور الذي تجمل فيه سجايا وأخلاق وشمائل الإسلام.. هو رسالة الأنبياء، وواجب الحكام والولاة، وأمانة في عنق الرعاة.. يقول عز من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء ٥٨).

إن الله تبارك وتعالى، واسمه العدل، قد جعل إقامة العدل قانوناً عاماً لصلاح الحياة والأحياء.. من يتتبع منظومة العدل في الإسلام يجدها شاملة راعية لصوره في كل مجال، كافية وبها دفع كل أسباب وأشكال الظلم، والتضييق عليه، وتجفيف منابعه!.. في صدق التعامل وشجب الغش والتطفيف: ﴿وَأَقِيمُوا الزُّكُوفَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَحْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن ٩).. ﴿وَلِلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣)﴾ (المطففين ٣-١).. مال اليتيم أمانة لا تمس: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا نُكَفُّ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام ١٥٢).. والوفاء بالعهد من خصال الإيمان وصفات المؤمنين الذين هم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (٨)﴾ (المؤمنون ٨).. مأمورون بذلك في القرآن المجيد: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (١)﴾ (المائدة ١).. ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (٢١)﴾ (الإسراء ٣٤).

حيثما نظر الناظر في دوحة الإسلام، يجد سجية العدل حاضرة واضحة، ليست محض حلية أو شعار، وإنما غاية مرعية أحاطها الإسلام بعناية شاملة، تدرأ عن الإنسان نوازع الشر، وتدعوه محباً إلى الخير والتزام مبادئ الحق والعدل والإنصاف.

هل الإسلام كفيل بسياسة العدل؟



هذا السؤال عنوان لأحد فصول كتاب السياسة الشرعية فى الشئون الدستورية والخارجية والمالية، لأستاذنا الجليل الراحل الشيخ عبد الوهاب خالف، ودرسنا عليه الشريعة الإسلامية فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة قبل أن يتوفاه ربه ونحن لما نزل طلابا نطلب العلم فى الكلية، ولكن بقى على مدار الزمان أثرا حيا وصاحب منزلة رفيعة لدى من عرفوه أو زاملوه أو تتلمذوا على يديه.

وفى هذا الكتاب المتميز، يطرح الشيخ عبد الوهاب خالف هذا السؤال، ليورد أن السياسة العادلة لأية أمة هى تدبير شئونها الداخلية والخارجية بالنظم والقوانين التى تكفل الأمن لأفرادها وجماعاتها والعدل بينهم، وتضمن تحقيق مصالحهم وتمهيد السبيل لرفيهم وتنظيم علاقاتهم بغيرهم.

والإسلام كفيل بذلك، لأن أصوله تصلح أن تكون أساسا لهذه الغاية، وبرهان ذلك أمران: أحدهما أن الأصل المصدر العام للإسلام - وهو القرآن المجيد - لم يتعرض - فيما عدا المواريث - لتفصيل الجزئيات، بل نص على الأسس الثابتة والقواعد الكلية التى يبنى عليها تنظيم الشئون العامة. وهذه الأسس العامة تكاد تكون مشتركة بين الأمم، قلما تختلف فيها أمة عن أمة أو زمان عن زمان، أما التفصيلات - التى يمكن أن يرد عليها الاختلاف - فقد سكت عنها ليكون فى الاجتهاد سعة تتلمس فيه كل أمة مصالحها طبقا لظروفها. ففى نظام الحكم لم يفصل القرآن الكريم نظاما محددا يشكل الحكومة، ولا لتنظيم سلطاتها ولا لاختيار ولاية الأمر أو أولى الحل والعقد. وإنما اكتفى بالنص على الأصول والمبادئ والقواعد العامة، أو إن شئت فقل على الدعائم الثابتة التى تقوم ويجب أن تعتمد عليها الحكومة الرشيدة العادلة، فجعل العدل قوام الحكم بعامه، وقيل فى القرآن المجيد: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ﴾ (النساء ٥٨)، ونص على أن الشورى مبدأ عام يعين الراعى ويعطى الرعية حقها، فوصف المؤمنين بأن أمرهم شورى بينهم، وورد فى

القرآن الحكيم في وصفهم : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ (الشورى ٣٨) ، والنبي ﷺ مأمور بالشورى ومندوب إليها ، فيقول له رب العزة : ﴿ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ۖ ﴾ (آل عمران ١٥٩) .. وفي حديث رسول القرآن عليه السلام : « ما تشاور قوم قط بينهم إلا هداهم الله لأفضل ما يحضرهم » .. وفي رواية : « إلا عزم الله لهم بالرشد أو الذى ينفع » . أما كيف تكون الشورى ، وتفصيلات أداؤها ، فمتروكة لظروف واجتهادات كل عصر .. لذلك كان المسلمون على الشورى ، مع اختلاف شكل البيعة في كل مرة ، فى ولاية أبى بكر ثم ولاية عمر ثم عثمان ثم الإمام على .. وكذلك فى المساواة ، فالآية تركت التفصيل إلى وضع الأساس ، فقال عز من قائل : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ۖ ﴾ (الحجرات ١٠) وهذا المنهج ملحوظ فى كل التفصيلات التى سُكت عنها ليتسع للأمة وضع نظام الحكومة واختيار ولاة الأمور وكفالة الشورى وحسن الأداء بما يلائم أحوال الزمان والمكان ويتفق مع المصالح فى غير تجاوز لحدود العدل والشورى والمساواة .

وفى غير جرائم القصاص أو الحدود فى شأن من يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض والمجتمع فسادا ، أو يقتلون النفس التى حرم الله بغير حق ، فإن شريعة القرآن لم تحدد لسائر الجرائم الأخرى عقوبات محددة ، وتركت تقدير عقوباتها بما يراه ولاة الأمر والجماعة كفيلا بحفظ الأمن وردع المجرم وتخفيف منابح الإجماع وتحقيق الردع بمعناه العام والخاص ، حالة كون هذه التقديرات تختلف باختلاف البيئات والأُمم والأماكن والأزمان ، وذلك دون إغفال مبدأ عام يتعين الالتزام به هو أن يكون العقاب على قدر الخطأ أو الجرم ، فقال عز من قائل : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۖ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ۖ ﴾ (النحل ١٢٦) ، وقال : ﴿ فَمَنْ أَعَدَّيْ عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّي عَلَيْكُمْ ۖ ﴾ (البقرة ١٩٤) ، وذلك دون إغفال اعتبارات الرحمة والصفح والغفران ، من مثل : ﴿ فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۖ ﴾ (البقرة ١٧٨) ، ومثل : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ

فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴿٤٠﴾ (الشورى ٤٠)، ومثل: ﴿وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التغابن ١٤).

وفى المعاملات، نصت شريعة الإسلام على إباحة ما يقتضيه تبادل الحاجات ودفع الضرورات، فأحلت البيع والإجارة والرهن وغيرها من عقود المعاملات، وأشارت إلى الأسس العامة التي يتعين الالتزام بها، فلا ربا ولا تطفيف ولا أكل للأموال بالباطل، فقيل فى القرآن المجيد: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَحْكَرَةً عَنْ رَاضٍ مِنْكُمْ﴾ (النساء ٢٩)، وعنى بالنص على منع المعاملات التى تؤدى للعداوات والبغضاء، مثل الربا والميسر، ثم فرض للمجتمع ضرائب على أموال ذوى المال واليسار وعلى رؤوس بعض الأنفس، ووجه حصيلتها فى مصارف ثمانية تتغيا سد نفقات المنافع العامة. ومعونة الفقراء والمعوزين.

كنت أحب - لولا ضيق المجال - أن أحدثك عن معالم أخرى عديدة حقق بها الإسلام كفالة العدل للمجتمع، والضوابط بين الحاكم والحكومة والمحكومين، واستقامة تسيير شئون المجتمع، ولكنك تستطيع أن ترى وتلمس فى التاريخ أن المسلمين بقوا بخير وأقبلت عليهم الخيرات، حين التزموا هذه الأسس والمبادئ، وأن الشمس لم تغرب عنهم إلا حين تنكروا لها وأعطوها ظهورهم، وأن ترى أنه قد صار علينا فرض عين وفرض كفاية أن نتقدم إلى الإسلام.

○○○

الإسلام دين حياة لا يحتقر الحياة ولا يزدريها!



يخطئ خطأ كبيراً، من يظن أن الإسلام دين أموات، معنى فقط بالآخرة، ولا عناية له بالحياة والأحياء إلا بقدر التمهيد للآخرة.. فالإسلام دين حياة وأحياء، لا يزهد في الحياة على هذه الأرض، ولا يحتقرها أو يزدريها.. الإسلام دين حياة، نزل تكريماً ورعاية للحياة والأحياء.. هو دين حياة لأحياء، لا يزهد في الحياة على هذه الأرض، ولا يحتقرها أو يزدريها.. أخبر سبحانه وتعالى في قرآنه المجيد أنه عز وجل قد خلق الموت والحياة ليبولونا أينما أكثر عملاً، فقال عز من قائل: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمَلِكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ (٢)﴾ (المالك ١، ٢).. خطاب الآية الكريمة موجه إلى الإنسان، الذي كرمه الله سبحانه وتعالى واستخلفه في الأرض وجعل إليه عمارة الحياة.. يقول في محكم التنزيل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝ (٧٠) يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابُهُ، بِيَمِينِهِ، فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝ (٧١)﴾ (الإسراء ٧٠، ٧١).

إن قيمة ومنزلة المسلم، مستمدة أصلاً من الحياة.. فحياته على الأرض هي المحك الحقيقي لميزانه.. اكتتاب الإنسان لآخرته، إنما يجرى في حياته الدنيا.. الحياة هي المجال الوحيد لاكتتاب الآدمي، على قدر سعيه وسلوكه وعطائه والتزامه الخيرات في دنياه، على قدر ما يكتتب بها في آخرته.. لا مجال في الآخرة للاكتتاب، فالإنسان يكتتب في الحياة بما يسعه مخيراً في سعيه بين الخير والشر، وبين المعروف والمنكر، على قدر اختياره وسلوكه في دنياه، يكون حسابه في أخراه.. الآخرة دار حساب لا دار امتحان.. الامتحان الذي يواجهه الإنسان هو في هذه الحياة التي يحمل فيها أمانته باختياره.. هذه الأمانة التي قال فيها الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ

فَأَبَيْنَا أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَا مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ (الأحزاب ٧٢) .. فى هذه الحياة الدنيا معقد رجاء الآدمى والاختبار الأساسى لمدى إدراكه لنعمة الحياة التى أنعم بها عليه الخالق البارئ عز وجل إنعاما مجانيا لم يتقاض عنه سبحانه أجرا ولا مقابلا.. حياة الإنسان على هذه الأرض هى المحك والاختبار الأساسى لمدى اغتنامه من عدمه الفرصة الموهوبة له فى الدنيا فى تنمية عقله وملكاته وروحه، وجنى الرصيد الذى توزن به حياته وأعماله.. إن قيمة الحياة تكمن فى قدرة الآدمى على السعى والاجتهاد وجزيل البذل والعطاء فيها، وعلى اختيار الحق والخير والمعروف من بين البدائل المختلفة التى تعرض للإنسان فى رحلته.. هذا الاختيار الرشيد هو أساس التكليف فى الإسلام.. فالإنسان المكلف فى الإسلام هو الإنسان المسئول، القادر بعقله ومداركه على الموازنة والاختيار والمفاضلة الفاهمة الواعية المريدة بين الخير والشر، وهذه القدرة هى المرآة الحقيقية لحياته التى يصنع فيها قدره وينمى رصيده المخزون للآخرة، فبغيرها لا توزن حياته ولا توزن أعماله.. هذه الحياة الدنيا هى الفرصة الوحيدة للآدمى لكتابة مصيره فى آخرته.. بعدها ينزل الستار ويتوقف كدح الإنسان الذى كدحه وسعيه الذى سعاه.. ففى الحياة الأخرى لا تقارع ولا امتحان بين الخير والشر.. إن الجنة خير محض.. لا مجال فيها لاختيار أو مفاضلة بين خير وشر، ولا محك تعرض عليه قدرة الآدمى وميوله ورغباته ومآربه وأهواؤه وانعكاساته وأفعاله وردود أفعاله.. لا ميزان يعرض عليه عقله أو روحه.. تساميه أو انحداره، الآدمى فى الجنة ميسور الثواب والنعيم بلا جهد ولا مجاهدة ولا عناء ولا مكابدة.

فليس فى الجنة اختيار بين خير وشر، وليس فى الجنة موازنة أو مكابدة أو معاناة مابين الإقدام على هذا أو الإحجام عن ذلك،.. فالجنة دار جزاء ومكافأة صرف، مثلما كل ما فيها خير صرف.. لا صراع فى الجنة بين خير وشر، ولا امتحان للمخلوق بين الخير والشر.. لا انتصار لأحد ولا هزيمة لأحد.. الانتصار - إن كان - قد تحدد وارتسمت خطوطه ومعالمه ونتائجها فى الحياة الدنيا، وكذلك الهزيمة.. لذلك كانت الحياة هى هبة الله تعالى وامتحانه أيضا للأحياء!!..

الجنة هي دار القرار، ونعيم الأبرار.. لا شر فيها، ومن ثم لا امتحان ولا اختيار بين خير وشر.. لا يوجد في الجنة خيار أو موازنة أو مكابدة أو معاناة ما بين الإقدام على هذا أو الإحجام عن ذلك.. فالجنة دار جزاء ومكافأة وثواب صرف مثلما كل ما فيها خير صرف.. لا صراع ولا تنازع في الجنة بين خير وشر، ولا امتحان للمخلوق يوازن فيه بين الخير والشر.. لا انتصار لأحد ولا هزيمة لأحد.. انتصار الأبرار قد اكتتبوا فيه وحققوه وارتمت خطوطه ومعاليه ونتائجه في الحياة الدنيا، على نقيضهم من فارقوا البر والمعروف فباءوا بالخسران!.. لذلك كانت الحياة هي هبة الله تعالى وامتحانه أيضا للأحياء!..

المسلم السوي يعلم أن عطاءه على الأرض هو معراجة إلى السماء.. بحياته على أديمها تتحدد صفحته ومنزلته.. كل خط يخطه فيها هو رصيده الحقيقي يوم يقوم الأشهاد.. فلا أمل له في حسن الثواب والنعيم إلا بما خطه في حياته الدنيا ونجح أو أخفق في تسطيره في صفحته على ما أمره ربه سبحانه وتعالى.. لن يغنيه يوم الحساب لقب ولا مال ولا جاه ولا سلطان.. وإنما هذه الصفحة التي خطها في إخلاص واستقامة ومعرفة حقه وتواضع وعرفان بحق الله تعالى وحقوق الناس.. فالحياة في نظر الإسلام أتمن نعم الله جللت حكمته، وهي لذلك شيء غال يجب على المسلم السوي أن يحفظه وألا يهدره أو يفرط فيه!!

هذه الحياة الغالية هي صك الآدمي وكتابه، هي الامتحان الحقيقي، وصفحته التي يسطرها فيها هي المعبر وجواز المرور إلى ما وعد به القرآن المجيد الذي يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا نَتَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٣٠) نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهون أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴿٣١﴾ نزلاً من عفوي رحيم ﴿٣٢﴾ (فصلت ٣٠ - ٣٢).

هذه الحياة الغالية هي صك الآدمي وكتابه، هي الامتحان الحقيقي، وهي المعبر الحقيقي، لكل ما يتمناه المسلم السوي الذي قال ربه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفْوُ ﴿٢﴾ (الملك ١-٢).

يلحظ المطالع للقرآن الكريم أنه قد قرن كثيرا في آياته بين الحياة والموت.. وبين الدنيا والآخرة، وأورد أن الحياة الدنيا لهو ولعب وزينة وتفاخر ومتاع الغرور، وأن الآخرة خير وأبقى.. بل هي الحياة لمن يعرفون.. في القرآن المجيد: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٤) (العنكبوت)... سعى الإنسان واكتتابه في الدنيا لا يجيز أن يستحبها أو يؤثرها على الآخرة، ولا أن تغره الدنيا أو يغيره بالله الغرور.. فمن كان يريد حرث الدنيا يؤته الله منها ولكن ما له في الآخرة من نصيب.. هذه المقارنة لا تعنى تحقير الحياة والإزاء بها، وإنما تنغيا في حكمة بالغة لفت نظر الآدمي إلى القيمة الحقيقية للحياة.. وإلى اتخاذها سبيلا جادا صادقا للآخرة التي هي دار القرار، وخير وأبقى.. والحياة لا تكون سبيلا نافعا للآخرة، ولحسن المآب فيها - مالم تكن حياة أمينة جادة صادقة فاعلة معطاءة.. لا يفقد فيها الآدمي حبله المتين بالله عز وجل..

أرادنا القرآن المجيد ألا نتخذ من الدنيا متاعا ولهوا ولعبا وزينة وتفاخرا وغرورا.. ألا يطمس سعيها فيها على القيم العليا لمنهاج الحياة الجادة الرصينة والتي إليها حُسن المآب في الآخرة.. ألا يغرنا بالله الغرور فنضحى بالخالد الباقي طلبا لأعراض ومتع الدنيا الزائلة.. أن ندرك بذلك أن الحياة هي نعمة كبرى.. وهي نعمة لأنها ابتلاء وامتحان حقيقي للمسلم السوي ليحسن مآبه في الآخرة.. فغلو وقيمة الحياة في الإسلام ليس لأنها فرصة للهو واللعب والتباهي والتفاخر والعبثية.. فالإسلام لا يطلب الحياة للحياة، ولا تتساوى فيه كل حياة مع أى حياة.. الإسلام لا يحفل ولا يعتنى بالحياة العدمية التافهة الخالية من المعنى الجامع، التي تستغرق الآدمي فيها الشواغل الذاتية التافهة والمآرب الشخصية المحصورة في النظر الضيق للسباق والרגائب والمطالب والجنس والمال والأبهة والسلطان والتميز والتفرد.. هذه الصورة للحياة هي والعدم سواء.. لا قيمة لها في الإسلام، وليست مقصد الحق سبحانه وتعالى الذي خلق الموت والحياة ليبتلينا ويختبرنا أينما أحسن عملا.. الصورة الإسلامية للحياة لا توجد إلا مع وجود المعنى الجامع، وهو الله عز وجل.. والولاء لله عز وجل، فحين يتعلق الآدمي بربه، ويتجه إليه، ويستحضره في حركته

وسكونه.. في سعيه وعطائه.. في فكره وتدبره.. تسرى روح الله بهذا المعنى الجامع في حياة الإنسان في كلياتها وجزئياتها.. ومن البداية للنهاية.. فحياة المسلم السوى تبدأ من الله تعالى وتنتهي إليه، لذلك لا يحار المسلم السوى قط بحياته.. ولا يعتريه قط أى إحساس بالخواء أو التفاهة أو قلة جدوى حياته مثلما يشعر كثير من أبناء هذا الزمان في الحضارات التى طغت عليها المادية!.. بدون القيم والمعنى الجامع يفقد آدمى البوصلة والسقف ويغشاه الإحساس بالعدمية واللا جدوى!!

هذه القيمة الحقيقية والجادة للحياة فى الإسلام، تتوارى بغير قصد فى خطاب الدعوة الإسلامى حين ينصب فقط فى الموت والقبر ويحقر الحياة ويلتفت عن قيمة «الحياة» الجادة الغالية التى هى الأساس فى الإسلام ومعراج المسلم السوى إلى السماء وإلى الحياة الأخرى.

حقيق بالمسلم أن يلتفت إلى معنى وقيمة وجدوى وغلو الحياة.. أن يدرك أنها الفرصة والاختبار والمحك الحقيقى لوجود ذاته.. أن انتماءه للمعنى الجامع وهو الله عز وجل مرهون بقدر عطائه وإخلاص نيته واستقامة عمله والتزامه بكل القيم السامية النبيلة التى رسمها الإسلام للحياة والأحياء.. مهم للمسلم أن يعرف أنه حين تقوم القيامة وينزل الستار، فلن يكون فى جعبته ما يتقدم به سوى كتابه هذا.. مقدار ما استطاع أن يسطره فى هذه الحياة لتثقل به أو تخف موازينه.. وصدق عز من قائل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَتَبَهُ، بِمِيزَانِهِ، فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْنَبُ ۖ﴾ (١٩) ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ ۖ﴾ (٢٠) ﴿فَهُوَ فِي عِشَّةٍ رَاضِيَةٍ ۖ﴾ (٢١) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۖ﴾ (٢٢) ﴿تُطَوَّفُهَا دَابَّةٌ ۖ﴾ (٢٣) ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَتَلَّفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۖ﴾ (٢٤) ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَتَبَهُ، بِشِمَالِهِ، فَيَقُولُ يَلْبَسُنِي لَزَأُوتُ كَنِيَّةٍ ۖ﴾ (٢٥) ﴿وَلَمْ أَذِرْ مَا حِسَابِيَّةٍ ۖ﴾ (٢٦) ﴿يَلْبَسُهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ۖ﴾ (٢٧) ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّ ۖ﴾ (٢٨) ﴿هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ۖ﴾ (٢٩) (الحاقة ١٩-٢٩)

هل نتطامن إلى الخالق عز وجل ونفهم الحياة؟



هل عواطفنا ومشاعرنا وأفكارنا وأفعالنا وتروكنا وجميع ما نسنده لأنفسنا هو حقيقة فى بدايته ونهايته وتوسطه من ثمار ذواتنا نحن؟ أم هو مع ذواتنا منحة صُرف مُعطاة لنا مع الحياة وضمنها من ساعة وجودنا فى هذه الدنيا؟! إذ لم نكن قبل ذلك موجودين على أى وجه لا ماديا ولا معنويا.. لا حقيقة ولا مشروعا ولا أملا، وإذا كان ذلك منحة من جهة أخرى سوانا فلماذا نتجاهلها أغلب الوقت؟.. هل نحن بالفطرة والغريزة نخفى أو نتجاهل هذه الحقيقة لتكون أقدامنا فى الحياة أكثر ثباتا وليكون تمسكنا بها أشد توثقا وذلك بفضل الشعور بالذات المتأصل لدى كل منا.. هذا الشعور الطاغى الذى يلابس ويلازم كل ما نأتيه أو نتركه.. عن قصد أو غير قصد.. بوعى أو بلا وعى؟ إن هذا إن صح - يجعل إحساسنا بهذه الحقيقة ضعيفا مهزوزا يبدو لخيالنا مصطنعا متكلفا.. معرضا للنسيان أو للشك والاسترابية وعدم الإيمان، ويجعل تصورنا لعملية ومهفة الخلق - تصورا مشوشا فيه إبهام شديد، لا يجذب التفاتنا واهتمامنا، ويجعل أغلبنا فى حاجة دائمة إلى ما يذكرنا بهذه الحقيقة.. وهى حاجة يزاخمها بل يسد طريقها - انصرافنا إلى العناية بالذات ومشاغلها ومطالبها ومخاوفها وآمالها وأمانيتها!!

وربما كان ذلك من دواعى ظاهرة وجود الأنبياء والرسل ورسالاتهم التى لم تنقطع قط فى مجتمعات الآدميين.. وذلك على درجات مختلفة من الذيوع والانتشار بحسب ظروف كل رسالة ومجتمع.. علما بأن كل رسالة تكون عادة قوية فتيية مصرة مصممة فى أصلها وحماسة جدتها، ثم تسترخى مع النجاح ومرور السنين، ويزايلها معظم حماسها، وتستعيد ذواتنا عندئذ معظم سلطانها على سلوك أغلب البشر، ويمسى هذا السلوك فى احتياج يزداد باستمرار إلى ما يذكره أو يعيد تذكيره بتلك الحقيقة الكبرى!

ذلك أن آثار الرسالات كلها مرتبطة بالبشر، وجماعات البشر، وكل هذه الآثار نسبية وقتية تتناقص باطراد مع تعاقب الأجيال - تتناقص من جهة القوة الروحية الدافعة بحكم ابتعادها زمانا عن مصدر الرسالة وتكدر وتتراكم مخلفات الماضين الغابرين - دون تصفية وتنقية - أمام من جاءوا بعدهم، وقلة احتفال هؤلاء بالدقة وضآلة جرأتهم في الحق وكثرة ميلهم لتفضيل السلامة في أعين الغير - وإيثار الأرياح غير المجهد، بالتسليم بصحة ما خلفه الآباء، لمجرد أنهم آباء!

ثم إن الرسالات كلها دعوات موجهة إلى جماعات من البشر بلا تفريق.. تستأنس بالسابق القديم والتذكير به لتوكيد صحة الجديد الذي تدعو إليه.. ويبدو أن هذا لا غنى عنه لإقناع سواد الناس بصحة العقيدة الجديدة، وإفساح الفرصة أمامها لتتمكن من قلوبهم وعقولهم.. حسب ما يسمح به مألوفهم وعاداتهم الفكرية والنفسية.

هذا الصلح عمل بشري اعتاد عليه البشر كوسيلة نافعة لربط حاضريهم بماضيهم وللمزج المؤنس الممهد بين ما خلفه الماضي مما يبدو أنه لائق بصفة عامة للبقاء والقبول، مع ما أظهره وكشفه الحاضر مما صح أو صلح وصار أولى من القديم بالتقديم. لكنه تقديم بلا محو ولا إبطال لأنه لا يؤثر على صحة القديم في زمنه قبل لزوم الجديد.

ورسالات الأنبياء ليست من صنعهم، لأنهم أنبياء مبعوثون بمهمة. وليسوا مؤلفين ولا فلاسفة ولا حكماء ولا شعراء.. بمعنى أن رسالاتهم ليست من نتاج وحصيلة ذواتهم وعقولهم ومواهبهم كبقية البشر فيما يحسنون، وإنما هي أحوال مفاجئة تفاجئهم وليس في إمكانهم ردها أو إهمالها أو تجاهلها.. مصدرها جهة عليا خيرة جدا ليس في إمكانهم رؤيتها، وإنما يملأهم الإيمان بها والاعتماد عليها.. يعينها هداية البشر على هذه الأرض أولا وفي الدرجة الأولى.. ولذا كانت رسالات الأنبياء وصايا وأصول وقواعد وإرشادات وتوجيهات للآدميين ليطبقوها ويتبعوها كل منهم في الأجل المتاح له في هذه الدنيا.. مصحوبة بغرض الإقناع والاقتناع بأخبار وأحداث ووقائع تناقلتها الجماعات البشرية عبر الأجيال، وبوعود سارة أبدية لمن يهتدى، ووعيد بأذى مخيف دائم لمن لا يهتدى. ومصادقية

رسالة النبی - ای نبی - تتركز أولا فی عمق إيمانه هو بها، وإصراره على إبلاغها، ثم على مبلغ نجاحه فی دخول الآدميين فيها وإيمانهم بها وبه.. على قدر طاقتهم بصفة عامة وطاقه كل منهم بصفة خاصة.. وهذا معمعان يزدحم بآلاف العوامل والاعتبارات التي تحرك البشر وتسوقهم، ومن أهمها ولادة الإنسان في محيط يدين بعقيدة معينة، وإحاطته بالجو الإيحائي التلقيني المختلط بالأساطير الذي يسود الطفولة والصغر على أيدي النساء والأتباع الذي يترخص فيه الرجال.

رسالات الأنبياء ليست من صنعهم لا في يقينهم ولا في يقين أتباعهم.. مصدرها الرب أو من عند الرب أو كلام الرب ولكنه كلام مصوغ للمخاطبين بلغة هذه الأمة أو الجماعة أو تلك، ويلتزم كلامها قانون وأساليب هذه اللغة في التعبير الذي يتبعه أهلها، كما تلتزم حياة البشر ومشاكلها ومناهجها في ماضيها وحاضرها.

فهذه الرسالات عند معتقيها هي أحاديث الرب.. موجهة لجماعات بلغة الجماعة، مقصورة على نواح من الماضي والحاضر والمستقبل.. تستهدف غرضا رئيسيا مهما هو هداية الأفراد إلى الاستقامة في وجودهم على هذه الأرض! أما ما تتناوله رسالات الأنبياء من الغيبيات كنشأة الكون ونهايته والبعث والنشور فهو مجرد فرع لتزكية وتوكيد هذا الغرض الرئيسي، وليس لتوفير المعرفة المحققة بهذه الغيبيات.. لأن توفيرها يقتضى تركيز الالتفات وإتاحة الأدوات والمعدات والأجهزة والوسائل وتهيئة المعارف المتخصصة الدقيقة مما لا تتسع الأجيال العديدة من البشر لبلوغه والوصول إليه مع دوام الإصرار والمواظبة على طلبه والاستعداد له!.

إن رسالات الأنبياء دعوات موجهة ابتداء وانتهاء إلى عموم الناس.. القارئ وغير القارئ، والكاتب وغير الكاتب، لتلبية نداء الاستقامة داخل وخارج الآدمي تحت ظل الرب الذي لا نراه، ولكنه سبحانه يرانا، ولا ندركه بوعينا ولكنه عز وجل يعرفنا تمام المعرفة.. لا يجمعنا به مشابهة، وإنما يجمعنا به أنه جل شأنه خَلَقَنَا وأنعم علينا بنعمة الحياة وما اشتملت عليه، وأننا نتجه إليه - سبحانه - بفضل هذه الحياة، أي بما في

مقدور المخلوق بالنسبة لخالقه ، وبما فى استطاعة الفانى الأقل قَبْلَ الأزلَى الأبدى. نعمض أعيننا ونفتح قلوبنا وهذا غاية ما نقوى عليه مما لا يشفى غليلنا ، لكنه حدنا الذى يجب أن نلتزمه إذا أردنا أن نبتعد عن الخيالات والأوهام.

هذا والأنبياء قلة من البشر لم يكد يخلو منهم زمان ، لكن نجاح كل منهم نادر جدا.. لأن حساسيتهم شديدة للغاية وتصورهم حاد جدا ، ونفورهم من الظلم هائل ، ومع قلة إحساسهم أو اهتمامهم بالسعادة لأشخاصهم ، فإنهم يهتمون بإسعاد من يعرفون ومن لا يعرفون ، وهم لا يبالون بالمشاق التى تصيبهم ، لأنهم يؤمنون بأنهم مخلوقون للآلام والصعاب المادية والمعنوية التى لا يحتملها غيرهم من الناس ، وذلك بحكم مسئوليتهم التى يشعرون شعورا حادا بها ، وإدراكهم أنهم مسئولون عن الهداية وتقويم انحراف المنحرفين وفساد الفاسدين وخطايا الخطاة!.

ويخرج كبار الأنبياء من الدنيا بلا احتفال كما دخلوها ، ويكون خروجهم منها على نحو فاجع لأهلهم أو شبيهه بالفاجع.. ويبدو أن هذا فيه تمهيد للخروج فى أذهان أتباعهم من البشر الذين يتزايدون مع مرور السنين ، وتمهيد للابتعاد المطرد عن الآدمية ، لكى تستطيع مهمة النبى بعد الموت – أن تواصل التحليق فى السيادة والعصمة غير الإنسانيةتين ، وهذا اقتراب ومزيد من الاقتراب لدى القلوب – من الرب سبحانه وتعالى اقترابا يشبه الالتصاق ، بل يكون نوعا من الاندماج ، ويفسح المجال للعبادات والطقوس والمراسم والمواسم ، ويعطى هذه الأمور طابعها المميز لها عن سواها إلى آخر الدهر.

وسيادة وعصمة كبار الأنبياء بعد رحيلهم قد فتحت الأبواب لتفخيم حجم المآثر عنهم من الأفعال والأقوال.. وقد اكتتب فى هذا التفخيم كل من أراد.. لأنه مثوب محمود عند أهل الأديان ، فضلا عن أنه زيادة خير للملة وسمعتها وليس اعتداء أو مجوما عليها.. وقد أوسع هذا ومثله فى السلطة أو السلطان المفردة أو المفرد للنبى إلى غير نهاية.. مع توالى الإضافات من التأويلات والشرح والبيان من كل جيل أو فى كل جيل.. وهكذا بُنى على أكتاف كل نبى من الأكابر ، تراث هائل ضخم لم يكن قد صرح به أو أفصح عنه فى الواقع أو عرفه أو عرف به فعلا.. هذا التراث اختلفت واشتجرت حوله – بناء على ظاهره

أو باطنه - المذاهب وتفرقت الفرق والطوائف.. إذ الغرض الرئيسي الذى استهدفه كبار الأنبياء، وهو ضمان استقامة الإنسان العادى، وفى حياته اليومية العادية، قد ابتعد عنه الناس، ولم يعد يُؤبه له أو يهتم به سواد الناس اهتماما خاصا.. فقد انصرف التفاتهم للدين إلى ما يتيح لهم من التعصب والانحياز العاطفى وأشكال واشتعال الخصومات والعداوات بشأن أمور وقضايا أضحت بعيدة كل البعد عن واقع هذا العصر ومطالبه، وعن حاجات هذا الواقع الذى يجب على الناس أن يفهموه ويواجهوه، وإلا واجههم هو بعنفه وقسوته ولا إنسانيته مرات ومرات فى المستقبل القريب كما واجههم فى الماضى القريب والبعيد.. ويبدو أن تعلم البشر عملية معقدة عسيرة معرضة للتآكل والنسيان دائما.. يصعب على العقل مسيرتها وتوقع انتكاساتها وأزماتها.. مهما أعجبنا بذكاء الآدميين الذين ننتسب إليهم.. هؤلاء الذين يزعجنا ويدهشنا بُعد غرورهم وحجم شرودهم وقصر نظرهم قصرا يبلغ بهم حد العمى أحيانا!!

ما أقرب ارتباطنا بأنبيائنا وأقربه وأوثقنا به، وأوهن واعزه علينا وأهونه! وما أزهنا فى الانصياع والحرص على ضوابط الملة، وأشد تعصبنا لها وحمافتنا بما نتوهم أنه الدفاع الواجب عنها إزاء الهجوم الذى نتخيله عليها! وما أكنث احتشاد الانفعال مع الوهم وسرعة الغضب مع عدم الاتزان وبطء التفكير وارتفاع الأصوات مع ضالة القصد وهبوط الغرض فيما يتعلق بسلوكنا العقائدى وردود الأفعال المترتبة عليه!

بالقطع لم يتوقع أنبيأؤنا أن نكون أو لا نكون على ما نحن عليه الآن، ولا أن تُنسب إلى رسالتهم فضلا عن أن نؤمن عليها.. فنحن أبناء هذا الزمن مفروضون تاريخيا عليهم، وليس فى وسعهم نفى هذه التبعية بأية وسيلة.. وهذا هو تعاقب الأجيال الآدمية الذى يستوجب انفراد الأحياء بما تركه الأموات، وسيطرة الأحياء بلا معقب على آثار السابقين الماضين الغابرين!! فلا تنس أن هذه دنيا أحياء فقط يتركون جميعا كل ما فى أيديهم منها بلا أى استثناء متى تركوها.. وليس فيهم من بوسعه ألا يترك!.

العاجلة والآجلة !



تجرى الأقلام والكلمات، والحكم والمواعظ، من مئات السنين على المقابلة بين الدنيا والآخرة، ووصف الدنيا بأنها الغرورة الفانية، والآخرة بأنها الحقيقة الباقية.. ونظرا لأن أحوال صبر المتعجلين لا تستطيع انتظار الآخرة، فتتجمل الدنيا وتقع في حبالها تطور الخطاب ليضع الآجلة مقابل العاجلة، على اعتبار أن الآجلة أقرب من الآخرة، ويمكن أن ترد في الدنيا، فتعوض الصابر الصبور، المتمسك بالحبل المتين، عن مكاسب العاجلة التي يمكن أن تكون سرابا قصاره أن يذهب بالمدفع إليها إلى فوات الاثنتين : العاجلة والآجلة، أو إلى زوايا النسيان، أو إلى مزيلة التاريخ !

عالج القرآن الحكيم هذا الداء، وحذر أشد التحذير من عواقبه، فجاء بسورة الإسراء: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨) وفي تحذير إلهي: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَضَّلْنَا بِهِمْ أَجَلَهُمْ فَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (يونس ١١).. وتكرر في القرآن المجيد وصف الإنسان بهذه الآفة، فجاء بسورة الإسراء: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ (١١) (الإسراء ١١) وفي سورة القيامة: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿ (القيامة ٢٠، ٢١).

وعواقب هذا التعجل الضريع، وردت بالعديد من آيات القرآن الحكيم :

- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (١١) (الأنعام ١١)
- ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٣٥) (الأنعام ١٣٥)
- ﴿وَأَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٦) (الأعراف ٨٦).
- ﴿فَأَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٦٩) (النمل ٦٩).
- ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (١١) (الحج ٤١).
- ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْقَوِيِّ﴾ (١٣٢) (طه ١٣٢).

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٣) (القصص ٨٣).

﴿وَالِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٢٢) (لقمان ٢٢).

على أن الناس لا تسمع أو تسمع ولا تتعظ، وعلى مدار أجيال علق هذا الداء بالآدميين وفى هذا الزمان، زماننا، لم يعد أحد يصبر على طلب العاجلة إيثارا للآجلة وإن كانت أكرم وأفضل وأعظم وأبقى.. يتساقط الرجال وأشباه الرجال كأوراق الخريف طمعا وجريا وراء منصب أو موقع أو ترشيح أو مغنم أو سبوبة، مع أن ذات هذا الزمان الذى نعيش فيه، يرينا كل يوم مآل من تسابقوا وأسرفوا على أنفسهم وكرامتهم وعلى وطنهم وعلى الناس، وماذا صار بهم الحال حين غربت النجومية المصنوعة أو المصطنعة، وانحسرت الأضواء، وأحاط بهم السكون المطبق بلا مدد يعوضهم بذكريات تبلى الخاطر، إلا سكاكين الندم والخذلان.. تقطع فى أحشائهم وتبرهن لهم بعد أن فات الأوان، أن الآجلة - لو فهموا وتفطنوا - كانت خيرا لهم وللوطن.. وأبقى!!

لو تأمل المتعجلون المتدافعون إلى العاجلات، لعرفوا أن الكون كله فى صيرورة دائمة.. الأرض والشمس والقمر والكواكب والأفلاك والمجرات، جميعا تدور فى حركة دائبة لا تتوقف.. وهكذا وقائع وظروف الحياة.. لا يبقى ملك فى ملكه، ولا حاكم فى سلطانه، ولا ناعم فى موقعه.. ولعرفوا أن التاريخ وإن بدا فى الحاضر أنه لا يكتب، إلا إنه يخط خطوطه يوما بيوم ولحظة بلحظة، وأن ما استتر أمره أو تحصن بيومه، مآله إلى الانكشاف وفقدان الحصانة باكرا.. حين تظهر المخطوطات إلى حيز الوجود بعد تغير الظروف أو زوال الحصانات!.

لو تأمل المتعجلون فى المحاكمات الجنائية الجارية أو الأمور المستورة التى تكشف كل يوم، لأدركوا أن المفضوح الجارى المسألة عليه الآن كان بالأمس فى طي الكتمان محجوبا عن عيون الناس.. ظن حاجبوه أنه فى حرز حصين لن يصل إليه مخلوق، فإذا هو اليوم متداول (على عينك يا تاجر) كما يقولون!!.

ماذا يساوى ما يؤخذ من كرامة الإنسان وشرفه، وماذا يساوى أصحاب العجلة حين تنحسر عنهم الهالات فيبدون للناس، وأمام أنفسهم، بلا شرف ولا كرامة؟!.. وماذا

سوف يجنى من تعجلوا الكسب الحرام، أو فرطوا في واجب الشرف والصدق والنزاهة، أو باعوا ضمائرهم، أو تاجروا بولائهم، أو طعنوا أوطانهم وناسهم، أو تسابقوا في مواكب الزيف والضلال والبهتان، وأعطوا ظهورهم للحق ولبلدهم وناسهم، واشتروا العاجلة بالآجلة، فلا العاجلة بقيت ودامت لهم، ولا الآجلة أفسحت لهم أو التفتت إليهم!.

إيشار العاجلة على الآجلة، نازع يحدث في الحياة الخاصة كما يحدث في الحياة العامة.. الفارق أن آثاره في الحياة العامة أكثر اتساعاً وأعم ضرراً.. ولكنه في الحالين استسلام لنزاع تتراجع أو تنظمر أمامه الرؤية والفتنة والبصيرة، وتضعف أو تتلاشى إرادة الحق والصواب، وتحل محلها إرادة النفع وانتهاز الفرص، والتخلي عن الاتزان والوقار والالتحاف بالدهانة والرياء والوصولية والنفاق، والاستسلام للرجائبات والشهوات، وضمور داخل الآدمي بإسكات ثم موات ضميره، فتتساوى المرئيات، فلا تميز العدسة بين الكمال والنقص، ولا بين الجمال والقبح، ولا بين الحق والباطل.. معيار الرؤية الوحيد يختزل في ثقب إبرة لا يمر منه إلا ما يصادف الهوى ويوافق الأغراض مهما كانت صغيرة أو باطلة!!.

حين تشيع هذه النزعات في الحياة العامة، لا يقتصر أثرها المدمر على صاحبها، وإنما تنخر في المجتمع وقيمه وأدائه وطرحه، فيتوارى الحق والجمال والصواب، ويتقدم الباطل والقبح والضلال!

المشاهد الجارية التي أوحى أو استحضرت هذه الكلمات، مشاهد تنشق لها الصدور.. ساد منطق المصانع، وأسلوب العشائر، وتقدم النفاق وتأخر الإخلاص، وفتحت العاجلات أذرعها وأحضانها للخاملين والبلداء، وضنت على الأكفاء والمجتهدين، فاختلت البوصلة وتاهت حتى لم يعد بمقدور المخلصين إلا أن يمسكوا بجمر النار!

الام تقودنا الأطماع؟!

لا مفرّ للعاقل من الإقرار بأن أطماعنا تقودنا أكثر من أى دافع آخر، والأطماع تعنى ما نشتهيه ونسعى إليه مما نتصور أنه يرضينا فى الحال أو فى المآل. أما ما نشتهيه فقط دون أن نسعى إليه أى سعى فهو أمنية فقط!.

و «الأطماع» فى عمومها أعم بكثير من كلمات الرضا والقربى والذرية والإرث، وكلمات الخير والعدل والحلال والحرام والصدق والحق والرزق والنعم، ومن كلمات العطايا والمواهب، والاصطفاء والاختيار، والأمان والسلام، والفوز والانتصار والتوفيق، والذكر والجاه والسلطة والقوة، والولاء والأحابب والأتباع.

ولم يخل قلب لآدمى - حتى ولو كان قديسا أو وليا أو مقربا - من الأطماع فى عمومها.. لأنها فى عمومها لا تتعارض مع إخلاص المخلصين ووفاء الأوفياء وصفاء قلوب سليمة القلب والسريرة.. فكل منا يطمع فى صحة البدن والعقل.. وكل مؤمن يطمع فى الجنة ومرضاة الله التى تؤهله للمغفرة والثوبة والإكرام.

والأطماع فيها عنصر الاحتمال والاستقبال.. حتى ولو كان موضوعها قد تحقق، مادام العلم بحصوله لم يصل إلى من ينتظره.. كشأن الناجح أو الفائز الذى لم تصله بعد نتيجة الامتحان التى تقررت ولم تعلن بعد أو تصل إلى علمه.. إذ لا ينقطع الاحتمال والشك إلاً بيقين علمه بنتيجة الامتحان أو المسابقة. أما إن كان الموضوع مقطوعا بتحقيقه أو باستحالته فإن الطمع فيه إما تحصيل حاصل أو حماقة وعيب!.

وغلبة الأطماع على حياة آدمى ضرورة فرضتها كثرة الاحتمالات والمجاهيل والغيبيات فى حياته الفردية والاجتماعية.. فهو من لحظة الإخصاب إلى أن يغادر الدنيا يتحسس طريقه الذى لا يعرفه بيقين.. ويحدث ويخمن ويتأول ويخاطر ويغامر ويقامر ويخدع ويخدع ويسلم ويستسلم، ثم ينتهى وهو صفر اليدين أو يكاد.. لا يترك إلاً آثارا ومأثورات لا تقطع باتجاه واحد ثابت.. ولا تلقن الآخرين سلوكا بعينه يلتفتون إليه وينتفعون به ولا يخالفونه.

أطماع الآدمى لا تعرف منها نهاية بأطماع غيره من الحيوان والنبات.. وربما كان هذا وراء وحدة الاتجاه فى كل جنس ووحدة السلوك فى كل نوع.. ولعله وراء كثرة الأجناس وكثرة الأنواع كثرة هائلة لا يتصور معها إمكان وحدة أو توحيد كما قد يتصور مع الآدميين!.
ويبدو أن كثرة الاحتمالات والغيبيات فى حياة الآدمى، قد حُسِبَ حساب مواجهتها والتعايش معها ضمن تكوين المخ الآدمى والوعى والفهم والذاكرة والمخيلة والعواطف المركبة والعقدة.

وهذا المخ هو الوحدة الحقيقية للجنس البشرى التى تجمعه لتفرقه وتفرقه لتجمعه هكذا دواليك.. ولا يشاركه فى تلك الخاصية الفذة الهائلة أى مخلوق آخر.. فأطماع الإنسان أيا كان وأيا كان موقعه وعصره ثمار مخه وفهمه.. قابلة لأن يقوّمها أو يفسدها ويضلها مخه وفهمه.. أيا كان زمانه ومكانه وجنسه ولونه ودينه ولغته.

وربما اختصر ترقى الوعى والفهم الكثير من أطماع الآدمى البدائى.. خاصة ما اعتمد منها على فورة الغضب والشبق والجشع.. أو ما اعتمد على فرط الثقة فى جدوى العنف والتهبة بالقوة البدنية واستخدامها فى إذلال النساء والأطفال والضعاف وأصحاب العاهات والأغراب.. لكن الترقى زاد برغم هذا فى أطماعنا المتحضرة التى جعلت سلامنا حربا مستورة، وأمننا خوفا وتأميننا، وصحتنا علاجا متواصلا ومكلفا للفرد والدولة، وجعلت الأمومة والأبوة والقربى - أوهاما، وجعلت المحبة والصداقة والوفاء - أحلاما قصيرة الأجل جدا!

ولم يعد لأطماع المتحضر أو الجماعات المتحضرة.. لم يعد لهذه الأطماع حدٌ أو بعدٌ تقف عنده ولو لوقت يسمح بالنقاط الأنفاس والاستعداد.. لم يعد فرض هذا الحد على الناس أو إقناع الناس بالتزامه فى مقدور أى سلطة أو قوة سياسية أو عسكرية أو اجتماعية أو دينية، ولا هو فى مقدور أى مذهب أو مجموعة أو معارف أيا كان حظها من الإصابة أو بعد النظر.. وربما احتاج ذلك إلى تضافر جميع هذه القوى والرؤى والمعارف.. وهو ما يكاد يكون مستحيلا ولو تحقق زمنا أخفق أزمانا.. لأن حياة الآدميين نهر جارٍ عديد الروافد والمنعطفات والمنحدرات.. تتوالى عليه بغير انقطاع رياح التغيير والتطوير والإعاقة.. تارة هادئة، وتارات هادرة عاصفة بلا توقع يسمح

بالاستعداد والمسايرة المحسوبة المتبصرة.. ولذلك كان الآدميون من جميع الأجناس والملل والنحل ولا يزالون يؤمنون بسلطان القضاء والقدر وبأسرار الغيب التي لا يعلمها إلا الخالق.. وذلك وتلك بداياتها دائما أطماع بشرية اختيارية تتجاوز نهاياتها الحسابات والمشينات التي كانت في البدايات!

والصلة بين الأطماع وبين الحظ وثيقة للغاية.. إذ لا يخلو طمع طامع من افتراض شيء من حسن الظن بالأيام والأحداث، أو على الأقل من افتراض أنه لن يصادف هو بالذات سوء طالع مفاجئ ليس في استطاعته إبعاده.. لأن من يطمع يفترض دائما أنه قد أقام مطعمه على أسس متينة محكمة، وزودها بما يكفيها من عوامل يرجح معها الفوز.. وهو غالبا ما يبالغ في التفاؤل قليلا أو كثيرا لشدة شوقه وقوة رغبته في نيل ما يطمع فيه.. وهو حين يفشل يعزو في الغالب هذا الفشل للحظ العاثر والمقادير المكتوبة ومعها تدخل الخصوم والحاسدين الذين لا يغفر لهم قط تدخلهم ذلك الذي يزعمه أو يفترض حصوله بدلالة فشله الذي صدمه!!

من يتأمل ما سلف من اندلاع الأطماع، وما تقود إليه، يلغاهما مردودة إلى ضعف الإيمان الذي يسلم الآدمي للقلق ويشعل لديه الرغبة في الاستحواذ طلبا لما يعتقد أنه سيحقق له الأمان من تقلبات الأيام وصنوف الاحتمالات، وإلى الاشتهااء الذي يدفع الآدمي إلى الاستسلام لغرائزه وشهواته والطمع فيما ليس له، وإلى طلب القوة والجاه والسؤدد والتميز على عباد الله، وإلى الحسد الذي يأكل صاحبه كما تأكل النار الحطب، لأنه دائما حانق ساخط ناظر إلى ما في يد الغير!!

ولم يترك الإسلام آفة من هذه الآفات التي تضرب النفوس، إلا حذر منها ونفر من عواقبها وأرشد سبل تفاديها وعلاجها.. فالمناقب الإسلامية قائمة على الصدق والقناعة والأمانة والإيثار والوفاء والعدل والإحسان، والعفو والصفح والتواضع، وفي المقابل حذر الإسلام ونفر من الكذب والنفاق والرياء والبخل والكبر والعجب والخيلاء، وهي أبواب تصب في الحسد وإثارة الأطماع، وهو ما ركز القرآن المجيد والسنة النبوية على شجبه والتحذير منه.. ففي ذم الرياء والحرص على طلب الجاه: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا

لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴿٨٣﴾ (القصص ٨٣) ، وفي الحديث: «حسب امرئ من الشر أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه إلا من عصمه الله». «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».. والأخبار كثيرة في ذم طلب الشهرة وكذلك الرياء، فهو مذموم إذ لا يس العبادات أو المعاملات. ففي العبادات : ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ (الماعون ٤-٦) .. ولما سئل ﷺ عن الشرك الأصغر، قال: «الرياء». يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جاز العباد بأعمالهم -اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء» وفي حديث آخر: «لا يقبل الله عز وجل عملا فيه ذرة من رياء».

وفي ذم الكبر والعجب والخيلاء، وهى مفاتيح الطمع والحسد، قال تعالى : ﴿سَاصْرِفْ عَنْ عَائِنِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (١٦) ﴿(الأعراف ١٤٦) ، ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (٣٥) ﴿(غافر ٣٥). وفي الحديث: «لا يدخل الجنة بخيل ولا جبار». «لا ينظر الله إلى رجل يجز إزاره بطرا».. «من تواضع لله رفعه، ومن تكبر وضعه الله».. كذلك الغرور والخيلاء.. ﴿لَيْكِلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (٢٣) ﴿(الحديد ٢٣) .. وفي ذم الحقد والحسد، والحاقدين والحاسدين : ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ (١٢٠) ﴿(آل عمران ١٢٠)، وفي الحديث «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».. «لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباعدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم الله».. ومن يتابع القرآن والسنة، يجد أنهما تقصيا أسباب الحسد ومداخله، من عداوة وبغضاء وشره وطمع وتكبر وغرور وحذر منها ومن عواقبها، وأقاما منظومة متكاملة غايتها حماية الإنسان من هوى ومزالق الأطماع، وما تؤدي إليه من فساد النفوس، وتقويض أواصر الجماعة الإنسانية.

التدين بين الصلاة الخاشعة والظاهرة الاجتماعية



الصلاة في الأديان السماوية، إيمان وذكر وإخبات وتبتل وخشوع.. يقول عز وجل:

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه ١٤) .. هى صفة من صفات المؤمنين ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلتَّقِيينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة ٢، ٣) .. وبها أمر المؤمنون ونُبهوا إلى أن الخشوع مهجتها وسبيلها: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة ٤٥) ...

بُشر المؤمنون بالفلاح لخشوعهم فى الصلاة فجاء فى الذكر الحكيم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ ٢﴾ (المؤمنون ١، ٢) .. الصلاة ذكر وتبتل وإخبات وخشوع.. هذا الخشوع هو لب الذكر ولب الصلاة.. ففى سورة الحديد: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ۝ ١٦﴾ (الحديد ١٦) .. فالصلاة خطاب ذاكر مخبت خاشع ضارع إلى الله تعالى، يتجه بكله إليه، ولا يستعين إلا به.. متوكلاً عليه مطمئناً إلى يومه وغده ورزقه: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ ٢٢﴾ (الذاريات ٢٢) .. والله تبارك وتعالى هو الرزاق: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝ ٥٨﴾ (الذاريات ٥٨) .. وفى سورة هود: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝ ٦٠﴾ (هود ٦٠) .. وتعددت الآيات فى بسط الرزق وتقديره إلى الله تعالى، فقال سبحانه فى كتابه العزيز: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ ٦١﴾ (العنكبوت ٦٠) .. ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۝ ٦٢﴾ (العنكبوت ٦٢) .. ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۝ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ ١٧﴾ (العنكبوت ١٧) .. المؤمن قنوع يجمل فى الطلب ويعلم من دينه أن نفساً لن تموت إلا وتستوفى رزقها وإن أبطأ.. يدرك المؤمن أن العمل عبادة، وأن عمله وجهده هو واجبه، وأن رزقه بعد ذلك على الله.. ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِيْ شَيْءٌ إِنِّىْ فَاعِلٌ

ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَذَكَرَ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ (الكهف ٢٣، ٢٤).. وهو يؤمن بأنه وقد بذل ما عليه، وتوكل على ربه، فإنه لا يخشى حاجة ولا إملاقا.. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ نَزْقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء ٣١).. هذه المعاني هي الصلاة الذاكرة الخاشعة الصارعة إلى الله مملوءة بنفحات الإيمان التي يطمئن بها المؤمن على يومه وغده.. لا يحمل في قلبه غلا ولا ضغنا، مهجته وصية الرحيم الغفور: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولَ الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمُسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور ٢٢)..

وفى إنجيل متى الأصحاب السادس (٩ - ١٣): «لِيَتَقَدَّسَ اسْمُكَ! لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ! لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض! خبزنا كفافنا. أعطنا اليوم واغفر لنا ذنوبنا كما تغفر نحن للمذنبين إلينا، ولا تدخلنا في تجربة، ولكن نجنا من الشرير».. هذه العبارات صلاة يخاطب بها المخلوق خالقه يدعوه أولا أن يسود سلطانه هنا وأن يتبع الناس هداه على الأرض كما يتبعه أهل السماء، وأن يقتنع الناس بخبز اليوم فقط، وأن يغفر الله ذنوبهم كما يغفرون هم ذنوب من يسى إليهم، وأن لا يمتحنهم لأنهم أضعف من امتحانه وتجربته لهم. صلاة فيها تسليم شديد للخالق وشوق أكثر شدة للاستقامة ونفور يبلغ حد التبرؤ من التناول والكبر، واكتفاء بأدنى حد ضرورى ليعيش المخلوق يومه فى سلام.. علما بأن ما جاوز ذلك الحد الضرورى محنة يمتحنه بها الخالق وهو يسأله أن يجنبه إيها وما يصحبها من المحن.. هذه المحن التي لا حد لها التي تأتى حين يلتفت المخلوق إلى إمتاع ذاته والاستجابة إلى ما يرضيها بالسعى لكفالة غدها وضمان مستقبلها على حساب الآخرين!.. وهو ما اعتاد الناس عليه منذ آدم وأوغلو فيه وتقاتلوا عليه وأفنى بعضهم بعضا من أجله وباتت عبادة الذات سائدة فى كل عصر وجماعة لا يقهرها إلا العقوبة العاجلة أو الخوف البالغ من التعجيل بها!

ولا عجب فالذات حاضرة لاصقة قريبة فى وعى آدمى ونومه.. فى طفولته وشيخوخته.. ولعبه وجده.. وصحته ومرضه.. وسلمه وحربه.. ودينه وديناه. لا تفارقه إلا إذا فارق

حياته.. فالصلاة إذا أخلص الآدمي في الاتجاه بها إلى الخالق عز وجل وانتوى بها طلب المعونة من الله، ورضى لذاته بالحد الأدنى لطعام يومه فقط رضاء قويا عميقا لا مDAHنة فيه ولا افتعال، ونفض كل ما نسميه مطالب المنزلة والكرامة والمكانة الدائرة حول الذات.. إذا كان ذلك أمكنه أن يرفع رأسه حقيقة إلى السماء ويقلب عينيه في الوجود الباهر، وأن يتعامل تعاملًا عاقلًا فاهمًا مع الكون.. لأن تيار المعاني الكونية عندئذ يتخلل من كل اتجاه ويزداد تخلله له بإطراد لا يفتر ولا ينقطع. ربما كانت هذه هي حالة الأنبياء والقديسين في كل دين وعصر ومجتمع.. ولكن يستحيل أن تصبح في أى مستقبل معقول حال الناس أو حال العلماء أو حال الفضلاء أو الصالحين.. لأننا لا نقوى على الإيمان العميق بالخالق لأكثر من ثمانية.. مرة في الأسبوع أو كل مرة في الشهر أو كل مرة في السنة.. ومعظمنا لا يقوى على هذا الإيمان مرة في العمر!

إننا نفضل الألفاظ والعبارات فقط ونفضل عمومها وعدم اعتمادها على موازين أو مقاييس باستعمال الناس لها.. صرنا نعتبر أنفسنا مسلمين أو نصارى أو يهودا أو بوذيين - حسب البيئة التي ننتمى إليها بال ميلاد في الأغلب الأعم، ونعتبر أنفسنا مؤمنين بالمعبود الذي تتعبده بيئتنا، ونردد أسمائه وصفاته وفق المألوف المعتاد في المناسبات التي جرت العادة بترديد أسمائه وصفاته فيها - تسليمًا من جانبنا لهذا الانتماء الذي تحيط بنا شواهد ولوازمه المادية والعاطفية والفكرية في كل أوقات صحونا ونومنا. فمعبودنا الفعلي يكاد أن يكون دائما هو مجتمعنا الذي نحن منه وإليه ابتداء وانتهاء.. وعبارات التنزيه أو التقديس المألوفة بيننا تعود فعلا وعملا لمجتمعنا لتحجب عنا - في الخيال والوهم - ما يشهده كل منا من نواقصه وعيوبه وشروبه.. ولتعيننا على الرضاء بالعيش في إطاره والتعلق بالانتساب إليه. ولتوقد باستمرار غيرتنا على بقاءه وبقائنا فيه كأننا ما كان. هذا الالتصاق الغريزي بالمجتمع وراء تدين جماعات الناس بأديانها ومللها ونحلها ووراء انتشار الأديان والملل والنحل في الجماعات البشرية ووراء تباين الصور المختلفة التي يتخذها دين كان في الأصل دينًا ذاتيًا لجماعة واحدة بعينها في الجماعات متباينة الأعراق والبيئات.. وهذا الالتصاق بالمجتمع هو وراء تغير الدين بتغير المجتمع تغيرًا أساسيًا غير آماله القريبة

والبعيدة على السواء. وهو أيضا وراء انصراف المجتمع عن الدين وإهماله إياه وعدم مبالاته به نتيجة فقدته الثقة في فائدته فقدًا كليًا عامًا.. وكل ذلك عليه أمثلة في تواريخ الشعوب والجماعات البشرية.. ولا يذكرها أهل الأديان إبان تعلقهم بالدين أو الملة.. لأنه تعلق غريزي كما قلنا يصعب مناقشته حال وجوده ويتعذر رد صاحبه - عند خضوعه لسلطانه - إلى التذكر والتأمل والتعقل وما يبعد به الآدمي الفرد عن نفوذ جماعته.. فالتدين كظاهرة فردية في إنسان بعينه موهبة قد تكون قوية منذ الصغر، وقد تنمو مع نمو العقل والنفس والقدرة على التأمل والمقارنة والنظر، وقد يزيد نموها إلى حد الإفاضة على كل من يتصل بها.. وربما كان هذا هو الأصل في كل صور التدين الجماعي.

أما التدين كظاهرة اجتماعية فهو امتصاص مجتمع معين لدين معين امتصاصا يصبح به هذا الدين من مقومات هذا المجتمع.. وهذا الامتصاص لا يحتاج إلى توافر موهبة لدى المعتنقين - بل يكفي فيه التقليد الإرادي واللا إرادي ورضاء المقلدين عن تقليد بعضهم لبعض وعن نجاحهم في التقليد وأفضلية حالهم بعده عما كانت عليه قبله.. فليس في بنية هذا النوع من التدين إلا ما هو مستعار من الجماعة التي تدين به أو نجاح هذه الجماعة وتاريخها إجمالاً أي في هزائمها وانتصاراتها وتشريدها وانتشارها.

وفي الجماعات التي تنتمي إلى دين أو ملة معينة - يغلب التدين إذا غلب - كظاهرة اجتماعية فقط.. قوامها تقليد الكثرة وتمسك هذه الكثرة بتقليدها أو بتقاليدها.. ولا يكاد يلاحظ فيها التدين كموهبة فردية في إنسان بعينه.. لأن الأغلبية الغالبة تفرض رؤيتها عن طريق أئمتها وأحبارها وعلمائها وكهناتها. فلا يكاد يُسمع في هذا الجو المسيطر صوت لموهبة أو نداء لعقل تأمل أو قارئ أو نظر إلى ما هو أبعد أو أعمق من رؤى المجتمع المتدين والمتحدثين باسم هذا المجتمع.

وفي الأزمات السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية يُستعمل الرؤساء الدينيون إما في محاولات التهدة أو في محاولات الإهابة والإثارة.. ويتنازعون علانية فيما بينهم أو يجتذبون إلى جانب كل فريق فريقاً من عامة الناس انحازوا لهم في حقهم وباطلهم متأثرين بكيفية إحساسهم بالأزمة، فينعكس على الجدال أو العراك العام لون ديني

تثار فيه قضايا دينية قديمة كانت قد نامت من قرون.. وذلك بطبيعة أن الدين كظاهرة اجتماعية هو تعلق بماضي غالٍ على الناس.. لا يتغير مع تغير الأحوال في المستقبل القريب أو البعيد.

وقد كان هذا الاتجاه إلى الماضي لا غبار عليه في الجماعات البشرية إلى القرن الثامن عشر في أوروبا، وظل لا غبار عليه في الشرقيين الأدنى والأقصى إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، وبدأ الاتجاه إلى المستقبل الذي انتشر في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية يسرى إلى بقية أجزاء العالم كخطى سريعة أو بطيئة على قدر حظ كل جزء من اليقظة والاجتهاد والمثابرة والإصرار على المنافسة في الزيادة من العلوم والمعرفة والتطور والتفوق في ذلك. فأدى ذلك بالأديان المعروفة المعترف بها إلى مأزق لم تعرف له سابقة.. هو افتراق الحاضر عن الماضي افتراقاً شاسعاً لا سبيل إلى أن تعيش الجماعة دون التسليم به والاعتراف بضرورياته ولوازمه ومقرراته.. ودون أن تهين نفسها لمقابلة ومواجهة اتساع الفارق المستمر بشكل أكثر عنفاً في مستقبل قريب جداً نظراً للسرعة الهائلة في التطور التكنولوجي والتقدم العلمي المبني عليه أو الباعث له.

هذا التطور العالمي الهائل أبرز وبرز ويستمر في إبراز مسئولية الإنسان كفرد.. ومسئوليته - كفرد ضمن مجموع - لا عن ماضيه فقط، بل وعن مستقبله ومستقبل المجموع الذي ينتمى إليه.. وهذا لا يتحقق فقط بدوام العبادات، وإنما لابد من دوام الفهم والتعلم واليقظة إلى ما كان خافياً والالتفات إلى ما أبصره وعرفه الآخرون ومساهماتهم فيه وإعانتهم على المزيد من البصر والمعرفة - لتجنب خطايا المستقبل، وهي أدهى وأفدح من خطايا الماضي.. ولا غنى عن نجاح الأيام الآتية والزيادة المطردة في نجاحها تشريعاً للأدنى في أداء رسالته في هذا الكون العظيم.

وإذا كانت الحياة المنصرفة إلى الفوارغ والتوافه والجهالات خليقة بالهوان والاحتقار لأنها تحيل نعمة كونية إلى سراب وتراب فإن الحياة الجادة التي تطلب ما هو جاد ولتزيد منه لخيرها وخير أمثالها، تمضي في طريق نعمتها إلى الأمام متدفقة من حال إلى حال..

أكثر بركة وأعمق فهما وأشد إحساسا بالتبعية وترحيبا بكل ما يزيد المعرفة ويكشف عن أسرار الوجود حولنا ويرفع من رأس الإنسان العاقل الفاهم في حوارهِ مع نفسه أو مع أمثاله أو إزاء خالقه تبارك وتعالى.

إن التدين كظاهرة اجتماعية جزء من حياة المجتمع الإنساني.. لم يكف قط عن التغيير والتطور في الماضي مع تطور وتغير مقومات حياة الناس وظروف عيشهم ومقدار ما زاد أو نقص في اهتماماتهم.. ولن يكف عن التغيير والتطور في المستقبل تبعا للسرعة الهائلة المتزايدة التي نلاحظها الآن في كل جانب من جوانب الحياة في التغيير والتجديد والقفز والانطلاق.. فالطمع في بقاء القديم على ما هو عليه أو في إعادة القديم إلى ما كان عليه طمع كاذب بيقين.. أيا ما كان مقدار تعلقنا بذلك القديم أو كان توهمنا لإمكان إنقاذه من موجات التغيير والتطوير العنيفة المتتالية على الحياة الآدمية بعامة.

ربما كان الأقرب للصواب والأدنى إلى النجاح والتوفيق هو انتقاء الأساس أو الجوهرى من ذلك القديم مما لا يتأثر بطبعه بتغير ظروف المكان والزمان - فى حياة الناس - واستخلاصه مما علق به من التفاصيل الزمانية والمكانية عبر اختلاف الأزمنة والأمكنة.. وذلك لا يتأتى قط إلا بعد فهم عميق لما بين يدي الناس الآن من معارف وعلوم وفنون جادة أشد الجد والاكتئاب فيها - كما يفعل غيرنا - بهمة وإخلاص ومثابرة وإصرار.. بحيث تدخل وتندمج فى التيار الرئيسى الجاد السائد فى حياة الآدمى المبنى على المعرفة العميقة والعمل الواثب والمنافسة التى لا تنقطع!

الإيمان بين الهداية والتصلب



يتفاوت الناس فى إيمانهم، كما يتفاوتون فى قيمهم وأخلاقهم ومحاسنهم، ويبدو أن الإيمان الدينى ليس بخارج القاعدة المتداولة فى شأن التعليم، والتى تقول: «التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر».. فمن الملحوظ أن الإيمان الدينى المتص والمكون إبان الطفولة والمراهقة وأول الشباب، يكون راسخ الجذور، لا سبيل إلى استئصاله مهما قد يعترضه فى رحلة الحياة من وهن أحيانا، أو خروج عن باحة الاستقامة أو الدين نفسه فى بعض الأحيان..

ومن الناس من يعايش إيمانه المزروع من الطفولة، ويستسلم له ويسايره بإذعان ودون مناقشة من أى نوع إلى أن يقارق الدنيا على الإيمان الذى شب عليه، ومنهم من قد يتغافل ولكنه لا يستشكك ولا يجب أن يشتبك فى الجدل والشك والدفاع والهجوم، ومنهم وإن كانوا أقلية من يحاولون جاهدين باستمرار للوصول إلى مرحلة من الفهم والتبرير المعقول لما لديهم من الإيمان، وهذه الأقلية لا تكاد فى الغالب ترضى أحدا، لا من عامة المؤمنين المعاشين لما شبوا عليه، ولا لمن بداخلهم شكوك مكتومة أو مفصح عنها!!.

والمعايش المستسلم للإيمان المتص من الطفولة، الذى شب عليه، لا يجد لديه حاجة ولا يتيح لنفسه - قط أو غالبا - أى فرصة للتأمل والبحث فى لزوم وضرورة إيمانه، ولا يدور بخیاله أن يكون هذا البحث موضوعا لمناقشة أو تأمل، ويقابل بالصد والرفض الصلب العنيد من يحاول جره إلى ما يشبه المناقشة، ويرى أن رفضه وصلابته وعناده جزء لا يتجزأ من إيمانه ولا يقرط فيه البتة، لأنه محسوب له مأجور عليه مرضى عنه عند ربه تبارك وتعالى. ولذا فهو أحيانا ما يزهو به وينتهز القرض لإظهاره وإعلانه والاشتهار به.. وهذا كله، خاص مخصوص بعلاقة العبد بربه مباشرة، لا مدخل فيه لمسلكه فى دنياه وعلاقته مع غيره من الآدميين، ومبلغ قيامه أو عدم قيامه بمسئوليته قبلهم. وهنا يحس المؤمن إحساسا عارما طاغيا بانفصال الدين عن الدنيا بأسرها، وبأن قيمة الدين فى ذاته وبقدر قوة إيمانه هو به دون أن يتوقف ذلك على أى شىء أو اعتبار آخر.

على أن هناك من يتطرفون ويتعصبون ويتصلبون، فيتصورون أن الإيمان لا يتوقف أو يتعلق باستقامة السلوك أو عدم استقامته مع الآخرين، وأنه أمام الخدمة الخاصة المباشرة للرب، يهون على المتدين المتعصب كل شيء آخر خلاف إيمانه بربه وتعلقه المباشر به، فيتصور أن له في هذا السبيل أن يستخف - حسب اعتقاده! - بكل كائن دنيوى وكل شيء على الأرض، فيستحل الحرب، والقتل والاغتيال، والتدمير والتخريب، والقضاء على الجماعات والطوائف والأمم، باعتقاد أن المحاسب الأول هو الرب وأنه لا بد راضٍ - هكذا يعتقدون - أتم الرضا عن يخدم قضيته حسب تصوره ومعتقده. وقد سجل التاريخ بعض ما جرى في هذا الإطار من الفتن والحروب الدامية التى عبر بعضها البحار، وما أحدثته من دمار لقرون في حروب طويلة انخرط فيها بعض شعوب الشرق الأدنى وأوروبا في النوبات المتطرفة والمخربة، ولا يزال باقيا منها حتى الآن آثار استغلال. إيمان المؤمن وانفصاله عن سلوكه وأخلاقه!.

وربما كان ما نراه الآن في بعض البقاع من الكثرة الكاثرة من الفاترين المتغافلين عن جوهر الإيمان، الذى لا يريدون أن يفهموا أو يتأملوا أو يدخلوا فى نقاش أو جدل أو دفاع أو هجوم.. ساخن أو هادئ.. ربما كان مرد ذلك الذى نراه أثرا ونتيجة لهبوط تلك النوبات المتطرفة العميقة، وما تركته فى معظم النفوس من انفصال الإيمان واقتراحه عن أخلاق البشر وسلوكهم، إذ مرجعها الغالب الآن إلى تعلقهم السطحي بالإنسانية والمبادئ والحضارة، وليس بالحرب والدين، وما جلبته هذه المرجعيات الجديدة من قداسة الحريات الشخصية وحرية الاعتقاد والفكر والجنس والتنقل والتجارة والصناعة والتعلم والاشتراك والتجمع والعمل، الأمر الذى أطلق هؤلاء المتطورين من عصمة الأديان، ربما إلى غير رجعة جدية، وليست شكلية صورية كلامية نفعية كالذى نشهده اليوم فى بعض دول الحضارة الغربية، والتى عادت الآن - برغم هذه المرجعيات الجديدة اللادينية - لتشن حملة ضارية على الإسلام والمسلمين!.

والذين يتصلبون ويتطرفون من المسلمين، يبتعدون دون وعى أو إدراك عن الإسلام.. فالإسلام أبعد ما يكون عن التعصب والتطرف والتصلب، ومنظومته الأخلاقية كدين للعالمين

قد عبرت عن هذا الاتساع الكونى لرسالة الإسلام فى المكان وفى الزمن، من خلال وسطيته
وسنن الرفق واللين والإسماح.. فالدين لا يسعى لفرض الإيمان بالقسر أو بالإرغام، ولا يجبر
أحدا على اعتناقه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ الْبَالِغَ
أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل ١٢٥)..
والرسول ﷺ ما عليه إلا البلاغ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ (الشورى ٤٨)..
أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴿١٤﴾ (فاطر ٢٣ - ٢٤)..
﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (٢٣)..
﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة ٢٥٦)..
﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس ٩٩)..
﴿قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ
عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (يونس ١٠٨)..
فالمسلم غنى بهدايته، لا يفقره ولا يضره ضلال غيره.. ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ

ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة ١٠٥)..
والإسلام لا يعادى الديانات والرسالات التى نزلت قبل الإسلام.. ففى القرآن المجيد:

﴿ءَامِنَ الرَّسُولَ إِمَّا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامِنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ
بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ (البقرة ٢٨٥)..
﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا
أَوْقَى مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أَوْقَى النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة ١٣٦)..
والمسلم آلف ومألوف، وفى الحديث الشريف: «المسلم آلف ومألوف، ولا خير فيمن

لا يآلف ولا يؤلف».. «إن أقربكم منى مجلسا أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين
يألفون ويؤلفون».. الرفق دستور وشيمته: «ما دخل الرفق فى شىء إلا زانه، وما خرج
منه إلا شانه».. وتعاون المسلم هو على البر والمعروف لا على الإثم والعدوان.. فيقول عز

من قائل: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة ٢)..
 واختلاف الناس سنة كونية ليست محلا لعداوة أو خصام أو عراك.. فقال القرآن المجيد:
 ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ تَمَثُّلًا﴾ (هود ١١٨).. وعلاقة
 المسلم بأهل الكتاب علاقة صلة وتعايش: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
 حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ
 إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِبْرَةِ فَقَدْ
 حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ (المائدة ٥).

والدين نفسه قوامه اليسر لا العسر أو التعسير، وفي حديث المصطفى ﷺ: «إن هذا
 الدين متين، ولن يشاد الدين أحدا إلا غلبه، فأوغلوا فيه برفق، فإن المنبت لا أرضا قطع
 ولا ظهرا أبقى».. والله سبحانه وتعالى يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه.

إن الأقلية المؤمنة الفاهمة المتفطنة لجوهر الدين والإيمان التي لا تكاد ترضى أحدا
 خارجها.. والتي تحاول بإخلاص واجتهاد تكريس الفهم وعقل ما لديها من دين، فإنها
 تحس إحساسا لا يفارقها بنقص الحضارة الحالية وأى حضارة سابقة وعدم كفايتها لأن
 تستمر - بغير أن تضع كفها في كف الكون بطريقة ما .. جدية فعالة مستمرة، لا تنقطع
 ولا ينقطع مددها قط فعلا وعملا، وترى أنها إن لم يتيسر لها في أي زمن مستقبل
 فهم الكون كله أو فهم بدايته أو نهايته بيقين كما حاولت الأديان حتى اليوم - فإنها قد
 يتيسر لها بالإصرار والمواظبة والمثابرة، أن تفهم فهما معقولا أقرب ما يكون من الصحة
 ما هو المطلوب الدائم اللازم الواجب قيام الآدمي به في هذا الكون، بدلا من الجرى وراء
 التخمينات التي يكذب بعضها بعضا وما صاحب ويصاحب ذلك من الكوارث وضحايا
 الكوارث وعقابيلها التي لاتعد!

وهذا المراد لا بد له من قدر من الانضباط الداخلي، يتزايد باطراد بازدياد البقظة
 والانتباه والتجانس في جماعات البشر، بحيث لا تتراجع ولا تنتكس بل تجعل إصرارها
 على موالاة تطورها وتقدمها - أشد غاياتها وضوحا وأولها وأولها طلبا. وهذا يستدعي

مراجعة كافة المبادئ والمثل والمعتقدات السائدة المتداولة من الآدميين على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم ، مراجعة متأنية أمينة خالية من الاندفاع والمبالغات صوب الأحلام. قد يبدو هذا عزيز المنال صعبا بالغ الصعوبة، لكنه ليس مستحيلا معجزا إذا تأملنا ما مُنح الآدمي من المواهب والاستعدادات المهمة أو المبددة، وما يمكن أن يقوم به حين يعقد إرادته ويحشد عزمه ويكافح لينتصر.

والبشر يتساندون في الانتصارات وفي الهزائم، فهم يتجمعون ويستमितون حتى يكتب لهم النصر، وهم قد يبأسون ويؤس بعضهم بعضا حتى تتكالب عليهم أسباب الهزيمة فيفرون منهزمين لا يلوون على شيء، وهم كمجموع فيهم مصادر خيرهم وشهرهم، وقوتهم وضعفهم.. ومن أحوالهم صيغ صعودهم وهبوطهم، وكتبت صفحات تاريخهم كما كتبت مصيرهم!.

هذه القلة موجودة حتى الآن.. تعيش حيرتها مع الإعراض التام عنها، ومع الأفكار المختلفة التي تظهر وتختفي داخلها لقدم صمودها عملا وعدم تماسكها، ولكن وجودها ذاته مبشر وفيه نسمة خير، إذ إن وجود الأغرار المتعصبين الحالمين، ووجود المتغافلين اللامبالين وحدهم وحولهم السطحيون العابثون، لا يطمئن عاقلا على بقاء شيء نافع خليق بالبقاء في حضارة هذا العصر.. هذه الحضارة التي قد يؤدي بها في أية لحظة، ويؤدي بما عرفته وما ابتدعته وما صار في الأيدي من إنتاجها - من قوى التدمير غير المسبوقة.

لا بد من ظهور ومساهمة المزيد من العقل والاتزان والانضباط بين أهل هذه الحضارة الذين تكاد تضيق الأرض بأعدادهم، كي يتيسر لهم قدر من الأمان من الكوارث التي تهددهم بها ذات حضارتهم المليئة بدواعي وأدوات ووسائل الاقتراس والتخريب!.

والسؤال الذي يفرض نفسه على العقلاء، هو كيف يتحقق ذلك فعلا، وهل نرى له بؤادر دون أن تسبقها ويلات ونكبات يصحو بها النائم ويزول معها طيش البلايين من الطائشين الذي لا ينقطع توالدهم؟!.

الإسلام وشعار مغلوط!



يبدو لي أحيانا أننا نناقض أنفسنا بلا وعي، تخرج منا الأشياء والشعارات ببساطة دون أن نتأمل مدلولاتها تأملا حقيقيا يدرأ عنا سوء التأويل أو سوء انتهاز الفرص للإساءة إلينا. لا نختلف نحن المسلمين على أن ديننا دين محبة وسلام وإخاء.. دخل قلوب من آمنوا به، اليوم والأمس، بالحكمة والموعظة الحسنة، مدّ ويمد أيديه إلى الدنيا بالسلم.. اسمه منحوت من السلم والسلام، وجعل السلام تحيته، وتحقيقه هدفه وغايته.. نعرف ذلك من آيات القرآن الكريم التي قالت لرسول القرآن على رغم كل ما لاقاه.. ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (١٦) ﴿(الأنفال ٦١)﴾.. ونقرأ في القرآن المجيد: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (٢) ﴿(المائدة ٢)﴾.. نعرف من حديث الرسول ﷺ أن إفشاء السلام هو سجية المسلم وباب التقارب والمحبة.. ونقرأ دعوة القرآن إلينا: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ (٢٠٨) ﴿(البقرة ٢٠٨)﴾. وأن الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ (٢٥) ﴿(يونس: ٢٥)﴾.. ونعرف من إسلامنا أن السيف لم يشرع إلا لدفاع الكفار الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم بمكة بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله!

نعرف ذلك كله وغيره عن شريعتنا السمحة، ونعرف أن تهمة العنف والإرهاب تهمة كاذبة مفتراة، ضالة مضلة لا تريد إلا النيل من الإسلام الذي عم المعمورة وبات انتشاره بين ظهرائهم تحديا لا يطيقونه، فجعلوا بالرسوم وغيرها يقترون عليه وعلى رسوله العنف والإرهاب، ويصلون دعاوى الحاضر بمزاعم الماضي أن الإسلام لم ينتشر إلا بحد السيف، ولا يكلفون خاطرهم تفسير لماذا إذن ينتشر الإسلام اليوم في أوروبا وأمريكا بينما لا يملك المسلمون الآن سيفا ولا نظيره، وأجنتهم اليوم مهیضة، ليس بيدهم أى قوة ينشرون بها الإسلام.. اللهم إلا نوره الذى بذاته يجذب إليه القلوب، دون قوة تعينه أو تفرضه! هذا كله لا يراه أصحاب الإساءة إلى الإسلام ورسوله ﷺ، بالرسم والكلمة التى تصور الإسلام سيفا يرهب وإرهابا يخيف ويبطش!

ونحن المسلمين نغضب ونثور، ونهتاج ونتشنج لهذه الأوصاف المفتراة، بينما دون أن ندري نقدم لهم مادتها متطوعين غافلين، فنتخذ السيفين المتقاطعين رمزاً للإسلام بجوار المصحف أو اسم الجلالة.. نقبل على ذلك في الملصقات التي طقت تملأ كل مكان، إلى جوار شعارات وأعلام اتخذت هذا الرمز في ظرف تاريخي لم يعد له الآن محل!.. نقبل على ذلك بغير تبصر، مع أن الهلال يغنى في التعريف بالإسلام، وكعنوان له، بدلاً من السيف الذي يوحي أو يتيح لهم اتخاذه ذريعة - بالرسوم المسيئة! - لنعت الإسلام ورسوله الكريم بالعنف والإرهاب!

لست أفهم لماذا في عالم اليوم، وواقع الحياة، نصر على «السيفين المتقاطعين» عنواناً أو شعاراً إلى جوار المصحف أو اسم الجلالة؟! أليست الرسوم المسفة المسيئة تتخذ ذلك النظر ذاته لتصوير الإسلام ورسوله ونعتهما بالعنف والإرهاب؟!.. لماذا لا يتفق أولو الأمر من أصحاب الأعلام أو الشعارات، على اتخاذ عنوان آخر - وليكن الهلال - إلى جوار القرآن أو لفظ الجلالة؟!.. ولماذا نقدم بأيدينا - دون أن نتفطن - مادة لحملات الافتراء علينا والإساءة إلينا والتطاول الوقح على رسولنا ﷺ؟!.. لماذا نقدم بأيدينا ما نعود فنسعى لدرثه عنا؟!.. ظني أن اتخاذ السيفين شعاراً يتطوى دون أن ندري على إساءة للإسلام!



قدسية الروح والأمن المجتمعي في الإسلام



تصب جميع المبادئ وآليات الأمان المجتمعي التي يحرص عليها الإسلام، في أمان الإنسان على روحه ونفسه وبدنه وعرضه وماله، فهذا الأمان، هو غاية المبادئ والقواعد والأحكام والآليات.. يأتي في المقدمة أمان الإنسان على روحه، فالروح هي الأصل والأساس، لذلك لا بد لكمال الحديث عن الأمن المجتمعي، من بيان منابع وأسس قدسية الروح في الإسلام.

تقديس الإسلام للروح الإنسانية، هو فرع على تكريمه للإنسان، ومعلم أساسي من معالم عالميته وأمان مجتمعه.. لا يطلب الآدمي من الدين أكثر من أن تكون روحه فيه -روح سواه - روحاً عزيزة مقدسة محل احترام ورعاية وحماية.. «الحياة» في الإسلام هي هبة الخالق البارئ جل شأنه.. وهي نفحة للإنسان الذي كرمه سبحانه وتعالى واجتباؤه وفضله على كثير من خلقه تفضيلاً.. في القرآن المجيد: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (٧٠) (الإسراء: ٧٠).. هذه الروح التي خلقها الله، أمرها بيد الله، لا يجوز لغير الله أن يعترض وجودها أو يجدها أو يمسها أو ينهاها.. في الإسلام، روح الآدمي - أي آدمي مهما كان عرقه أو ديانته - هي روح الناس جميعاً.. إجهاضها هو إجهاض للحياة، وإزهاقها هو اعتداء على الحياة الإنسانية التي أوجدها الله ولا موجد ولا منهي لها سواه.. من هنا، نوه القرآن الحكيم إلى أن القتل ليس حسبه أنه عدوان على حياة المقتول وكفى، وليس إزهاقاً لروح أزمقت بغير حق وكفى، وإنما هو اعتداء على الحياة الإنسانية كلها!!.. ومن يحترم الروح الإنسانية، ولا يمسها، ولا يزهق الحياة فيها، فكانه أحياء الناس جميعاً.. في القرآن المجيد يقول رب العزة: ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (٣٢) (المائدة: ٣٢)..

هذه الحياة - المنحة الربانية - المقدسة، محوطة برعاية وحماية محكمة في الإسلام..
 إزهاق الروح - أى روح - من أكبر الكبائر في الإسلام، ومن أبشع الجرائم فى شريعة
 الله.. فرض الله تعالى لها قصاصا يرهب ويثني الناس عن استباحتها أو الاستهانة
 بحرمتها.. يقول الحكم العدل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ (البقرة: ١٧٨)..
 القصاص لغة يعنى المساواة، أى أن الجزاء من جنس العمل أو الجرم..
 القصاص تتبع للجاني بالجزاء العادل، وللمجنى عليه أو ذويه بالشفاء.. القصاص عدالة..
 وجزاء وفاق للجريمة، فالقتل اعتداء متعمد أزهد روحا خلقها الله، فتكون العدالة أن
 يؤخذ الجاني القاتل بمثل فعله!! هذا القصاص لم يفرض للנקية أو الانتقام، وإنما عقابا
 عادلا ورادعا، حكيمًا واعيا، وأحكم ما فيه ونبه إليه القرآن المجيد أنه فى واقعه
 سبيل للحياة، لأنه حماية لها - بالردع والجزاء - من تغول المتغولين وعدوان المستهينين
 بالحرمان الإنسانية وبأرواح عباد الله.. فى القرآن المجيد: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ
 يَتَأُولَىٰ أَلَّا تَكُتِلَ لِمَن كُتِبَ عَلَيْهِ الْقِتْلَةُ تَقْتُلُوهُ﴾ (البقرة: ١٧٩)..
 الردع فى العقاب يجرى على محوريين، ردع خاص يتجه إلى الجاني الذى أخطأ وتعدى على حقوق أو حيوات الناس،
 والردع العام الذى يحذر الناس.. كل الناس من مغبة الجريمة والاعتبار بأن الجاني الملاحق
 بعقاب الدنيا والسلطة الحاكمة، ملاحق أيضا بعقاب السماء.. قد يستطيع الجاني أن
 يتوارى عن الناس بجرمه، وأن يقلت بالتالى من عقاب الدنيا، ولكنه لا يستطيع أبدا أن
 يقلت من عقاب الله الذى يعلم السر وما يخفى.. فى القرآن المجيد: ﴿وَمَن يَقْتُلْ
 مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ
 عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٣)..
 لا ينجيه من هذا العذاب المقيم أن يلقي جزاءه فى الدنيا بعقاب ينزل به، أو بفدية يقبلها أهل المجنى عليه منه، أو بعفو يبذلونه له!!..
 وفى صحيحى البخارى ومسلم، عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ بيانا منه
 لبشاعة القتل وفداحة جرمه الذى ينتزع روحا خلقها الله - كان يقول: « ليس من نفس
 تُقتل ظلما - إلا كان على ابن آدم الأول (قابيل) كف من دمها، لأنه أول من سن القتل»

.. فى الحديث الشريف أن كل آدمى على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه ، يقول عليه الصلاة والسلام لأصحابه : «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل نفس بغير حق» .. «لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا فى دم مؤمن لأكبهم الله فى النار» .. يحذرهم عليه الصلاة والسلام فيقول لهم : «إن قتل النفس التى حرم الله» من السبع الموبقات !!

ملاحظة القاتل بهذا التهيب متعددة فى الإسلام.. فى القرآن المجيد : ﴿وَكُتِبَ عَلَيْهِمُ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ (المائدة : ٤٥) .. نفس آدمى كما هى عزيزة عليه فإنها عزيزة على سواه ، وكما هى غالية عنده فإنها غالية على غيره.. احترام آدمى لروحه وحرصه عليها ، يجب أن يردعه عن المساس بأرواح الآخرين.. إذا علم أن قبض روحه الغالية عليه هو هو ذات الجزاء العادل على إزهاقه روحا أخرى ، ردعه هذا عن المساس بأرواح الناس !



عناية الإسلام بمواجهة ومحاصرة آفة الثأر ، عناية تنبع من تقديسه للروح الآدمية.. صحيح أن الإسلام لا تواجهه مشكلة «الثأر» فى المجتمعات المتحضرة المتنورة التى لا تنخر فيها عصبية «القبليات» وما تؤدى إليه من تعصبات ضريرة عمياء كانت ولا تزال وراء نار الثأر ، بيد أن «القبليات» معضلة تعاني منها المجتمعات ، وكانت تعاني منها شبه الجزيرة العربية وما حولها ، ولا تزال تعاني منها مجتمعات أخرى هنا أو هناك.. كان على الإسلام أن يواجه - وقد واجه - هذه المعضلة التى كانت شائعة بمجتمعات الجاهلية التى ضربت القبليات بعمق فى عاداتها وموروثاتها وتملكت من الناس فيها حتى صار التغنى بالقبلية والانتصار لها فى الحق وفى الباطل هو الصورة المعتقدة للبطولة ، لا علاقة لها بالحق ولا موجباته ، ولا بالعدل ومعادلته ، ولا بالعقل وما يهذى إليه.. يعبر عن ذلك الشاعر الجاهلى عمرو بن كلثوم حين يقول :

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا كذاك البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخر له الجبابر ساجدينا

لا يلتفت الثَّار - فى عماه وضلاله - إلى الحق والعدل، ولا إلى البرىء والمذنب، وإنما هو ثَّارٌ ضَرِيرٌ لا يميز، فإن ميز - فليس لإيقاع الثَّار بمن فعل وتجنى وقتل، وإنما بمن تكون «الوجيعة» فيه أثقل من الوجيعة فى غيره.. سواء فعل أم لم يفعل.. فلا شأن للثَّار بمن فعل، وإنما هو الانتقام الأعمى الذى يختار الضحية الموجهة للقبيلة المضادة.. وهذا هو أخطر ما يقوض أمان المجتمعات.. يتجلى ذلك حين نلاحظ أن قضايا الثَّار قضايا قبائل وعائلات لا أفراد، وعرفت من أجل ذلك بما يسمى بالاتهامات الثَّارية!!.. فالقتل الثَّارى تقابله اتهامات ثَّارية.. لا شأن لأيهما بموازين العدل ولا بشخصية المذنب.. لتبقى النيران مشتعلة إلى أن يحين الحين لواقعة ثَّار مضادة، لتتوالى الوقاعات. الطالب اليوم مطلوب غداً، وهكذا دواليك!! دون ما نهاية منظورة، إلا العقل الغائب، والدماء المسفوحة، والغل الذى يملأ النفوس بالأحقاد، ويقوض أمان المجتمع، ويورد الجميع موارد الهلاك!!



من عاداتنا السلبية المؤسفة، أننا لا نلتفت لمواجهة النوائب إلا بعد أن تلح بقارعة، تجبرنا بذيوعتها وانتشار خبرها على الإفاقة والمواجهة.. ومن آفاتنا أيضاً أن مواجهة القارعة تبدأ ساخنة بل وربما محمومة، حتى إذا ما انطمر ذكرها وبهتت صورتها من وعينا الحاضر أو المستحضر.. تسكن الكلمات الحارة أو تكاد، وتهبُّ الضجة الساخنة أو توشك على الهدوء - وشيئاً فشيئاً تنطوى الصفحة أو الصفحات التى فتحت، وتدخل القضية برمتها - وقد ألحت لقارعة - فى أصابير أقلام المحفوظات إلى أن تصفَعنا قارعة جديدة. يخطئ من يتصور أن كارثة الثَّار التى ضاعت فيها أرواح اثنين وعشرين نفساً ضربة واحدة، طارئٌ جديد فى نوعه أو صورته على القبلية المؤسفة الضاربة بجذورها فى الصعيد المصرى على التخصيص.. من سنوات طيرت الأنبياء قتل المحافظ عبد الفتاح عزام ثَّاراً فى واضحة النهار، مثلما طيرت نبأ مصرع المستشار سليم عفان فور وصوله إلى منزله بقريته بالصعيد بعد انقطاع عن زيارتها استمر نحو عشر سنوات تحاشيا للثَّار.. بيد أنه لا بد مما ليس منه بد!!.. خالف المستشار حذره، وذهب لقريته، فقتل لتوه، مع أنه

لم يرفع على أحد سلاحاً، ولم يتورط أو يشارك أو يتآمر على قتل أحد، وغير مطالب شخصياً بشار.. ولكنه الثأر الأعمى!!.. فواقعات الثأر متلاحقة هناك.. لا تهدأ، ولا تدع أحداً يهدأ.. تتميز أقضيّاتها بأنها قضايا قبائل لا أفراد، مع أن المسؤولية في شريعة الله وفي القوانين الوضعية شخصية.. لا يسأل الشخص إلا عما فعل، لا محل لمساءلته - شرعاً وقانوناً - عن فعل سواه مهما كانت درجة قرابته أو انتمائه إليه.. المسؤولية في شريعة الله شخصية.. في القرآن الحكيم: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَتُهُ طَبْعُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ (١٣) (الإسراء ١٣)، ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (١١) (الطور ٢١) وفيه أيضاً: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (١٦٤) (الأنعام ١٦٤، فاطر ١٨) .. ﴿أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (٣٨) (النجم ٣٨-٣٩) .. ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) (الزلزلة ٧-٨) .. والمسؤولية شخصية أيضاً في القانون الوضعي.. فحملت جميع الدساتير المصرية المتعاقبة، ما تنص عليه المادة ٦٦ الحالية من أن «العقوبة شخصية» - فلا يلحق العقاب، ولا يجوز أن يلحق، إلا بمن ارتكب الجرم وثبت في حقه ثبوتاً يقره الشرع والقانون. بغير ذلك تكون المساءلة ظلماً، ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ (٣١) (غافر ٣١).

لا يلتفت الثأر في شره وعماه وضلاله إلى هذه البدهيات، التي أجمع عليها الشرع والقانون، وإنما هو ثأر ضرير لا يميز ولا يعنيه أن يميز، فإن ميز فليس لإيقاع الثأر بمن فعل وتجنّى وقتل، وإنما بمن تكون «الوجيعة» فيه أثقل من الوجيعة في غيره.. سواء فعل أم لم يفعل.. فلا شأن للثأر بمن فعل، وإنما هو الانتقام الأعمى الذي يختار الضحية الموجعة للقبيلة لا للفرد.. لذلك كانت قضايا الثأر في صعيدنا المصري قضايا قبائل وعائلات لا أفراد، وعرفت من أجل ذلك ما يسمى بالاتهامات الثأرية!!.. لا شأن للاتهام في واقعات الثأر، بمن ثأر وقتل، وإنما يتخير المتهم أو المتهمين بقرار قبلى من أسرة الضحية.. يتجه بدوره إلى ما يؤلم ويوجع أكثر.. بغض النظر عما يكون حقيقة قد حدث. أما الشهود، فمسألة توفيق وتحضير، ولذلك تكثر نسبة أحكام البراءة في قضايا

الثَّار، لأن أحدا لا يعنى بما حدث، وإنما هو قتل ثأرى تقابله اتهامات ثأرية.. لا شأن لأيهما بموازين العدل ولا بشخصية المذنب.. إلى أن يحين الحين لواقعة ثأر مضادة، لتتوالى الوقائع على نظام الكراسى الموسيقية. الطالب اليوم مطلوب غداً، وهكذا دواليك!! دون ما نهاية منظورة، إلا العقل الغائب، والدماء المسفوحة، والغل الذى يملأ النفوس بالأحقاد، ويورد الجميع موارد الهلاك!!.

جذور هذا الانتقام الأعمى ترجع إلى الجاهلية العربية، لم يكن جنون الثَّار يتوقف بهم عند معنى العدل، فلا شأن لهم به، يطلبون غير القاتل بالقاتل، والعدد أو الكثرة بالواحد.. يروى أن واحداً قتل آخر من الأشراف، فاجتمع أقارب القاتل عند والد القتيل لاسترضائه. وقالوا له: ماذا تريد؟ قال: إحدى ثلاث. قالوا: وماهى؟. قال: إما أن تحيوا ولدى. أو تملأوا دارى من نجوم السماء، أو تدفعوا إلى جملة قومكم حتى أقتلهم، ثم لا أرى أنى أخذت عوضاً!!.



أغرب الغرابة وقد حل نور الإسلام محل ظلام الجاهلية.. أن يحسب الغارقون فى بحور الدم جرياً وراء الثَّار، أنهم يصدرون فيما يتردون فيه عن منظور إسلامى، لا يستوقفهم أنهم يتجهون بالثَّار إلى غير جان، ويبيحون قتل برئ أو حتى مشتبهِه فيه بغير بينة لغير ما جريرة شخصية إلا قرابة أو انتماء لأسرة.. لا يعظم الدين الذى يؤمنون به.. ولا يردعهم أن الحياة التى يتجرأون على اغتيالها هى هبة الخالق البارى جل شأنه لكائناته ومخلوقاته، ومنحته للإنسان الذى كرمه سبحانه وتعالى واجتباه وفضله على كثير من خلقه تفضيلاً. فى القرآن المجيد: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَحْشِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء ٧٠).. فى القرآن أن القتل ليس حسبه أنه اعتداء على حياة المقتول وكفى وإنما هو اعتداء على الحياة الإنسانية كلها!!.. يقول عز من قائل: ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ

جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣٢﴾ (المائدة ٣٢) .. القتل من الكبائر ومن أبشع الجرائم في شريعة الله ، إن استطاع القاتل أن يفلت من عقاب الدنيا ، فإنه لن يستطيع أن يفلت من عقاب الله الذي يعلم السر وما يخفى .. ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء ٩٣) .. لا ينجيه من هذا العذاب المقيم أن يلقي جزاءه في الدنيا بعقاب ينزل به بعد إقامة الدليل عليه ، أو بفدية يقبلها أهل المجنى عليه ، أو بعفو يبذلونه له ! .

في حرص على قداسة الروح الإنسانية وتحريم القتل ، لم يفرق الإسلام في جزائه وعقابه بين من يقتل ابتداءً ، وبين من يقتل ثأراً .. القاتل لا يعفيه الثأر الذي يدفعه لا من عذاب الله ، ولا من عقوبة القانون . لا يقتصر العقاب على من يقتل بريئاً وهو عالم ببراءته ، ولا على من يقتل مشتبهاً فيه بغير بينة ، وإنما يمتد إلى كل إزهاق للروح التي حرم الله قتلها إلا بالحق مهما بلغ اعتقاد الأخذ بالثأر بأنه ينزل ثأره على «شخص» من يستحقه . فهذه هي أن يكون لأحد الناس سلطة ولا مقدرة ولا إمكانية تحديد الجاني المطلوب الاستيفاء منه تحديداً يبتعد عن الهوى ويتوسد الدليل والبينة .

إن القضاء ليس ترفاً ، ولا هو ميدان للهواة ، ناهيك عن أصحاب المصالح أو الواقعيين تحت نير الغضب أو حافز الانتقام .. إن رسول القرآن ﷺ يقول للقاضي ذاته ، على حيده وعلمه ، «ادعوا الحدود بالشبهات ما استطعتم ، فإن وجدتم للمسلمين مخرجاً فخلوا سبيلهم ، فلأن يخطئ الوالي في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة» .. هذا القاضي المخاطب ، أصبح في زماننا عبئاً أكثر وتأويله لأداء هذه المهمة المقدسة واجب - قديماً كان القاضي محذراً من الظن أو الأخذ بالظن : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات ١٢) .. ومحذراً أيضاً من الإندفاع : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهْلِكِهِمْ فَيُضَيَّرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَدِمِينَ﴾ (الحجرات ٦) .. وأموراً بتوخي تحقق العدالة في شهوده .. ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ (الطلاق ٢) .. ومنبهاً إلى وجوب الاتقاء والاحتباس

باستبعاد ذوى الشبهة من الشهادة عملاً بحديث رسول القرآن ﷺ: «لا تقبل شهادة خصم ولا ظنين في ولاء ولا قرابة ولا ذى إحنة (عداوة) فالشبهة مسقط للعدالة وبالتالي للشهادة، ويقول الحنفية والشافعية: «إن العدالة شرط لقبول الشهادة ولا يثبت القبول أصلاً بدونها».

والقاضي مأمور فوق ذلك بمراعاة العدل والمساواة حتى الشكلية في مجلسه، ضماناً لسعى ووصول الدليل إليه في سهولة بلا مشقة من رهبة أو خوف أو مظنة غياب أو قلة العدل، ففي الحديث النبوى: «إذا ابتلى أحدكم بقضاء فلا يجلس أحد الخصمين مجلساً لا يجلسه صاحبه، وليبق الله في مجلسه وفي لحظه وفي إشاراته».. وفي وصية الفاروق عمر إلى أحد ولاته - وكان له القضاء في الولاية - «آس بين الناس في مجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف في عدلك». ثم على القاضي بعد ذلك وقبله، أن يتسلح بالإخلاص وبالعلم، فالعلم هو سبيل دراسة النزاع أو الأقضية، ومعرفة وجه الصواب، والحكم فيها بالعدل. قال رسول القرآن ﷺ: «القضاة ثلاثة، قاض في الجنة، وقاضيان في النار. فأما الذى فى الجنة فرجل عرف الحق فقصى به، وأما الذى فى النار فرجل عرف الحق فجار فى الحكم، ورجل قضى على جهل. قالوا: فما ذنب الذى يجهل؟ قال: ذنبه ألا يكون قاضياً حتى يعلم!!».

فمع أن مهمة القاضي قديماً كانت أيسر وأسهل، لبساطة الحياة، ومعرفته بالناس لمحدودية المجتمعات، إلا أن هذه المهمة الجليلة أحيطت من قديم بهذا السياج من الضمانات والشروط ضماناً لقدرة القاضي بعلمه وعدله، وبعدالة الشهود وحيدتهم، وبضوابط سماعهم فى مجلس القضاء على معرفة الحقيقة والحكم بالعدل على مقتضاها. فأين ذلك مما صارت عليه الحياة الآن من تعقيدات، وما آلت إليه أحوال الناس من منعطفات أقامت أستاذاً كثيفة أمام القاضي المحايد العالم تحول بينه وبين أن يعرف من الشهود حقيقة ما حدث وشاهدوه لا سواه؟!!

هل يمكن للمطالب بالثأر، على غضبه وشهوته وميله وهواه واندفاعه وربما نقص أو انعدام علمه، أن يحل محل القاضي ليحدد بدلاً منه من فعل من واقع أدلة وبيئات صحيحة مشروعة مقبولة تؤدى إلى القطع والجزم بأنه الجانى الذى يحق عليه القصاص؟!.

إن استقصاء هذه الحقيقة قد بات شاقا عسيرا على القاضى المحايد العالم، ولا يقبل بحال من الأحوال أن يحل محله المطالب بالثأر فينتهك باندفاعه وتهوره، وبشهوة الانتقام المعمية، أرواحا بريئة لم تقارف ذنبا ولم ترتكب وزرا، ناهيك بما يستبيحه - تحت شعار الثأر - من أرواح يعلم علم اليقين أنها بريئة من أى ذنب، وإنما هو يروم باغتيالها الإيجاع والإيلام!!

إن هذه الحقيقة الواضحة الجلية، تغلق غلقا باب الحديث المغلوط عن «الاستيفاء»، ليس فقط لأنه مرجوح، ولا فقط لما أورده الراجحون من الفقهاء، ومنهم الإمام شلتوت، من أن الآية ٣٣ من سورة الإسراء آية مكية، تتجه نحو الأحكام الكلية تاركة التفاصيل والتتميم للآيات المدنية، والتي يظهر من تكاملها أحكام القصاص وضوابطه، ومنها أن «الاستيفاء» موكل إلى الوالى (السلطة الحاكمة) أو القاضى (السلطة القضائية) وإنما، وهو الأهم، وهو القاطع الحاسم، لأن (الاستيفاء) لا يتجه إلا إلى الجانى الفاعل شخصا، ومحال وغير مقبول شرعا وقانونا أن يتجه إلى سواه، أو يجزم بتحقيق مسئوليته الموجبة للاستيفاء منه بغير أدلة معتبرة وبينات جازمة قاطعة، وما دام الأمر كذلك، وهو كذلك ويجب أن يكون كذلك، فإن «الاستيفاء» يعنى فى حقيقته «طلب الاستيفاء» ويستحيل أن يكون لغير السلطة القائمة.. القضائية والتنفيذية، وإلا شاركنا جميعا فى كبيرة قتل الأبرياء بغير حق، وإهدار الحيوانات التى خلقها الله، والاعتداء على كل سنن الحق والعدل والإنصاف.!!



إن الثأر - الذى حاربه الإسلام - هو استسلام لعادات اجتماعية مورثة من الجاهلية - ضالة وخاطئة، ولفاهيم مغلوطة عن الرجولة والشجاعة.. يتصور البسطاء، ومن أسف بعض المتعلمين، أن الثأر بطولة وشجاعة ورجولة ترفع عارا.. مع أن الثأر هو العار نفسه، لا بطولة ولا شجاعة فيه.. الآدمى لا يركبه العار لكونه قويا ذا عزم استطاع بقوته وعزمه أن يكبح جماح غضبه ولم يستسلم لضلالة عمياء تدفع إلى إغضاب الله بمخالفة دينه وشريعته وإعمال التقليل فى أرواح خلقها الله ولا يملكها سواه.. الآدمى لا يركبه العار لاحترام القانون وتفهمه أن تحديد الجانى وعقابه منوط بسلطة القضاء الذى يبحث ويدقق وينزل

العقاب حيث ينبغي أن ينزل، وإنما العار يركب من يخالف دين الله وأوامر الله ويغتال الأرواح بضربات عشواء تعمل التقتيل في الأبرياء إشفاء لغليل ضال مضلل.. العار أن يكفر آدمي ويقدم على هذه الكبائر وينهى حيوات خلقها ويملكها الله!!

يعلمنا الإسلام، الذي يقدس الروح الإنسانية - أنه لا ينتمي للشجاعة والبطولة قتل الناس غيلة.. القتل ثأراً هو في واقعه اغتيال مباغت - في معظم الأحوال لأعزل - لا مواجهة ولا منازلة ولا مخاطرة ولا شجاعة ولا رجولة فيه. مهم جداً أن يفهم البسطاء، وأن يعي المتعلمون، أن هذا العمل هو العار ذاته، وأنه لا ينتمي لشجرة البطولة أو الرجولة أو الشجاعة. إذا فهم الناس ذلك، لم يبق إلا سلطان العادات الاجتماعية الجهولة الموروثة، ولا يقدر على منازلة هذه العادات والمفاهيم الخاطئة الضالة سوى الدين. الدين هداية تستقر في القلب والوجدان والضمير. الدين الإسلامي، بنوره وهدايته، هو الذي قضى سلفاً على كفر وشرك الآباء والأجداد، وهو الذي خرج بالناس من دياجير الظلام إلى نور الهداية.. الدين بما فيه من نور وهداية، وقواعد وأحكام، وبما له من قوة ومن تأثير على النفوس والعقول والأفئدة، قادر على أن يواجه ويهزم هذا الواقع الاجتماعي الجهول الأعمى، وتحقيق أمن وأمان المجتمع.. ولو استقر فهم الإسلام في النفوس لتأكلت وسقطت من تلقاء نفسها هذه المفاهيم المغلوطة الضالة التي تدفع الجهلاء إلى الثأر المجنون الناجم عن الجهالة العمياء التي تسوق إلى ضلالة جزاؤها عند الله نار جهنم خالدين فيها أبداً وبئس المصير!.. تعلمنا مبادئ الإسلام أن القوة الحققة، والبطولة الحققة، هي في الصبر والعزم وكظم الغضب والإيمان بأن الله تعالى.. المهيمن العزيز، الفتاح العليم، السميع البصير، الحكم العدل، اللطيف الخبير.. هو سبحانه الكفيل بإحقاق الحق والعدل، وأن الجاني أيا كان احتياطه، لا بد ملاق جزاءه.. في الدنيا وفي الآخرة، وأنه إذا كان عذابه في الآخرة مقطوعاً به، أخبر عنه القرآن المجيد، فإن الالتفات الجاد إلى معاونة العدالة بدلاً من تجاهلها، كفيل بتحقيق أمن المجتمع، وكفيل بأن تصل السلطة القضائية إلى غايتها، وأن تحدد الجاني، وأن تنزل به العقاب الواجب، بدلاً من أنهار الدم المسفوكة هنا وهناك في دائرة لا نهاية لها من العنف والثأر المجنون!!

لقد واجه الإسلام بحكمة ورشاد القبلية المقيتة التي شاعت في الجاهلية ليقنتلها ويداوى آثارها.. لفت الأنظار إلى أن الناس جميعا أبناء أصل واحد وأسرة واحدة.. خلقهم الله تعالى من نفس واحدة، وقال في قرآنه المجيد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ﴾ (النساء: ١) .. أصل الإنسانية أمة واحدة ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْكَلُوا﴾ (يونس: ١٩) .. ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ (البقرة: ٢١٣) .. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

حرص الإسلام في محاربته لآفة الثأر على أن يلفت نظر آدمي إلى الأخوة الإنسانية التي تسمو على ما عداها، ولا محل إزاءها للتمسك بقبلية لأنها على ضوء «الأسرة الواحدة» التي تنتمي إليها البشرية لا تعدو أن تكون قرابات وقتية عارضة في زمن ما، تنحسر لتصب في النهاية في الأسرة الإنسانية الكبرى التي تضم الناس جميعا بلا عصبية ولا قبلية ولا أعراق.. هذه الأخوة الإنسانية تشكل معلما أساسيا من معالم احترام الإسلام للروح الإنسانية ورعايته لها.. فضمور القبلية يصب في النهاية ضد عادة الثأر وما تسفكه من دماء وأرواح، ويحض الناس على الاحتكام للقانون بدلا من شرعة الغاب، بذلك حفظ الإسلام للروح الإنسانية قداستها وحماها من نيران الثارات وكفل للمجتمع الإسلامي أمانه وأمانه.

رأينا كيف أن القرآن المجيد قد جعل لنا في القصاص حياة، لأنه بالردع الخاص وبالردع العام يرد الناس عن الاقتداء بالقاتل أو القاتلة، ويغلق أبواب المحاكاة في الشر والقتل والاستهانة بالأرواح!!.. كذلك جعل القرآن لنا حياة في سعيه للقضاء على القبلية، مثلما جعل لنا حياة في سياسة «العفو» الذي أباحه للمجنى عليه أو ذويه في جرائم النفس.. لتطبيب وتضميد الجراح. تطبيب الجراح والتصالح عن رغبة وإرادة يغلق باب الثارات، ويحافظ على حيوات الناس، دون إخلال بحساب الجاني عند الله في الآخرة.. في المجتمعات القبلية لا تنغلق أبواب ولا ويلات الثارات، ونتيجتها سفك الدماء وحصد

الأرواح.. يقتلون العدد بالواحد، ويأخذون الإنسان بالبهيمة، ويستهدفون بالتأثر من لا وزر له ولا ذنب ولا جريرة ما دامت وجيعة القبيلة الأخرى فيه أشد من وجيعتها في سواه من أبنائها.. هذه الثارات ويلات ودمار وإعدام للحياة.. غلقها هو بعث للحياة وحرص عليها من هذا الانفلات الأعمى الذى لا يبقى ولا يذر.. والعفو الذى أباحه الإسلام للمجنى عليه أو ذويه سياسة ينبع من فهم حكيم عميق لسلبية العصبية القبلية وعماما الضرير.. هى سياسة تخير بين القصاص والعفو.. والخيرة ترضى وتضمد وتطيب الجراح..

مع حرص الإسلام على التهريب من وزر القتل. وعقابه دنيويا بالقصاص، والترهيب من جزاء الآخرة.. فإن الإسلام فتح بسياسته الحكيمة أبوابا لحقن الدماء حفاظا على الروح الإنسانية التى يستخرج القرآن المجيد والسنة المطهرة أطيب ما فيها لارتضاء الصلح وبذل العفو.. فمع قول القرآن: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَكْتُمُونَ﴾ (البقرة: ١٧٩)..
فإنه يحث على الصلح والعفو، ويدعو إليهما.. يقول القرآن المجيد: ﴿فَمَنْ عَفَى لِمَنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبِيحٌ لِلْمُغْرُوفِ وَأَذَاهُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ (البقرة: ١٧٨)..
فى السنة الشريفة أنه صح عن أنس رضى الله عنه أنه قال: «ما رفع إلى الرسول ﷺ أمر فيه قصاص، إلا أمر فيه بالعفو».. العافى الذى يصلح أجره وثوابه على الله - ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ﴾ (الشورى ٤٠)..
فى عموم العفو كسجية عامة.. ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف ١٩٩)..
﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (البقرة: ٢٣٧)..
﴿وَأَن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التغابن ١٤)..
﴿إِنْ بُدِّ وَأَخِيْرًا أَوْ تُخْفَوْهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ (النساء ١٤٩)..
﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور ٢٢)..
وقد وصف القرآن المؤمنين بأنهم العافون عن الناس فقال فيهم: ... ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران ١٣٤)..
١٩٩

العفو في جرائم النفس، فرع على سجية عامة هي سجية «العفو» التي أخذ بها الإسلام في مواضع كثيرة حرصا على بث السلام وحفاظا على الوشيجة والآصرة الإنسانية، على أن العفو في جرائم النفس يلتزم مع القصاص في غاية كبرى هي الحفاظ على الحياة الإنسانية.. جعل الله لنا في القصاص حياة، وجعل لنا أيضا في العفو حياة، بعلق باب الثارات وحصد الأرواح وسفك الدماء.. دون أن يهمل النذير للجاني بأنه إن أفلت من عقاب الناس والدنيا، فلن يفلت من عقاب الآخرة.. بل هو عند الله تعالى آثم ومغضوب عليه وملعون.. يقول القرآن المجيد: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَظِمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ٩٣﴾ (النساء ٩٣).

كان الجفاة الغلاظ، يستخفون قبل الإسلام بالروح الإنسانية، حتى في بنيهم وفلذات أكبادهم، يثدون البنات كراهة لإنجابهن أو مخافة لحاق العار بهم، ويقتلون أولادهم خشية الإملاق والفاقة ونضوب القدرة على إعاشتهم والإنفاق عليهم.. إلى هؤلاء نزل القرآن الحكيم مقدسا للروح الإنسانية، آمرا باحترامها.. يقول للوثنين منذرا ومحذرا ومزهبا.. ﴿وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ ۖ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۖ﴾ (التكوير ٨، ٩). هذا البيان القرآني إنما يرد على سبيل التبكيك والتقريع للوثنين.. لافتا منبها إلى أن الموءودة لم ترتكب بداهة ما يبيح أو يبرر قتلها؟!.. هؤلاء ضعاف العقول والأفهام الذين فيهم قال القرآن: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٥٨﴾ (التكوير ٥٨، ٥٩). ويقول القرآن لفاقدى الثقة والإيمان، القاتلين لأولادهم خشية الفقر والإملاق.. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَنْتَحِقُوا مِنْ زُرْقِهِمْ وَإِنَّا نَكُفِّرُ عَنْ قَتْلِهِمْ وَكَانَ خِطَاءًا كَبِيرًا ٣١﴾ (الأنعام ٣١). الخوف من الفاقة هو ضعف في الإيمان.. المؤمن الحق يعلم أن الله تعالى هو الرزاق.. ما من مخلوق إلا ويوافيه سبحانه برزقه، حتى الدواب.. ﴿وَمَا مِنْ

دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رَرْقُهَا ﴿٦﴾ (هود ٦).. لا تنتهي الآية الكريمة في نهيتها عن هذه الجريمة الكبرى التي نهت عنها، دون أن تقول إن ما مضى من هؤلاء الجفاة الذين استحلوا قتل أولادهم إنما كان خطأ كبيراً!!

من هذا الحرص الحريص على الروح الإنسانية وعلى الحياة، ما روى عن رسول القرآن.. كان ﷺ يقول: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار».. فقل هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال ﷺ: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه».. بل إن الإسلام في حرصه على الروح وعلى الحياة الإنسانية نهى عن الانتحار، وعده قتلاً لنفسٍ حَرَّمَ الله تعالى قتلها.. حتى على صاحبها.. وفي حديث رسول القرآن ﷺ: «من قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه، في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً.. ومن قتل نفسه بسم، فسَمُه في يده، يتحساه في نار جهنم، خالداً مخلداً فيها أبداً.. ومن تردى من جبل فقتل نفسه، فهو متردٍ في نار جهنم، خالداً مخلداً فيها أبداً».. وروى الشيخان عن جندب البجلي عن النبي ﷺ.

قال: «كان من قبلكم رجل به جرح فجزع، فأخذ سكيناً فحَزَّ بها يده فما رقا الدم (أى لم يتوقف عن النزف) حتى مات، قال الله تعالى: «بادرني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة»..

الأسير، مع أنه قد يكون مقاتلاً آذى وقتل، إلا أن روحه مصونة، بل هو مرعى محفوظ الحق والكرامة، وإطعامه واجب على أسرِه.. ففي القرآن المجيد: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (الإنسان ٨)، والمن عليه بإطلاقه من الأسر سابق على الفداء.. ﴿فَأَمَّا مَنْ بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهُ﴾ (محمد ٤).. الإسلام الذي يحترم روح الأسير ولا يمسه، يحترم أيضاً روح المعاهد الذي هو أصلاً من أهل دار الحرب الذين شنوا الحرب وقاتلوا وقتلوا.. روى عن عبد الله بن عمر، عن رسول القرآن ﷺ قال: «ومن قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة».. وعنه عليه الصلاة والسلام أيضاً: «ألا من قتل نفساً معاهدة، لها ذمة الله، وذمة رسوله، فقد أخفر ذمة الله، ولا يرح رائحة الجنة»..

تقرير مبدأ شخصية المسؤولية في الإسلام، يصب في النهاية في صالح الروح الإنسانية وعدم جواز المساس بها ووجوب احترامها والنأى بها عن أى عقاب إلا لوزر شخصى ثبت فى حقها ثبوتاً مؤكداً معدوداً يستوجب عقابها حقاً وعدلاً.. بغير ذلك فإن الروح مصونة لا تُمس.. فى شرعة الإسلام أن المسؤولية شخصية.. لا يسأل الشخص إلا عما فعل، لا محل لمساءلته شرعاً عن فعل سواه مهما كانت درجة قرابته أو انتمائه إليه.. المسؤولية فى شريعة الله شخصية.. فى القرآن الحكيم : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُنُقِهِ ۚ ﴾ (الإسراء: ١٣)، ﴿ شَيْءٌ مِّمَّا كَسَبَ رَهِيْنٌ ۚ ﴾ (الطور: ٢١).. وفيه أيضاً : ﴿ وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وَزِرَ أُخْرَىٰ ۚ ﴾ (الأنعام ١٦٤، فاطر ١٨).. ﴿ أَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وَزِرَ أُخْرَىٰ ۚ ﴾ (النجم ٣٨، ٣٩).. ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۚ ﴾ (الزلزلة ٧، ٨).. - فلا يلحق العقاب، ولا يجوز أن يلحق، إلا بمن ارتكب الجرم وثبت فى حقه ثبوتاً يقره الشرع والقانون، بغير ذلك تكون المسألة ظلماً، ﴿ وَمَا اللَّهُ بِزَيْدٍ ظَلَمًا لِلْعِبَادِ ۚ ﴾ (غافر ٣١).

أينما يطوف المسلم، وغير المسلم - فى رياض الإسلام، يجد دوحة أظلت الروح الإنسانية بكل رعاية وأقامت سياجاً عالياً لحفظها.. الدين الذى يقدم هذا كله، حرصاً على الروح الإنسانية، وحماية ووقاية لها، ليس دين عنف ولا دين سيف ولا خنجر ولا مدفع ولا قنبلة.. آخر ما يمكن أن يتهم به الإسلام أن يقال إنه يبيح الاستهانة بالأرواح.. إن الدين الحنيف الذى يقيم هذه الترسانة الحكيمة لوقاية الروح الإنسانية واحترامها وحمايتها والحفاظ عليها - لا يستهين ولا يمكن أن يستهين بها.. هذا ادعاء باطل أظهر ما فيه بطلاناً تعمده خلط الدفاع الشرعى بالاعتداء المؤثم.. الدفاع عن النفس والعرض والمال مباح فى كل شرائع السماء وقوانين الناس، ولكن يبقى للإسلام أنه قدس الروح الإنسانية تقديساً لا مثيل له فى أى دين من الأديان أو شريعة من الشرائع.. هذا الدين الجامع الذى أنزله الله تعالى رسالة للعالمين.

الإسلام وشخصية المسئولية



لا يستطيع الكاتب أن ينفصل عن الواقع وعما يجول أو يدور فيه.. وواقع هذه الأيام يورى بأننا نعيش فى زمن انبهمت فيه قيم، واندثرت مبادئ أو تكاد، وعلا اللغط وانتشرت السطحية والانتهازية والتفاهة، وقل الوقار، وانعدمت أو تكاد القدرة على النظر الموضوعى، وعلى الرؤية الموضوعية والحديث الموضوعى.. انتقلت هذه الآفة من البسطاء أو الدهماء إلى بعض أصحاب الكلمة، وزاد الطين بلة أن لغة السياسة الرديئة سادت، مقرونة بانتهازية مقيتة، وبسطحية جوفاء، ولم تتوان الدول - ناهيك بالعظمى - عن الإدلاء بدلوها فيها، ففارقت كثيرا مما كانت تتزين وتتمنطق به وتدعو إليه من قيم العدل والحرية.. وانكشف الغطاء، فإذا القوة العظمى، والدول السائرة فى فلكها - تعزف ذات العزف، أو النشاز، وإذ القيم التى ادعيت لأجيال، سراب كان للزينة، انقضى عهده، واشرب السلاح بنصله وسمه، يقول للعالم لا تصدقوا ما كان يقال بأمس.. القوة هى القوة، والقطرسة هى صنوها.. لا تصدقوا أن الحضارة التى أعجبتكم بها حضارة إنسانية - لا!. لا قيمة فيها إلا للمادة، ولا معنى للحق والعدل والحرية.. هذه محض واجهات أو فتارين، اليوم انكشف الغطاء فإذا البصر حديد!. الحضارة الغربية بأنيابها لا تبغى إلا السيطرة والتحكم وتركيع وتسجيل العالم.. لا محل لقيم ولا لمبادئ.. ولا لحق ولا لعدل!..

ومن الأسف المؤسف أن أصداء هذا السقوط عمت وشاعت، فإذا الجميع شركاء أو يكادون فى إهدار القيم وقلب المفاهيم وخلط الأوراق.. فى وطء شرعة العدل بالأقدام، أخذ الجميع واعين وغير واعين، ملتفتين أو ساهين، يهدرون مبدأ ساميا رفعت شرائع السماء قبل أن ينتبه إليه أهل الأرض، مبدأ «شخصية المسئولية».. لم ينفع فى حمايته من غيلان الحاضر ما حملته كتب الأديان، ولا موثيق أو قوانين بنى الإنسان.. ينظر الناظر فى هذا الملوكوت فيصفه أن إهدار هذه القيمة العظمى والمبدأ الرفيع، لم ينوقف عند جهالة الدهماء، بل تورط فيه أصحاب الرأى والكلمة، وكيف لا وقد صار سنة (!؟) متبعة لدى الدول وعلى رأسها القوة العظمى، الوحيدة الواحدة، واعتنقته لغة السياسة وكم

لها من مخالب وأنياب تبتعد بها عن العدالة حتى حق عليها قول شيخنا مكرم عبيد ..
«السياسة والعدالة ضدان لا يجتمعان، وإذا اجتمعاً لا يتمازجان.. العدالة من روح الله،
والسياسة من صنع الناس».. وكم يفعل الناس بالناس!!

لا يسأل الشخص إلا عما فعل!

فى القوانين الوضعية، مثلما هو فى الشرائع السماوية.. أن المسؤولية شخصية..
والجزاء شخصى، ولا تحل التبعة ولا المسؤولية على أحد، إلا على ما فعل أو شارك
فى فعله.. المسؤولية فى شريعة الله، وفى القوانين الوضعية شخصية.. فلا محل لمساءلة
شخص عن فعل سواه مالم يكن شريكاً مساهماً فيه..

فى القرآن المجيد: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَتْهُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ (١٣) ﴿(الإسراء ١٣)﴾..
﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (١١) ﴿(الطور ٢١)﴾.. وفيه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (١٨) ﴿(الأنعام ١٦٤، فاطر ١٨)﴾.. فى القرآن أيضاً: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) ﴿(الزلزلة ٧، ٨)﴾..
﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) ﴿(الزلزلة ٧، ٨)﴾..

من ضمان العدل فى الإسلام، ألا يسأل الإنسان إلا على ما يفعل، ولا يسأل عن وزر
أو خطيئة غيره.. فالإنسان فى القرآن المجيد هو المخلوق المسئول.. وهذه المسؤولية محكومة
—عدالة— بضوابطها، وأولها أن مصير الإنسان معلق بيده وفعله، لا يسأل إلا على ما يصدر
عنه، ولا يسأل عما فعله غيره قريباً كان أو بعيداً.. ما دام لم يشاركه إثم أو يحرضه عليه
أو يدفعه إليه.. كل إنسان طائره فى عنقه، يحمل ثوابه كما يحمل خطيئته، إن أصاب فاز
بثواب ما أصاب فيه، والحسنة بعشرة أمثالها، وإذا أخطأ لحقت به — دون سواه — جريرة
خطيئته، والسيئة بمثلها. فكما هو بما كسب رهين، فإنه مسئول عما يفرط منه!

لم يعرف الإسلام خطيئة يحملها الأحفاد عن الأجداد، ولا الأهل أو الآباء عن الأبناء،
ولا القريب عن قريبه، مالم يكن ضالعا معه فيها، حاملاً بقعله وصنيعه مسئوليتها!
مؤدى هذا المبدأ أن الواحد لا يؤخذ بوزر آخر، وأن الأمة لا تؤخذ بوزر أخرى، وأن
عقاب الوزر موقوف عليه، لا يمتد خارجه ولا يمس سواه!!

وما سبقت إليه شريعة الإسلام، سلمت به قوانين الناس.. فى كل دول العالم المتحضر.. حملت جميع الدساتير المصرية المتعاقبة، وأخيراً المادة ٦٦ من دستور ١٩٧١ أن: «العقوبة شخصية».. فلا يلحق العقاب أو الجزاء، ولا يجوز أن يلحق، إلا بمن اقترف الجريمة أو الخطأ وثبت ذنبه ثبوتاً مؤكداً يقره الشرع والقانون.

هذه المسؤولية (الشخصية) قوامها الواقع، ولا تقوم إلا على الواقع، ولا مجال ولا جواز فيها للافتراض. وفيما أجمع عليه أهل الفقه والعلم، والقضاء.. أن المسؤولية لا تتحقق عن فعل أو امتناع مؤثم إلا إذا كان ثابتاً صدوره وإسناده إلى شخص ما محدد، وأن يكون نشاطه هو «السبب» فى وقوع الجريمة أو الخطأ أو الضرر أو النتيجة، ولم تعرف القوانين الوضعية، ولا المواثيق الدولية، مثلما لم تعرف الشرائع السماوية مسؤولية عن عمل أو خطأ الغير.

لقد استقر فى ضمير وأحكام القضاء، على اختلاف مدارسه واختلاف دوله، أن من المبادئ الأساسية فى إقامة المسؤولية ألا تزر وزر أخرى، وأن الجرائم لا تأخذ بجريرتها غير جانيها، وأن الجزاءات بصفة عامة، والعقوبة بصفة خاصة شخصية بحتة، وأن حكم هذا المبدأ أن الإجماع أو الخطأ لا يحتمل الاستنابة، وأن الخطأ الشخصى هو أساس المسؤولية بكل صورها وأشكالها، وأن الإنسان لا يسأل إلا عن خطئه الشخصى.

لا أحد محسوب على أحد!!

يحلو للبعض، أن يلحق جرائم الناس. بعض الناس، بآخرين، وأن يعمم الخطاب تعميماً جهولاً لا يفرق بين من فعل ومن لم يفعل، ويخلط - عن جهل أو سوء قصد - بين مرتكب الجريمة وبين من سبق أن علمه أو درّبه أو هيّأه أو اختاره أو ولّاه أو عينه، أو كان منه فى موقع الرئاسة أو الإدارة أو التوجيه لا خلاف على أن مثل هذا الأخير يمكن أن يكون مسئولاً عما عساه قد اقترفه أو ساهم فى اقترافه بالاتفاق أو بالتحريض أو بالمساعدة. القوانين تعرف من يسمى بالفاعل الأصلي، وتعرف أيضاً من يسمى بالشريك أو المساهم. وكلاهما آثم فى نظر الشرع والقانون. هذا الإثم سببه وسنده أن الآثم مساهم حقيقى فعلى

فى الجريمة.. آثم بفعله أصليا كان أم اشتراكا، وآثم بقصده ونيته وخطيئته. إلا إنه بغير ذلك لا محل لتأثير إنسان ولا لمساءلته عن جرم أو خطأ سواء مهما كان له من نصيب فى تعليمه أو إعداده أو تدريبه أو اختياره أو توليته.

○○○

لقد قام الرسل بما عليهم من نشر الدعوات، فَضَّلَ من ضل، واهتدى من اهتدى.. كل واحد من هؤلاء مسئول عن ضلالتة أو عن هداه.. من ضل اليوم قد يهتدى بغيره، فهدايتة له.. ومن اهتدى اليوم قد يضل بغيره، فعليه ضلالتة.. لا أحد محسوب خطؤه أو ضلاله على نبي الدعوة أى دعوة.. فكل إنسان مصيره وإرادته بيده، يُسأل عن فعله، ولا يُسأل عن سواءه.. وفى القرآن المجيد: ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأَنَا يَهْتَدِي لِنَفْسِي وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾ (١٠٨) ﴿يونس ١٠٨﴾.. وفيه أيضا: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (١٠٥) ﴿المائدة ١٠٥﴾.

كان يهوذا سمعان الإسخريوطى من الحواريين، ولكنه ضل وخان السيد المسيح عليه السلام، فهل هو محسوب على المسيح الذى خانه وتجنى عليه؟؟!! .
فى الواحة المحمدية، شرب الصحابة من نبع النبوة، وتلقوا فى مدرسة رسول القرآن ﷺ، اختلفت منازلهم وأقدارهم بأعمالهم لا بأعمال سواهم.. وفى الفتنة الكبرى، التزم بعضهم بالإمام، ونفر آخرون وراء معاوية.. كل مسئول عن اختياره وعن أسبابه لهذا الاختيار ونيته ومآله إلى الله فيما انتووا وفيما آثروا واختاروا.. سعد بن أبى وقاص اعتزل الفتنة، وابنه عمر بن سعد كان قائد الجيش الذى قتل أبا الشهداء الحسين بن على.. فلا عمر محسوب على أبيه سعد، ولا سعد مسئول عما انحاز إليه نجله عمر!! .

مقاليد الإنسان بيده.. يحتكم - ويجب أن يحتكم - إلى عقله وضميره ليختار طريقه، وهو مسئول عن اختياره وعمله. ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَزَمَتْهُ طَبَرُهُ فِي عُنُقِهِ، وَخُرُجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (١٣) ﴿الإسراء ١٣﴾.

السياسة وشئونها!

على أن السياسة وشئونها، غير الدعوات ومبادئها.. وكثيرا ما تختلط الأوراق في لغة السياسة، ويجرى الخروج وربما بسوء نية عن مبدأ شخصية المسؤولية والجزاء.. اتباعا لأهواء، أو تصفية لحسابات، أو تحقيقا لأغراض، أو انتهازا لفرص، أو إشباعا لشهوات، أو شماتة في بغيض، أو همزا ولزا على سواه.. فتختلط أو تخلط الأوراق، وتنبهم الأصول، وتميع الحقائق، ويتصدر الزيف، وتعلو المغالطات للنيل من سياسى ما بقالة أن المخطئ واحد من رجاله أو من أتباعه أو من اختياره، أو أنه محسوب عليه، دون أن يكون مأخوذا عليه «خطأ محدد» يقيم في حقه المسؤولية عن «المساهمة» فى الجريمة أو فى الخطأ المنسوب للآخر المحسوب عليه دون معيار ولا ضابط ولا رابط.

لا جدال أن السياسى مسئول من الناحية السياسية والأدبية عن سياسته وعن قراراته وعن اختياراته.. مسئول عن إدارته لسياسته، وعن إدارته لرجالته المختارين أو المقبولين منه الذين يعهد إليهم بحمل مسؤولية مشاركته فى المهام التى يضطلع بها.. ومسئولية الوزير بالذات مسؤولية من نوع خاص، لا تغلته من المسؤولية الجنائية إذا وقع فى حومة الجريمة، بأن ارتكبها شخصا أو ساهم أو شارك فى ارتكابها، أما فيما عدا ذلك فإن مسؤوليته من نوع خاص، أساسه أو علتة أن الوزير من سلطاته إصدار القرارات واللوائح والتعليمات والأوامر، ولأنه سلطة إصدارها، فلا قيد عليه فيما يراه إلا المسؤولية السياسية أو الأدبية باعتباره شاغلا لمنصب سياسى يملك منه سلطة رسم السياسات وإصدار اللوائح والأوامر والقرارات، ولا يقيدته إلا أحكام القانون وحدها باعتبارها صادرة من السلطة التشريعية تقيدته وتقيد سواه. أما سائر اللوائح والقرارات والأوامر فلا يتقيد بها لأنه واضعها ويملك سلطة تغييرها فى أى وقت ومن آن لآخر وفق السياسة العامة أو سياسة الوزارة وخطتها وأهدافها. وهذه السلطة الواسعة، لأهدافها وغايتها، يقابلها مسؤولية واسعة أيضا جوهرها حسن استعمال السلطة والتوفيق والسداد فى استعمالها بما يحقق الأهداف المرجوة منها. فالسلطات الواسعة المعطاة للمواقع السياسية، لم تعط لمزية

شخصية، وإنما لتسخيرها للمصلحة العامة التي تحكمها اعتبارات عامة متعددة اقتصادية وسياسية واستثمارية واجتماعية. وهذا المنظور الواسع، اقتضى ويقتضى سلطات واسعة، ولكنها محكومة أساسا بالقانون المعبر عن السلطة التشريعية في إطار المبدأ الدستوري «الفصل بين السلطات».. أما فيما عدا هذا فإن الاجتهاد والحركة والابتكار والإقدام والبت والحسم جميعها حسنة مطلوبة من الموقع الوزاري للمصلحة العامة وإلا نضب وتواضع وأفقر وجمد الأداء الوزاري وقعد عن تحقيق الغايات المأمول منه التقدم بجسارة وحكمة إليها.

الخطأ في ذلك كله وارد، ومقدور، وينحل إلى مسئولية سياسية وأدبية واجبة، يدفعها الوزير أو صاحب الموقع السياسى من رصيده وربما من موقعه ذاته، ولكن ذلك لا يعنى تبادل صكوك الحساب، وحساب شخص على آخر، وتحميل الوزير مسئولية وزر أو خطأ أو جريمة لم يقارفها أو يساهم فيها شخصا. المسئولية الجنائية بكل المقاييس شخصية لا يسأل الشخص جنائيا مالم يكن شخصا فاعلا أصليا أو شريكا مساهما فى الجريمة. وفارق كبير ضخم بين هذا وبين مسئولية الاختيار التي قد تصيب وقد تخطئ خطأ لا يمكن رده فى جميع الأحوال إلى من اختار، وإلا لأحجم الناس عن الاجتهاد وعن الاختيار!

مخالفات الدول أنكى وأضر!

تورط الدول فى مخالفة مبدأ شخصية المسئولية والجزاء، أخطر وأنكى وأشد وأضر من مخالفات الأفراد أو الجماعات غير المنظمة، وتأتى الجسامة - جسامة الخطر والضرر - من ناحيتين، الأولى أن الدول بحكم كونها أنظمة عاقلة أو مفترضا أن تكون عاقلة، ومحكومة بدساتير ونظم وفلسفات وحكومات، ينبغى أن تكون أكثر نضجا وأكثر فهما وأعرض رؤية وأعماق تقديرا وإنصافا من الأفراد والجماعات، والناحية الثانية أن مخالفات الدول للمبدأ تقترن دائما بأضرار أوسع بكثير، لأن دائرة المخالفة ذاتها أوسع بكثير مما قد يتحرك أو ينجز فيه أفراد أو جماعات غير منظمة. إن الشخص القاتل لغير الجانى أخذا بالثأر، يقتل - فى إهداره لمبدأ الشخصية - فردا أو فردين أو ثلاثة، أما الدولة التى توجه أجهزة

حربها إلى شعوب انتقاما أو تأديبا أو ردعا لحكومات، فإنها توقع الخسائر بالمئات والآلاف إن لم يكن بالملايين. لم تكن الولايات المتحدة على مبدأ شخصية المسؤولية حين حاصرت وأجاعت وضيقّت على الشعب الليبي أكثر من عشر سنوات لقاء ما اعتقدت -مصابة أم مخطئة - أن الحكومة الليبية تورطت فيه بحادث لوكيربي. ولم تكن الولايات المتحدة على مبدأ الشخصية حين اجتاحت ودمرت بآلة حربها وترسانتها الضخمة الشعب الأفغانى الأعزل الفقير المعدم الذى لا ناقة له ولا جمل، لا فى أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، ولا بتنظيم « القاعدة » صحت مسئوليته عن الحادث أم لم تصح.. هؤلاء الشيوخ والنساء والأطفال - العراة، المعدمون، الجوعى - لا يعرفون موضع نيويورك ولا أمريكا كلها على الخريطة الأرضية، ولا يفهمون شيئا عن هذا الحوار أو الصراع الدائر فى عالم اليوم، ولا علاقة للغالبية العظمى منهم بتنظيم القاعدة الذى هو فى الحقيقة نبت خالص للسياسة الأمريكية. والآن تتورط الولايات المتحدة بترتيبها وإعدادها المصمم عليه لغزو وتدمير العراق طلبا لإسقاط حاكمها.. هى ليست - ومحال أن تكون - على مبدأ الشخصية - حتى لو استقامت أسبابها جدلا للقضاء على صدام حسين - إن ذات حجتها تعنى أن الشعب العراقى، ناهيك بالإنسان العراقى البسيط، مغلوب على أمره، تزيد الولايات المتحدة همه همين، وطحنه طحنين، فتدمره وتنسفه عقابا له؟! على نصيبه العاثر الذى أخضعه لما ترى القوة الواحدة المهيمنة أنه عسف وبطش وطاغوت صدام!!!..

ويبدو أن حادث الحادى عشر من سبتمبر الدامى، والمؤسف، كان ذريعة لتحلل الولايات المتحدة من كل القيم والمبادئ التى قادت العالم عليها وازدانت بها أمامه عبر الأجيال الفائتة.. فدلّت بذلك على صدق الرؤى العديدة للعلماء والباحثين الغربيين والتى جمعها الدكتور عبد الوهاب المسيرى فى كتابه الضافى «الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ».. تلك الرؤى العميقة التى ترد عنفى النازية والصهيونية كليهما إلى منبع واحد هو الحضارة الغربية التى قيموها بأنها تكنولوجية تعلى من قيم المنفعة والكفاءة والإنجاز والتقدم مهما كان الثمن، وترى أن البقاء للأصلح والأقوى دائما، وتهمل كثيرا من القيم «البالية» مثل التقوى والعدل والشهامة ومساعدة الآخرين. ومثل مبدأ شخصية المسؤولية والجزاء. يرى هؤلاء الباحثون أن

الدليل على أن «النازية» - كالصهيونية - جزء أصيل من الحضارة الغربية، أن هذه الحضارة لجأت إلى ذات الحل حين سعت وتسعى لإبادة الشعب الفلسطيني وإحلال الصهاينة على أطلال جنثه، وهو هو ذات الحل الذى لجأت إليه الحضارة الغربية حين أبادت سكان أمريكا الأصليين لتحل المهاجرين الغربيين محلهم وليعيشوا فى هذه الأرض الجديدة بلا مضايقات من هذا الشعب الذى عدته الحضارة الغربية من الدرجة الثالثة أو الرابعة إن لم تكن قد صنفته - تعالياً - فى عالم الحيوان!! وبقيت تلك الحضارة على تفرقتها العنصرية وتعاليلها على الفلول المتبقية من هذا الشعب حتى يومنا هذا!!

خذ ما تناقلته وتتناقله - الآن - الصحافة العالمية والمحلية، عن «هجمة» أمريكية جديدة تكشف ابتعاد الحضارة الغربية وأمريكا فى مقدماتها عن كل قيم الحق والعدل والإنصاف، ومنها مبدأ شخصية المسؤولية والجزاء، توالى الأنباء عن اتجاه أمريكى لتجميد - أجل تجميد - ممتلكات مؤسسات وأمرأ ورجال أعمال سعوديين فى أمريكا، منهم ثلاثة من أفراد الأسرة الحاكمة هم : الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع، والأمير تركى الفيصل المدير السابق للمخابرات السعودية، والأمير محمد الفيصل، وذلك لما أسموه ضمانا لحق ضحايا سبتمبر المشؤم فى التعويضات. ولم يكلف أحد هناك خاطره الشريف ليبحث - مجرد بحث - ما سند هذا الافتئات والشذوذ عن مبدأ شخصية المسؤولية فى انتهاك «أموال» و «ممتلكات» لآدميين. ولؤسسات، لاجحة على أحد منهم ولا دور لأحد منهم ولا شبهة - مجرد شبهة - على أحد منهم فى أحداث سبتمبر المذكور!!



واقع الحال، أن مبدأ شخصية المسؤولية قد صار صريحا فى زماننا.. يتجاوزته الأفراد، وتتجاوزته السياسة، وتتجاوزته وتهدره الدول، ولا يلتفت إليه أصحاب الرأى والكلمة.. والمجنى عليه فى جميع الأحوال هو الإنسان الذى يتلقى هذه الطعنات على تنوعها، يدفع ثمنها من حريته ومن حياته ذاتها فى هذه المطحنة التى لا تتوقف!!.. ها هو ذا ضجيج تروس آلة الحرب الأمريكية، يلتهم العراق، والعالم يشاهد، ويرقب، محتبس الأنفاس، مغلوبا على أمره يشكو - كما الإنسان! - العجز والإفلاس!!!



ليس من الإسلام قتل النفس بغير حق!

ما حدث في نجع حمادى عشية عيد الميلاد المجيد، يدينه الإسلام ويشجبه ولا يقره ولا يسمح به ويعتبره خروجاً عن واحة الدين وما أمر به القرآن الحكيم.. وليس يبرره أو يشفع فيه أن يكون شاب مسيحي - فيما يقال! - قد اغتصب فتاة مسلمة بإحدى القرى هناك منذ فترة.. فجريمة الاغتصاب تلحق بالمغتصب، وعقوبته مغلظة تصل للمؤبد في القانون الوضعي وتصل إلى الإعدام في شريعة السماء.. ولكن جريرته لا تلحق ولا يجوز أن تلحق بسواه، لا بأحدٍ من ذوى قرباه، ولا بأحدٍ من ديانتِهِ أو طائفته أو ملته.. بهذا أمر القرآن الحكيم ..

القرآن الحكيم هو الذى علمنا تقديس الروح الإنسانية.. فى المسلم وفى غير المسلم.. فالكرامة وقداسة الروح هى لكل بنى الإنسان.. ففى القرآن المجيد: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ (الإسراء: ٧٠).. سبحانه وتعالى هو الذى ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٢ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝١﴾ (الرحمن: ٣، ٤).. سبحانه خلق الإنسان فسواه وعدله، وهو سبحانه القائل: ﴿وَمَنْ آيَنِّيهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ۝٣٠﴾ (الروم: ٢٠).. ويقول جل شأنه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۝٤٠﴾ (الروم: ٤٠).. هذه الأرواح خلقها الله، وأمرها له سبحانه وتعالى، وروح الواحد هى روح الناس جميعاً، وفى القرآن الحكيم يقول رب العزة: ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۝٣٢﴾ (المائدة: ٣٢)، فهذه الحياة هبة ربانية مقدسة، لكل إنسان بل وفى الحيوان.. وفى صحيحى البخارى ومسلم من حديث رسول القرآن ﷺ: «ليس من نفسٍ تُقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول (قابيل) كف من دمها، أنه أول من سن القتل»، وفى الحديث أيضاً: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل نفس بغير حق». «وأن قتل النفس التى حرم الله من السبع الموبقات»!.

يعلمنا الإسلام، الذي قدس الروح الإنسانية، أن قتل الأبرياء - ناهيك بقتلهم غيلة - من أشد الموبقات، جزاؤه جهنم وغضب الله ولعنته، وما أعده للقاتل من عذاب أليم (النساء ٩٣)، وعلمنا أن المسؤولية في الدنيا وفي الآخرة لا تلحق بأحد إلا عن فعله هو لا عن فعل أو عمل غيره.. لا مجال في شرعة الإسلام لأن يتحمل أحد أو يُحمل بوزر أو خطيئة غيره حتى لو كان من أقرب ذوى قرباه.. ففي القرآن الحكيم: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَتُهُ طَبْعُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخِرَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابٌ يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ (١٣) ﴿(الإسراء ١٣)﴾، وفيه أيضا: ﴿وَكُلُّهُمْ عِندَ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ (٩٥) ﴿(مريم ٩٥)﴾.. من مبادئ المسؤولية في شرعة القرآن الحكيم أن لا تزر وزر أخرى، فيقول الحكم العدل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (١٨) ﴿(الأنعام ١٦٤)﴾، فاطر (١٨)، وفي سورة النجم، قال عز من قائل: ﴿الْأَنْزِلُ وَأَزِرُّ وَزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (٣٨) ﴿(النجم ٣٨)﴾، ﴿وَأَنْ لَّا تَسْأَلَنَّ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (٣٩) ﴿(النجم ٣٩)﴾.. لا يُمنح الثواب، ولا يقرر الجزاء، إلا لقاء العمل الشخصي.. خيرا أو شرا.. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) ﴿(الزلزلة ٧)﴾، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) ﴿(الزلزلة ٨)﴾.. لا يعرف الإسلام عقوبة تصيب بريئا، ولا شهادة تجامل قريبا، أو شنانا يبرر تحاملا.. فالشاهد لا يشهد إلا بالحق ولو على نفسه أو الوالدين والأقربين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ (١٣٥) ﴿(النساء ١٣٥)﴾، ولا يبرر له شنان فرد أو جماعة أو قوم أن يحيد في عمله أو سلوكه أو شهادته عن العدل أو الحق، فإنصاف الشانئ نفسه واجب، ولا يسقط شنانه واجب العدل والتزام الحق معه، بل يجب على المسلم أن يعدل معه في كل الأحوال، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٨) ﴿(المائدة ٨)﴾.

فאלله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (٩) ﴿(الصف ٩)﴾، وهو سبحانه الذي أمر رسوله بأن يبلغ الناس رسالة ربه بأنه عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (٩٠) ﴿(النحل ٩٠)﴾، وأنه تعالت حكمته: لا يقبل الظلم لأحد، مسلما كان أو غير مسلم، ويقول في كتابه المبين: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ (٣١) ﴿(غافر ٣١)﴾.

الذين حصدا حصدا عشوائيا أرواح الإخوة الأقباط الخارجين من الدير وفي موقعين تجاريين في نجع حمادى، قد ارتكبوا إثما كبيرا وأتوا أمرا تشجبه وتدينه شريعة الإسلام، ويخرج عن مبادئ وأحكام وعقيدة هذا الدين الذى كرم الروح ورعاها فى كل مخلوق حتى فى عالم الطير والحيوان.. وفى الحديث: «من قتل عصفورا عبثا عج إلى الله يوم القيامة يقول: يارب، إن فلانا قتلنى عبثا»!.

إن قتل الأبرياء بغير حق، لا يتفق والدين، ولا يصحح خطأ، ولا يشفى غليلا.. الجانى المتهم باغتيال عرض الطفلة واغتصابها، لا يزال حيا يرزق، ينتظر حكم القانون.. والذين اغتالوا الأرواح البريئة، وأدموا الثكالى والأرامل والأطفال الذين يتموا، لم ينجزوا بجريمتهم النكراء عملا، ولا أقروا عدلا، ولا حققوا غاية يقرها العقل والعقلاء.. الشئ، الوحيد الذى أنجزوه، هو بث الاحتقان وإشعال النيران على غير حجة أو منطق!! من الحمق أن يدفع الأبرياء ثمن جرم لم يرتكبه، ومن العماء الضير أن يُحسب خطأ أو جريمة فرد على أبرياء لمحض الاتفاق فى الدين.. ترى ماذا كان الثائرون فاعلين لو كان الجانى الذى اغتصب الطفلة المسلمة مسلما؟! هل سيحملون الأسلحة ليعملوا القتل والاغتيال فى المسلمين، وماذا لو وقع اغتصاب من مسلم على مسيحية، هل تقبل سنن الحق والعدل ويقبل العقل أن يشرع المسيحيون الأسلحة لقتل المسلمين لأن واحدا منهم جمع وأخطأ وارتكب إثما كبيرا هو الذى يجب أن يحمل جريرته فى الدنيا والآخرة!!!.

لا معنى لهذه الجريمة البشعة يمكن أن يقره عقل، ناهيك بالدين وأحكامه.. فهذا العمل الضير لا ينطلق إلا من مجرد اختلاف ديانة الجانى والمجنى عليها، وهو أمر حدث وسيظل يحدث ما بقى الشر والخطيئة عالقين بالآدمى.. أيا كانت ديانتة وديانة المجنى عليها.. وليس من الحق ولا من العدل ولا من العقل أن تحمل طائفة بأسرها، مسلمة كانت أو مسيحية، مغبة جانح خرج على شريعة دينه ذاته حين استباح عرضا لطفلة بغير حق.. خطأ الجانى جنوح شخصى، لا هو خطأ دينه ولا هو خطأ الطائفة التى ينتمى إليها أو يحسب عليها!

هل معنى اختلاف الدين تبادل العداء على غير حجة أو منطق أو عقل؟! والقرآن المجيد هو الذى قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ مَخْلَفِينَ﴾ (١١٨) (هود ١١٨).. وفى القرآن دلالة على الأصل الواحد لجميع الأديان، يقول الحق جل وعلا: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٦) (البقرة ١٣٦).. والقرآن الحكيم هو الذى جرت آياته على ما يحفظ العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، فقال تعالت حكمته: ﴿أَحْلَلْ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِلَهِينَ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٥) (المائدة ٥).. أباح الإسلام للمسلم طعام أهل الكتاب وأن يتزوج منهم وأن تبقى الزوجة على دينها ويبقى هو على دينه، لها كل ما للزوجة المسلمة من حقوق سواء بسواء.. ولم يتحدث كتاب عن السيد المسيح عليه السلام بمثل الحديث البليغ الرائع الذى ورد فى القرآن: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ بِبَشْرِكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ أَسْمَهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٤٥) (آل عمران ٤٥، ٤٦).. والقرآن المجيد هو الذى خص النصارى بإشارة خاصة لما بينهم وبين الإسلام والمسلمين من مودة ورحمة فقال تبارك وتعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّكُمْ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٨٢) (آل عمران ٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) (المائدة ٨٣، ٨٢).

والإسلام منحوت اسمه من لفظ السلام، وتحيته هي السلام، والسلام مهجة وروح الإسلام، تحية الله للمؤمنين تحية سلام: ﴿يَحْيَتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامًا وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ (الأحزاب ٤٤)، ومستقر الصالحين - دار أمن وسلام: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (يونس ٢٥) .. ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام ١٢٧) .. والأمن والأمان هما غاية الإسلام.

من أميز ما في الإسلام، أن جميع المبادئ والأحكام التي قررها تصب في آليات تحقيق الأمن والأمان المجتمعي التي يحرص عليها الإسلام، لأمان الإنسان - كل إنسان - على روحه ونفسه وعرضه وماله، فهذا الأمان هو مهجة وعمود وغاية كل المبادئ والقواعد والأحكام الإسلامية.. وليس أجزى للإنسان، وأمان مجتمعه، من دين يطوى الناس جميعا في أسرة إنسانية واحدة ينعم فيها الكل بالأمان، ولا تفاضل فيما بين أفرادها إلا بالتقوى والعمل الصالح.. وصدق تبارك وتعالى إذ قال في كتابه المبين: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِيَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات ١٣).



«وكلهم آتية يوم القيامة فردا»



استحضر انتباهي آية في القرآن الكريم تنذر المنكرين والكفار والمعاندين، بقول الحق جل علاه: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾ (مريم ٩٥)..

ومن يقرأ القرآن المجيد، يلاحظ كيف أن النذير القرآني قد أتى في كل مواضعه بالغ الحكمة شديد الوقع نافذ الحجة، أينما يتابعه في الكتاب المبين، يلمس هذه الخصائص مجتمعة، فالحق سبحانه وتعالى يمهّل ولا يهمل، وفي سورة آل عمران: ﴿لَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۝١٣٦ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝١٣٧ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزَّلْنَا مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ۝١٣٨﴾ (آل عمران ١٣٦-١٣٨)، وكما ترد البشارة والوعد، يأتي الوعيد في موضعه منذرا بالعذاب الأليم، وربك سبحانه لا يظلم أحدا، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره، ومن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون.. ومع غفرانه وتوبته سبحانه وتعالى على من يتوب إليه، فإن الآيات المبينة تقرن شدة العقاب بغفران الذنب وقبول التوبة، فيقول جل شأنه في مستهل سورة غافر: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ۝٢﴾ (غافر ٢).. ونرى في آيات سورة مريم، بعد أن عددت صورا من عناد المنكرين أو ادعاءات المدعين، وتطاول البعض وتمنيهم الأمانى أنهم سيرزقون في الجنة أموالا وولدا، وكفرهم بآيات الله، واتخاذ بعضهم من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا، وزعم بعضهم أن الملائكة بنات الله، أو أنه سبحانه وتعالى قد اتخذ ولدا، ترى الآيات لا تكتفى ببيان ما في ذلك من منكر وفضاعة وبهتان، وإنما جاء النذير في آيتين من سورة مريم بالغ الدلالة في تقرير المعاندين واستحضار انتباههم إلى ما يفوتهم ويغيب عن حسابانهم، فتقول الآية (٩٣) من سورة مريم: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ (مريم: ٩٣).. فقد أحصاهم تبارك وتعالى وعدهم عدا، ثم تقول الآية (٩٥): ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾..

قمة الحجة والبلاغة والمزاوجة بين العبودية التي لا يعز عليها مخلوق إلا ويأتى إلى الرحمن - ولاحظ صفة الرحمة التي أوردتها الآية هنا! - إلا ويأتى إليه عبدا خاضعا ذليلا لا يملك شيئا مما كان يتباهى أو يفاخر به أو يومئى إليه أو يعاند فيه.. الكل بلا استثناء عباده، لا يعز منهم أحد على حساب ربه الذى أحصاهم عددا وأحصى ما صدر عن كل منهم، ومع ذلك تقرن الآية هذا الوعيد والنذير بصفة رحمته تباركت أسماؤه.. فى هذا اليوم لا ظهير لأحد لا نصير، ولا عزوة ولا قبيلة ولا أحزاب ولا عصبية، وإنما يأتى الجميع فرادى.. فردا فردا.. لا مال يعينه ويؤازره، ولا نصير يؤيده ويدعمه، ولا ملاذ له فى عصابة أو قوة أو أسرة أو قبيلة أو قوم.. فالكل آت إلى الله تعالى يوم القيامة فردا.. حسابه أمامه سبحانه وتعالى على ما قدمت يدها وسلك فى دنياه.. ففى القرآن المجيد: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَتْهُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ، وَنُخِرَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ (الإسراء ١٣).

شخصية المسئولية ملحق قرأتى بالغ الحكمة، فالإنسان مسئول فى شريعته عما يفعل وعما يدع، يثاب وينجو بعمله لا بوساطة ولا بشفاعة الكهان أو الأحرار والرهبان.. يأتى إلى ربه فردا لا نصير له من مال أو جاه أو منصب أو عزوة أو قبيلة أو حزب، مصيره معلق بسجله وفعله، يأتى منسلخا من كل ما انتصر به أو تجبر أو اعتز أو اغتر فى دنياه.. طائر فى عنقه لا فى عنق سواه، عبد فرد خاضع ذليل إلى ربه، لم يخرج من الدنيا برصيد البنوك أو تلال الثروة أو سجلات المجد والفخار، أو صفحات التجبر والطغيان، أو أضغاث الأهام.. لا يحمل إلا كتابه بيمينه أو بشماله، فيما وصفه القرآن المجيد وصفا بليغا يحمل بيانه لمن يعتبر.. فيقول عز وجل: ﴿يَوْمَئِذٍ نَعْرِضُكَ لَا تَخْفَى مِنْكَ خَافِيَةٌ﴾ (١٨) ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْقِرَ كِتَابُهُ يَمِينَهُ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْنِيَّةٌ﴾ (١٩) ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ (٢٠) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (٢١) ﴿فِي حَسَنَةٍ عَالِيَةٍ قُطِرَ لَهَا دَانِيَةٌ﴾ (٢٢) ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ (٢٣) ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْقِرَ كِتَابُهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلْبِثُنِي لَزَأْتُ كِتَابِيَّةٍ﴾ (٢٤) ﴿وَلَرَأَى مَا جِئْتَهُ﴾ (٢٥) ﴿يَلْبِثُهَا كَانَتْ الْفَاضِيَّةُ﴾ (٢٦) ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ (٢٧) ﴿هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ (٢٨) ﴿خَذُوهُ فَعُوهُ﴾ (٢٩) ﴿ثُمَّ الْجَحِيمِ صَلُّوهُ﴾ (٣٠) ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (٣١) ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ (٣٢) (الحاقة ١٨-٣٣).

الوسطية وأثرها فى تكوين الشخصية الإسلامية كفالة الأمن المجتمعى



تجرى أفكار البشر وعقائدهم كما يجرى سلوكهم على قنوات وفى اتجاهات عدة، قد تتطرف إلى أقصى اليمين، وقد تنحدر ببعضهم إلى أقصى اليسار فى تيارات تختلف مسمياتها باختلاف تخومها ومعالمها.. يتوسطها الاعتدال نهجا يختطه ذوو البصر والبصيرة ويقبل عليه المهتدون والعقلاء.

والوسطية سجية من سجايا القرآن الحكيم، وفضيلة جعلها الحق سبحانه وتعالى ضابطا لفكر المؤمن وخلقه وشعوره وسلوكه، فالوسط أو التوسط، هو العمل والاعتدال، وهو القوام بين النقائص أو بين الإفراط والتفريط.. ومن هنا كانت الوسطية سنة محمودة وغاية مرجوة لم تذكر فى شرعة الإسلام إلا فى معرض التزجية والتقوية والثناء..

إن الأمة الإسلامية قد تبوأ مكان الصدارة بين الأمم بدينها الذى به اهدت، وينص القرآن الذى به شرفت: «كنتم خير أمة أخرجت للناس».. فإذا كانت هذه منزلتها، فإن آية الآيات على مقام الوسطية وفضلها فى شرعة القرآن أنها جاءت فى الذكر الحكيم عنصرا من عناصر صدارة الأمة الإسلامية، وسببا من أسباب امتيازها بين الأمم؛ بل والشهادة عليهم.. يقول تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة ١٤٣).



والوسطية الإسلامية، فضلا عن كونها قيمة وشميلة، فإنها أحد العوامل الأساسية فى أمان المجتمع وحمايته من الجنوح والتطرف، وتجرى ضميمته مع شجرة «المساواة» التى يتساوى فى رحابها المسلم وغير المسلم، وتقى المجتمع من الاحتقان وفورات الإحساس بالظلم أو القهر أو الدونية، مكفولة باحترام الإنسان وقديسية روحه، باعتبارها أهم الركازات الأساسية التى تحفظ أمان المجتمع وتبث الطمأنينة والسلام بين آحاده ومجاميعه!

والغلو والتطرف هو أخطر ما يهدد أمن المجتمعات، والتطرف إيفال في البعد عن أواسط الأمور، وهذا من أسف واقع أحوال الناس، ذلك أن أفكار البشر وعقائدهم تجرى كما يجرى سلوكهم على قنوات وفي اتجاهات عدة قد تتطرف إلى أقصى اليمين وقد تنحدر ببعضهم إلى أقصى اليسار في تيارات تختلف مسمياتها باختلاف تخومها ومعالمها.. يتوسطها الاعتدال نهجا يختطه ذوو البصر والبصيرة ويقبل عليه المهتدون والعقلاء.

والتطرف خلل واضح في اتزان آدمي، وخلل هذا الاتزان لا يحس به صاحبه في الأغلب الأعم، إنما يشعر به من حوله ومن يتعاملون معه، فيحتاطون منه ويتحاشونه ما أمكنهم، ويتفادون مبالغته في التعصب والعداوة والبغضاء والغضب والتصلب وغرابة الحقد، مثلما يتحاشون ولعه بالشدة والانتقام، أو يكرهون ما يبديه من شدة البخل والشح والتقتير على أهله أو نفسه، أو من كثرة الإسراف والإفراط والإتلاف، أو ما يبالغ في تأكيده والإصرار عليه من انتحال العظمة والأهمية، أو من ادعاء الجمال أو الكمال أو الغنى أو العلم أو الأصل أو الفصل!

خطورة هذا الخلل في اتزان آدمي تغدو أكثر أهمية وخطرا إذا ما أصاب الحاكم والقائد والقاضي والمفكر وأصحاب المهن الحرة، لأن هؤلاء يقومون بخدمات عامة للمجتمع ومؤسساته وتوابعها، وهم وإن كانوا يحملون تبعات ما يقومون به أو يقدمونه وتنعكس عليهم، إلا أن الأضرار المترتبة على خلل الاتزان كبيرة أو صغيرة تصب وتقع دائما على الناس كجماعات أو كأفراد!

والوسطية هي صمام الأمان الحقيقي من كل صور التطرف والغلو، هذه الوسطية سجية من سجايا القرآن الحكيم وفضيلة إسلامية، وقد عاش الإسلام وعاش المجتمع الإسلامي في أمان لأن الإسلام دين الفطرة والوسطية بلا تطرف ولا غلو ولا مغالاة.. عالج واقع الحياة وواقع الإنسان معالجة واعية متفطنة تستخرج من النفس الإنسانية خير ما فيها وتحاصر سلبياتها القائمة أو المحتملة، وتواجه الواقع بأفضل ما تصلح به الحياة والأحياء.. في كل زمان ومكان.. والوسطية هي ضابط فكر المسلم وشعوره وسلوكه، فالوسط أو الوسطية

هو الاعتدال والقوام بين النقائص أو بين الإفراط والتفريط.. ومن هنا كانت الوسطية سنة محموددة وغاية مرجوة لم تذكر في شرعة الإسلام إلا في معرض التزجية والتنويه والثناء.

إن الأمة الإسلامية قد تبوأ مكان الصدارة بين الأمم بدينها الذي اهتدت به وبنص القرآن الذي به شرفت: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران ١١٠).

هذه الوسطية ما كان لها أن تكون ركيزة للصدارة وسببا لمقام الشهادة على الأمم لولا أثرها كمقوم أساسى فى تكوين الشخصية الإسلامية بهداها وسوائها وبصيرتها وإنصافها.. وهى الصفات التى تؤهل الأمة لما أعدها القرآن المجيد له وكرمها به.. فقد دلنا القرآن الحكيم على أن التوسط هو قوام الفضائل كلها من عقائد وعبادات ومعاملات.. وخصلة أصيلة من خصال المسلم، وإطار حميد فى مسائل العبادة والأخلاق والشعور والسلوك.

وفى القصد والاعتدال فى الشعور: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الحديد ٢٣).

وفى صفة عباد الرحمن المتوسطين فى انفاقهم بين السرف والتقتير: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان : ٦٧).

إن «الوسطية» كمنهاج زكاه القرآن الحكيم وحث عليه المصطفى ﷺ ليست حجرا على العقول ولا هى غلق للاجتهاد أو دعوة للجمود، وإنما هى معيار موضوعى.. منار المؤمن فيه القرآن والسنة، وهما فيما أوصيا به لم يغلقا بابا للرأى أو بابا للاجتهاد ما داما فى إطارهما الصحيح الذى تمثل الوسطية سمة أساسية من سماته..

وإذ كان الرأى والاجتهاد مندوبا إليهما، فإن الوسطية حصن المؤمن فيما يراه وفيما يسلكه.. يقول المصطفى ﷺ: «خير الأمور أوسطها»، ويقول الإمام على وكان نجيبا فى مدرسة النبوة: «اليمين والشمال مضلة والطريق الوسطى هى الجادة عليها باقى الكتاب وآثار النبوة ومنها منفذ السنة وإليها مصير العاقبة هلك من ادعى وخاب من افترى».

الوسطية ونيز الغلو والتطرف ملمح رئيسى وأساسى من ملامح الإسلام، وسر من أسرار قدرته على احتواء كافة التيارات.

الوسطية، تمثل العدسة أو البوصلة التي تضبط فكر المسلم وخلق و شعوره وسلوكه .. ومسئوليته أيضا .. ولم تذكر الوسطية في شرعة الإسلام إلا في معرض التزجية والتنويه والثناء .. من مقامها المحمود أن وصفت بها الأمة الإسلامية ذاتها .. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة ١٤٣) صدرت فلسفة الإسلام عن هذه الوسطية .. في التنسك والعبادة .. ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (البقرة ٢٣٨).

والمطالع للقرآن الكريم يلمح هذه الحفاوة بالوسطية في ما زكى إليه من خصال وسجايا وأخلاق .. فالكرم وسط بين الشح والتبذير، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور، والتواضع وسط بين الكبر والمذلة أو الاستخذاء، والحياء وسط بين الخور والوقاحة، والحلم وسط بين الطيش والقعود، والعدل وسط بين الظلم والمحاباة، والرفق وسط بين العنف والإضاعة. الوسطية في الإسلام منهاج يجمع الشمائل بلا تفريط ولا مغالاة .. الغلو نفسه آفة مرفوضة .. يحذر منها رسول القرآن ﷺ فيقول : «إن هذا الدين متين ولن يшاد الدين أحد إلا غلبه. فأوغلوا فيه برفق، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى». الوسطية سجية محمودة .. «خير الأمور أوسطها».



الإنسان في القرآن الكريم



طالما تساءل الإنسان ولا يزال يتساءل منذ بدء الخليقة.. أسئلة تصاعدت أعدادها، وتشعبت مسالكها في القرن العشرين.. القرن الذي تجمعت فيه الأسئلة عن كل نسبة من نسب الإنسان.

ما مكانة الإنسان.. في هذا الكون كله؟

ما مكانه من هذه السيارة الأرضية بين خلائقها الأحياء؟

ثم.. ما مكانه بين أبناء نوعه البشرى؟.. وبين كل جماعة من هذا النوع الواحد؟ أو هذا النوع الذي يتألف من جملة أنواع يضمها عنوان الإنسان؟..

بهذه الأسئلة التي طالما راودت الإنسان.. ولا تزال تراوده.. يقدم عباس محمود العقاد.. كاتبنا ومفكرنا الكبير الراحل.. لكتابه القيم «الإنسان في القرآن الكريم».. أحد شوامخه العديدة التي صنعها على مدى خمسين عاما.. بالعرق، والجهد، والفكر، والإرادة الدءوب التي لا تعرف الكلل.. والجواب؟.

استهل العقاد كتابه القيم ببيان خلاصة فلسفته ورأيه : «أن هذه الأسئلة أسئلة لا جواب لها في غير «عقيدة دينية».. عقيدة تجمع للإنسان صفوة عرفانه بدنيته، وصفوة إيمانه بغيبيها المجهول!.. عقيدة تجمع له زبدة الثقة بعقله، وزبدة الثقة بالحياة.. حياته وحياة سائر الأحياء والأكوان.

هذه العقيدة الدينية - فيما يقول - لا توجد اليوم لتنبذ غدا، ولا توجد على الأيام للعارفين دون الجاهلين، وللعاملين دون الخاملين، ولمن يطلبون الخير للناس دون من يطلبون الخير لأنفسهم، ولمن يعتقدون دراية ومحبة دون من يعتقدون تسليما ورهبة.. ولمن يسعون سعيهم إلى العلم والإيمان دون من يقعدون في مواطنهم منتظرين.

هذه العقيدة بنية حية.. قوامها دهور وأمم، ومعايش وآمال، ونفوس خلقت ونفوس لم تخلق. سيبلها جميعا أن تهتدى إلى قبلة واحدة تنظر إليها فتمضي قدما، أو تفقدتها في الأفق فهي أشلاء ممزقة كأنها أشلاء الجسم المشدود بين مفارق الطريق؟..

العقيدة الدينية الجديرة بالرد على كل هذه الأسئلة والاستفسارات هي عقيدة القرآن. فالقرن العشرون منذ مطالعه، يعرض العقيدة بعد العقيدة على الإنسان وعلى الإنسانية، إلا إنه لم يعرض عليها حتى اليوم، قديما معادا أو جديدا مبتدعا هو أوفق من عقيدة القرآن.. وهي عقيدة باقية خالدة.. بعظمتها وأحكامها وشمولها.. ما بقيت الحياة. فقد استمع الناس إلى المادية التاريخية فوجدوها تنزل بالإنسان إلى مستوى العملة الاقتصادية في سوق التجارة والصناعة.. تعلق وتهبط بمعايير العرض والطلب!. واستمعوا إلى الفاشية فهالهم ما تزعمه من أن الإنسان.. الواحد.. من عنصر سيد أو عنصر مسود، واستمعوا إلى «العقلية» فوجدوها تنكر إنسانيتهم وتقول إنها شيء لا وجود له، ووهم من الأوهام، وإن الشيء الموجود حقا هو الفرد الواحد!.. وبرهان وجوده حقا أن يفعل ما استطاع من نفع أو أذى، كلما أمن المغبة من سائر الأفراد والأحداث!. وغيرها كثير من النظريات.. سمعها الناس من أهل العقائد الإلهية.. نظريات عن مكان هذا الإنسان من الأرض والسماء، ومكانه من إخوته في آدم وحواء.. بيد أنها لم تشف بدورها غليلهم أو ترشددهم إلى حيث تهدأ نفوسهم الحائرة المتسائلة.. ثم سمع الناس من القرآن الكريم غير ذلك.. «الإنسان في عقيدة القرآن هو الخليفة المسئول بين جميع ما خلق الله.. يدين بعقله فيما رأى وسمع، ويدين بوجوده فيما طواه الغيب، فلا تدركه الأبصار والأسماع.. والإنسانية من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد وإله واحد.. أفضلها من عمل حسنا واتقى سيئا، وصدق النية فيما أحسنه واتقاه».

هذه الحقيقة التي صدر بها المرحوم عباس العقاد كتابه القيم تحتاج إلى إثبات قائم على البحث والنقاش العلمي.. إثبات يهتدى به الباحثون عن الرشاد، وتسكت به السنة المعارضين : افتئاتا.. بغير حق.

طبق العقاد يسوق حججه حجة وراء حجة، في عمق وأصالة، على صفحات الكتاب الذي قسمه إلى كتابين رئيسيين.. الأول عن الإنسان في القرآن الكريم.. وفيه عرض إجابة القرآن عن كل الأسئلة التي تدور حول الإنسان في هذا القرن وما سبقه من القرون..

موضحا من خلالها كيف وضعه الإسلام - دين القرآن - فى موضعه الصحيح الذى يتطلبه فلا تسعده عقيدة أخرى أصح له وأصلح من هذه العقيدة.. عقيدة القرآن فى الإنسان والإنسانية.

وفى الكتاب الثانى.. تحت عنوان الإنسان فى مذاهب العلم والفكر.. ومن خلال عشرة فصول متتالية.. أورد العقاد عرضا طريفا.. شائعا وعميقا.. لنشأة الإنسان وموضعه فى مذاهب العلم والفكر، أو مذاهب الحدس والخيال.. ليعود فى النهاية إلى حيث بدأ.. مقارنة.. فى براعة العالم واقتداره.. بين ما تقرره هذه المذاهب وتسوقه.. على اختلافها.. وما تقرره العقيدة القرآنية حول هذا الكائن الحى.. مكانه فى هذا الكون.. ومكانه على هذه الأرض بين كل ما يدب عليها من الأحياء.. ثم مكانه بين نوعه البشرى، وبين كل جماعة من هذا النوع.

المخلوق المسئول هو صفوة الصفات التى ذكرها القرآن عن الإنسان، إما خاصة بالتكليف أو عامة فى معارض الحمد والذم من طباعه وفعاله.

فالإنسان قد ذكر فى بعض مواضع من آيات الكتاب الكريم بغاية الحمد، وفى مواضع أخرى بغاية الذم.. بل ذكر بهذا وذلك فى الآية الواحدة.

يقول جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَنَاءِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (٧٠) ﴿(الإسراء ٧٠)، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٤) ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (٥) ﴿(التين ٤، ٥)، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفَّارٌ﴾ (٢٤) ﴿(إبراهيم ٣٤)، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ (٢) ﴿(العصر ٢).

وليس معنى ذلك أن الإنسان يحمد ويذم فى آن واحد.. وإنما معناه أن الإنسان أهل للكمال والنقص بما فطر عليه.. وأهل للخير والشر لأنه أهل للتكليف.. والإنسان بهذا الاستعداد المتفرد بين مخلوقات الأرض ومخلوقات السماء هو أكرمها جميعا.. وإذا كان قد وصف فى القرآن بمساوئ لم يوصف بها غيره، فإنها مساوئ لا يوصف بها إلا مخلوق مسئول.. فالسيئة والحسنة لا ينعت بها غير المسئول لأنه غير أهل للقدح أو المدح.

والإنسان في عقيدة القرآن.. مسئول عن عمله.. لا يؤخذ واحد بوزر آخر، ولا أمة بوزر أمة أخرى..

﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور ٢١)، ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَزَمْتَهُ طَبْعُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ (١٣) (الإسراء ١٣)، ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة ١٤١).

ومناط المسؤولية في القرآن جامع لكل أركانها المتفق عليها بين الباحثين المتعمقين في حكمة التشريع الديني أو التشريع الوضعي، فهي بنصوص الكتاب قائمة على أركانها المجملة: تبليغ، وعلم، وعمل.

فلا تحق التبعة على أحد لم تبلغه الدعوة.. ﴿وَمَا كَأَ مَعَذِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥) (الإسراء ١٥).

والعلم هو أول ما تنزل على المصطفى عليه الصلاة والسلام في أول ما نزل من القرآن المجيد. ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ (العلق ١، ٥)

أما العمل فهو مشروط في القرآن بالتكليف الذي تسعه الطاقة.. وبالسعي الذي يسعاه المكلف لربه ونفسه ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة ٢٨٦).

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) (الزلزلة ٧، ٨)

فشريعة الإسلام لا تسأل الإنسان عما يجهل، ولكنها تسأله عما علم وعما وسعه أن يعلم.. وما من شيء في عالم الغيب أو عالم الشهادة هو محجوب كله عن علم الإنسان.. فما وسعه من علم فإنه محاسب عليه..

والقرآن الكريم كتاب تبليغ وإقناع وتبيين.. وقوام هذه الفضيلة فيه التوافق التام بين أركانه وأحكامه، وبين عقائده وعاداته، وبين حجته ومقصده.. فكل ركن من أركانها

يتنزل فيه بأقداره ، ويوافق في تفصيله سائر أركانه التي تتم به أو يتم بها ، على قدر مبين» .

وأمثلة ذلك في الكتاب الكريم عديدة واضحة .. قاطعة في بيانها وأحكامها .
فالتكليف - بداهة - يرتبط بالمسئولية ، ويستند عليها .. والمسئولية لا تقوم بغير عقل ، يتلقى التبليغ والعلم ويهيئ النفس - بذلك - للعمل بما تكلف به ..
ولذلك...

ليس أتم ولا أعجب في القرآن من هذا التوافق التام فيه بين تمييز الإنسان بالتكليف ، وبين خطاب العقل بكل وصف من أوصافه ، وكل وظيفة من وظائفه وملكة من ملكاته ..
فالعقل بكل المعاني التي عرفت له موصول في الكتاب المبين بكل حجة من حجج التكليف وكل أمر بمعروف أو نهى عن منكر .. أفلا يعقلون؟ أفلا يتفكرون؟ أفلا يبصرون؟ أفلا يتدبرون؟ أفلا تتذكرون؟

وخلق بالمسلم ، وبكل دارس للأديان ، أن يتنبه إلى هذه الفضيلة التي لا تراها في غير القرآن من كتب الأديان .

فالبشرية لم تعرف قط قبل الإسلام تمييز الإنسان بخاصة التكليف وإعداده لخطاب العقل وتبيان الإقناع .. وكانت الأمم قبل البعثة المحمدية تفهم النبوة على أنها استطلاع للغيب وكشف للأسرار والمخبات .. كان منهم من يحسبها مجرد وساطة بين المعبود وعباده للتشفع إليه بالهدايا والقربان .

ثم جاء الإسلام ليضع الإنسان في أشرف مكان له في ميزان الفكر وميزان الخليفة .. فهو الكائن المكلف .. يخاطب فيه صفته الباقية .. وهي خاصة النفس الناطقة والضمير المسئول .. الضمير الذي يحمل تبعته .. لا تغنيه عنها شفاعاة ولا كفارة من سواه .

إنها نبوة فهم وهداية ، وليست نبوة استطلاع وتنجيم .. هداية بالتأمل والنظر والتفكير ، وليست بالخوارق والأحوال التي تروع البصر والبصيرة وتفزع الضمائر بالتخويف والإرهاب .. فهي نبوة مبشرة منذرة لا تملك لهم نفعا لا ضرا إلا ما يعملونه من خير أو شر بمشيئتهم .

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْنَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف ١٨٨).

لذلك عندما جاءت سمعة المعجزة سهلة ميسرة لصاحب هذه النبوة، يوم مات ابنه إبراهيم وكسفت الشمس، وظن الناس أنها كسفت لموته، أبى محمد الصادق الأمين أن يسكت عليها، وأعلمهم أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته. بذلك أغلق سلطان الأحبار، كما أسدل الستار على سلطان النبوات بالمعجزات وخوارق العادات!!

لذلك....

لا يسقط التكليف عن العاقل أن يطيع المتحكمين بطغيان الحكم أو طغيان الكهانة.. ولا يمنعه التكليف أن يسأل من يعلم إذا غاب عنه العلم. لأن طلب العلم يحقق واجب التكليف ولا يعطله أو يلغيه، والروح إحدى العقائد الغيبية في القرآن.. والعقائد الغيبية أساس عميق من أسس الدين. تقوم عليه كل ديانة يطمئن إليها ضمير الإنسان.. ولكن الفضيلة الكبرى في عقائد القرآن الغيبية أنها لا تعطل عقول المؤمنين بها، ولا تبطل التكليف بخطاب العقل المسئول.

وعقيدة الروح.. في القرآن.. هي إحدى العقائد «الغيبية» التي تلمس فيها هذه الفضيلة.. ذلك بأن الإيمان بالروح لم يفرض على العقل البشري في هذا الكتاب بصورة تنفصم بها النفس البشرية بفاصم من الحيرة بين خلق الإنسان روحا وخلق جسدا. فالروح والجسد في القرآن الكريم.. ملاك الذات الإنسانية.. تتم بهما الحياة، ولا غناء في إحداها عن الآخر.. لكلاهما حقه في عقيدة الإسلام.. عقيدة على هداية واحدة.. نحس بالروح كما نحس بالجسد.

وقد كثر جدل حكماء اليونان وفلاسفته من قديم حول العقل والروح والجسد.. ورتبوا على حسب صفاتها وعلو جوهرها.. فكان العقل عندهم أولها وأشرفها. لأن جوهر العقل المطلق هو الله جل شأنه، والعقل الإلهي هو العقل الفعال المنزه عن المادة، ثم تأتي الروح والنفس بعد ذلك.. الروح أقرب إلى عنصر النور، والنفس أقرب إلى عنصر الهواء والتراب.

أما كمال هذه القوى في لغة القرآن، فإنه مقيس إلى كمال الله عز وجل.. أرفعها وأشرفها ما كان أقربها إلى الصفات الإلهية، وأدناها ما كان أبعدا عن تلك الصفات. والمقابلة في القرآن بين هذه القوى توحى بأن الروح.. وهو الجانب الذى استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه.. هو أقربها إلى الحياة الباقية، وأخفاها عن المدارك الحسية، لأنه سر الوجود المطلق، ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥) (الإسراء ٨٥).

أما العقل، والنفس.. فالراجع في بيان القرآن أن النفس أقربهما إلى الطبع والقوة الحيوية التى تشمل الإرادة كما تشمل الغريزة، وتعمل واعية كما تعمل غير واعية. والعقل.. يتوسط بين القوتين.. الروح، والنفس، فهو وازع للغريزة، ومستلهم لهداية الروح، فالإنسان يعلو على نفسه بعقله، ويعلو على عقله بروحه، فيتصل من جانب النفس بقوى الغرائز الحيوانية ودوافع الحياة الجسدية، ويتصل من جانب الروح بعالم البقاء وسر الوجود الدائم، وعلمه عند الله.. وحق العقل أن يدرك ما فى وسعه وطاقته من جانبه المحدود، ولكنه لا يدرك الحقيقة كلها من جانبها المطلق إلا بإيمان وإلهام. وفى القرآن الكريم خطاب متكرر إلى العقل.. وبيان متكرر لحساب الإنسان العاقل على الخير والشر، مع إسناد الإرادة إليه.. وهناك آيات أخرى صريحة تسند الإرادة إلى الله الخالق الفعال لما يريد.. فكيف تجد مسئولية الإنسان طريقها المبني على الإرادة من خلال ذلك؟.

يقول العقاد: إن من شروط التكليف طاعة وحرية.. وهذه بدهية يغفل عنها كثير من المجادلين فى قضية الإيمان، وفى قضية التكليف والجزاء، فيقتصرون النظر على شرط الحرية، ويهملون شرط الطاعة، كأنه مناقض للجزاء، وكأنه من اللازم عقلا أن يكون الجزاء مقرونا بالحرية المطلقة. فالحرية المطلقة.. لكل مخلوق.. استحالة عقلية.. والإرادة الوحيدة المطلقة هى إرادته جل شأنه.. أما إرادة الإنسان فليست مطلقة من كل القيود، ولا يمكن أن تكون كذلك.. لأن إرادة هذا شأنها هى فى حقيقتها قيد على كل إنسان سواه.

لا يمكن أيضا أن يكون الحكيم الخبير قد خلق الناس مكلفين بغير إرادة لهم على الإطلاق، هي إذن الإرادة المخلوقة التي يودعها الخالق في الإنسان كما ينبغي أن تودع.. إرادة ولكنها ليست مطلقة من كل القيود، والحرية المخلوقة حرية صحيحة.. ولا يقال إنها ليست بحرية.. لأنه لا معنى للحرية من وراء إرادة الخالق وإرادة المخلوق.

ومن خلال هذه المعانى البارزة تجد إرادة الإنسان وحرية، طريقها.. إرادة مخلوقة وحرية مخلوقة بالقدر الذى يجعلها أهل للمسئولية والتكاليف.

وقضية الخلق.. خلق الإنسان ومكانه بين أبناء نوعه البشرى.. آخر القضايا التى يعرض لها العقاد فى عقيدة القرآن الكريم.. ليخلص فى نهاية بحثه - الوافى الشائق لما قالته مذاهب الفكر والعلم، والتطور والنشوء فى هذه القضايا - إلى كمال عقيدة القرآن، وكيف يجد الإنسان فى رحابها مكانته اللائقة التى هى أشرف مكانة لمخلوق فى ميزان الفكر وميزان الخليفة.

فهى عقيدة لا تنزل بالإنسان إلى مستوى العملة الاقتصادية فى سوق التجارة والصناعة.. تعلو وتهبط بمعايير العرض أو الطلب، وهى عقيدة لا تزعم أن الإنسان من عنصر سيد، وآخر مسود.. وهى لا تنكر الإنسانية وتدعى أنها شئ لا وجود له، ووهم من الأوهام، وأن الموجود حقا هو الفرد الواحد !..

لقد وضع القرآن الإنسان - علما ودينا - فى موضعه الصحيح حين جعل تقسيمه الحق أنه ابن ذكر وأنثى، وأنه ينتمى بشعوبه وقبائله إلى الأسرة البشرية التى لا تفاضل بين الإخوة فيها بغير التقوى والعمل الصالح .

فالإنسانية من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد وإله واحد..

لا عصبية ولا عنصرية.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات ١٣).

وهذه الوحدة فى صلة الإنسان بالإنسان، مشدودة الأزر بالوحدة بين الناس كافة فى الصلة بالله.. ربهم ورب العالمين. الذى يسوى بينهم، ويدينهم بالرحمة والإنصاف، ثم لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه إلا بقسطاس العدل، أيهم أحسن عملاً وأقرب إلى التقوى واستتباع الخيرات: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَكَانَ يُرْجَوُ لِقَاءَ رَبِّهِ. فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَمَّا ۖ﴾ (الكهف ١١٠).

ولقد كان من الحق فى ذمة العلم - فيما يقول العقاد - أن يترى علماء المقابلة بين الأديان طويلاً عند هذه المرحلة العظمى فى تاريخ العقيدة وفى تاريخ الفكر، وفى تاريخ القيم الأخلاقية، بل فى تاريخ الحياة الإنسانية من مطلعها فى ظلمات الماضى المجهول إلى هذا الأوج السامق الذى ارتفعت إليه بعد ألوف السنين، وما كانت لترتفع إليه بعمل ولا عقيدة غير العقيدة فى رب واحد هو رب العالمين. العقيدة التى تركت جميع موازين المفاضلة بين بنى الإنسان وفاضلت بينهم بميزان التقوى والعمل الصالح: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾ (الحجرات ١٣).

وليس أكرم ولا أحكم للإنسان من هذه العقيدة.. عقيدة القرآن.. التى تضعه فى موضعه الذى يتطلبه، مقدمة للقرن العشرين إنسانه الذى ليس من إنسان أصح منه وأصلح لزمانه.

سقوط نظرية دارون؟!



نشرت بعض صحف السبت ٢٠٠٩/١٠/٣ أن فريقا من العلماء الأمريكيين فى أصول الجنس البشرى ، توصلوا إلى هيكل عظمى بشرى لأثيوبية مضى عليه حوالى ٤,٤ مليون سنة ، فيما يعد أقدم هيكل بشرى أمكن الوصول إليه ، وأطلق عليه فريق البحث اسم «أردى». وأعلن الفريق البحثى ، وهو من جامعتى كين ستيت وكاليفورنيا ، فى تقرير نشرته مجلة «Science» ، أن الكشف يسقط نظرية دارون التى أثارت ضجة هائلة منذ ظهورها فى أخريات القرن قبل الماضى ، فالهيكل البشرى المكتشف واحد من أسلاف البشر القدامى يرجع إلى أكثر من أربعة ملايين سنة ، وأقدم بنحو مليون سنة من هيكل «لوسى» التى كانت أحد أهم الأصول البشرية المعروفة. أما هيكل «أردى» المكتشف حديثا ، فهو لأنثى قيل إنها بطول ١٢٠سم ، وأنه وإن كان الرأس يشبه رأس القرد ، إلا أن تجويف الحوض لديها يظهر أنها كانت تسير منتصبه كالإنسان لا منحنية على مفاصل الأصابع كالشمبانزى والغوريلا!.. فهل أسقط هذا الكشف نظرية دارون فى النشوء والتطور والارتقاء وأصل الأنواع؟!

هذه النظرية وضعها دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢) ، هو عالم طبيعى إنجليزى ، درس الطب فى أدنبره نزولا على رغبة أبيه ، ولكنه لم يجد ميلا للعمل بالطب وبدأ يدرس العلوم فى كيمبردج ، وشغف بالتاريخ الطبيعى ، وقام برحلة بحرية على الباخرة «بيجل» استغرقت خمس سنوات ، وكانت بداية لأبحاثه فى النشوء والتطور والارتقاء ، ووضع كتابه : «أصل الأنواع».

كان لمذهب دارون أثر كبير فى الميدان البيولوجى ، وفى الفلسفة وميادين المعرفة الأخرى ، وأدت دراساته إلى التساؤل عن الاعتقاد فى الخلق الخاص بكل نوع من الأنواع ، وهى نظرية كانت موضع اعتقاد علماء عصره ، فتقدم بالبيانات التى جمعها عن تطور الأشكال الحية جميعها من أصل واحد مشترك. وخلص إلى أن هناك كفاحا من أجل البقاء بين أفراد النوع الواحد ، وأكد وجود تغير فردى فى داخل النوع ، وأن الأفراد ذوى التغير

الأكثر ملاءمة يكون لهم حظ أوفر للبقاء. وأن بعض هذه التغيرات ينتقل للخلف ويحتفظ بها في الأجيال التالية.. وهذا هو مبدأ الانتخاب الطبيعي الذي تأثر فيه بآراء «مالتوس».. وهذا الانتخاب الطبيعي هو أساس نظرية دارون في عملية التطور العضوى.. فنظرا لعوامل بيئية مختلفة - ككمية الغذاء والماء المتوافرة، ودرجة الحرارة والضغط، وزيادة أو قلة الناتج الحيوانى والنباتى - نشأ وينشأ الكفاح من أجل البقاء، ويسفر هذا الكفاح دائما عن انتصار وبقاء الأقوى والأصلح للتكيف تكييفا أفضل مع البيئة.. فيتكاثر الأفضل، وينقرض العاجز عن مواجهة ظروف البيئة.. وانتهى دارون إلى أن الفرد فى تاريخه يعيد تاريخ تكوين الجماعات التى ينتمى إليها!.

ومع الضجة التى أثارتهما الداروينية، وتصاعد الإعجاب بها، إلا إنها تعرضت لنقد بعض علماء القرن الماضى، فأخذوا عليها عدم تفرقتها بين التغيير المكتسب الذى لا يورث، والصفات الجينية التى تورث.. لذلك أدخلت على النظرية تحويلات اقتضتها المعرفة الحديثة بأصول الوراثة!.

من الاختصار المخل اختزال الداروينية فى أن الإنسان أصله قرد. المسألة الأهم من نفى أن الإنسان كان قردا، هو ما تكشف عنه البحوث تباعا عن هياكل عظمية بشرية ترجع إلى ملايين السنين، وتصطدم بقصة الخلق ومدته فى بعض كتب الأديان التى يستفاد منها أن عمر البشرية بين سبعة وعشرة آلاف عام!.

الاكتشاف الجديد يعيد فتح قضية قديمة، اجتهد فيها الدكتور عبد الصبور شاهين برأى عرضه فى كتابه: «أبى آدم».. توقف فيه عند استعمال القرآن المجيد لكلمة «بشر» وحالات ودلالات ومعانى استخدام الكلمة، ثم عرض لاستعمال القرآن لكلمة «الإنسان».. والمواضع التى فيها ورد لفظ «البشر» والأخرى التى ورد فيها لفظ «الإنسان».. لينتهى باجتهاد يعرضه إلى أن «البشر» لفظ عام لكل مخلوق على الأرض يمشى منتصب القامة على قدمين، بينما «الإنسان» لفظ خاص بكل من كان من البشر مكلفا بمعرفة الله وعبادته.. فكل إنسان بشر، وليس كل بشر إنسانا. وإنه لأمر ما نرى القرآن لا يخاطب البشر وإنما يخاطب الإنسان، ونجد التكليف الدينى منوطا بصفته «الإنسانية».. وأن الإنسان هو وحده

المقصود بالتكليف الدينى، وأنه إذا كان البشر بعامة هم طلائع الخليقة، ثم بادوا ودرست آثارهم، فإن آدم هو أبو الإنسان المكلف المجدول حوله قصة الخلق فى كتب الأديان.. وكما أثارت نظرية دارون ضجة كبرى، أثار كتاب الدكتور عبد الصبور شاهين ضجة أكبر حتى تطرف البعض فعده من باب الكفر أو الإلحاد.. واعتدل البعض فطلبوا مراجعة بعض الصياغات، وليبقى الحوار دائماً بين العلم والدين حول قصة الخليقة! على أنك لا يمكن أن تقرأ مثل هذه الآراء، إلا وتجد حاضراً أمامك كتاب عباس العقاد الذى عرضته لك فى المقال السابق: الإنسان فى القرآن الكريم.. ليطل أمامك ما ختم به أنه ليس أكرم ولا أحكم للإنسان من عقيدة القرآن فيه، تلك العقيدة التى وضعتها فى أكرم موضع مقدمة للقرن العشرين الذى وضع فيه الكتاب، ولكل القرون، إنسانه الذى ليس من إنسانه أصح منه وأصلح لزمانه.



الإيمان والواقع



يجب ألا ننسى أن عواطفنا - حتى الآن - تعيش أكثر ما تعيش على ميلنا الذي يكاد يكون فطريا إلى الإيمان المريح، ولا أقصد هنا الإيمان الديني بخاصة، وإنما أعنى الإيمان بالمعنى العام الذي يشمل العقيدة والفكر والمذهب والرأى والعمل والسياسة وغير ذلك مما يعرض للآدمى فى حياته، ومثل هذا الإيمان المريح بعامة مبنى دائما على الاعتقادات ووجهات نظر دينية أو أخلاقية أو سياسية أو علمية أو اجتماعية أو أسرية.

وهذا الإيمان بشئ ما لا تخلو منه نفس بشرية، والذي يصعب على كل منا تركه، فهو يعطينا راحة التسليم والكف عن الانشغال والقلق لأمر من أمورنا موجود فعلا أو توهمًا. وهذه الراحة تساوى عندنا وتزيد على العناء الذى نكابه فى استمرار البحث والتحقيق والتمحيص العقلى.. فهو من هذه الزاوية ينقذنا من حيرة العقل وشكوكه وتمرده على الغيب الذى يجتاحنا.. وهو أيضا سهل الانتشار واجتذاب المرافقين والأنصار والأتباع، وتوفير المحيط أو البيئة التى تفسح لنا مجال الحركة الميسرة المولية والمواتية، ويعطينا فرصا طيبة للإنشاء والبناء إن أردنا ذلك بعزم.. كما قد يعطينا فرصا متسعة للهدم والتخريب والتدمير فى تيارات الأحقاد والعداوات والفتن التى تجرى وتشدد فى محيطنا!!

وللإيمان بهذا المعنى دوره فى وجود الحضارة الحالية، كما كان له دوره فى كل حضارة سابقة، وأيضا فى العقائد الملبوسة التى كان لها دور فى الفتن والقلال والحروب فى قرننا الحالى والقرن الماضى، كما كان فى كل القرون السابقة.. لأننا بالغين ما بلغنا من المعرفة والفهم والتطور والرقى، لم نتخل عن الانصياع للعواطف والانزلاق فى تياراتها إيجابا وسلبا!

ويدين تقدمنا وترقيتنا وتطورنا بالكثير للإيمان الصادق الصحيح الذى يدفعنا إلى المثابرة والإصرار على العمل والإتقان، والرضا ببذل الجهود وأحيانا بالمخاطرة بالحياة نفسها وببذلها.

فالإصرار والمثابرة على العمل الجاد فيهما دائما ووراءهما، دافع إيماني بشيء قد لا نعيه، لكنه موجود وباق يؤدي مهمته في صمت وبلا ضجيج. قد نفخر بنتائج أعمالنا وبما كلفتنا من عناء ومشقة، لكن لا نتذكر القوة الداخلية الدافعة وراء رضانا بهذه المكاره. هذه القوة الدافقة هي إيماننا العميق بشيء معين اعتنقناه وأطعناه بلا أى تردد أو مناقشة.

وتصعيد الإيمان بهذا الشيء المعين، إن جاز التعبير، إلى الخالق - جل وعلا - خطوة ترقى.. ليس فقط في إنجاز هذا أو ذاك من أعمالنا، وإنما في غاياتنا وأغراضنا ومقاصدنا من تلك الأعمال، وفي ألا يشذ من أغراضنا ومقاصدنا هذه غرض أو مقصد إلى شر خاص أو عام نندم من أجله على ما أتينا به ونفذناه أو شرعنا في تنفيذه في سبيله!. وتعلقنا بالقيم العامة التي لا تخلو من ذكرها مناسبة، وهي قيم بشرية أكثر بكثير من حيث العدد والأهمية من تعلق آبائنا وأجدادنا الذين لم يعرفوا الكثير منها.. وهذا التعلق ضرب من الإيمان، يحفزنا ويقود كلا منا في موقف ما إلى موقف معين أو تصرف من التصرفات، وذلك دون أن نعرف بالدقة ما هي فحوى هذه القيمة، مكتفين بأن نعرف مفهومها العام وإن كان غامضا مبهما غير محدد، ودون أن نحتاج أو نشعر بالاحتياج إلى إزالة هذا الغموض والإبهام وعدم التحديد. لماذا؟!.. لأننا في صدد إيمان لا في صدد واقع يفتقر إلى معرفة كاملة لشيء معين!.



من منا يفكر في ماهية الوطنية والعدالة والعدالة الاجتماعية، أو في تحديد معنى حقوق الإنسان أو الحرية الشخصية أو حق الجمهور في المعرفة بالشئون العامة، أو حقه في التعليم، أو الحق في الحصول على مستوى كاف ولائق لحرياته كآدمي، أو في مدلول الحق في المساواة وفي الديمقراطية، أو مدلول الاشتراكية أو مشروعية الملكية الفردية، أو كفالة حرية التنقل، وحرية التعبير عن الرأي، أو في حرية التجارة وحرية الهجرة، أو في حرية الاعتقاد واختيار وممارسة شعائر وطقوس الملة أو المذهب أو الدين إلى غير ذلك مما يعتبره الناس من القيم الأساسية في حياة الأفراد والشعوب.

كل هذه إيمانيات نعيش بها وعليها.. لا يعلل إيماننا بها وانتماؤنا إليها واعتمادنا عليها وامتنا لنا لها، لا يعلل ما يحيط بها من غموض وإبهام وعدم تحديد. هذه الغوامض أو المبهمات أو التجريدات التي تفسح المجال للخلط وما نسميه إساءة الفهم والتأويل وحدة الاختلاف والتعصب والخصومات والفتن والحروب وما وراءها من أغراض ومقاصد معظمها عند التأمل إيمان اعتقادي.. دور العقل والتعقل فيه محدود محصور في كيفية التنفيذ إن سمح لهما به !.

فالصلات البشرية خاصة وعامة، القائمة على القيم البشرية، ذات أساس إيماني مستحكم معرض في كل وقت، لذلك الخلط وإساءة الفهم والتأويل والاختلاف والتعصب، ومصير تلك الصلات دائما في كف الاحتمالات وتحت تصرف المقادير التي يتجاهلها الناس عادة، ويفاجأون منها بما لا يتوقعون !.

هذه ظاهرة مشتركة متفقة مع أصول حياة الأحياء جميعا، هذه الحياة التي يدخلها البشر وغير البشر تسلا ويخرجون منها قسرا بلا مشيئة ولا مدخل لعقولهم وتعقلهم في ذلك الدخول أو الخروج، وهما - الدخول والخروج - طرف كل حياة على هذه الأرض !. ويبدو أن ظهور عقل آدمي - أى آدمي - يحتاج إلى خارج وإلى تعامل مع هذا الخارج، وبقدر اتساع هذا التعامل يتسع بنموه نمو المخ ونمو العقل.. هذا النمو يحصل في وصاية الغرائز والعواطف والذاكرة، وربما في وصاية نمو ذات آدمي بصفة خاصة !

هذا هو الذى يفسر خضوع عقولنا لذواتنا، ومطالبها وغرائزها وعواطفها ومتوارثاتها، ويتوقف تقدم العقل وتطوره على تحرك هذه الوصايات الفطرية - هى الأخرى - فى طريق التطوير والترقى برغم ما تحمله من ماضيها الطويل وضعف قدرتها على التفطن والتبصر وحاجتها الدائمة إلى ما يعينها على هذا الضعف.. خاصة إذا لوحظ أن استعداداتنا العقلية والشعورية وذاكرتنا ومخيلتنا لا تعمل معا دائما، بل تتسابق إلى العمل لوقت يقصر أو يطول تنتظر بعده ناتج عمل كل منها، هذا الناتج الذى قد يكون حصاد هذا أو ذاك من هذه الاستعدادات، أو نتاج عون كل منها للآخر فى إنجازه أو فى وجوده أو فى الدفاع عن مواقفه. والتماس الأعذار له. قد تعزو إمكانيات القوة إخفاق عملها إلى قلة أو نفاد الصبر مثلا، أو تعزو المخيلة تعثرها إلى تواضع الذاكرة.. وهكذا !.

بين التدين والتصنع!



فارق بين التدين، وبين اصطناعه أو اصطناع العلم بالدين! لا تدهش من التعبير، فقد يغلب على رجل الدين مفهوم الصناعة، كصناعة الخزاف أو الزجاج أو النجار حين يفقد إحساسه الداخلي العميق بالدين، ويتعامل معه على أنه محض مادة علمية للدراسة أو للتفقه أو للاتشاح بها طلباً لمكانة العلماء، أو صيت وقبول الدعاة، أو كرامة الأولياء!.

لفتنى الاقتراب من المتدينين البسطاء بلا تصنع، ومن متصنعى العلم بالدين ومن ميسى الدين، أن بين بسطاء المتدينين صفاء وسماحة وامتزاجاً بالدين وتخلقاً بشمائله وسجاياه، لم أجده في بعض من يدعون العلم بالدين أو الساسة الذين يتخذونه «قنطرة» إلى منصة الحكم.. يتترسون بالدين، وقد لا تنطبع به نفوسهم ولا تلتزم به مسالكهم وتصرفاتهم!.

شتان بين شخص استقر الدين في أعماق نفسه فملاً حناياه وصفحة وجدانه وضميره، وبين احتراف علم أو تفقه فاقد للروح مشغول بالتقعيد والتنظير، وبالتفاسح والتفلسف، وربما باصطناع الحكمة والموعظة، دون أن يحس بروح ما يشغل حياته ومسالكه ودروبه به، لأنه مصروف بالمظهر عن الإمساك بالجواهر، وبمكانة امتلاك العلم عن جمال تمثيل روح الدين والتطبع به وبخصاله وأخلاقه وسجاياه وشمائله!.

المسلم الحقيقي، هو آية ورسالة الإسلام إلى الدنيا. هذا المسلم هو المسلم البسيط المتغلغل بالإيمان.. قد لا يتسع علمه، ولكن يتسع فهمه لنقاء العقيدة والإحساس الصافي بمعنى وروح وجوهر الدين. آيته سماحته وبساطته وصدقته وإخلاصه وأمانته وتواضعه وعمله وتفانيه ووقاره.

صادفنى في الحياة من يدعون العلم بالدين، بينما هم من أكثر الناس بعدا عن تمثيل معانيه والتخلق بسماحته، وأكثرهم إغراقاً في النفاق والرياء والوصولية والانتهازية والحقد والغل والحسد وسواد القلب والضمير!.

ظننى أن المظهرية قد شغلت معظم الناس عن المضمون والجوهر، فغرقت فى ذلك سلوكياتنا، مثلما غرقت أساليب الدعوة فى القضايا الشكلية المثارة.. فى هذا الزقاق انحسرت وتوارت دون أن ندرى صورة الإسلام الصحيحة، وغابت عن باطن الناس فتعلقت تصرفاتهم بالمظاهر والأشكال والأزياء.. وانصرفت أو انشغلت بها عن عمار النفوس وتعميق الداخل بقيم وجوهر الدين. لو تمثلنا الدين فى داخلنا وطبعنا به نسيجنا والتزمناه حقيقة لا شكلا، لحسنت أحوالنا، ولما شابت صورة المسلمين فى نظر العالم ما علق بها من شطحات المتطرفين أو أوشاب المتنطعين. المسلم الحقيقى يفزع من قطرة دماء تسيل بغير حق، ويأسى لترويع الناس، ويتذوق الحياة فى لمسة وفاء أو نفحة عطاء أو تسرية رحيمة أو تعاطف حنون أو عمل طيب يساهم به فى عمار الحياة!



ولذكر الله أكبر



لا يخلو دين من الأديان السماوية من دعوة إلى ذكر الله ، وتعددت في القرآن الحكيم الدعوة إلى الذكر بمعانيه وأحواله وفضله وثوابه.. لا تكاد تخلو منه سورة من سور.. وفي سورة العنكبوت : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ﴾ (العنكبوت: ٤٥) .. وحذف بيان ماهو أكبر منه ، لطيفة وإيضاح لمعنى أن ذكر الله أكبر على الإطلاق.. وأنه لا شيء أفضل من ذكر الله.. والمؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب.. هو تذكره سبحانه بربوبيته وبعظمته وجلاله وجماله وكماله ونعمائه وآلائه وسائر صفاته.. ولكن من ذا الذي يستطيع أن يتذكر الخالق أسرع أو أكثر من تذكره لنفسه والتفاته الدائب لأغراض هذه النفس ومصالحها ومخاوفها؟!.. هذه غاية بعيدة ليست سهلة لا يقوى عليها آدمي العادي، وقد لا يسمح بها السير المعتاد لحياة البشر في أى جماعة من الجماعات الاجتماعية الواسعة التلقائية غير المنتقاة وفق شروط أو سمات أو أوصاف خاصة. ذكر الله ليس مجرد كلمة تقال وتردد بلا وعى ولا التفات.. وإنما هو استحضار دائم يغمر القلب والضمير والوجدان، وهو لذلك أكبر.. بيد أن احتياجاتنا وشواغلنا ومصالحنا ورغابنا وهمومنا الشخصية والأسرية والمهنية والاجتماعية - تملأ أفقنا ووعينا أثناء اليقظة بل وأثناء النوم، ولا تترك لنا عادة فرصة حقيقية للتفات إلى مقصود آخر خلاف الذات، بل إنك لتلاحظ أحيانا قليلة أو كثيرة، أنك مع عزمك على أداء عبادة من العبادات - يهرب منك الوعي إلى شاغل آخر شخصي «لك» يجعلك تسهو عما عزمت على أدائه، وتقع في السهو فلا تدري هل انتقصت أم زدت أم أتممت صلاتك كما ينبغي وكما أردت أنت نفسك أن تكون!

والحاح الكتب السماوية، وخاصة القرآن المجيد - على التذكير بالخالق، يرجع فيما يبدو إلى قصد مقاومة اعتياد البشر - بانصرافهم لذواتهم وشواغلها - على نسيان ونسيان أنهم مخلوقون فانون مآلهم المحقق إلى فناء يلحق بهم وبكل أغراضهم ومصالحهم ومخاوفهم وما يستجدونه أو يخترعونه أو يبتكرونه، أو ما يتهيبونه

أو يتمنونه أو يشتهونه أو يطعمون فيه . وأن طول اعتياد الآدميين على هذا الانصراف بشواغلهم عن ذكر الله ذكرا حقيقيا هو ما يقودهم إلى الهلكة حتما ! .

تذكر الخالق ناموس كوني معفى من الالتفات إليه أجناس الأحياء الأخرى غير الانسان ، وبات التذكير به لازما للآدمى بحكم أنه قابل إلى غير حد - للوعى والفهم والإدراك للمسئولية التى تركبه نحو نفسه وأسرته وقومه وجنسه .. ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (الأحزاب ٧٢) ، ولأنه - أى الآدمى نفسه - محل للفتن للعواقب والمعاطب العاجلة والآجلة ، وقادر على أن يتعرف إلى النعم التى لا أول لها ولا آخر التى خصه بها الخالق منذ حملته أمه نطفة إلى أن يفارق هذه الدنيا .

فتذكر الخالق ، الذى ألح به الرسل والأنبياء ، ودعت إليه الكتب السماوية وحضت عليه وعلى الإخلاص فى تحصيله .. هذا التذكر للرب ، ناموس كونى إيجابى لبقاء الجنس البشرى ، احتاج ويحتاج من الآدميين إلى وقت طويل ليتم على وجهه الصحيح ولتتم به الإفاقة والانتباه لدى غالبية البشر - إلى الله تعالى رب العالمين ، واستحضاره استحضارا حقيقيا فى القلب والوجدان والضمير .. هذه ليست سهلة التحقيق ، ولن تتحقق بمجرد ترديدات اللسان ولا بالإحالة الكلامية التى تقال وتردد بالألسنة والقلوب لاهية ودون ما التفات حقيقى لمعنى وغاية هذا الذكر خلال انشغالنا بأغراضنا وقيامنا وتعودنا فى الانتقال من فكرة شخصية إلى فكرة شخصية أخرى أو من موضوع دنيوى إلى موضوع دنيوى آخر! ..

إن غالبيتنا لا تزال لليوم - مثلما كان يفعل غالبية أو معظم أجدادنا وآبائنا- قد لا تشعر أو لا تشعر شعورا حقيقيا أو كافيا ، ملتفتا وعاقلا ، لمعنى وخطورة «ولذكر الله أكبر» الساحات والموائد والاختفالات والحلقات مليئة بأذكار ترددها الألسنة بقلوب لاهية .. بيد أن خطورة «ولذكر الله أكبر» ليست خطورة مقولة تقال أو عبارة تردد دون أن تجاوز اللسان إلى القلب هذه الخطورة لا يشعر ولا يمكن أن يشعر بها جمهور الناس فى أى مكان. الآن وقبل الآن. لماذا؟! .. لأن هذه العبارة مما يجوز للسان الاعتياد على

ترديدها والإكثار من ترديدها كترديد البغاوات، بيد أن فهمها واستيعابها يحتاج إلى فطنة ليست قليلة لا تتوفر لمعظم العاديين من الناس!..

الجمهور الآن، وقبل الآن، يردد هذه العبارة: «الله أكبر».. في كل صلاة، قائما وراكعا وساجدا.. ولكن كم منا يعي معنى «الله أكبر» وهو يردد بلسانه في صلواته؟!.. كم منا استطاع ويستطيع أن يخرج من حالة «العادة» وهو يردد العبارة ليتأمل معناها ومغزاها ويلتفت إليها التفاتا حيا عاقلا فاهما واعيا مدركا.. الجمهور الآن يردد هذه العبارة ويتلوها ولكن تلاوة الاعتياد المزمع المتصل - بالعادة! - عبر الأجيال، ممزوجا - للأسف! - بتصور عامة الناس - السطحي! - للإيمان. لا يزال معظم العاديين من الناس، من قديم وإلى اليوم، على تصور بدائي شكلي لفظي للإيمان معظمه خيال ساذج ووهم سطحي يعاف التأمل وينفر من الفهم المتأنى الجاد. هذا التصور البدائي الشكلي اللفظي الساذج هو الذي يحرم أصحابه - قديما وحديثا - من الإحساس العميق الحقيقي بالإيمان، ومن الذكر الحقيقي الذي يجعل الآدمي عبدا ذكورا..

الآدمي الذكور، لا ينقطع بتاتا ما بينه وبين الله، يستحضره سبحانه دوما.. بلسانه وفي قلبه ووجدانه.. في ذكره الصريح وتسبيحه، في صلاته ونسكه، في عمله وراحته، في غدوه ورواحه، في ليله ونهاره، في البكرة والأصيل والعشى، وفي الغدو والآصال، في سره وعلايته، في نجاحه وإخفاقه، في ميسرته وفي عسره، في سعادته وتعاسته، في توفيقه وتنكبه، في انتصاره وفي هزيمته، في قوته وفي ضعفه، في غناه وفقره، في صحته وفي مرضه، في حركته وسكونه، في قيامه وقعوده، في هنائه وفي شقوته..

تذكر الخالق، هو هذا الاستحضر الدائم الحي الذي لا ينقطع - هو الذكر على الدوام مع حضور القلب - أما الذكر باللسان والقلب مشغول ولاه فدون الذكر المقصود وجدواه قليلة.. في الحديث أن الله تعالى لا يقبل الدعاء من قلب لاه.. الذكر هو حضور القلب مع الله تعالى على الدوام.. يحول بين معظم العاديين من الناس وبينه، سطحية الإيمان، والانحصار في اللسان وترديداته الغير فاهمة أو غير الواعية أو غير المستوعبة، والنفور من الفهم المتأنى الجاد، والانشغال بالمصالح والمنافع والأغراض، وعدم تغلغل الإيمان تغلغلا

عميقا.. لا فى الضمائر ولا فى السلوك ولا فى المصالح ولا فى الغايات والأغراض التى تفرسها الحياة على كل آدمى تبعا لأحواله وظروفه !

لقد اطرده تاريخ جماهير البشرية على هذا المنوال منذ عرف لهم تاريخ إلى يومنا هذا. وهذا التقسيم البشرى النفعى غير المفهوم والناجم عن الانشغال بالمصالح والمنافع والأغراض، ليس مقصودا قط من رسالات الأنبياء والرسل ولا ملحوظا قط فى سلوكهم حال حياتهم، ولا مقرا قط فى أصل الدين أو الملة التى جاء بها كل منهم.

وكان هذا فيما بدا لقلّة من الخلق جزءا من ناموس كونى لوحظ فيه ببطء تطور الآدميين، وأن الأديان والملل بدايات لوضع غالبية البشر من ذكور وإناث على أوائل الطريق إلى النضج الذى يستحيل أن يحدث أو يتكامل فى جيل أو أجيال بعينها، لأن كل جيل لا يمتص إلا وسعه بقدر ما تسمح به ظروفه ومقاديره.

يجب على «جمهور الناس» الذى يعانى الآن من انحصاره فى أهوائه ومحاكاة بعضه لبعض فى التفاهات والحماقات والاندفاعات وراء فضول العيش وزهوهِ ورُبنته وسخفه، والامتلاء بالضغائن والأحقاد والعداوات التى جرت الشقاء والتعاسة والهلاك على الجنس البشرى.. يجب على «جمهور الناس» الذى يعانى من هذا الانحصار فى هذا كله، أن يخرج من هذه الهوة ومن تلك المعاناة، وأن يحرك أشواقه إلى مزيد من الاتصال الوثيق بالكون والتعامل معه وعلى نواميسه التى يزداد بها علما ومعرفة، تعاملًا مثمرا دائما مطردا يحتل مكانة فى نفسه وعقله ووجدانه، وفى مصالحه وغاياته، وينسيه فى الوقت نفسه سخافة الانشغال بخارجه الضيق على هذه الأرض.. عندئذ سوف يعرف جمهور البشر معنى ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (٤٥) ﴿الْعنكبوت: ٤٥﴾ ويعرف إلى جواره معنى قول القرآن المجيد: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ (٥٨) ﴿أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ (٥٩) (الواقعة ٥٨-٥٩)

المدرّك حقيقة لمعنى الذكر، ولخطورة «ولذكر الله أكبر».. لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله، ولا يصرفه عن ذلك شاغل من شواغل الدنيا، ولا يلهيه عنه عارض مهما كان إغراؤه.. الذكر الحقيقى هو هذا الاستحضار الدائم فى القلب والخاطر والوجدان والضمير..

هو الخشوع القانت لعظمة رب العالمين المتجلية في كونه هذا العظيم. الاتصال الحقيقي بالله، يؤدي إلى اتصال فاهم واع، مطرد ودائم، بهذا الكون العظيم البديع. لا يحدث هذا بما اعتدناه بالنزوح من القفر إلى العمران، أو من الجذب إلى الخصب، أو من عالم قديم مزدحم مختنق إلى عالم جديد بكر وغنى.. ولا من مغامرات وانتقالات وسياحات الملاحين والصيادين والعمال والشاردين والمغامرين. هذا كله نزوح مادي غير مبصر ولا يستهدف هدفا كبيرا يصرف الآدمي عن التفاهات التي تشغله إلى التواصل بهذا الكون العظيم وآياته المبتوثة في حناياه، وبخالقه سبحانه، اتصالا ملتفتا للمعنى العميق ولخطورة: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت: ٤٥).

لن يحدث هذا التواصل الوثيق المطرد الدائم بهذا الملكوت، إلا بكثرة مؤمنة ذاكرة متذكرة ذكورة واعية عارفة متعلمة ذكية قادرة على الفهم وزيادة الإدراك والتبصر والفطنة والنظام والانتظام، بهذا يقفز عالم الإنسان قفزة هائلة من وضعه الحال السطحي الملىء بالمخاطر والأزمات الناجمة عن خمول الكثرة الغالبة ومحدودية معارفها وأفهامها وقلة حظها من الجديدة والدأب وطول النفس والمثابرة والإصرار والتصميم. تلك الكثرة التي تترك عادة مصائرنا للقلّة التي تدير شئونها العاجلة والآجلة، وتتيح لها فرصة التميز بما لديها من دراية أو ذكاء أو مال أو جرأة أو خبث أو مقدرة أو قوة، بينما تستكين هذه الكثرة الغالبة المشغولة بكسب قوتها وإشباع شهواتها البدائية، وتستسلم للكسل وللخمول، وترضى ميولها المخدورة - أو تكاد - إلى الأحلام الوردية البعيدة التحقق التي هي فرص دائمة في الوقت نفسه وسوق رائجة متاحة للمغامرين وشذاذ الآفاق والانتهازيين.. تهيتها لهم كثرة الناس بغفلتها وطيشها وجمعها بين سذاجة الأطفال وطمعهم وبين اشتهايات البدائيين واندفاعاتهم.. في القرآن المجيد: ﴿وَأَذْكُرُكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ (٢٤) ﴿(الكهف: ٢٤)﴾. ذكر الله بتذكره واستحضاره بربوبيته وعظمته وجلاله وجماله وكماله استحضارا تتضاءل أمامه تفاهات الدنيا.. هذا الاستحضار الذي يسلس إلى التفكير في بديع صنعه سبحانه وأسرار خليقته وعجائب سمواته وأرضه.. به يتصل الذاكر بهذا الكون بالتأمل وبالإطلاع

○○○

رباط الإسلام



لا يتصور الإسلام فيما يقول أستاذنا الجليل محمد عبد الله محمد في كتابه : معالم التقريب.. لا يتصور الإسلام بطبيعة الحال حرية اسمها حرية ترك الإسلام، فإن الإسلام ليس انتماء إلى حزب تنضوى تحته اليوم لتخلعه عنك غدا، أو ناديا تنضم إليه لتتركه إلى غيره، وليس برنامجا سياسيا أو اجتماعيا يلغيه الإنسان أو يرفضه متى أراد بلا معقبات.. فإمكان الإلغاء والرفض والخلع والانسلاخ والانضواء والترك مفروض أو مفترض أو متصور في الانتماء إلى الأحزاب أو الأندية أو البرامج، ولكن الإسلام أخوة في الله أبدية في الدنيا والآخرة، ونوع وولاء لله، وبيعة له سبحانه وتعالى.. بيعة أبدية في الدنيا والآخرة..

الإسلام نوع حياة لها وجهها الفردي والعائلي والجماعي.. الاستمرار فيها عنصر أساسى.. إذ يتسلمها الأبناء من الآباء، ليتسلمها منهم أبنائهم وهكذا.. فحرية البقاء في الإسلام أو تركه كأنه فندق أو خان تدخله متى شئت وتخرج منه حينما تشاء لتعود كيف تشاء.. هذه الحرية في الدخول والخروج، والمناورة والمداورة، سخافة لا توجد إلا إذا كف المسلم وتوقف عن اتخاذ الإسلام ديناً ملزماً لأهله، لذلك فإن الارتداد عنه إذا وقع - والعياذ بالله - ليس ممارسة لحرية، وإنما سقوط وخيانة!

الإسلام لا يحترم الرعونة ولا الحماقة، ولا يتصور أن يكون المسلم إلا عاقلاً.. فلا يتصور حرية الطيش والهوى.. ونحن نخلط أحياناً بين الحرية والحماقة في مبادئنا ومبادئنا.. وأحياناً في يأسنا وفشلنا.. ففي الأولى نتصور - واهمين! - أن الحرية تنسى وقارها وخطورتها لتحتضن وتحمى نزعات ونزوات وأهواء المآرب والمصالح أو فراغ الرئوس أو مبتدعات اللبس والزينة والتسلية.. بينما هذه وتلك أشياء أو شطحات لا يحميها كونها من حرية الإنسان الحديث بقدر ما يروج لها إقبال الناس عليها ومشاركة الكثيرين في سخطها، وأن منعها لا يساوى المضايقة التي تتخلف عن إجراءات المنع أو القمع!.

هذه النزعات أو الحماقات أو الأهواء يخدمها التهور وأحيانا الجنون، فنقدم عالمين عامدين على تصرفات نعلم أنها مخالفة للعقل.. لأننا نظن - واهمين! - أننا أحرار في استعمال العقل وعدم استعماله، وأن هناك مواقف لا تصلح فيها الحكمة وضبط النفس أو أغراض لا تنفع فيها المبادئ، وأنه يباح لذلك أن نواجهها بالجنون والاندفاع.. لا من باب التظاهر، وإنما من باب الاقتناع - ربما! - بجدوى الجنون وثمار المجانين.. وحين نمر بهذه الحال الغريبة - نعتبر الذين يصرون على التعقل والاعتدال خصوما لنا وللحرية.. لأنهم يقاومون مداورتنا أو هوسنا الذي نريد أن تكون له الكلمة العليا، ويشيعون حوله ترددا وشكوكا!.

والناس حين تخلع المبادئ أو ترفع راية الهوس وتولى هذا أو ذاك في حياتها هذه المكانة، تغير الأسماء المألوفة لهذه النزعات وتضفي عليها أسماء أخرى - مضللة! - ذات بريق مداراة لسوءها!.. ويساعدهم ذلك الخداع للنفس أو للغير على الاستمرار في تلك الحالة التي اعتنقوها، وعلى نسيان كيف دخلوها، وربما شعروا بالزهو والذكاء لوجودهم فيها.. وربما اجتذب ذلك إليهم غيرهم من الشواذ الذين يسعون أصلا وراء فرص للتعبير عن آفاتهم وهم آمنون من الخوف والعار!.

والذين يختارون الهوس والجنون لا يعلمون إلى أين يؤديان بهم ولا أين يقفان.. فليس للهوس والجنون «حساب» يمكن معرفته مقدما أو ضبطه، ومتى سيطرا فلن يتخليا عن السيطرة تلقائيا عندما تدعو المصلحة.. ثم إن الناس تعتاد الحمق بالممارسة، ويتعذر عليهم أن يقلعوا عنه على رغم فداحة ما يصيبهم من جرائه!!.

وإقدامنا على اختيار الجنون ورفض العقل دليل نقص هائل في حريتنا الداخلية وعجز تام عن ضبط رغباتنا، وانحراف بوصلتنا عن رباط الإسلام والأديان بعامة، وابتعاد مبعد عن الولاء لله عز وجل!.

عناية الإسلام بضبط السلوك الإنساني



مع عناية الإسلام بضبط السلوك الإنساني، لم يعن بجانب ويهمل سواه.. واجه الواقع في توازن لافت قوامه سجية الوسطية.. لم يتجاهل أن الإنسان روح وجسد، وأن لكل منهما وجوده ومطالبه.. لم يتجاهل الإسلام الجانب الجسدي أو الحسي في الآدمي، ولم ينكر الرغبات، ولم يلغها، وإنما دعا إلى ضبطها.. ووافق في تناسق وتوازن رائع بين المتقابلات.. بين الروح والجسد.. بين الفرد والمجتمع.. أشبع النفس البشرية وأعطاها حاجتها الروحية والمادية. عقيدة الإسلام تركز على المادة والروح معا.. للمادية حقائقها، وللروح السمو والقيادة وضبط الرغبات المادية.. لا بأس ولا إنكار ولا مصادرة على الرغبات والمطالب، ولكنها محاطة بسياج من الضوابط والأخلاق بقيادة العقل والروح حتى لا يتحول الآدمي عبدا للشهوات والحسيات فيفقد معنى وجوده.. هذا الآدمي الذي يلتقى فيه عالم الشهادة بعالم الغيب، فرد في مجتمع.. للمجتمع حقوقه وللجماعة أولويتها وريادتها، ولكن الفرد فرد بذاته.. له ذاتيته وعقله وفهمه ووعيه ومسئول عما يختار وعما يفعل.. ليس إمعة يندفع بلا وعى مع التيار أو يساير الركب بلا فهم.. الإنسان أمام الله هو المخلوق المسئول.. يقول عنه رسول القرآن ﷺ: «لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم».

المسلم السوى، مدين للإسلام بوجوده الروحي وبوجوده المادي، ومدين له أيضا فيما حفظه له من توازن بين وجوده الروحي ووجوده المادي، فمن وسطية الإسلام أنه وهو يفتح للمسلم أبواب الحياة الروحية حرم عليه أن يوصد بيديه أبواب الحياة الجسدية، كما نهاه أن يترك العمل لينقطع عن الدنيا وينسى نصيبه منها.. في القرآن المجيد: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٧٧) (القصص: ٧٧). ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا

مَحَلُّهُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ، فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرًا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴿١٩٦﴾ (البقرة ١٩٦) والقرآن الذي جعل الفدية مقابل الرخصة في الصوم والحج ، والذي قبل الكفارة في الظهار والحلف واللعان والصيد في الحرم - تيسيرا على الناس (المائدة ٨٩-٩٥) ، (الأحزاب ٤) ، (المجادلة ٢-٤) ، (النور ٣-٢٥) إن القرآن الذي وضع المبادئ ورسم الحدود ، هو هو الذي قال ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ ﴿١٨٥﴾ (البقرة ١٨٥) ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَتْهَا سَبِيلًا﴾ ﴿٧﴾ (الطلاق ٧) ويقول صفي السماء ، الرحمة المهداة «إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا». أراد الله تعالى بوسطية الإسلام.. الدين العالمي ، أن يهدي الناس إلى خير ما تصلح به حياتهم ، أن يرفع عنهم الحرج .. ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ﴿٧٨﴾ (الحج ٧٨) ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ﴾ ﴿٦﴾ (المائدة: ٦) .. بهذه الوسطية والاعتدال ، اتسعت دوحة الإسلام لتستخرج أفضل ما لدى القادرين والأصحاء والأقوياء والأغنياء وذوى العزم من استقامة وصلاح وعبادة وعطاء للإسلام وللمسلمين وللحياة ، واتسعت هذه الدوحة أيضا لتفسح للمرضى والطاعنين والضعفاء وغير القادرين والفقراء ، ولتسد عجزهم أو قصورهم أو ضعفهم أو مرضهم برخص أباحها بل وأحبها الله الذى أعلمهم نبيه المصطفى أنه تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه دون أن ينسلخ المسلم المرخص له عن واحة الدين أو ينغلق أمامه باب الرجاء فى اتساع رحمة السماء التى تجبر عجز العاجز ومرض المريض وشيخوخة الطاعن فى السن وتفسح لكل من صدق إيمانه وصح إخلاصه.. أليس واسع الرحمة - جل شأنه يقول فى قرآنه المجيد: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ ﴿٥﴾ (البينة: ٥).

هذه الواحة الإسلامية ، لهذا الدين العالى ، لا تصد ولا تغلق أبوابها أمام كل راغب فى الهداية حتى وإن طالت لجأته واشتد عناده .. بل إنها تحمى المستجير الكافر حتى يسمع كلام الله وتبلغه مأمنه .. ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتْلُفْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة ٦) .. كفرهم وإشراكهم دال على جهلهم وانعدام علمهم ، فإذا علموا كان العلم كفيلا بجذبهم إلى واحة الإيمان .. لذلك لا ييأس الإسلام قط من الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولا تتوقف دعوته قط عن «المجادلة بالتي هي أحسن» .. ولا تنسلخ بقاتا من سعيها الدائم الرقيق إلى البيان والإقناع وهداية العقل والفؤاد والوجدان والضمير إلى الله الواحد رب العالمين .. لم ينتشر الإسلام هذا الانتشار الفسيح الذى عم الدنيا بعنف ولا بغلو ولا بقسر ولا بإكراه ولا بإجبار ولا بإرغام ، وإنما انتشر الإسلام بوسطيته ، وبالبيان والإقناع وبالرضا والتصديق والإيمان ، وبهذه الروح الحية التى تكفل أمان الجميع فى المجتمع الإسلامى مستظلين بمظلة وارفة شاملة الحياة وجميع الأحياء إلى يوم الدين .



بناء ورعاية الفرد فى الإسلام



يستطيع المتأمل فى حكمة وفلسفة وسياسة ومبادئ وأحكام الإسلام، أن يرصد أنه قد جعل صلاح «الفرد» الإنسانى هدفه وغايته، وأنه إذ أراد صلاح الحياة والأحياء، فإنه وجه عنايته للفرد فى تكوينه وتنشئته ورعايته وكفالاته، متتبعا إياه فى كل مرحلة من مراحل حياته منذ واقعة الميلاد حتى مفارقة الحياة الدنيا بالوفاة.. لا تستقيم أحوال الحياة إلا باستقامة وصلاح الأحياء.. الحى قبلة الدين الحنيف، راعاه حتى قبل أن يكون «نطفة»، وتتبعه نطفة ثم علقه ثم مضغة، بأن اعتنى بالأسرة التى سوف يتوالد منها، فجعل الزواج سكنا ومودة ورحمة، واعتنى بالأم الصالحة التى تلده وترضعه وتحضنه وترعاه، ممن قال القرآن المجيد فيهن: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَنَاطٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ (٣٤) (النساء ٣٤).. اعتنى الإسلام بسلامة محيط تكوين الأجنة، فلم يدع علاقة الوالدين دون إرشاد وتوجيه: ﴿وَسَعَلُونَكُمْ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْرِضُوا لِّلنِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (٢٢٢) (البقرة ٢٢٢).. وكما اعتنى الإسلام بتكوين الجنين، اعتنى بحسن اختيار «اسم» المولود الذى سوف يواجه به الدنيا.. حتى كان النبى ﷺ يغير الاسم القبيح، ويوصى المسلمين فيقول لهم: «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فحسنوا أسماءكم»..

«من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه».. لا يتركه الإسلام حتى فى رضاعه وفطامه ليوفر له الأساس الصالح من بدايات تكوينه بعد ميلاده، فيقول القرآن المجيد: ﴿وَمَمْلُوءَةً وَفَصْلُهَا ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ (١٥) (الأحقاف ١٥).. يوصى الوالدات بإتمام هذا الرضاع وعدم تعجيل الفطام، فيقول العزيز الرحمن: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّيَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا

تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا نَفْسَهَا لَا تَضَارُّ وَالِدَةَ يُؤَلِّدُهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ، يُولَدُ لَهُ، وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَزِعِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ بِالْمَعْرُوفِ ﴿١٣٣﴾ (البقرة ٢٣٣).. وفي سورة لقمان: ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ (١٤) (لقمان ١٤)..

هذه الرعاية ليست تنفعا متفرقة تأتي في الإسلام عفوا، وإنما هي أصداء نظر شامل ومنظومة متكاملة.. يتوالد الأبناء في كنف أمهات وآباء، يتلقون منهم الحنان والبر والعطف والرحمة، ويقابلون برهم بالاحترام والإحسان وخفض الجناح لهم.. أبناء اليوم هم آباء ثم أجداد الغد، ومن هؤلاء وأولاء أنشودة الحياة التي يتغياها الأبرار ويدعون ربهم أن يمن بها عليهم: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ (٧٤) (الفرقان ٧٤).. قرة الأعين معنى عريض يعبر عن تكوين نابع من إحسان الأدب والتربية، وفيض الرحمة والحنان.. في الحديث: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو الله».. صلاح الأولاد ليس ضربة حظ وإنما هي صناعة وتربية ومجاهدة.. في الحديث «أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم».. هذا التأديب شامل للأدب الخلقي وللبناء النفسي والبدني على السواء.. ففي الحديث الشريف: «حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمي».. «علموا أولادكم السباحة والرمية وركوب الخيل».. مع هذه التربية تتواكب التربية الأخلاقية، فيقول رسول القرآن ﷺ: «ما نحل والد ولدا من نحل، أفضل من أدب حسن».. الولد ينشأ ويتكون على ما تلقاه وتعلمه وتأديب به من والديه.. أو كما يقال في الحكم والأوابد والأمثال: «كما تدين تدان»!!.. كان من دعائه ووصاياه ﷺ: «رحم الله والدا أعان ولده على بره».. «أعينوا أولادكم على البر»، الإعانة على البر عطاء إيجابى مانح، يعين المتلقى على إحسان التفكير وإحسان الخلق والفعل والسلوك!..

دخل الأقرع بن حابس على النبي ﷺ، فوجده يقبل حفيده الحسن بن علي، فقال الأقرع مندهشا: «يا نبي الله.. لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم!».. فيقول له الرحمة المهداة: «ولكننا والله نقبل أولادنا.. من لا يرحم لا يُرحم».

الوصايا الربانية ببر الوالدين والمعرفة بفضلهما والإحسان إليهما متكررة في القرآن المجيد ببيانه الرائع الجاذب.. لا تكاد الآيات في سورة لقمان تورد من وصايا لقمان لابنه تحذيره من الشرك بالله، وتعقب على لسانه وهو يعظه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان ١٣)، حتى تقفى بالوصية الإلهية بالوالدين، ولتقرن واجب الشكر إليهما بشكر الله عز وجل، فتورد الآيات على لسان رب العزة: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ (لقمان ١٤).. هذه المزاوجة بين شكر الله سبحانه وتعالى والشكر إلى الوالدين، مزاوجة عميقة الدلالة تؤكد على أن واجب الشكر إليهما معطوف على شكر الخالق جل شأنه.. تستحضر في إلماح لا يفوت أنه سبحانه وتعالى قد جعلهما جسر وجود من أرادت قدرة الله خلقه من الذرية.. فكان الشكر إليهما معطوفا بهذا البيان اللافت على شكر الخالق عز وجل.. هذا العرفان - بهذا العطف والإقران - متكرر البيان في السنة النبوية الشريفة التي تكررت فيها الوصايا بالوالدين منبهة إلى صلة رضاهما أو سخطهما برضا الحق تبارك وتعالى وسخطه.. ففي الحديث «رضا الرب في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما».. عندما جاءه ﷺ رجل يسأله عن حق الوالدين أجابه: «هما جنتك ونارك».. منوها إلى أن الجنة في رضاهما عنه، والنار جزاء سخطهما - إذا سخطا - عليه.. لذلك كان عقوقهما تاليا مباشرة للإشراك بالله عز وجل.. يقول ﷺ: «ألا أنبيئك بأكبر الكبائر؟: الإشراك بالله وعقوق الوالدين».. «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه (قالها عليه السلام أولا)، ومدمن الخمر، والمنان».. ذهب إليه ﷺ سائل يتساءل: هل بقي شيء يبر به والديه بعد موتهما؟ فقال ﷺ: «نعم. خصال أربع: الدعاء لهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم».. يروى عنه ﷺ أنه كان يقول: «من سره أن يمد الله له في عمره ويزاد له في رزقه فليبر والديه وليصل رحمه».

لم تدع آيات سورة لقمان وصاياها الربانية بالوالدين، قبل أن تورد وصية بالغة العمق والقوة والدلالة على كمال وتمام الرعاية.. فلا تعفى منها ولا تسقط واجب المعروف للوالدين جنوح أحدهما أو كليهما حتى وإن بلغ حد الإشراك والحض عليه.. فى بيان جلّى قاطع تقول الآية الحكيمة: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُكُمْ فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ﴾ (لقمان ١٥) .. أجل لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، ومع ذلك حرص القرآن الكريم على أن يعطف بعدم طاعة الوالدين فى الإشراك بالله، بتوصية رحيمة وأمرة بأن ذلك لا يعفى من وجوب مصاحبتهم فى الدنيا معروفا.. لاشيء فى الإسلام يبيح عقوق الوالدين.. روى عن نبي البر ﷺ أنه قال: «ولاتعق والديك، وإن أمارك أن تخرج من أهلك ومالك».. تنهى السنة النبوية الشريفة عن كل ما قد يؤدى ولو بطريق غير مباشر إلى الإساءة للوالدين، فتوصى بعفة اللسان وكفه عن سب الآخرين الذى يفتح أبواب تبادل السباب ولعن الوالدين، وهو من أكبر الكبائر فيما يلفت إليه الحديث الشريف.. احترام مقام الوالدين، والحرص على برهما ورضائهما، ملمح إسلامى فياض المعانى غامر البر والرحمة.. حين ذهب أحد المسلمين يبشر رسول القرآن ﷺ بأنه جاءه يبايع على الهجرة، وعرف منه أنه قد ترك والديه يبيكان على فراقه إياهما، جعل عليه السلام يقول له فيما رواه ابن عمر رضى الله عنهما: «ارجع فأضحكما كما أبكيتهما».

هذه الرعاية الشاملة للإنسان فى كل أطوار حياته لا تغادره إذا أُلّت به نازلة أو أحاق به مكروه أو أصابه العجز أو الضعف أو الوهن، أو تداركته الشيخوخة.. جبر ورعاية الإسلام للضعف والضعفاء ملمح رئيسى يكمل صورة التكافل فى المجتمع.. هذا التكافل لا يعطى ظهره ولا يترك إنساناً فى موقف ضعف.. مريضاً أو محتاجاً.. شيخاً أو عاجزاً.. يتيماً أو مسكيناً أو أسيراً.. لا يترك الإسلام أحداً من هؤلاء إلا مد له يد الرعاية والكفالة، وشمله بعنايته وبره.. يجمع هذه المعانى حديث رسول القرآن ﷺ: «الضعيف أمير الركب».. ليس البر فى الشكليات والمظهريات وإنما جوهره التراحم الذى اتخذ الإسلام كنفا راعيا

للمجتمع.. في الآية الكريمة: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ (البقرة ١٧٧).. وفي سورة الإسراء: ﴿وَأَتَى ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ٢٦﴾ (الإسراء ٢٦).. يقول القرآن المجيد في وصف المؤمنين الأبرار: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِمْ مُسْكِينَ وَيَتِيمًا وَاسِيرًا ٨﴾ (الإنسان ٨).. عين الإسلام على اليتيم حبا ورعاية وكفالة وحماية.. أليس سبحانه وتعالى القائل لنبيه المصطفى عليه السلام: ﴿أَلَمْ يَحْذَرَ الْيَتِيمَ فَاَتَاوْهُ ٦﴾ (الضحى ٦).. يوصيه - سبحانه وتعالى - في خواتيم ذات السورة بقوله له: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ١٠﴾ (الضحى ٩، ١٠).. رعاية اليتيم نهج إسلامي منبعه وصايا القرآن المجيد والسنة النبوية الشريفة.. من وصايا القرآن: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْيَتِيمِ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا عَنْهُمُ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتَكُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٢٠﴾ (البقرة ٢٢٠).

في حديث رسول القرآن ﷺ: «من عال ثلاثة من الأيتام، كان كمن قام ليلة وصام نهاره، وكنت أنا وهو في الجنة».. يقول عز من قائل في كتابه الحكيم: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ الدِّينَ وَالْآقْرِبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ٢١٥﴾ (البقرة ٢١٥).. وفي سورة النساء: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ٣٦﴾ (النساء ٣٦).. حض القرآن المجيد على رعاية أموال اليتامي والتي هي أحسن فقال: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعِمْرَانُ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ

تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ (الأنعام ١٥٢) .. ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّبِيبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ (النساء ٢)، وتوعد سبحانه وتعالى المخالفين الطامعين في أموالهم بأشد العذاب، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء ١٠) .. أما ازدراء اليتيم فهو آية من آيات التكذيب بالدين، يقول تبارك وتعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّبْرِ ﴿١﴾ فذلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يُخْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ (الماعون ١-٣).

من جمال وكمال وثناء المنظومة الإسلامية في الوفاء بحق الوالدين، أنها لم تكتف بالوصايا العامة والمتعددة بالإحسان إليهما، وإنما تبقى عين الإسلام منصرفة إلى حقائق الزمن ومرجعة عليهما إذا ما فارقا الشباب وأدركهما الوهن والشيخوخة.. فنرى القرآن المجيد في واحدة من جميل آياته في رعاية الوالدين، يشير إلى مَرِّ الزمن عليهما، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٢٢) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (٢٤) (الإسراء ٢٣، ٢٤) .. هذه التفقية بعد عبادة الله بالإحسان بالوالدين قد لفتت إلى جوار مقتضيات الوفاء بعامة - إلى حق الشيخوخة أو الكبر في أن تلقى المزيد من البرِّ والرعاية والعناية، دالة بذلك كله على أن التكافل الاجتماعي ملمح أساسي في المنظومة الإسلامية، في كنفها الفرد مرعى ومكفول نطفة وجنينًا، مولودا ورضيعًا، مقطوما وطفلا، صبيًا وشابًا، زوجًا وزوجة، والدا ووالدة، ولا غرو.. فالإنسان المسلم هو رسالة الإسلام وهديته إلى الدنيا إلى ما شاء الله.

الإيثار وإنكار الذات



ما من آدمى، إلا ويشعر بذاته شعورا لا يفارقه، ولا يغيب عنه لحظة إلا ليعاوده.. والتفات آدمى لذاته، الملازم لشعوره بأنه حي، هو الالتفات للحياة.. فالصلة بين حياة الذات وبين الحياة من حولها، صلة مقدورة..

ويبدو أن المبالغة في النظر إلى «الذات»، شيء فطرى فى آدمى، يرجع إلى أن شعوره ابتداءً وانتهاءً هو شعوره بذاته ونفسه، وأنه أساس لشعوره بكل ما عداه.. ومعظم الناس يستحسن ذاته وينحاز لها، والآفة تأتي من الانحصار فيها وعدم الالتفات إلى غيرها. يبقى التوازن النفسى على سوائه، ما بقى هذا الاستحسان للنفس فى دائرة المعقول، فإن جاوزه إلى الإعجاب والتمنيى بها اختل هذا التوازن، فإذا فارقه تماما كاد فقدان هذا الإحساس أن يكون لحظة انتحار!

والآدمى يحب الإطراء لأنه يحب ذاته ولا يشبع من مرضاة نفسه لأنها وقود حياته.. وليس كل الناس سواء فى كبح جماح هذه الرغبة وإبعادها عن الغلو والمبالغة، ومحاولة الالتفات المعقول لمرضاة الآخرين واحترام ما تواضعوا عليه من العدل والبر فى وسطهم وظروفهم. أما التجرد التام من مرضاة «الذات» فأمنية بعيدة المنال!

والحياة يلزمها سعى للآدمى، لا يكف فيه عن محاولة الحصول على المزيد ومزيد من الرضا عن النفس، وقد يكون من باب تحسين حاله ومستواه وظروفه. والواقع أن هذا السعى الدائب «قُطِب» تدور حوله الحياة ومعها تاريخ البشر، وكثيرا أو أحيانا ما يصاحب هذا السعى تضخم للذات يجاوز المعقول أو لا يناسب ملكاتها واستعداداتها، وكثيرا ما ينحصر به انحصارا شديدا فى «أنانيتها».. وقد يتضخم هذا الشعور ويتفاقم ويتزايد على نحو سرطانى لا يرى فيه آدمى إلا ذاته!

وقد ينجرف هذا التضخم إلى عبادة الذات والإمعان فى التشيع لها، وقد يتشدد هؤلاء بالمساواة، ولكنهم - فى الواقع - فى هلع من التشابه والتماثل.. سيما فيما ينال أو يؤثر بالنقص على «المكانة» العليا التى يعتقدونها لأنفسهم أو يتوهمونها أو ينشدونها.. وأمثال

هؤلاء فى صراع لا ينّى ولا يهدأ للطفو فوق بحر العاديين غير المعروفين من الناس.. يسعى كل منهم ليقرئ الدنيا اسمه ويحفره إن استطاع على جدار الزمن!.

هذه الطبيعة الآدمية كانت وراء سعى الأديان لرفع قيم الإيثار والتكافل والعناية بالغير والوفاء بحقوق الناس.. ويطالع القارئ فى القرآن الحكيم قول رب العزة : ﴿وَالَّذِينَ بَوَّءُوا الدَّارَ وَالْآيْمَانَ مِن قَبْلِهِ يُجْزَوْنَ مَن هَاجَرُوا إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقْ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٩) (الحشر).. ويطالعون فى سيرة وحديث رسول القرآن ﷺ : «إن الأشعريين كانوا إذا أرملوا فى غزو (طال بهم) أو قل فى أيديهم الطعام، جمعوا ما عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم بالسوية، فهم منى وأنا منهم»... ويقرءون فى الحديث : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

وفد تختلط رغبات «الأنا» فى تحقيق ذاتها، أو تلتحق - صدقا أو تبريرا - بالغايات العامة، وقد يكون وراء هذه النزعة، رغبة غريزية فى التصدر والقيادة والأهمية، مقرونة بقدر كثير أو قليل من الحرص الغريزى على إشباع الرغبة الذاتية فى الواجهة بأقل ما يمكن من الجهد والمشقة والمخاطر، وبأكثر ما يمكن ضمانه من الأمن والدعة والعافية!.

ومهما يكن من أمر هذه النزعة التى قد يخالطها تضخم الذات، أن اعتيادها يحيى لدى كثير من الناس إحساسا كاذبا بالعلم والخبرة والجدارة والتفوق! ويخلق لديهم شعورا طفوليا صبيانيا بأن تغيير أوضاع الحياة وتحويلها وتشكيلها سهل ويسير، وأن كلا منهم بمقدوره أن يكون «طبيب الملايين».. الذين يترقبون التشخيص والعلاج والإصلاح على يديه!.

وفكرة «المكانة» مطلب لدى الناس قديم.. ويكاد يكون فى زمننا مطلب الجميع.. يقتتل عليه الكل، ويرهقون أنفسهم وأهلهم وذويعهم وأشياهم من أجله.. ولا تعدو «المساواة» التى يتشددون بها أن تكون عندهم مجرد كلمة تقال للزخرفة، «سرعان ما ينفلت ملقيها منها ومن تبعاتها، ويسعى للتصدر وطلب الرفعة والمكانة وعلو القدر والمنزلة والفوز بالزعامة والاستئثار بالقيادة.

لذلك شدنى ولا يزال، فى سيرة الصحابى الجليل أبى عبيدة بن الجراح، أمين الأمة وأحد العشرة المبشرين بالجنة، مواقف عديدة فى سيرته توارت فيها ذاته تواريا تاما، حتى أطلقت عليه فى كتاب أكتبه عنه : «عبقريّة إنكار الذات»..

فى سقيفة بنى ساعدة حيث اجتمعت الأنصار، يوم قبض المصطفى عليه الصلاة والسلام، أتته البيعة بالخلافة شاخصة إليه بغير سعى منه ولا طلب، حين ناداه الفاروق عمر بن الخطاب : «امدد يدك أبايعك».. ولكنه لم يمد يده، وإنما عاتبه مغاضبا كيف يبايعه ويتجاوز أبا بكر الصديق وثانى اثنين؟! فلما لحق بهما أبو بكر، وأراد أن يبائع أحدهما : الفاروق أو أبا عبيدة، أبيا عليه معًا، وصم كلاهما على مبايعته هو بالخلافة، وتابعهما الأنصار والمهاجرة .

لم يكن هذا الإنكار للذات زهدا فى هين من الأمور، وإنما فى خلافة المسلمين.. بينما طبائع الناس تسعى للصدارة إلى حد الاقتتال.. استحضر ما فعله أبو عبيدة يوم السقيفة، ما صنعه فى غزوة ذات السلاسل، يوم أرسله النبى ﷺ على رأس مائتين من كبار الصحابة، مددا إلى عمرو بن العاص الذى تمسك بأن تكون القيادة له، فغضب كبار الصحابة لمنزلة وسابقة أبى عبيدة، ولكنه أبى الخلاف وتذكر ما وصاه به النبى عليه السلام، فبادر إلى عمرو يقول له : «وانك والله إن عصيتنى أطعتك» !.

وتمر السنون، وفى ميدان معركة اليرموك، يأتى كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة، يخبره بوفاة الصديق رضى الله عنهما، وبالبيعة له، ويأمره بعزل خالد بن الوليد وتولى القيادة مكانه، ولكن أبا عبيدة يطوى الكتاب ولا يحدث به أحدا، حتى أتم القائد خالد نصره العظيم.. هنالك استفسره خالد حين علم بالنبا : «يرحمك الله أبا عبيدة. ما منعك من أن تخبرنى حين جاءك الكتاب»؟! فما زاد عبقريّة إنكار الذات على أن قال له : «كرهت أن أكسر عليك حربك. ما سلطان الدنيا نريد.. كلنا فى الله إخوة».

كان خالد بن الوليد فى الأوج السامق يوم عاد الفاروق وعزله عزلا تاما، وأمر باقتسام ماله، فخضع للأمر ينفذه علانية بالمسجد بلال بن رباح ويقتسم حتى نعليه، فلم يخلع القائد العظيم لباس الطاعة، واستمر يؤدى واجبه جنديا عاديا فى صفوف المسلمين،

ولم يساير من واساه بأنها الفتنة، فقال له فى إنكار هائل للذات: «أما وابن الخطاب حى فلا».. قبل هؤلاء العظام، كان السائد فى الجاهلية منطق عمرو بن كلثوم: إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخر له الجبابر ساجدين، ونشرب إن وردنا الماء صفوا، ويشرب غيرنا كدرا وطينا. فكيف انتقل الإسلام بهؤلاء هذه النقلة الكبيرة، وكيف استطاع أبو عبيدة بن الجراح وأترابه، أن ينكروا ذواتهم هذا الإنكار فى باحة الإسلام؟! كيف لم يهتمهم أن يقرءوا أسماءهم، أو أن يمنحهم الناس الصيت والمجد؟! كيف ذابت ذواتهم حتى صار الواحد للكل، والكل فى واحد، حتى قال أبو عبيدة وهو أمير الأمراء بالشام: «إنى مسلم من قریش.. وما منكم من أحد، أحمر ولا أسود يفضلنى بتقوى، إلا وددت أن أكون فى إهابه».

إن الإيمان الذى عمّر قلوب هؤلاء العظماء، هو مفتاح هذه الصور الرائعة لإنكار الذات.. أعانهم على تمثّل هذه المعانى والتخلّق بها، أن كل العبادات والمعاملات والأحكام الإسلامية اهتمت بالجواهر وشجبت ونفرت من كل صور الادعاء والرياء والتظاهر والاستعراض.

المسلم السوى لا يفتنه شىء من زخارف الدنيا، ولا يعنيه أن يمنحه الناس صيتا أو مجدا، أو حتى أن يعرفوا وجوده، لأن الناس فانون، والله تعالى وحده حى لا يموت. المسلم السوى يتوحد مع الكل.. يعى أن نفحة الله تعالى فيه هى للكل ومن أجل الكل، لا تهمة صدارة ولا قيادة ولا وجاهة ولا أبهة.. يدرك أن الصورة الإسلامية الحقيقية إنما توجد مع وجود المعنى الجامع وهو الله عز وجل، وبالولاء المطلق لله عز وجل، وفيه وبه لا تنشذ النفس سوى رضائه سبحانه الذى تتضاءل وتتلاشى أمامه مغريات المكانة والتصدر والوجاهة!!.

لقد علم هؤلاء العظماء من السابقين الأولين من الإسلام، أن القيمة هى فى الإخلاص وصدق التوجه ونبل الغاية وطلب الحق لا طلب السمعة.. لذلك فهموا أن «المكانة» فى الدنيا وهم وسراب، وأن المسلم السوى لا يفتنه شىء من ذلك، لأنه موقن - بما زرعه الإسلام فيه- أن الناس ينسون ويموتون، وأن الله تعالى وحده حى لا يموت.

المسلم السوى يفهم أن المكانة فى الدنيا لا تأتى بالضرورة لمن يطلبها ويحرص على طلبها، وأنها قد تأتى ساعية بنفسها إلى من لا يطلبها بل وإلى من قد يعزف عنها أو يزهد فيها... والزهد فى المكانة والعزوف عن الإلحاح فى طلبها يحتاج إلى مجاهدة لأنه مضاد لطبيعة آدمى.. وهذه المجاهدة أيسر بحكم الطبيعة والظروف لدى الحكماء والمفكرين والعلماء، منها لدى المنشغلين بلجج الحياة أو المشاركين فى إدارة شئون الناس.. فتنافس هؤلاء، وتباريهم، ودعاوى الاهتمام بالعمل العام، قد يجرفهم - وربما يدارون به - شهوة التصدر والقيادة، بدعوى أن كلا منهم أحكم الناس وأخلص الناس وأقدر الناس!!.



كيف حقق الإسلام هذه الصورة الرائعة للإيثار !



أشرت في المقال السابق عن الإيثار وإنكار الذات ، إشارة عابرة إلى ما حققه الإسلام من نقلة كبيرة من حفائر النعرات والغرور والخيلاء والتفاخر التي سادت الجاهلية ، إلى باحة الإيثار وإنكار الذات . في هذه الإشارة العابرة ذكرت أن الإسلام ذاته كان هو مفتاح هذه الصورة الرائعة للإيثار وإنكار الذات ، وأن ماهياً السبيل لهذه السجايا المانحة ، أن كل العبادات والمعاملات والأحكام الإسلامية اهتمت بالجواهر وشجبت ونفرت من كل صور التظاهر والادعاء والرياء والاستعراض ، فبالإيمان تتوارى ذات المؤمن أمام الله ، ويدرك أن الصورة الإسلامية الحقيقية تأتي من الولاء لله والصدق الحقيقي في اتباع أوامره ومنها الإيثار ، والابتعاد عن نواهيه ، ومنها الأنانية والكذب والرياء ..

الإيمان هو الإيمان الحقيقي بالله ، بين العبد وبين نفسه ، بغير تظاهر ولا ادعاء ، فماذا يغنى التظاهر عن حقيقة ما يعلمه الله الذي يعلم ما بالصدور ويعلم السر وما أخفى؟! والعبادات تتجه صدقاً وإخلاصاً إلى الله ، كذلك الأعمال والصدقات .. لا يطلب بها المؤمن إلا وجهه الله ، في صدق وإخلاص ، العبرة فيها باستقامة القلب والنية .. ففي حديث النبي ﷺ « لا يستقيم إيمان عبد ، حتى يستقيم قلبه » . ومن استقام قلبه اتجه بقلب منيب إلى ربه ، تذوب تجاهه ذاته ، ولا يعنيه أن يطريه الناس ما دامت وجهته إلى الخالق الباري جل شأنه ..

هذا الصدق والإخلاص قوام كل عمل . خذ الشهادة في سبيل الله مثلاً .. القيمة الحقيقية في غايتها وفي صدق طلبها .. لا بالاستعراض أو التظاهر الكاذب .. لذلك كان ثوابها عن الصدق فيها . وقد روى عن الصادق المصدوق ﷺ : « من سأل الله الشهادة بصدق ، بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه » .. فالمناط هو الإخلاص والصدق في طلب الشهادة ، ترجح به كفة الصادق في طلبها من نالها - ظاهراً - بغير صدق . والله سبحانه

وتعالى طيب لا يقبل إلا الطيب الذى يتغيا وجه الله تعالى، وفى الحديث الشريف: «إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً».. ويقول عز وجل فى كتابه الحكيم: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (١٠) (فاطر ١٠)، فلا قيمة ولا عبرة بالتشدد بكلام لا يقتزن بعمل، فالعمل الطيب هو أساس وجوهر الكلام الطيب، ولا وزن من ثم لكلام يعجب فى الظاهر ولا يواكبه وقد يختلف معه العمل.. وفى القرآن المجيد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) (الصف ٢، ٣) ..

العبرة دائما فى الصدق.. فى صدق التوجه إلى الله وصدق الاستعانة به سبحانه.. فى الحديث: «احفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله».

الإخلاص هو جوهر الإيمان والعمل جميعا.. فلا معنى ولا قيمة لادعاء أو استعراض يغلفه ويدفعه الرياء. ففى الحديث «أخلص دينك يكفك القليل من العمل». فالعمل لا يقع موقعه من العبادة الحقة إلا إذا كان صادقا خالسا لوجه الله تعالى، بريئا من شوائب النفاق والرياء.. يقول عز وجل: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ (٥) (البينة ٥).

سئل الرسول ﷺ: «ما الإيمان؟ قال: «الإخلاص» وسئل عليه السلام يوما: «يا رسول الله، إنا نعطى التماس الذكر فهل لنا من أجر؟ قال: إن الله تعالى لا يقبل إلا من أخلص له».. ثم تلا من قول ربه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (٢) (الزمر ٢، ٣) ..

فالعمل يفقد معناه وقيمته إذا خالطه النفاق أو التظاهر أو الرياء.. وعن هذه الآفة روى فى الحديث الشريف: «تجد من شرار الناس يوم القيامة عند الله، ذا الوجهين، الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه».. فما البال بمن يتظاهر بأنه يتجه بعمله إلى ربه، بينما هو لا يقصد به إلا الاستعراض وطلب السمعة بين الناس؟! لذلك كانت قيمة الصدقة فى غايتها، وكان البعد عن «التظاهر» بها هو جوهرها، قيمة الصدقة فى أنها عمل صادق خالص

يتغيا به المتصدق بذل معونة صادقة بعيدة عن كل آفات التظاهر. وفي الحديث الشريف : «أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير في سر».. وفي الذكر الحكيم : ﴿وَإِنْ تُخَفُّوْهَا وَتُؤْتُوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة ٢٧١).. واحة الإسلام تقوم أركانها على الصدق والإخلاص، ولا محل فيها لما يبذل رياء ونفاقا وطلبا للسمعة. والمولى تبارك وتعالى - وكما جاء في الحديث : «لا يقبل من مُسمع ولا مُراء ولا منان».. المرائي طالب السمعة لا يطلب الله بعمله، وإنما يبغى المباهاة والرياء. وقد شجب القرآن الحكيم من ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقَاءَ النَّاسِ﴾ (النساء ٣٨)، وفي الحديث : «اليسير من الرياء شرك، إن الله يحب الأنقياء الأخفياء».

المؤمن المخلص يرقب الله تعالى - لا سواه - في كل أقواله وأعماله، ويتوجه إليه بقلب خالص ونية صادقة وعمل خالص.. ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ (الزمر ٣).. وإذا كان الشكر للناس على حسن صنيعهم فضيلة، فإن أفضل الشكر هو الشكر لله عز وجل، وميزة التواضع الحقيقية في صدق التواضع بلا تظاهر ولا طلب السمعة.

أيمنما نظر المتأمل في الدوحة الإسلامية، يجد أن الإسلام يعنى بالصدق والإخلاص، ويشجب وينفر من الكذب والنفاق والرياء.. زمن هذه السجيا الشاملة - دَخَلَ الإيثار من أوسع الأبواب خلة وشميلة مانحة من شمائل الإسلام.. فلا يفتن المؤمن المخلص شيء من عوارض الدنيا أو الانحصار في ذاته، ويدرك أن المكانة الحقيقية هي عند الحق سبحانه، يصغر لديه ما يتصارع ويتقاتل عليه الناس، ويصبح بشمائله عنوانا للإيثار ولو كانت به خصاصة، وإنكار الذات في سبيل المجتمع والمصالح العامة وحسن التواصل والبذل والعطاء لإخوته في الله .

هذا الإيثار هو قوام كل شيء طيب في الحياة العامة، وفي الصلات بين الناس.. فهو دافع الإخلاص في العمل العام، وفي إتقان العمل بلا تظاهر لأن العامل يعرف أن الله سبحانه وتعالى يراه، وهذا الإيثار هو الدافع لتقديم المصالح العامة والمحافظة على الممتلكات العامة، وعلى صيانة ونظافة وسلامة المرافق العامة، والاقتصاد في استهلاك ثروات المجتمع.. في المياه ومصادر الطاقة، وفي إمطة الأذى عن الطرقات العامة، وفي كل مناحي البر والمعروف.. في الصدقة، والبر بالفقراء والمساكين، والجار وابن السبيل، وفي

إغاثة الملهوف، وإنقاذ المأزوم، ونجدة وإسعاف وإخلاء المصابين المحتجزين في الحرائق والانهيئات، وفي كل صور التساند والتكافل.

هذا كله ينبع من منظومة الأخلاق والسجايا والشمائل الإسلامية.. من يتأمل فيها يراها صورة مثلى للاهتمام بالأغيار والآخرين. فكل ما يتحلى به المسلم هو في النهاية للخدمة والبذل والعطاء للآخرين. كافة هذه المناقب الإسلامية، من صدق وبر وعدل وأمانة ووفاء بالعهود والعقود والمواثيق، وإحسان وأمان للجوار، وسماحة مع الناس في التعامل معهم وفي البيع إليهم أو الشراء منهم.. في الاقتضاء منهم أو الأداء إليهم.. في إكرام الضيف، وإيثار العفو والصلح، والتواضع والرفق والرحمة.. كافة هذه المناقب تتجه في الواقع إلى رعاية الأغيار وكفالة حقوقهم والأمانة معهم والوفاء إليهم والعدل معهم.. في الحكم بينهم حتى وإن كان المحكوم له قد سلف منه شتآن، وفي الشهادة بينهم بالحق لا سواه، حتى وإن كانت الشهادة على النفس أو الوالدين أو الأقربين.. هذه الأخلاق والمناقب جمال وكمال لصاحبها، ثم هي في جوهرها احتفاء وعناية بالأغيار والآخرين.. العطاء الحي لهذه الخصال والسجايا يتجه بحصاده النهائي إليهم.

هذه المناقب الإسلامية بينها وبين الإيثار علاقة تبادلية، فكل منهما يأخذ من الآخر ويعطيه.. فبالإيثار يتحقق إنكار الذات ويصدر المؤثر على نفسه عن كل هذه الشمائل في كافة تعاملاته مع المجتمع والناس، بينما تصقل هذه السجايا شميلة الإيثار وتنميها حتى ليكون الأخ أعز على الإنسان من نفسه.

عن أنس بن مالك أن الهادي البشير ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ». هذا الحديث الشريف ربط واضح بين الإيمان وبين الإيثار.. فكلاهما : الإيمان والإيثار، قرينان يتبع ثانيهما أولهما، ويتعاضدان في تحقيق هذه الصورة الرائعة المثلى التي تجعل المسلمين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم .. وكما قال عليه الصلاة والسلام « كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحرقى والسهر ». حين نتأمل هذه المعانى، يطل علينا معنى الحديث الشريف : « أحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً ».

التكافل وتماسك المجتمع الإسلامي



فى أوقات الضيق والشدة والأزمات، تحتاج المجتمعات بعامّة كما يحتاج الأفراد، إلى التكافل والتساند بأكثر من الحاجة إليهما وقت اللين والسعة والرخاء.. كان لافتاً ولا يزال، مستحضراً لكل هذه المعانى وزيادة، ومعبّراً عن مقومات المجتمع الإسلامى، حديث رسول القرآن ﷺ حين قال «إن الأشعريين كانوا إذا أرملوا فى غزو، أو قل فى أيديهم الطعام، جمعوا ما عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموه فيما بينهم. فهم منى وأنا منهم» هذا الإحساس المتبادل بأوجاع واحتياجات الجماعة، والتساند والتكافل فيما بينها، هو أحد أهم سمات ومقومات المجتمع الإسلامى الذى ينهض على سلامة الاعتقاد وعلى العدالة والحب والتوحد ووحدة الشعور، وعلى التعاون والتكافل والتساند.. هذا التضافر الذى فيه يقول حديث الهادى البشير ﷺ «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»..

إحساس المسلم بالآخرين، ينبع من فيض المعانى الإنسانية والقيم الأخلاقية التى طفق الإسلام يبيثها فى نفوس المسلمين.. وحدة الشعور فى الجماعة تدعو للتعاطف والتساند مع الضعف والمرض والحاجة.. الضعيف فى الحديث النبوى أمير الركب، يتلقى من الركب كله ما يجبر ضعفه ويقلله من وهنه.. والمؤمن للمؤمن - فيما قال عليه السلام - كالبنيان يشد بعضه بعضاً.. يتحاب المؤمنون جميعاً فى الله، ويتكاتفون فى الضوائق والملفات.. خير الناس فى الإسلام هو أنفعهم وأرحمهم بالناس.. يقول لهم الهادى البشير ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن».. «ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء».. «لا يرضى المسلم أن يشبع بينما جاره جوعان، أو أن يتدثر وهناك عرايا يلتحفون السماء»!!، أو أن لا يبالي بما يصيب الآخرين من كربات.. يسمع من وصايا الرحمة المهداة - عليه السلام «أيما أهل عَرَصَة - وهى البقعة بين الدور - أصبح فيهم امرؤ جائعاً، فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى».. يعرف من الهدى النبوى أن عيادة

المريض واجب، ويعلمه الحديث القدسي أن من عاد مريضا في مرضه فكأنما عاد الله.. يتنادى المسلمون بأحاديث صفى السماء عليه السلام «مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ».. «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُسْلِمٍ كَرِيَةً مِنْ كَرِبِ الدُّنْيَا، نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كَرِيَةً مِنْ كَرِبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ فِي الدُّنْيَا يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ فِي الدُّنْيَا سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا دَامَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ».. عن نبي البر والرحمة أنه كان عليه السلام يقول «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»... «أَيُّمَا مُسْلِمٍ كَسَا مُسْلِمًا ثَوْبًا عَلَى عَرَى، كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ خَضِرِ الْجَنَّةِ، وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ أَطْعَمَ مُسْلِمًا عَلَى جَوْعٍ أَطْعَمَهُ اللَّهُ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ، وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ سَقَى مُسْلِمًا عَلَى ظَمَأٍ سَقَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ».. ينصت المسلم لقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۖ ﴿٥﴾ عَيْنَايَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۖ ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۖ ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حَيْثُ مَسْكِنًا وَيَسْمَاوَأَسِيرًا ۖ ﴿٨﴾ إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نَرَيْدُمْ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ۖ ﴿٩﴾﴾ (الإنسان ٥-٩) .. ويتأمل قوله تبارك وتعالى في سورة البلد: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقْبَةُ ۖ ﴿١٢﴾ فَكُ رَقَبَةً ۖ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۖ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۖ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَفْرَقَةٍ ۖ ﴿١٦﴾﴾ (البلد ١٢ - ١٦) .

فكرة أو قيمة التكافل الإسلامى قيمة شاملة، تعنى بالمعنويات إلى جانب الماديات، وتتغيا تحقيق أهدافها النبيلة بالعتاء المباشر الذى يتلقاه المتلقى مباشرة، وبالعتاء غير المباشر الذى يتلقى ثماره وشذاه كل من يصادفه، مقصودا فى العطاء بشخصه أو غير مقصود.. دعا الإسلام إلى التكافل فى العلم والتعليم إلى جوار دعوته للتكافل فى الطعام والشراب والسكن والملبس.. فى الحديث الشريف «أفضل الصدقة أن يتعلم المسلم علما، ثم يعلمه أخاه المسلم».. الساعى مأجور فى طلبه العلم، ومثاب فى بذله إياه.. هذا التكافل تعزيد للمجتمع بتعليم وإنارة عقول وأفهام وبصائر أفراد.. شيوع العلم والعمل به فى المجتمع ثرة تكافل، يدرك به الفرد أن عطاءه للمجموع مردود إليه فيما يتلقاه من ارتقاء مستوى العطاء العام ارتقاء يعكس على المجموع فى جميع المجالات.. فى

الصحة والتعليم والإسكان والاقتصاد والأمن وكافة الخدمات.. فكرة التكافل الإسلامى بمعناها وغايتها لا تنحصر فى صلة مباشرة أو عطاء مباشر يستهوى المعطى فيه ما يحسه من امتنان المتلقى أو إعجاب المحيط وتسامعه بالعطاء.. فى القرآن المجيد ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ (البقرة ٢٧١).. لذلك كان العطاء أو الصدقة فى السر، أفضل وأكرم وأثوب أنواع العطاء، لأنه بعيد عن الاصطناع والاستعراض وطلب السمعة من ناحية، وحافظ لشعور وكرامة المتلقى من ناحية أخرى.. ويكون التكافل أوسع من هذا هدفا وغاية، حين يمتد إلى عطاء مجرد غير معروف أو غير محدد سلفا من الذين سينتفعون به.. فكرة السبع الجاريات تنبع من هذا النظر الشامل، وفرع عليها فكرة المرفق العام، والاهتمام به حاضرا فى التكافل الإسلامى قبل مئات السنين من نحت هذا «المصطلح» فى العصر الحديث..

فكرة المجتمع حاضرة فى التكافل الإسلامى مع نجدة ومعاونة الفرد.. نجدة الفرد ومساندته والتكافل معه تصب فى المجتمع الذى هو مجموع أفرادهِ بصلاتهم وعلاقاتهم وأواصرهم.. قوانين السوق ورعاية الآخرين فى الأسواق فرع على اهتمام الفرد بالجماعة.. لا يبيع حاضر لباد، ولا يطفف البائع أو يغش فى الميزان، ولا يقبل المؤمن أن يكتنز الذهب والفضة ويحرم المجتمع من تداول وحركة المال التى تعود على المجتمع بالنماء، أو أن يحتكر الطعام ويخفيه ليعلو بثمنه على الناس.. يتأسى المسلمون بوصية الرحمة المهداة ﷺ «الناس شركاء فى ثلاثة: الكلا والماء والنار».. حق الجماعة يوجب ألا يشذ أحد بنفسه جاريا وراء أطماعه غير مبالٍ بأحوال واحتياجات الناس.. فى الحديث الشريف فيما رواه الإمام أحمد والحاكم بإسناد جيد: «من احتكر الطعام أربعين يوما فقد برئ من الله وبرئ الله منه».. وقيل: «وكانما قتل الناس جميعا».. عن الإمام على رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلا بما يصنع أغنياؤهم. ألا وإن الله يحاسبهم حسابا شديدا، ويعذبهم عذابا أليما»..

واجب الطريق في الإسلام فرع على شجرة التكافل والاهتمام بالمجتمع ومرافقه من قبل صياغة تعبير «المرفق العام».. للطريق حق يجب على الكل كفالاته، بغض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتطهير الطريق وإمطة الأذى عنه واجب.. في الحديث الشريف: «الإيمان بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق».. كان عليه السلام يوصي فيما روى عنه بإسناد صحيح، بعزل الأذى عن الطريق، بينما نراه ﷺ يوصي بالزراعة والغرس والإنبات رعاية لحق المجتمع وأفراده وتوفير ما ينفع الناس بل وكافة الكائنات.. روى البخاري ومسلم من حديث المصطفى ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان، إلا كان له به صدقة»..

وقوله ﷺ: «من نصب شجرة فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر، كان له في كل شيء يصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل»..
إمطة الأذى عن الطريق، والحض على الزرع والإنبات والتشجير، يعبران عن انتباه مبكر ولاقى لفكرة «المرفق العام» ووجوب تضامن وتكاتف وتكافل الأفراد في الالتفات إليه ورعايته والعناية به.

هذه المعاني التي تلقاها نجباء مدرسة النبوة الأبرار، عاشت في حناياهم واستقرت في أخلادهم وضمائرهم، فصدروا عنها وعبروا عن قيمها الإنسانية والاجتماعية في كثير من المشاهد والمواقف التي حفظتها أسفار السير والأخبار.. عرف هؤلاء النجباء، وتعلموا مما أوصاهم به رسول القرآن ﷺ، أنه لا قيمة للفرد مفصوماً عن المجموع، وأنه لا معنى ولا قيمة لعلم ينفرد به صاحبه يوكئ عليه ويحرم المجتمع والناس منه!، وأدركوا أنه لا معنى للغنى والثراء إذا احتجزه صاحبه واكتنزه وحرّم الحياة الاقتصادية منه وضمن به على احتياجات المحتاجين!.. رأينا الفاروق عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يقتر على نفسه وأهل بيته في عام المجاعة أو الرمادة، ويقول «لو لم أجد للناس ما يسعهم إلا أن أدخل على أهل كل بيت عدتهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم حتى يأتي الله بالحياء ففعلت، فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم».. بين عبارة رسول القرآن عليه السلام

فى التنويه بصنيع الأشعرين وقت الشدة، وبين حالة الفاروق عمر فى عام الرمادة، ما يناهز عشرين عاما، ولكن المنهج العمرى دل على أن رسالة الإسلام تغلغل فى النفوس والضمائر، وعلم منها هؤلاء الأتقياء الأصفياء الأنقياء أن مظلة التعاون والتكافل هى مرفأ المسلمين، والحافظ لأواصرهم، والغيث الحانى الرحيم لضعيفهم ومريضهم ومكروبهم وعاريهم وظامئهم ومعوزهم.. فى هذا التكافل روح الإسلام الحقيقية السامية التى دعا وأرشد إليها إمام مدرسة النبوة وتلقاها وأشربها نجباء مدرسته الأبرار، فتواصلوا معها وعبروا عنه وأثبتوا أنه لا خوف على المجتمع الإسلامى ما بقى مرعيا بالمحبة والتواد والتعاطف والتراحم والتكافل.. تأتلف وتلتقى فيه القلوب على نبض واحد، وتتوحد سواعد العاملين صناع الحياة على نسق واحد، ويتضافر المجتمع متأسيا بالهدى النبوى : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ».. هذا الهدى هو الذى حفظ على الدوام كيان المجتمع الإسلامى وكفل للمسلمين ارتفاع أعمالهم إلى مستوى آمالهم وعمق إيمانهم الصادق فى دوحة الإسلام .



الدين محبة



الدين الذى أعنيه ، هو كل دين ، إسلاما كان أو مسيحية أو يهودية.. لم تنزل الأديان لبذر العداوة أو الكراهية أو الشقاق بين الناس.. الأديان دعوة ربانية للإخاء والمحبة، والإخلاص والود والوفاء والرحمة.. فالإنسانية أسرة واحدة، تنتمى إلى جذور واحدة، وإلى أصل واحد.. وتدين كلها مهما اختلفت أديانها إلى رب واحد هو رب العالمين..

تنتمى الإنسانية إلى نفس واحدة خلقها الله تعالى وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء.. وفى خطاب موجه إلى الناس كافة، لا إلى أبناء دين بعينه، يقول القرآن المجيد : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ (النساء ١) ويقول عز وجل : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ ۝١٨﴾ (الأنعام ٩٨)، ويقول ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ۝١٨٩﴾ (الأعراف ١٨٩) .

يلتقى السلام والمحبة فى رسم صلة الإنسان فى الإسلام بأخيه الإنسان.. فلفظ «السلام» هو تحية الإسلام، ولفظ الإسلام ذاته : عنوان الدين، منحوت من مادة «السلام»، لأن السلام والإسلام يلتقيان فى توفير الأمن والطمأنينة والسكينة لبنى الإنسان.. فرسول القرآن عليه السلام : «رحمة مهداة».. وهو آخر عناقيد شجرة الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله تعالى هدية من السماء إلى العالمين.. وبذلك أرسل صفيه محمدا عليه السلام، فيقول له الحق عز وجل : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝١٠٧﴾ (الأنبياء ١٠٧).. وكان عليه السلام يقول للناس : «إن الله تعالى جعل السلام تحية لأمتنا».. ويقول : «السلام قبل الكلام»..

المحبة هى الجسر الذى يؤلف بين القلوب، ويفشى السلام، ويطهر النفوس من أدران الحقد وأسباب البغضاء والعداوة.. لا إيمان بلا محبة، ولا محبة بلا تآلف ومودة.. وفى حديث رسول القرآن عليه السلام : «لا تؤمنوا حتى تحابوا.. ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم؟، أفشوا السلام بينكم»..

وفي الحديث الشريف «إن من عباد الله أناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانتهم من الله تعالى. قالوا : يا رسول الله، تخبرنا من هم؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها. فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور.. لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس».. لذلك كان المؤمن آلف ومألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلف. وقيل أيضا : «ما دخل الرفق في شيء إلا زانه، وما خرج من شيء إلا شانه : « إن الله - سبحانه وتعالى - رفيق يحب الرفق في الأمر كله»..

لم تنزل الأديان السماوية لبث العداوة والكراهية، وإنما لإيمان وهداية الناس.. والإيمان معرفة بالله وثقة به ويقين فيه سبحانه، ومحبة وعطاء ومنفعة للناس.. لا يوجد في الأديان أسباب ولا حض أو تحريض على الكراهية والعداء.. فالمصالح والأهواء والمآرب والعداوات صناعة آدمية، وليست ولا يمكن أن تكون دعوة إلهية..

وكما رأينا دعوة الإسلام للإخاء والمحبة، نرى ذلك حاضرا أيضا في المسيحية: ديانة المحبة.. كان مجد المسيحية الحقيقي الهداية والمحبة، دعت وتدعو إلى ملكوت السماء في الضمير والوجدان، ويقول السيد المسيح عليه السلام للناس «لن تريح شيئا إذا كسبت كل شيء وخسرت نفسك»!.. لا تبال هداية المسيح بظاهر الدنيا كله إذا سلم للإنسان باطن ضميره.. مجده الحقيقي هذه الدعوة الهادية إلى نقاء السريرة، وإشاعة المحبة.. من على الجبل يلقي عليه السلام موعظته إلى جموع الناس فيقول لهم «طوبى للمساكين بالروح، فإن لهم ملكوت السماوات، طوبى للحزاني، فإنهم سيعززون. طوبى للودعاء، فإنهم سيرثون الأرض. طوبى للجياع والعطاش إلى البر، فإنهم سيشبعون. طوبى للرحماء، فإنهم سيرحمون. طوبى لأتقياء القلب، فإنهم سيرون الله، طوبى لصانعي السلام، فإنهم سيدعون «أبناء الله». طوبى للمضطهدين من أجل البر، فإن لهم ملكوت السماوات. طوبى لكم متى أهانكم الناس واضطهدوكم، وقالوا فيكم من أجل كل سوء كاذبين. افرحوا وتهللوا، فإن مكافأتكم في السماوات عظيمة. فإنهم هكذا اضطهدوا الأنبياء من قبلكم»! (متى ٥ : ٣ - ١٢) .

مثلما يقرأ المسلم في القرآن المجيد، قول الحق جل وعلا ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (البقرة ٢٢٤)، فإن المسيحي يقرأ من موعظة السيد المسيح على الجبل : « سمعتم أنه قيل للأقدمين : لا تخالف قسمك .. أما أنا فأقول لكم : لا تحلفوا أبدا (متى ٥ : ٣٤ ، ٣٥) .. وسمعت أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك. أما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم، وباركوا لاعنيكم، وأحسنوا معاملة الذين يبغضونكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطغنونكم» (متى ٥ : ٤٣ - ٤٥) .. يعضى المسيحي فى قراءة الأناجيل فيرى فيما يراه قول السيد المسيح عليه السلام : «لا تدينوا لثلاث تدانوا. فإنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون، وبالكيل الذى به تكيلون يُكّال لكم» (متى ٧ : ١ - ٣) .. هذه الباحة الإنسانية الفياضة المعطرة بالمحبة والود والتسامح والإخاء، تقيم جسور المودة بين المسيحي وبين غيره من أبناء الديانات .. هذه المودة التى تحدث عنها القرآن المجيد، وبذلها النجاشى ونصارى الحبشة للمسلمين، حتى حزن نبي القرآن عليه السلام حزنا شديدا حينما بلغته وفاة النجاشى عرفانا بما قدمه للمهاجرين من كرم الضيافة وصدق المودة وعطر المحبات .. وكما لا يوجد فى الإسلام دعاوى للإثم والعدوان، فإنه لا يوجد بمدونات المسيحية، لا فى الأناجيل، ولا فى الرسائل الملحقة بالعهد الجديد، ما يورى بعداوة مضمرة للأغيار، ولا حض على كراهة أو مقت أو عدا .. العداوات صناعة آدمية، أما الأديان والمدونات المقدسة فتفيض بعطر المحبة والإخاء.



الاتفاف بالدين لهدم الدين؟!



الإسلام ممتحن هذه الأيام ببعض الشاردين من أبنائه أو المنتسبين إليه ، مثلما هو مبتلى بأعدائه العلنيين والمتسترين.. يجاهر البعض باستهدافهم الإسلام، ويتخفى ويلتف البعض الآخر لضرب الدين من داخله ، واعين قاصدين ، أو مخدوعين مغررين !.

لا يختلف مسلم على أن القرآن الحكيم هو كتاب الإسلام المبين ، ومعجزته إلى الدنيا.. وحجة رسوله ﷺ إلى البشرية ، ودستور المسلمين كافة في كل شئون دينهم ودنياهم.. معجز في بلاغته ورصفه وبيانه.. في جرسه ومعماره الموسيقي ونظمه البديع وشحنه التي تملأ وتتغشى حنايا القارئ له.. معجز في إخباره بأحوال القرون السابقة على تنزيله ، وفي إخباره عن وقوع حوادث في مستقبل لا يتأتى العلم بها إلا لأعلام الغيوب.. ومعجز فيما اشتمل عليه من حقائق الكون وأسراره.. وفي اتساق عباراته ومعانيه ، ودقة وشمول أحكامه وشريعته الجامعة التي يدرك إعجازها المسلم وغير المسلم ، ويفهمها العربي وغير العربي.. من يعرف لسان القرآن ومن لا يعرفه.. القرآن المجيد هو دستور المسلمين الجامع في كل شئون دينهم ودنياهم.. في العقائد والعبادات ، والأحوال الشخصية ، والمعاملات ، والعقوبات ، والشئون الدولية.. ليس من شيء إلا وفي القرآن المجيد بيانه.. جعله سبحانه وتعالى هداية وبشرى للمؤمنين.. يهدي للتي هي أقوم ، وفيه شفاء ورحمة.. ما فرط فيه سبحانه وتعالى من شيء : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي أَلْكِتَابٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام ٣٨).

هذا القرآن المجيد لم ينزل به الوحي مباشرة إلى الناس ، وإنما إلى رسول كريم اصطفاه الله لتلقيه وإبلاغ رسالته إلى العالمين.. الأنبياء هم حملة رسالات السماء ، ومهمة رسول القرآن عليه السلام مستمدة من ذات القرآن.. يخاطبه رب العزة في قرآنه الذي أمره باتباعه فيقول له : ﴿ يَسَ ۝١ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ ﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٥ ﴾ (يس ١-٥).. وفي سورة الإنسان : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا

عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ (الإنسان ٢٣) .. لماذا؟! .. ليبليغ رسالته إلى الناس، ويهديهم ويرشدهم ويبين لهم.. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل ٨٩) .. ليقراه رسول القرآن على الناس على مكث ويبين لهم.. ﴿وَقَرَأْنَا لَهُ الْفَتْحَ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (الإسراء ١٠٦) .. فى حمل الرسالة وواجبات هذا التبيين يقول عز وجل : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل ٤٤) .. ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ (النحل ٦٤) ..

أغرب الغرابية أن يتخذ القرآن ذاته - على صراحة ووضوح ما أتى به عن تكليفه رسول القرآن عليه السلام بحمل رسالته إلى العالمين - مدخلا أو سبيلا وعنوانا لتنحية السنة النبوية وإهدارها تحت مسمى: «القرآنيون».. هذا اللفظ مختار بعناية مقصودة لخلق انطباع فيه مصادرة على المتلقين، بالإيحاء أن أصحاب هذا الفكر - أو الابتداع! - يعظمون ويجلون ويقدمون القرآن، وهو تعظيم وإجلال وتقديم لا يمكن أن يعترض أو يختلف عليه أحد، إلا أن المقصود به لديهم هو تنحية وإهدار السنة النبوية بزعم أن القرآن المجيد فيه الكفاية والغناء. أجل. فيه الكفاية والغناء، ولكن دور وسنة حامل الرسالة فى بيان وتفصيل أحكامه، جزء لا يتجزأ من رسالة الإسلام.. الانحياز للقرآن المجيد وتعظيمه وإجلاله وتقديمه - وهو المصدر الأول للإسلام - لا يعنى استبعاد السنة النبوية.. قولية كانت أو فعلية أو تقريرية.. هذا الاستبعاد للسنة النبوية، هو ما ترمى إليه دعوة المتسمين بالقرآنيين.. هذه الدعوة - والله تعالى أعلم بالمقاصد والنوايا ولا نكفر أحدا! - دعوة تلتف بالدين لهدم الدين، وتتشح بالقرآن المجيد لتنحية سنة رسول القرآن! الفصم أو الفصل بين سنة رسول القرآن والقرآن يناقض القرآن ذاته، مثلما يناقض معنى (الرسالة) ودورها فى البلاغ والبيان.. من (٣٧) عاما، تحديدا فى يوليو ١٩٧٠، وقبل تفشى هذه البدعة، كتبت مقالا لمجلة منبر الإسلام بعنوان «معاوضة السنة للقرآن». هذه المعاوضة التى يرمى «القرآنيون» إلى تفتيتها وإهدارها بدعوى أنه لا حاجة إلى السنة أو السنة القولية مع وجود القرآن المجيد، هذه الدعوى ترمى إلى اختزال الدين وهدمه.. يسوقون لذلك تعلات وذرائع مغلوطة لا تصمد للبحث، ولكن الخطر أن هذه البدعة يمكن أن تتسلل إلى البسطاء

أو أنصاف العارفين الذين لا يتعمقون الأمور أو اقتصر إمامهم ببعض القشور دون أن تكتمل قاعدة علمهم بالدين ومصادره وأحكامه، ولا يدركون معنى الرسالة واستحالة انقسامها عن سنة الرسول الذي حمل بلاغها وبيانها وتفصيلها وقواعدها إلى الناس!.
الدعوة إلى حذف السنة بعامة أو السنة القولية بخاصة، دعوة ضالة مغلوبة، تحذف ركنها أصيلاً من أركان المصدر الإسلامى، وتناقض ذات القرآن المجيد الذى تتوسل به لضرب دينه وهدمه!.

رسول القرآن - عليه السلام - هو الذى حمل، كسنت كافة الرسالات السماوية، رسالة القرآن المجيد إلى الناس.. لا تتصور الرسالة بغير الرسول الذى تلقاها وأبلغها إلى الناس، ولا يتصور الإبلاغ بها مشمولاً ببيانها بغير دور هذا الرسول فى أقواله وأفعاله وتقريراته.. ويتضح لزوم ذلك فى الإسلام بخاصة، أنه دين عالمى نزل للعالمين إلى يوم الدين، واقتضت عالميته أن يكتفى فى بعض المواضع ببيان المجمال المناسب لشتى العصور والأمكنة، وهذا من أسرار إعجازه، موكلًا إلى رسول القرآن الذى لا ينطق عن الهوى أن يبين ويفصل ويوضح، بيانا وتفصيلاً يعاضد القرآن المجيد ولا يناقضه أو يخرج عنه، مقرونا بآيات قرآنية صريحة تأمر باتباع الرسول وطاعته والأخذ بما يأمر به والانتها عما ينهى عنه، دون أن تقيد هذه الطاعة الواجبة أو تخصصها بأى قيد أو تخصيص!

فى ذات القرآن المجيد الذى يتشع به «القرآنيون» لتنحية واستبعاد وإهدار سنة رسول القرآن ﷺ، وردت آيات بينات فى هذه الطاعة وموجباتها.. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (النساء ٦٤) .. وفى سورة آل عمران: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ (آل عمران ٣٢) .. ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (آل عمران ١٣٢) .. وفى سورة المائدة: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ (المائدة ٩٢، التغابن ١٢) .. وفى الأمر بطاعته فيما يأتى به، والانتها عما نهى عنه: ﴿وَمَا أَمَأَنَّكُمْ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَنْ نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْهَوْا﴾ (الحشر ٧) .. (النساء ٨٠) .. ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد ٣٣).

تعدد الأمر بطاعة رسول القرآن في العديد من آياته: (النساء ٥٩، الأنفال ٢٤، الرعد ٣٨، غافر ٧٨، النور ٥٤، وغيرها) .. هذا الأمر بالطاعة العامة، بغير تقييد أو تخصيص، قد اقترن بآيات أخرى تدل على معنى الأسوة والاقتداء، أو تدل على وجوب اتباع ما يقضى أو يقول به .. معنى الأسوة يدل دلالة قاطعة على وجوب التأسى والاقتداء بمنهج السنة، وجوبا عاما لا يقتصر على سنة فعلية دون السنة القولية أو التقريرية، وإهدار هذه السنة هو إهدار لمعنى الأسوة والاهتداء الذى قال فيه القرآن الحكيم ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب ٢١)، ولذلك فليس غريبا أن يجعل القرآن من الرضاء بحكم رسول القرآن شرطا للإيمان لا يتم بغير تمامه واكتماله .. ترى فى سورة النساء دعوة صريحة إلى رد الأمور إليه عليه السلام، لا تكتفى بما ورد بالآية (٨٠) من أن من يطع الرسول فقط أطاع الله، وإنما توجب الآية (٨٣) رد الأمور إليه وتبين أنهم لوردوها إليه «لعلمه الذين يستنبطونه منهم» .. ثم ترى فى الآية (٦٥) من سورة النساء دور النبوة فيما يشجر بين الناس وما يقتضيه من أقضية أو أحكام أو أقوال جعل القرآن المجيد من قبولها والعمل بها آية من آيات طاعة الرسول بل شرطا من شروط الإيمان .. تقول الآية الكريمة: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء ٦٥) .

الدعوة إلى إهدار سنة رسول القرآن هى دعوة مضادة لذات القرآن المجيد، ندرك خطرهما حين نعلم أن السنة فى الاصطلاح الشرعى هى ما صدر عن النبى عليه السلام من سنن قولية ومنها تتكون معظم السنة، أو فعلية مثل أدائه الصلاة بهيئاتها وأركانها أو مناسك الحج، ومن أحاديثه عليه السلام التى اشتملت على مثل هذه التوجيهات النبوية: «صلوا كما رأيتمونى أصلى» ... «خذوا عنى مناسككم» .. ومن السنة التقريرية، وهى ما أقره عليه السلام مما شاهده أو صدر عن بعض أصحابه من أقوال أو أفعال، سواء بسكوته وعدم إنكاره لها، أو بإفصاحه عن موافقته عليها .

والسنة المحمدية بأقسامها الثلاثة .. القولية، والفعلية، والتقريرية .. حجة على المسلمين .. تعد مكملة للقرآن الكريم، ومعضدة له .. ومصدرا من مصادر التشريع الإسلامى

بعد الكتاب العزيز مباشرة.. وهى تكتسب هذه الحجية ما دامت مقصودا بها التشريع والافتداء، ونقلت إلينا بسند صحيح يفيد القطع، أو الظن الراجح بصدقه.. فلا يعد من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ما كان يأتيه من تصرفات وأعمال عادية فى مجال حياته اليومية وأمور معاشه، ما دام لم يقصد بها أن تكون تشريعا للمسلمين أو قدوة يحتذونها.. وليس من شك أنه قد زاد من أهمية السنة المحمدية أن المصطفى عليه الصلاة والسلام أجاب على مدى ثلاث وعشرين سنة على عدد لا يحصى من أسئلة صحابته وغيرهم ممن أخذوا الدين عنه، وآمنوا برسالته.. تارة بما يلهمه الله تعالى به، وتارة بما يؤديه إليه اجتهاده النبوى.. هذه الإجابات المتنوعة فى موضوعاتها المحكمة الجامعة فى مبادئها النبوية الرشيدة، قد صارت مصدرا خصبا ومقيدا لفهم الإسلام فى مبادئه وأصوله، وفى شتى فروعها التى تتصل بحياة الناس، وعلاقاتهم، وأمور دينهم.. ودنياهم..

وإذا كانت السنة المحمدية لها هذه المكانة والأهمية التى اكتسبتها بقيمتها الذاتية.. فإن البراهين الأخرى على حجيتها ولزوم اتباعها، ما دام مقصودا بها التشريع والافتداء، عديدة وقاطعة.. أولها هذه الآيات البيانات التى عرضناها، والتى يحثنا سبحانه وتعالى فيها ويأمرنا بطاعة الرسول والإيمان بنبوته.. وثانيها أن هذه السنة المحمدية ما هى فى حقيقتها إلا تبليغ لرسالة أمره الله عز وجل بتبليغها.. ﴿وَمَا يَطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ عَلَيْهِ سَدِيدُ الْقُوَىٰ ۖ﴾ (النجم ٣-٥).

حجية السنة التى تريد دعوة «القرآنيين» استبعادها وإهدارها، جزء أساسى من الدين.. هى التى بينت - قولا وفعلا - فرائض الصلاة والصوم والزكاة والحج.. لا مرجع سواها فى بيان هذه الفرائض التى هى أركان الإسلام.. وهى فى أحيان أخرى جاءت مفصلة ومفسرة لما جاء فى القرآن مجملا، أو منشئة ومثبتة لحكم لا ينطق فيه رسول القرآن عن الهوى مثل تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، أو تحريم الحمر الأهلية وسباع البهائم تفصيلا لما ورد فى القرآن المجيد فى قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾ (الأعراف ١٥٧).

حذف السنة من المدونة الإسلامية، هو هدم للإسلام.. وأكثر منه مغالطة التذرع بمدى ثبوت السنة لإهدارها.. فالسنة النبوية قد جمعها أئمة كبار سجلوا في كتب الصحاح رواياتها ورواتها تفصيلاً دقيقاً فيما انبنى عليه علم الحديث الذى أقام بقواعد صارمة مصفاة باللغة الدقة والإحكام لا يمر منها الحديث الموضوع، وأول معاييرها الدقيقة المدققة ألا يتعارض الحديث مع القرآن، فإن تعارض دل ذلك على أنه موضوع ومنسوب كذباً إلى رسول القرآن عليه السلام.

لا نكفر أحداً ولا ننتهمه فى نواياه، ولكننا نريد للمسلمين أن يعوا أن السنة هى القرآن الكريم معاً متعاضدان فى إقامة الدين، وأن الدعوة تحت أى ستار لتنجيتها أو استبعادها هى فى الواقع اختزال ضرير وهدم للدين يتناقض مع معنى الرسالة، ودور حاملها الذى كان التجسيد الحى والتطبيق الواعى لأحكام الشريعة، والمشعل الوضاء والمنار الهادى لأحكام الدين، بل إن هذه البدعة تتناقض مع ما أورده ذات القرآن الذى تتشج به البدعة اتشاحاً مغلوطاً.. وتصادر على رسول القرآن المجيد الذى قال فيه ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (الأحزاب ٣٦).. وكيف تهمل أو تجنب أو تستبعد سنة رسول القرآن الذى قال فيه الحق تبارك وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً (٤٦) (الأحزاب ٤٥، ٤٦) صدق الله العظيم

○○○

الولاية: بين أمانة الأداء وأمانة الاختيار



مسئولية الإنسان إزاء الحياة، وإزاء نفسه مسئولية كبيرة ثقيلة.. يتبلور فيها موقف الإنسان من الحياة، وتقديره لنعمتها، وفهمه لرسالتها، واضطلاعه بأعمالها.. يحدثنا القرآن المجيد عن قيمة وعراضة هذه المسئولية الكبرى، فيسبغ عليها وصف الأمانة، ويقول على لسان الحق تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢﴾ (الأحزاب ٧٢).. لا يقدر هذه المسئولية وينأى بنفسه عن أن يكون ظلوما جهولا إلا من عرف لها قدرها، وحفظ واجباتها.. فإذا كان حملها إزاء النفس كبير، فإن أحمالها قبل الغير أكبر وأثقل.. هي رزء ضخم وامتحان هائل لا ينهض عليه إلا من استقام قصده وخلصت نيته وصح عزمه وعمله وأدى الذى عليه فيها.. المسلم مأمور بأداء هذه الأمانة والوفاء بحقها.. فى الذكر الحكيم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٥٨﴾ (النساء ٥٨).. أخطر الأمانات «ولاية» أمور الغير، ففيها مظنة أو مخافة ألا ينهض القائم بها نهوضه فى أدائها بما يقوم به إزاء نفسه.. من فرط خطر الولاية حذر النبى عليه السلام صاحبه الأثير أبا ذر الغفارى من نذر ومغبة مسئوليتها الجسيمة فقال له: «يا أبا ذر، إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلا لمن أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها». تتنوع الولاية بين ولاية أمور الناس بعامه، وبين ولاية القضاء، وولاية الأعمال والعاملين، وولاية الأموال، وولاية المحكومين.. المسلم مأمور بصيانة الولاية والتزام الأمانة فى كل ما ينهض به ويقوم عليه، فالأمانة صفة لصيقة بالمؤمنين، لا يجوز أن تنفصم عنهم أو أن ينفصموا عنها.. فى وصف المؤمنين، يقول القرآن المجيد: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨﴾ (المؤمنون ٨، والمعارج ٣٢).. هذه الأمانة مشتقة من الإيمان، فمن حفظ أمانة الله حفظ الله إيمانه، وفى حديث رسول القرآن عليه السلام: «لا إيمان لمن لا أمانة له»، بهذه الأمانة

نهض الأنبياء برسالاتهم، فيقول نوح عليه السلام لقومه ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٧٧) فَأَنْقُذُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٧٨) ﴿ (الشعراء ١٠٧-١٠٨) . وجعل هود عليه السلام يقول ذلك لقومه عاد الذين كذبوا المرسلين: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٧٩) فَأَنْقُذُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٨٠) ﴿ (الشعراء ١٢٥-١٢٦) .. وكذلك قال صالح لقومه ثمود وشعيب لقومه مدين فيما ترويه الآيات ١٤٣ وما بعدها و ١٧٧ وما بعدها من سورة الشعراء.. هي أمانة لازمة للحاكم والمحكوم، وللخادم والمخدوم، ولرب العمل والعامل.. لم تجد بنت شعيب عليه السلام خيرا من الأمانة تزكى بها موسى عليه السلام لأبيها، فطفقت تقول فيما يرويه القرآن الحكيم: ﴿قَالَتْ إِحْدَهُمَا يَخَابِتُ أَسْتَعِجِرُهُ إِبْرَاهِيمَ خَيْرٌ مِّنْ أَسْتَعِجَرْتُ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ (١٨١) (القصص ٢٦) .. تتجلى الوصايا بالأمانة في ولاية أمور الناس بالحق والعدل كما رأينا في الآية ٥٨ من سورة النساء، فيما يقول فيه رسول القرآن عليه السلام: «ما من والٍ يلى أمور الناس إلا أتى به يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه لا يفكها إلا عدله».. هذه الأمانة واجبة في إدارة شئون الحكم وفي البيوع والعقود وأداء الشهادة لأن كاتمها آثم قلبه (الآية ٢٨٣ من سورة البقرة) وفي رعاية وحفظ ما ينهض عليه الولي من أموال اليتامى وحسن أداء الواجب فيها.. ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (١٥٢) (الأنعام ١٥٢) .. حتى كان النبي عليه السلام يشير إلى أصحابه بإصبعيه ويقول لهم: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين».. هذه الرعاية رعاية عامة واجبة في أداء كل ولاية، عنها قال رسول القرآن ﷺ: «ما من راع يسترعيه الله رعيته يموت يوم يموت وهو غاش لها إلا حرم الله عليه رائحة الجنة».

على أن القيام بأمانة الولاية لا يكون مباشرا في جميع الأحوال، فلا غناء لكل صاحب ولاية عن إيكال أجزاء أو فروع أو أمور أو واجبات منها إلى من تشهد أحواله وصفاته وسجاياه بأهليته وصلاحيته وأمانته وقدرته على حمل هذه الولاية.. لا يحل الوالى من أمانته، إلا أن يحسن ويصدق فى اختيار من يعهد إليه بولايات الناس.. فأمانة المستخدم فرع على أمانة المخدوم، والتزامه نابع من حسن اختياره للمهمة من ناحية، ومن إدراكه أنه يحاسب على عمله حسابا لا مجال فيه للإيثار أو المجاملة أو المحاباة!

الولاية في زماننا صارت أكثر تركيباً وأشد تعقيداً من الزمن الماضي.. في الماضي كانت سياسة أمور الناس أكثر وضوحاً وربما أشد بساطة.. لم تكن المشاكل والأقضية وتعقيدات أنشطة الحياة كتلك التي قذفت بها حضارات اليوم واستوجبت تفريعات في التصدى والمعالجة فتحت أبواباً لولاية أمور كثيرة التنوع متعددة الوجوه.. كان مضمون الولاية يكاد يقتصر في الزمن الماضي على سياسة أمور الناس وإدارة المال وفض المنازعات والخلافات، مما كانت تكفي فيه الولاية العامة وولاية القضاء قبل تخصيص من يقوم على ديوان أو بيت المال!.

لم تكن متطلبات الولاية في زمن النبوة كمتطلباتها اليوم، ولا كانت أنواعها وتفريعاتها وتعقيدات مهامها كتعقيدات اليوم، ومع ذلك نرى الإسلام يسبق زمان نزوله ويستشرف ما سيأتي به المستقبل، فيدلنا على أهمية الولاية ملمحاً إلى تفريعات أنواعها التي تنبأ بها فلم تقتصر وصاياه فقط على وظيفة الحكم التقليدية أو فقط على وظيفة القضاء أو فقط على ولاية المال، فمع حديث القرآن الكريم والسنة النبوية عن هذه وتلك من ولايات الحكم والقضاء والمال، دل في حديث النبي ﷺ على أن (الولاية) قد ترد على غير هذه الأبواب التقليدية.. في حديثه عليه السلام المروى عنه بإسناد صحيح: «من ولى من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين».. نرى أن الصياغة لم تخص نوعاً معيناً من الولايات وإنما اختارت أن تطلق اللفظ فقالت: «شيئاً» تعبيراً عن أن ما قد يليه الشخص من أمور للناس يتنوع بتنوع أنشطة الحياة، وحرصت العبارة على تعميم معنى الأمانة ليشمل كل ولاية بقولها «فولى رجلاً» دون أن تخصص أو تقيد هذه الولاية أو الأمانة بقيد أو تخصيص بشيء أو نوع بذاته، لتنسحب القاعدة العامة في وجوب الأمانة على كل نوع من أنواع الولايات، وفي كل أمر من أمور الجماعة أو الناس يعهد به الوالى إلى من يختارهم من ولاة.. عن أبى بكر رضى الله تعالى عنه أن الهادى البشير ﷺ قال «من ولى من أمر المسلمين شيئاً فأمر عليهم أحداً محاباة، فعليه لعنة الله، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم».. وفي وصاياه عليه السلام لأصحابه: «أيما رجل استعمل رجلاً على عشرة أنفس، علم أن في العشرة أفضل ممن استعمل، فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين»!!.

الشهادة : واجب لا وظيفة !



هذه الخواطر حول الشهادة استدعتها قصة من الواقع ، ظنت فيها إحدى الجهات -ولا أريد أن أسميها - أن سلطة الوظيفة تعطي وصاية على الموظف في أداء الشهادة ، متى يقولها أو يحجبها ، وماذا يبدي أو لا يبدي فيها .. ما استدعى خواطري آنذاك بشدة ، جسامة الواقعة ، وموقع الشاهدة الرفيع في هيئة من هيئاتنا العلمية التعليمية المرموقة ، ومع ذلك ورغم اختلطت الأوراق ، حتى ظن صاحب الشوكة أنه يستطيع بشوكة السلطة أن يرهب الأستاذة الدكتورة صاحبة الموقع الرفيع ، واسترسل حتى أحالها إلى التحقيق التأديبي لأنها دون إذنه والتنسيق معه لبت استدعاء محكمة رأت أن تسمع شهادتها ، فذهبت وأدتها بما لم يعجب القيادة الإدارية لأن الإدارة ذاتها كانت على المحك في خصومة لم يجد طرفها الآخر بدا إزاء التجنى الواقع عليه من اللجوء بمظلمته إلى القضاء ! .

ما كان يمكن أن يصدر هذا التصرف الذي صدته وأوقفته سلطة التحقيق بقرارها بالحفظ - ما كان هذا التصرف الضرير ليصدر لولا اختلاط والتباس في مفهوم وواجب الشهادة ، تردُّ بإحكام سلطة الوظيفة فيها ، مع أن الشهادة ليست واجبا وظيفيا ، ولا تدخل تحت حزمة الواجبات الوظيفية لائحية كانت أو تعاقدية ، وإنما هي واجب ديني وشرعي وأخلاقي ، وقانوني أيضا لمن لا يكتفى بواجب الدين والشرع والأخلاق ، يتجه خطاب الواجب بها إلى الآدمي من حيث هو آدمي لا من حيث هو موظف أو غير موظف ، صاحب عمل أو عامل أو أجير ، حاكم أو محكوم ، غني أو فقير .. ولذلك فإن الاستجابة لأداء الشهادة ، وأداءها واجب شخصي لا وظيفي ، مصدره الدين والشرع والأخلاق والقانون .

الشهادة في شريعة الإسلام ، شهادة لله وللحق ، فيقول القرآن المجيد : ﴿ وَأَقِمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ﴾ (الطلاق ٢) .. وهي لا تكون لله سبحانه وتعالى إلا طلبا للحق وإعلاء له ، والقيام بهذا الحمل الثقيل لا يقبل مساومة ولا تشييعا ولا استمالة ولا تنسيقا ، فلا ينوب عن الشاهد في حمل ثقله عن شهادته أمام الله خصم ولا رفيق ولا رئيس

ولا زميل ولا قريب ولا صاحب ولا رب عمل ولا شئون قانونية ولا سواهم، لذلك كان شرط «العدالة» شرطاً أساسياً في الشاهد. فيقول القرآن المجيد: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ (٢) (الطلاق ٢)، هذا «العدل» المأمور به إلهياً، لا يقبل تدخل من أحد تحت أى شعار ولا تكتة ولا ذريعة من ترتيب أو تنسيق أو سواه، لأن ذلك معناه إباحة «استقطاب» الشاهد لمصلحة أو رؤية هذا أو ذاك من أطراف الخصومة بذرائع لا يقرها العدل ولا الشرع ولا القانون ولا المنطق.

يأبى هذا الواجب الملقى مباشرة على عاتق الشاهد أن يستأذن أحداً لأداء الشهادة، أو يمنعه أحد من أدائها، فالواجب واجبه، لا يحله منه اعتراض وظيفته، ووزر وعقاب التخلف عن أدائها واقع عليه لا على سواه.. فهو مأمور بأداء الشهادة متى دُعى إليها، بل ودون أن يدعى إليها، فيقول القرآن المجيد: «وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا» (البقرة ٢٨٢). ويقول الحديث الشريف: «الساكت عن الحق شيطان أخس»، ويقول القرآن الحكيم: ﴿قُلُوبُ الَّذِينَ أُوتُوا آمَنَتْهُ وَلِئَنِّي اللَّهُ رَبُّهُ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ أُمُّ قَلْبٍ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٣) (البقرة ٢٨٣).. ويقول عز من قائل: ﴿وَمَن أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٤) (البقرة ١٤٠).

من الأوزار الجسيمة الاعتقاد الضرير بأن على الشاهد أن ينسق شهادته مع جهة عمله أو سواها.. فماذا لو أرادت جهة العمل من هذا التنسيق أن تستقطبه لما يخالف ما يعتقده الشاهد أو يتنافر مع الحقيقة.. لا يجوز لأحد ولا لسلطة اقتحام ما يؤمن به ضمير الشاهد الذى حذره سبحانه وتعالى من كتمان الحق ومن قول الزور أو الشهادة بالزور، فقال له فى محكم تنزيله ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥) (البقرة ٤٢)، وجعل البعد عن شهادة الزور صفة لازمة من صفات المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (٦) (الفرقان ٧٢) ونهاهم لذلك عن الزور فى الشهادة والتزييف والبهتان والتضليل فيها، فأمرهم بالبعد عن هذا كله، وقرنه فى درجة إثمه بعبادة الأوثان، فقال فى قرآنه الحكيم: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعْظَمَ حُرْمَتُ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُۥ عِنْدَ

رَبِّهِ، وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآفَاقُ إِلَّا مَا يَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ (الحج ٣٠).

الله سبحانه وتعالى يأمر الشاهد بالعدل في شهادته أيا كان المشهود عليه، قريباً أو حبيباً أو أباً أو شائعاً.. الشاهد يؤدي الشهادة لله والحق.. يوصي بذلك القرآن المجيد فيقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُونًا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءُ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ (المائدة ٨).. ولا يحول بين الشاهد وبين الصدق في شهادته - أن يكون هو هو المشهود عليه أو يكون من أهله أو ذوى قرياه أو الوالدين والأقربين .. ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُونًا قَوْمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءُ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ (النساء ١٣٥).. ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ (الأنعام ١٥٢).

إن ما ورد بالشريعة الإسلامية، وبكتاب الله وسنة رسول القرآن ﷺ، يقف وراء منظومة رائعة للشهادة في قانون المرافعات وفي قانون الإجراءات الجنائية، لم تدع شاردة ولا واردة إلا أحصتها وأوردتها وعالجتها لتضمن أن يؤدي الشاهد شهادته إذا مدعى إليها، وتعاقبه إذا تخلف أو امتنع عن أدائها، ولتلزمه بأداء اليمين ضماناً لصدقه وعدله، وتعاقبه إذا نكل، ولتزمه بأن يشهد بالصدق، وإلا عاقبته على الشهادة الزور - سواء في دعوى جنائية أو مدنية - والتي يمكن أن تصل إلى عقوبة الإعدام إذا ترتب عليها ضياع روح إنسان!!

لم يكتف المشرع المصرى بالسياج الذى أقامه الدين والشرع، ولا بما نص عليه قانون المرافعات وقانون الإجراءات الجنائية، وإنما أقام سياجا بالغ الأهمية فى قانون العقوبات فى الباب السادس من الكتاب الثالث، بعنوان «شهادة الزور واليمين الكاذبة» - حماية للناس من الكذب والتزيف والزور فى الشهادة، سواء فى الدعاوى الجنائية أو المدنية، فتنص المادة ٢٩٤ عقوبات على أنه: «كل من شهد زورا لمتهم فى جناية أو عليه يعاقب بالحبس»، وتغلظ هذه العقوبة إلى حد الإعدام تبعا لما يحكم به على من شهد زورا عليه

(المادة ٢٩٥ عقوبات) وتنص المادة ٢٩٦ عقوبات على أنه: «كل من شهد زورا على متهم بجنحة أو مخالفة أو شهد له زورا يعاقب بالحبس مدة لا تزيد على سنتين»، وتنص المادة ٢٩٧ عقوبات على أنه: «كل من شهد زورا في دعوى مدنية يعاقب بالحبس مدة لا تزيد على سنتين».

لم يترك قانون العقوبات الشاهد لخياره إذا ما أراد أو قبل الميل عن الشهادة، فحذره وحصنه ونهاه عن قبول أى تدخل أو تدخل تحت أى مسمى أو تعلق في شهادته، فكثيرا ما تتلبس الأغراض بأثواب وتعلات ومسميات شتى، ولذلك نصت المادة ٢٩٨ عقوبات على أنه: «إذا قبل من شهد زورا في دعوى جنائية أو مدنية عطية أو وعدا بشيء ما - يحكم عليه هو والمعطى أو من وعده بالعقوبات المقررة للرشوة أو للشهادة الزور إن كانت هذه أشد من عقوبات الرشوة».

فإذا حدث الإخلال والتعدي على الحقيقة، في شأن تكليف من سلطة قضائية بعمل خبرة أو ترجمة في دعوى مدنية أو تجارية أو جنائية، فيعاقب بعقوبة الشهادة الزور طبقا لما نصت عليه المادة ٢٩٩ عقوبات.

فكيف إذن وعلى أى أساس نهض أو ينهض التصور بوجوب الاستئذان أو الإخطار والتنسيق في أمر شهادة موكل الصدق فيها إلى الشاهد، ومفروض العقاب على الكذب والزور فيها على الشاهد، وما هو السند الذى نهض أو ينهض عليه هذا التصور الضرير الذى يصب في إقامة «وصاية» على الشهادة والشاهد قد تسلس إلى نهى عنها أو تدخل غير محمود في أدائها؟!.

لقد حملت المادة ٣٠٠ من قانون العقوبات تحذيرا ونذيرا بنصها على أنه: «من أكره شاهدا على عدم أداء الشهادة أو على الشهادة زورا يعاقب بمثل عقوبة شاهد الزور مع مراعاة الأحوال المقررة في المواد السابقة».. هذه الأحوال التى يمكن أن تصل عقوبة القانون الوضعى فيها إلى الإعدام!.

الإسلام وحملات الإساءة!



لم تكن قد مضت على عضويتي لمجمع البحوث الإسلامية إلا ثلاث سنوات، ومع ذلك عرض علينا خلالها كثير من الهجمات الجائرة المفتتة على الإسلام ورسوله عليه السلام، معظمها آتية من الخارج، من الدانمارك أو بابا الفاتيكان أو غيرها من بلدان الغرب، إلا أن أقلاما مسلمة، ومن داخل مصر، ساهمت في هذا الغناء تحت تلة التنوير، وماهو بتنوير ولكنه تسخير لوجه الإسلام في وقت تأتیه رياح الافتئات ظالمة جهولة من كل باب. لقد شاركت وناقشت، وصغت فيمن صاغوا كثيرا من بيانات الشجب والاحتجاج، وكثيرا من عبارات الدعوة إلى التعقل والإنصاف، فلا هذه نفعت، ولا تلك أجدت، واستمرت حملات الخارج، وانقلات الداغل، دون أن ترعوى أو تقتصد أو تفهم المخاطر والمحاذير في هذا المساس الغشوم بسقوف الأديان!

والحملة المشنونة بالغرب وأمريكا على الإسلام، والتي طالعتنا بشدة في الشهور الأولى لعام ٢٠٠٨ ميلادية، لم تقتصر على إيذاء مشاعر المسلمين، إنما هى تصب في صميم حياة المسلمين هناك، وأعدادهم ليست قليلة ولا هينة، بل بالملايين العديدة كما هو حاصل على سبيل المثال في كل من أمريكا وروسيا وفرنسا وألمانيا وغيرها. فتعداد المسلمين في الولايات المتحدة قد قارب سبعة ملايين مسلم، ونحو ستة ملايين في فرنسا، وخمسة عشر مليونا في روسيا، وقرابة أربعة ملايين في ألمانيا، وقرابة المليونين في بريطانيا، وزيادة عن المليون في البلاد الواطئة، وكذا فى بولندا، ونحو ٢٠٪ من جملة سكان يوغوسلافيا قبل التفكيت، غير المسلمين وهم بمئات الألوف وتقترب أحيانا من المليون في باقى الدول الأوروبية غير دول الأمريكتين. الصورة المغلوطة التى يصورون بها الإسلام هناك، تخلق متاعب عديدة للمسلمين المضطرين للتعامل مع الأنظمة ومع المجتمعات التى يعيشون فيها فى القارة الأوروبية أو الأمريكتين. حملات الكراهية وتشويه الإسلام فى هذه الدول لا تمس فقط مشاعر المسلمين هناك، إنما تحيل حياتهم وسط هذه المجتمعات اللافظة إلى جحيم موصول! وظنى كذلك أن المتطرفين الذين

يعطون المادة لحملات مهاجمة الإسلام، لا يلتفتون إلى قدر الأزمات والمصاعب التي يتسببون فيها بأعمال طائشة لا طحن لها، بينما هي تنحرف من صورة الإسلام والمسلمين بعمامة، وتسبب لجالياتنا الإسلامية العديد من الأزمات والمصاعب وتجعل من حياتهم جحيما وسط محيط بات يتوجس منهم أو يصطنع الأسباب لمجافاتهم ثم للفظهم وطردهم من هذه البلدان التي كانوا في السالف عنوانا جاذبا فيها للإسلام.. ودالا في الوقت ذاته على جور وافتئات الصورة الكاذبة التي ظلوا يحشدون بها الكتب في الغرب ضد الإسلام على مدار قرون، فلما جعلت الصورة تتعدل لصالح الإسلام والمسلمين، تردت الحركات الشاذة والمتطرفة ببعض الأعمال الجامحة التي يأبهاها الإسلام نفسه في إعطاء الفرصة لرد الحاضر إلى ما كانت عليه الكراهية للإسلام وزيادة!

المسلم في الشرق والغرب، ابن البلد أو وافد أو مهاجر في البلد الذي فيه يعيش، يرى الإسلام كما يعتقد هو ويؤمن به، وبوسع أن يعرف كم هو جائر وغير صحيح أن تحسب الأعمال المتطرفة الضالة على الإسلام. فهو يعرف كيف أن الإسلام نهى عن العنصرية، واعتنق السماحة والمساواة، وأقام شريعته على شخصية المسئولية بحيث لا يسأل الشخص إلا عما يفعل، ولا يحاسب على فعل أو عمل غيره. أينما ولى المسلم يرى حقيقة الإسلام في مصادره الإسلامية المكتوبة قرآنا وسنة وسيرة وأثرا، أو مسموعة فيما يتلقاه من تلاوة ترددها الإذاعات المسموعة والمرئية، أو دعوة رشيدة لا يعدم الوصول إليها، إلا أن الأجنبي غير المسلم لا يطلع ولا يرى شيئا من ذلك، فكل هذه الروافد غير موجهة إليه، وهو لو صادفها لا يستطيع لحاجز اللغة أن يلم بها، وتكاد رؤيته للإسلام أن تكون محصورة في المشهد المتطرف الشاذ الذي لا ينتمى للإسلام ولا يصوره أو المسلمون ولا ينصفه أو ينصفهم. حادث تفجير واحد - في مدريد أو لندن، أو في الرياض أو الأقصر - يحتل للأسف معظم الصورة التي يفهمها الآخرون للإسلام والمسلمين، وهيهات أن تقنعهم بخطبة عصماء أو بيان شجيب، أن هذا من فعل متطرفين مغالين وليس من الإسلام.. يساهم في ضياع الصدى أنهم يتكلمون لغات غير لغتنا، ولا يفهمون بالتالى خطابنا ولا بثنا

ولا دعوتنا، بينما تلح عليهم ميديا عالمية معظمها أحول يحكمه الهوى - بأن هذا هو الإسلام، ويجتزئون كلمة في آية، يخرجونها من السياق، ليقولوا امسك هذا هو القرآن.. أليست تقول الآية: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال ٦٠).. إذن هذا هو الإرهاب، ومصدره ومنبعه، لا تعنيهم الآية، ولا يعنيهم سياقها، ولا حقيقة مقصدها، وإنما يتسقطون لفظة من هنا وأخرى من هناك ليقولوا إرهاب الإسلام أو فاشية القرآن، في الوقت الذي يصابون فيه بالعمى الضريع عن رؤية مقاطع كاملة مليئة بالدماء والتقتيل والتحريق في العديد من أسفار العهد القديم، ولا ما فيه من إساءة واتهامات وإهانة للأنبياء. الميديا الإعلامية العالمية مغرضة ولا شك، ولكننا نحن المسلمين نمدهم بالمادة المغذية في بعض سلوكياتنا الغربية الغارقة في مظهر شكلي فقط وعافاه الزمن، وابتعدنا عن جوهر الإسلام والتشويش على صورة المسلم الحق الذي هو عنوان الإسلام وآيته إلى الدنيا، بينما يلاحقنا المتطرفون ويلاحقون العالم بأعمال عبثية تضرب ضربا عشوائيا على غير سنن ومبادئ الإسلام لتحسب في النهاية على المسلمين وعلى الإسلام!

هذا المشهد لا يقبل أن نغسل أيدينا منه بالولولة، ولا بالآهات، ولا ببيانات الشجب، ولا بالخطب العصماء. هذا المشهد يحتاج إلى محورين كبيرين بالغى الأهمية: مراجعة النفس مراجعة شاملة المظهر العام والسلوكي للمسلم بعامته، وموجات التطرف والمتطرفين وأثرهما المدمر بخاصة، وخطاب للآخر معنى به وموجه إليه بلغته هو حيثما هو لا بلغتنا نحن. وظنى أننا مفرطون حتى النخاع في مراجعة النفس، وفي مناسبة ولغة خطابنا للآخرين! على أنه يخطئ التشخيص من يظن أن الحملة الغشوم المطلقة الآن على الإسلام طارئ جديد، فتاريخ الغرب في النكير على الإسلام، وسوء فهمه والتهجم عليه وعلى رسوله الكريم أمر قديم، يستطيع من يريد تقصيه أن يراجع في العرض الوافي جدا الذى أورده الراهبة السابقة كارين أرمسترونج في كتابها الضافى: «محمد» الذى ترجمه الدكتوران محمد عنانى وفاطمة نصر. والمؤلفة إذ تتبع هذه الحملة الغشوم على الإسلام عبر قرون، تؤكد أنها تحققت من أن تلك الأحقاد دافعها المفاهيم المغلوطة والأساطير المختلقة، ثم هى وراء ما يتبناه الغرب من مواقف إزاء «الآخر» وهذا الآخر - فيما

تصرح - هو الإسلام! تقر الراهبة السابقة أن لديهم في الغرب تاريخا طويلا من العداء للإسلام، وبأنه راسخ الجذور مثل عدائهم للسامية، ولكن الكراهية القديمة للإسلام تواصل ازدهارها - فيما تقول - على جانبي المحيط الأطلسي، ولم يعد يوجد وازع - والكلام لها - يمنع الناس من مهاجمة ذلك الدين حتى ولو كانوا لا يعرفون عنه إلا القليل. تعزو المؤلفة هذا العداء الحاضر إلى أنه لم يحدث قبل ظهور الاتحاد السوفيتي أن واجه الغرب تحديا يوازي التحدي الذي يمثله الإسلام. تزداد هذه الصورة جلاء لدى من يستصفي ويستقطر كتاب (صدام الحضارات) لصمويل هنتنجتون، وهو ما تنبأ به العقد من أكثر من نصف قرن في الكثير من كتاباته.. إن عداء الغرب القديم للإسلام يحمل الآن بذور ودوافع وأغراض السياسة التي أقلقها ولا يزال تقدم الإسلام واتساعه.. أو على حد ما ورد في الدراسة البحثية التي نشرت مؤخرا للمعهد البحثي المسيحي Christian Research Institute وهي متاحة على الإنترنت، وتؤكد أن الإسلام يزداد انتشارا وقوة في العالم، وأنه بات يمثل أقوى التهديدات أهمية للكنيسة الأمريكية، وأن المؤشرات توري بأنه أسرع الأديان انتشارا ونموا في العالم وفي أمريكا، وأن نسبة نموّه وانتشاره في الولايات المتحدة ما بين سنتي ١٩٨٩، ١٩٩٨ قد زادت بنسبة هائلة، كذلك في فرنسا وألمانيا والمملكة المتحدة، وأن المصادر المسيحية والإسلامية تتفق على تأكيد أن الإسلام هو أسرع الأديان والمذاهب انتشارا الآن في الولايات المتحدة، وأن الكتاب السنوي (٢٠٠٠) للكنائس الأمريكية والكندية أعطى مؤشرات مقلقة لزيادة المسلمين، وتتوقف الدراسة البحثية حائرة في محاولة استشفاف أسباب هذا التزايد السريع في أعداد المسلمين، لتثقل في النهاية عن جيمس دريتك James Dretke قوله:

It is great thrill to see many Muslimes on our doorsteps. While we cannot easily gain entry in their countries.. God has brought them to ours

«إنها لإثارة كبيرة أن نرى الكثيرين من المسلمين على أعتابنا، وبينما لا نستطيع بسهولة أن ننال الدخول إلى أوطانهم فإن الله قد أتى بهم إلى أوطاننا»

سنظل متخلفين عن مواجهة الحرب الشرسة الضالة على الإسلام والمسلمين ما دمنا تعاملنا معها برد الفعل لا الفعل. من المهم أن نستوعب دوافع وأبعاد ووسائل وأساليب هذه الحملة ثم نتعامل معها بمنطق الفعل في إطار رؤية شاملة وخطة مدروسة وبرنامج تفصيلي وأدوات وآليات فاعلة.



رأيت بنفسى كثيرا من الرسوم الكاريكاتيرية المنشورة بالدانمارك التى تسيء إلى رسول الإسلام ﷺ، وظنى من واقع ما لاحظته فيها من إسفاف مسف، وتناول شنيع، واستهزاء مفرق فى السقالة أنها تقصد قصدا إلى إثارة وإهاجة المسلمين، ودفعهم إلى ردود أفعال مغموسة بالغضب الذى تثيره بداهة هذه الإساءات البالغة المنحطة.. يعرف المتطاولون بالرسوم المسيئة على رسول الإسلام وعلى الإسلام، أنهم لا يضربون فى المليان، ولا يقدمون حجة على الإسلام أو شيئا ذا قيمة، وإنما هم يستهزئون ويسخرون ويسفون، ويعرفون أن هذا كله لا قيمة ولا طحن له فماذا يريدون؟! يريدون بالقطع إثارتنا.. ظنى أن أغلط أنسواع رد الفعل هو الانفعال. هذا الانفعال هو المطلوب على الجانب الآخر ليكون شاهدا على المراد. أننا ظاهرة صوتية بانفعالات همجية لا تقدر حرية الرأى وحرية التعبير.. هكذا يقولون!.. تؤثر الغضب والثورة والضجيج على المناقشة والحوار. بعضهم يقول إن الدانمارك - مثلا - علمانية غير متدينة، وأن الغرب بعامة لا يجد بأسا من التوغل فى الأديان. ألم يخرجوا فيلم «الإغواء الأخير للمسيح» of Christ The last temptation صوروا فيه المسيح فى مشاهد جنسية مع مريم المجدلية على أنها مخايل راودته وهو على الصليب، وجعلوه أبا لابنة من مريم المجدلية فى فيلم «شفرة دافنشى» «The Davinci Code»، وجسدوا جلده وتعذيبه وصلبه فى فيلم «آلام المسيح».. «The passion of Christ»؟!.. فلماذا إذن يهتاج المسلمون على رسوم كاريكاتيرية؟!..

يتجاهلون بذلك أنهم هم الذين كتبوا وأخرجوا وصوروا هذه الأفلام، ويتجاهلون أن هذه الأفلام التى هم صانعوها لا تسخر ولا تهين أو تستهزئ، بينما الرسوم الكاريكاتورية محض قلة أدب واستهزاء ولغو لا يرد عليه بمنطق أو بحجة أو بحوار!.

ومع ذلك فأغلط ما نفعله أن نتعامل مع هذا الإسفاف برد الفعل الهائج، لأننا بذلك نعطي قيمة لغثاء لا قيمة له، مثلما روجنا بردود أفعالنا الغاضبة أفعالا هابطة لا قيمة لها مثل رواية آيات شيطانية! الحصاد النهائي أو الحساب الختامي لردود أفعالنا العصبية إنما يصب لصالح ما يريده ويستهدفه المسفون المسيئون! نقع في هذا الخطأ رغم أن ديننا حض على عدم الالتفات إلى اللغو والترهات، ووصف المؤمنين في القرآن الكريم بأنهم: «إذا مروا باللغو مروا كراما».. وبأنهم: «إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما».. لقد ترفع رسول القرآن عن مجارة أو إعطاء أى قيمة لترهات وإساءات ودعاوى ولغو وتطاول الكافرين، فما زاده ترفعه إلا قيمة وثباتا، وزاد الإسلام رسوخا وانتشارا..

يكفى أن نلتفت لما يحدث فى الولايات المتحدة لنعرف أن الإسلام أكبر من كل حملات الإساءة.. فبرغم أنهم يشنون الغزو والحملات الغشومة ضد الإسلام تحت دعاوى الإرهاب، فإن الإسلام يزداد هناك انتشارا، وتورى إحصائيات الكتاب السنوى لدائرة المعارف البريطانية أن المسلمين يتزايدون بكثرة فى الولايات المتحدة رغم حملات الكراهية التى لا تتوقف هناك. كيفيك أن تعرف أن المسلمين كانوا عشرة آلاف فقط سنة ١٩٠٠، ثم وصلوا إلى مليون مسلم فى ١٩٧٠، وأنهم زادوا سنة ٢٠٠٠ إلى ٨٥٠,٠٠٠ مسلم، ثم زادوا فى منتصف عام ٢٠٠٥ إلى ١,٠٠٠,٤٩١ مسلم، وتقدر أعدادهم الآن بقرابة عشرة ملايين.. هذه الزيادات دليل مؤكد على أن الحملات الكاذبة المغلوطة لا تنال من دين عامر بمبادئه وقيمه وأحكامه، مثلما لم ينل كل تهجم الكفار ودعاواهم الكاذبة من مقام القرآن المجيد، حجة الله وحبله المتين.

الإسلام ورسوله قررة عين المسلمين، لا يعنيههم حول الأحوال ولا عوار الأعور الذى لا يستطيع أن يرى أو تنحرف لديه الرؤية بعماء أو بانحراف عدسة رؤيته المحدبة أو المقعرة أو المنكسرة. لن يضير الإسلام أن ينكره ناكرا، ولن يذوى القرآن لعمى ضرير أمسك بتلابيب عميان أو مغرضين، ولن تختل قيمة ومقام ومكانة رسول القرآن لأن قلم أو ريشة سفيه تطاولوا عليه. سيبقى الإسلام رغم كل شئ معمرا لقلوب وحنايا وعقول المؤمنين به، وسيبقى قرآنه المجيد دستورهم الهادى مهما اتهموه بالفاشية أو الإرهاب، فقيمته

فيه لا فيما يغالط به المغالطون، وسيبقى رسول القرآن قدوة وأسوة للمسلمين وهداية ومنارة للدين في العالمين. لا ينبغي إذن أن نجزع، وإنما علينا أن نفهم، وأن نترك رد الفعل إلى الفعل الذي يحيط بالمخطط ومرامي، ويتخذ له على مهل وأناة، وحكمة وبصيرة، ما يرد عن الإسلام والمسلمين كيد الكائدين !

من مزايا الخروج من موقف الدفاع، وعدم الاكتفاء برد الفعل على رسم مسمى أو تهجم وقح، أن تلتقط الأخبار والحالات والشواهد الإيجابية لنكرسها أو نبرزها بإلقاء الأضواء عليها، أو جعلها موضوعا للمناقشة واستخلاص دلالتها. من هذه الحقائق الإيجابية ما دلت عليه إحصاءات الغرب نفسه، والأمريكان، أن الإسلام يتقدم بقوة ويزداد الإقبال عليه في الغرب، واللافت أن يحدث ذلك في الولايات المتحدة حيث تشن إدارتها حملة شعواء على الإسلام والمسلمين !.

لست أدري لماذا يتوارى وباختزال داخل الصفحات الداخلية لصحفنا - خبر دخول ثانى مسلم إلى الكونجرس في التاريخ الأمريكى. الخبر المختزل المتوارى، يقول إن الناضحين الأمريكيين اختاروا الشاب المسلم أندريه كارسون (٣٣ عاما) لعضوية الكونجرس عن ولاية إنديانا فى انتخابات خاصة بعد وفاة جدته جوليا كارسون التى كانت ممثلة الولاية، وأنه سبقه انتخاب مسلم آخر لعضوية الكونجرس عن ولاية مينيسوتا. هذا الخبر المزدوج الذى لم نحسن تصديره واستقصاء دلالاته !.

تأتى أخبار انتخاب السيناتور الجديد المسلم، مع ارتفاع معدلات الإسلام فى أمريكا، وسابقة انتخاب المسلم الآخر - شهادة للإسلام بأنه جاذب يعطى النموذج لحسن وكمال الخلق والسلوك. ولو كان دين عنف وإرهاب لما قدم هذه النماذج، ولما اعتنقوا الإسلام أصلاً! قارن مثلاً محمد على كلاً الملاك الأعظم فى تاريخ الملاكمة، هذا البطل الأسطورة الذى إعتنق الإسلام وتسمى بمحمد على، قارنه بغيره من الملاكين لترى الفارق الكبير فى المعدن والسلوك.. يشهد لمحمد على كلاً بأنه صار بالإسلام نموذجاً لرياضى على خلق رفيع وإنسان يفيض إنسانية وصاحب رسالة وعطاء لأوجه البر والخير ودعم مجتمع الفقراء، بينما غيره من الملاكين أبطال أيضاً ولكن فى الجنوح والمخدرات والاعتصاب

والقمار.. لا يخرج بعضهم من السجن إلا ليعود إليه بعد أن بدد على جنوحه مئات الملايين!.

لا أدري لماذا لا نكتف علاقاتنا بالمسلمين في شتى بقاع الأرض، ونقيم وإياهم جسورا تكشف وجه الإسلام الصبوح، بدلا من الملصقات والشعارات والأعلام التي جعلت تتزايد حاملية السيوفين المتقاطعين إلى جوار المصحف أو اسم الجلالة، مع أن الهلال يغنى في التعريف بالإسلام، وكعنوان له، بدلا مما يوحيه أو يتيحه السيف لصيادى الإساءة ليقيموا من حولها مناحة باتهامات الإرهاب أو بالرسوم السيئة!؟.

صورة المسلم الصحيحة التي صارت الآن تملأ شتى بقاع الأرض، هي أبلغ رد على حملات الإساءة والتجنى على الإسلام مهما علت موجتها وتنوعت أساليبها ورسوماتها وصورها.. هذه النماذج الإسلامية تحمل في بساطة ويسر ردا مقحما على التهجم الجائر على الإسلام والمسلمين أجدى من الدفاع ومن كل ردود الأفعال الغاضبة المتشنجة التي تأخذ منا ولا تعطينا.. قيمة ما يقال أو يجسد هناك - أنه آت منهم وبلغتهم.. آية ناطقة لديهم لا تكلفنا سوى الالتفات إليها وإبرازها في إطار رؤية وخطة شاملة وآلية مؤهلة قادرة متصلة تتابع إيضاح الإسلام لنا وللعالمين..



رأينا أن حملات الإساءة للإسلام، والتهجم عليه وعلى رسوله الكريم، لا تمس المشاعر وكفى، وإنما هي ضمن خطة مدروسة منظمة لبث الكراهية للمسلمين، والعدوان عليهم في أوطانهم تحت ذرائع مختلفة، كما حدث في العراق ومن قبلها في أفغانستان، ومن قبلهما في البوسنة والهرسك.. غير ما تورى المقدمات بأنه يدبر ضد سوريا وإيران، فضلا عن الانتهاكات والمؤامرات الجارية في لبنان، وحرب الإبادة في غزة وباقي فلسطين.. ويدخل هذا المخطط في اعتباره - حصار الأقليات الإسلامية وخنقها في أوروبا والأمريكيتين، وإحالة حياتها إلى جحيم يلجئها إلى الانكماش أو المغادرة.. هذا الهجوم الجهول على الإسلام، يجاوز في ضلاله وتوحشه كل ما سبق أن تعرض له الإسلام والمسلمون في السالف من هجمات ضالة ساهم فيها كتاب وفلاسفة وملوك وأباطرة وجيوش!.

خطأ بالغ مواجهة هذا المخطط بردود أفعال هنا وهناك، متفرقة شاردة موزعة غير مترابطة، مغموسة بالغضب والانفعال، تعطى مادة لمزيد من الافتئات على المسلمين ودينهم، بأكثر مما ترد عنهم إساءات المسيئين وكيد وتدبير الكائدين. الرؤية الشاملة المطلوبة لمواجهة هذه الحملات يجب أن تتسع لنا، ماذا علينا في سلوكنا وفي صورتنا أن نصححه ونلتزمه، وأن نتجه أيضا للأغيار.. من ساءت أو حسنت مقاصدهم، فالخطاب المتجه إليهم، وأساليب التعامل معهم، تختلف بلا شك عن وسائل وأساليب التعامل مع أنفسنا وإخواننا في ديارنا.

مع أن الدنيا من نصف قرن لم تكن كالحال الآن الذي فيه تزايدت الحملات على الإسلام، إلا أننا نرى كاتباً فرداً : عباس محمود العقاد، يضع كتاباً (الهلال ديسمبر ١٩٦٦)، مادته وعنوانه : «ما يقال عن الإسلام»، لا يتشجع ولا يهتاج وإنما يتأمل ويتقصى كتابات الغربيين فيما يكتبونه عن الإسلام كتابة تتفاوت تبعاً للبواعث والنيات أضعاف التفاوت الذي مرجعه لقدر الدراية والمعرفة.. منهم من ينحرفون عن الصواب اضطراراً أو اختياراً بباعث من التعصب، ومنهم من يخدمون السياسة الغالبة على دولهم، فيصطنعون لغة الدعاية ضد الإسلام اصطناعاً، ومنهم طلاب معرفة حسنت نواياهم ولكن لم تسعفهم معرفتهم وأدوات بحثهم، ومنهم ولو قليلون ينشدون الرأي خالفاً لوجه الحقيقة العلمية، ولكنه رأى مشوب بالقصور الذي لا مفر منه لمن يكتب عن الأدب في لغة غير لغته فضلاً عن أن يكون من غير أهل الأدب في لغته.. لا يضيق العقاد بشيء من ذلك، وإنما يستعرضه ليقول لنا إنه من حقنا - بل واجبنا - أن نعرف ما يقال عنا، وأن نعرف كل قول من تلك الأقوال بقيمته وقيمة من يصدر عنه، ليس فقط لنرد عليها ونوضح وجه الخطأ أو الصواب أو القصور فيها، بل لأننا نستطيع أن نعرف أنفسنا من شتى نواحيها كلما عرفناها كما ينظر إليها الغرباء عنها، وعرفنا مبلغ الصدق والفهم إن كان، ومبلغ الخطأ فيما يعتقدون فينا أو يظنون عن هوى أو جهالة!

وجوب الالتزام بالفعل لا برد الفعل، يستوجب أن يتضافر عليه المسلمون والدول العربية والإسلامية بعامّة، لا للغضب من وقت لآخر على رسم أو قصة أو رواية

أوفيلم، ولا لمعاداة الغرب أو غير المسلمين، فالإسلام يمد يده إلى الدنيا بالسلام، واسمه منحوت من السلم والسلام، والسلام هو تحية الإسلام، وقرآنه المجيد يحض على السلام ويدعو إليه، فهو مهجة وروح الإسلام.. تحية الله للمؤمنين هي تحية سلام: ﴿يَحْيِيهِمْ يَوْمَ يَقُومُهُمْ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ (١٤) ﴿(الأحزاب ٤٤)﴾.. ومستقر الصالحين دار أمن وسلام: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ (١٥) ﴿(يونس ٢٥)﴾.. ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ فِيهَا لَا يَضَلُّونَ﴾ (١٦) ﴿(الأنعام ١٢٧)﴾.. وأهل الجنة لا يتحدثون بغير لغة السلام: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ (١٧) ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ (١٨) ﴿(الواقعة ٢٥، ٢٦)﴾.. ورغم ما لاقاه الرسول الكريم يقول له القرآن المجيد ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (١٩) ﴿(الأنفال ٦١)﴾ ومع هذا نترك هذا الرصيد لنتخذ من السيفين المتقاطعين رمزا للإسلام مع المصحف أو اسم الجلالة، مقدمين بلا وعى المادة التي يتصيدونها لإقامة مناحة حولها أن الإسلام يحض على العنف والإرهاب!

تضافر المسلمين إزاء هذه المفتريات ليس للبغي والعدوان، وإنما لتوفير آلية مهياة بالمال وبالعلم وامتلاك اللغات، لبث صورة المسلم والإسلام الصحيحة إلى الدنيا بلغاتها.. إلى الغير قبل الذات، باللبث المرثى والسموع، وبالكتاب والمجلة والجريدة، وبمظهر سلوك المسلم ذاته، ليروا الإسلام كما هو لا كما يتوهمون أو يتصورون أو يغالطون.. ليعرفوا أن هذا الإسلام دين سماحة وإنسانية وإخاء، تتسع واحتة لغير المسلم كما تتسع للمسلم، لا عصبية فيه للعرق أو للدين، يحترم جميع الرسل والأنبياء، قوامه العقل والحكمة والموعظة الحسنة، يقدر الروح حتى في الحيوان، ويوقر العلم والعلماء، والعمل والاجتهاد، ويدعو إلى عمار الحياة، ويتخذ من المسلم صحيح الإسلام عنوانه ورسالته إلى الدنيا. لا عذر للمسلمين - ولديهم المال والإمكانات - أفرادا وجماعات وأما ودولا في التقاعس عن إنشاء هذه الآلية. ربما كانت متوفرة فعلا في هذا المؤتمر أو ذاك، أو هذه الهيئة أو تلك، ولكن ينقصها الالتفات والدعم المالى والبشرى، والاستمرار فى بث صورة الإسلام الصحيحة إلى الدنيا، ليعرف من لا يعرف حقيقة الإسلام، وليضيق الخناق على من يرمون الإسلام والمسلمين عن غرض أو عدا!

غاية هذه الآلية أن نبيسط للدنيا، لنا وللآخرين، أن الإسلام دين عالمي يتجه إلى العالمين، أمس واليوم وإلى يوم الدين.. وأن هذه الخاصية قد أوجبت أن يكون ديننا مفتوحا يتجه بدعوته وهدايته إلى الناس كافة، بلا تفرقة لعرق أو جنس أو وطن، وأن هذه الغاية تستوجب بداهة أن يكون ديننا جاذبا محببا لا طاردا ولا منفرا، ومحال وهذه غايته أن يميل إلى العنف أو الإرهاب، فكلاهما ينفر لا يجذب ولا يجذب، أو أن يتوسل إلى ما يريده من انتشار وهداية بالسيف أو الإكراه.. فلا إكراه في الدين في الإسلام، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة هي غايته وسجيته، والمساواة والإسماح والعدل دستوره.. لا يعطى ظهره للأديان السابقة، وإنما يجعل قرآنه المجيد من الإيمان بهم جزءا لا يتجزأ من الإيمان بالإسلام، لذلك تحدث بأجمل الحديث عن كافة الأنبياء والرسل، وكرمهم أجمل تكريم، ومن سورة ما أطلق عليه أسماء الأنبياء بل والأولياء السابقين وعائلاتهم، كسورة آل عمران، ويونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، ومريم، والأنبياء، ولقمان، ويس، ونوح.. لا يجد المسلمون بأسا ولا حرجا من التسمي بهذه الأسماء، فترى فيهم أسماء نوح، وهود، ويوسف، وإسحق، ويعقوب، وعيسى، وموسى، ويحيى، وشعيب، وأيوب، وهارون، وزكريا.. دين يحترم العقل ويجعل التفكير فريضة فيه، ويحترم العلم والعمل، ويقدر الروح حتى في الحيوان، ويقيم سننه على العدل والإسماح والمساواة، وعلى منظومة متكاملة من السجايا والشمائل التي تتجه في مجملها ومغزاها إلى رعاية الأغيار أمانة وصدقا وعطفا ورحمة وإخلاصا ووفاء بالمواثيق والعهود. هذه هي حقيقة الإسلام الذي سيبقى للآلية المتضافرة أن تتدبر كافة الوسائل لتوصيلها إلى المسلمين حتى لا يتطرف منهم أحد أو يجنح عن صحيح الإسلام، وإلى الأغيار حتى يفهموا هذا الدين الحنيف حق فهمه، ولو فهموه لما تطاولوا على رسوله هذا التطاول المؤسف!

لو التزمنا بأسلوب الفعل وأدائه، لتابعنا بكل السبل حملة مدعومة بالحجة لحض المجتمع الدولي ومنظماته الدولية على تجريم ازدراء الأديان.. التجريم الذي يتق مع ما يجب للأديان من احترام، ويستبعد مخاطر التذرع بحرية الرأي والتعبير للإساءة إلى الأديان والأنبياء!

من المهم أن يدرك المجتمع الدولي أن الجميع سوف يدفعون ثمنا فادحا إذا استمرت هذه الحملات المهيمنة للأديان وجرى التقارع بين أبنائها بأسلوب الفعل ورد الفعل، فتطول المحاجة والإساءة كافة الأديان، بينما هي سقوف البشرية التي تضبط ما لا تستطيع القوانين والنظم ضبطه، وتقوم من السلوك ما قد لا تكفى الأساليب الوضعية لتقويمه، لأن الأديان تخاطب مناطق في الوجدان والضمير لا يستطيع غيرها أن يخاطبها أو أن يكون مؤثرا فيها. ماذا سوف تجنى البشرية يوم يقلت العيار فيرد كل طرف على الآخر بضرب دينه والتغول عليه للانتصار للنفس ورد هجوم المتهجم إلى نحره؟!.. لن تستطيع أى قوة أن تسيطر على حرب الأديان إذا اشتعلت، ولن يهدأ للبشرية بال أو يتوفر لها أمان لو صارت الأديان مادة في هذه اللعبة الحمقاء الكفيلة بتدمير كل شيء ما لم يتداركها العقلاء ويجرم المجتمع الدولي وبعقوبات رادعة ازدراء الأديان!.



نحن والإسلام وعيون الآخرين!



أتيح لى فى مجمع البحوث الإسلامية، أن أناقش الترجمة العربية المحققة والمعلق عليها بمعرفة الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ لكتاب «محمد : مؤسس الدين الإسلامى، ومؤسس الإمبراطورية الإسلامية» الذى وضعه بالإنجليزية جورج بوش الجد الأعلى (١٧٩٦ - ١٨٥٩)، وصدرت طبعته الأولى سنة (١٨٣٠) بعنوان :

The life of Mohamed; founder of the religion of Islam, and of the Empire of the Saracens ..

والطبعة المترجمة التى راجعتها، قد تضمنت النص الإنجليزى عن الطبعة الإنجليزية الثانية وفى مقابلها الترجمة العربية متضمنة التحقيق والتعليق، حالة كون المؤلف الجد الأعلى للرئيس جورج بوش الأب، يكتب بقاموسه الذى وإن تخلص تناوله لرسول الإسلام من كثير من المفاهيم الخاطئة، إلا أن الكاتب - بالبداية - ليس مسلم العقيدة، ولا هو إسلامى الهوى، بل تغلت منه قصدا أو عفوا، تعبيرات تفصح عن عقيدته ولا تتفق مع عقيدة المسلمين فى رسول القرآن عليه السلام. فهو من البداية، وفى العنوان، يحرص على استخدام لفظ «مؤسس» «Founder»، ويستخدم فى العديد من المواضع كلمة «الدعى» «Imposter» وصفا لرسول القرآن عليه السلام، قاصدا بذلك، وإن استخدم أحيانا وصف «النبي» أو «الرسول» استحضار أو إسباغ معنى الصناعة البشرية على دين هدايته من السماء، ولذلك فإن المترجم المحقق المعلق، يحرص فى تقديمه للترجمة الشاملة للنصين الإنجليزى والعربى على أن يبين أن من أغراض ترجمة هذا الكتاب، التصدى لمزاعم المؤلف، وافتراءاته على خاتم النبيين ﷺ، وتقنيده هذه المزاعم والرد على تلك الافتراءات أولا، وثانيا معرفة الفكر الدينى الذى يسود برأس الحفيد الأدنى الرئيس الأمريكى الحال وقلبه، كما ساد من قبل رأس أبيه الرئيس الأسبق، والمتوارث عن فكر دينى لآل بوش متغلغل فيهم منذ سنوات بعيدة!

ومن أغراض هذه الترجمة على حد ما أورده تقديم الناشر، الكشف عن المصادر الأساسية للكراهية والحققد والعنصرية التي يمارسها تيار متطرف فى فكر الغرب الأمريكى ضد الإسلام، يصف العرب والمسلمين بالتطرف، ويشن عليهم حملة ظالمة!.. وقد تساءلت وقت مناقشة الترجمة الكاملة للكتاب، ولازلت أتساءل، ما الحاجة إلى هذه الترجمة إلى العربية حتى وإن حملت ما حملته من تعليقات وتعليقات تكشف الفكر الملبوس والحققد الدفين لدى المؤلف الأمريكى الراجع إلى قرابة مائتى عام. إن الترجمة إلى العربية لا تخدم الخطاب الدينى الإسلامى أو العربى، فالمسلم الناطق بالعربية يفهم ويعرف دينه من القرآن المجيد والسنة النبوية ومن السيرة والأثر وكافة المصادر والمؤلفات الإسلامية، وليس بحاجة إلى استحضار الأغلاط والافتراءات الأمريكية أو الغربية ثم التعقيب أو الرد عليها، ربما يهتم بذلك الخواص المتصدون للدعوة الموجهة إلى الأغيار، ولكن هؤلاء لديهم علمهم ومعرفتهم وأدواتهم لتحصيل ما كتبه المؤلف بالإنجليزية، والتعقيب عليه هناك لا هنا، وبلغة هؤلاء الأغيار لا بلغتنا العربية. ربما أغرى المترجم المحقق المعقب - وكما قال فى تقديمه - أن بالكتاب إقرارا من المؤلف بإشارات وردت عن النبى محمد ﷺ فى بعض أسفار العهد القديم، ولكن المؤلف يغالط فى دلالتها فيتصدى المترجم للتعقيب عليها، ليثبت خطأ مخالفته التفسير الصحيح لهذه البشارات، ولیمسك على المؤلف أنه هو ذاته قد أورد آيات أخرى من العهدين القديم والجديد، مؤكدا أنها تشير إلى ظهور النبى محمد وانتشار دعوته. ولكن هل تبرر هذه الجزئية ترجمة الكتاب كله إلى العربية، وألا يكفى انتقاء ما سلم به المؤلف من إشارات والتعقيب عليه فى مقال أو فصل فى كتاب، وهل يحتاج هذا الاستدلال إلى ترجمة ضخمة بلغت بالنصين الإنجليزى والعربى (٦٦٥) صفحة لكتاب بالإنجليزية يناهض الإسلام ورسوله، كتبه بوش الجد الأعلى من قرنين من الزمان؟!.

إن المؤلف بوش الجد الأعلى، سجل - فى تقديمه للكتاب بنصه الإنجليزى - أن دافعه للتصدى لما كتبه التأثير الضخم الذى أحدثه ما أسماه بالدين (المحمدى) بصرف النظر عن كونه - فيما يقول - دينا صحيحا!.. وإنه لكون هذا الدين قد

وقع على رأس الكنيسة المسيحية، واهتم به كثيرون بوصفه هرطقة مسيحية على حد قوله، أى مذهباً مسيحياً غير صحيح، أو خرافة وثنية، فإنه من هنا، وبنص عبارة المؤلف بوش الجد الأعلى «فقد كان قدر هذا الدين أن يرتبط بكل العقائد الفاسدة التى أفسدت الإنجيل. وبقدر ما نقض هذه النبوة ونكشفها أو بقدر ما نكشف الادعاء الحالى Present posture الموجود على ظهر الأرض، كلما عجلنا بسقوط الخداع Delusion، وعجلنا بتأصيل الحق، وزاد اهتمامنا - بعمق - بهذه المناطق التى طالت فيها سيادة هذا الدين»!!.

لست بداهة أتحدث على التصدى والتعقيب الذى أورده المترجم على الفكر الملبوس فى هذا الكتاب للمؤلف جورج بوش الجد الأعلى، والحق أن المترجم المحقق المعلق قد قام بجهد موفور فى التصدى لكتابات المؤلف الضالة والتعقيب عليها، وليس هدفى هنا أن أستحضر ما افترى به المؤلف على الإسلام ورسوله وتصدى له المترجم ورد عليه، فذلك التصدى واجب، والرد اللازم، ولكن السؤال هو إلى أين وبأى لغة يجب أن يتجه التصدى والرد؟! وهل يحتاج ذلك إلى هذه الترجمة الضخمة للكتاب كله، وألا يجرى فيه مقال أو فصل فى كتاب بدلا من الترويج (غير المقصود) لهذا الكتاب الملىء بالضلالات الذى وضعه - سنة (١٨٣٠) - جورج بوش الجد الأعلى؟! ظنى أن الأولى والأجدر، بالمبالغ الطائلة التى أنفقت على إعادة نشر الكتاب مترجما، أن ينهض المترجم وهو قادر مالك لأدواته، على تسطير ما يريده بالإنجليزية تعقيباً على ضلالات هذا الكتاب، وتلمس السبل والوسائل لبثه إلى قراء الإنجليزية، سواء فى أمريكا أو فى غيرها من البلدان الناطقة بالإنجليزية.

ظنى أن خطابنا الدينى يكاد يغفل الأغيار الأجانب، الناطقين بغير العربية، إغفالا تاما، فلا يحدثهم ولا يكتب إليهم بلغاتهم، بينما نرى كاتباً فردا كعباس العقاد، يتصدى وحده ومن أكثر من نصف قرن، إلى كتابات الغرب عن الإسلام ورسوله متناولا كلا منها بما يستوجب تبعاً لنواياها أو لمادتها، رأيناها مستشهداً فى كتابه «عبقريّة محمد» بما كتبه العالم الأوروبى ماركس دودز Marcus Dodds فى كتابه محمد وبودا

والمسيح : Mohamed , Budda and Christ ، ورأيانه يورد كثيرا من الاستشهادات أو التعقيبات على كتابات الغرب، الإيجابية والسلبية، ويناقشها مناقشة واعية متمكنة فى كتبه أمثال : ما يقال عن الإسلام، وحقائق الإسلام وأباطيل خصومه، وعقائد المفكرين فى القرن العشرين، والإنسان فى عقيدة القرآن إزاء العقائد الأخرى أو المذاهب الإنسانية، والإسلام دعوة عالمية.

التصدى لحملات الإساءة لرسول الإسلام والإسلام، لا ينبغى أن ينحصر فى ردود أفعال أو التزام الدفاع، مثلما لا يلزمه الإفراط فى الخطاب إلى المسلمين، فالمسلمون يعرفون دينهم وقدر ومكانة رسولهم الكريم، وينزلانها منزلة العقيدة الهادية التى بها يؤمنون. التصدى لهذه الحملات يستوجب خطابا موصولا إلى الأغيار، بأسلوبهم وبلغاتهم وبالمنطق الذى يفهمونه هناك، لكشف بهتان ما ران عليه اعتيادهم منذ قرون، وجلاء حقيقة براءة الإسلام والمسلمين مما يرام إلصاقه بهم من أعمال متطرفين لا تنتمى بل تنامض جوهر وحقيقة الإسلام.

يحتاج هذا الخطاب إلى جمهرة من العلماء المجيدين للإنجليزية والفرنسية والإسبانية وغيرها من لغات الغرب، وإلى آلية حاضنة، تتوفر لها الإمكانيات، والروح والإخلاص، لتنهض بهؤلاء العلماء والمفكرين على هذه الرسالة العظمى التى ليس حسبها فقط أن ترد عن الإسلام ما يفترى به عليه، وإنما تبصر العالم وتقى البشرية مما يمكن أن يحيق بالجميع يوم تدخل الأديان فى معترك المناجزات، ويتعادى ويتصارع ويتقاتل حولها أبناء الأديان!

من أين جاء التعصب؟!



حاولت في كتاب الأديان والزمن والناس، أن ألفت إلى أن التعصب لم يأت منها وإنما أتى من الذين لم يفهموا رسالة الأديان حق فهمها، وحسروا أنفسهم في أزقة ضيقة لا تطل ولا ترى أن الأديان الثلاثة الكبرى هي ديانة السماء، وكلها من عند الله، وأن رقى الإنسان الروحي والخلقي والاجتماعي والسلوكي هو الحكمة الإلهية من هذه الرسائل التي تعاقبت على البشر أمة بعد أمة، وجيلا بعد جيل، تخاطب الناس في أوان نزولها بقدر سعة عقولهم وأفهامهم، وتتجه إلى هدف واحد هو توجيه الإنسان إلى الحق والكمال.

تذكرت كيف تقوم أبراج الكنائس إلى جوار مآذن الجوامع في ربوع مصر، وكيف يتردد المسلمون في مصر على المزارات المسيحية تبركا وإجلالا.. وكيف ظلت القاعدة العريضة من المسلمين والمسيحيين على صلات الإخاء والمحبة بعيدا عن الاحتقانات التي استجلبها التطرف أو ضيق الأفق أو افتعلها التعصب أو صدّرها الكارهون لسلام مصر.. تذكرت ذلك كله وأنا أتابع صفحة التعصب المقيت التي سطرها ٥٧٪ من الشعب السويسري ابن الحضارة الغربية وحقوق الإنسان، الذين صادقوا على حظر بناء مآذن للمساجد الإسلامية في سويسرا.. وهذا التصويت انحياز طائفي بغض قوامه طغيان روح التعصب لدى الأغلبية العددية إزاء الأقلية الإسلامية التي بلغت هناك قرابة ثلث مليون مسلم في تعداد كتاب Romania factbook ط ٢٠٠٥ .. دليل التعصب أن أحدا لم يتعرض لأبراج الكنائس، برغم اتحاد العلة إن كان الأمر خارج دائرة التعصب والاستقواء بالأغلبية على الأقلية.

في تبرير هذا البتعصب الضريع، حاولت الحكومة السويسرية تخفيفه في بيانها الذي أصدرته بعد أربع ساعات من إعلان نتيجة الاستفتاء، منوّهة إلى أن حظر بناء المآذن في الدستور السويسري سيدرج على أنه إجراء يرمى إلى الحفاظ على السلام بين أفراد مختلف المجموعات الدينية.. وهي ذريعة متهافئة لم تقبلها منظمة العفو الدولية، فأعلنت أن التضييق على المساجد انتهاك لحرية العقيدة.. وصرح نيكولا دكووث مدير برنامج أوروبا ووسط آسيا في منظمة العفو الدولية بأن « حظر بناء المآذن مع السماح - على سبيل المثال -

ببناء الكنائس، سوف يشكل تمييزاً على أساس الدين، وأن حظر بناء المآذن سيمثل انتهاكاً لالتزامات سويسرا بتعزيز حرية العقيدة، وانتهاكاً لحق المسلمين في سويسرا في إظهار دينهم!

إذن، فإن التطرف أو التعصب، ليس مقصوداً على بلاد الشرق، فهي هي سويسرا التي تلتزم الحياد، وتخاصم الحروب، وتلتزم السلام، تسقط أغليبيتها العددية في عماء التعصب، وتصادر على حق المسلمين في بلد الحياد والسلام في ممارسة شعائرهم الدينية في مساجدهم، مع أن عدد المساجد في كل سويسرا خمسة مساجد، لا تمثل إزعاجاً ولا إقلاقاً، ولا تطرح مئذنة للمسجد الخامس قضية تبرر هذا التعصب والتمييز بين الأديان.. وقد رأينا ما حدث في ألمانيا، وهو وإن كان حادثة فردية، راحت ضحيتها زوجة وأم مسلمة لم تقارف وزراً ولم تزج أحداً حين تحجبت، إلا أن المتابعين لما يجري في بعض الدول الغربية، ومنها ألمانيا التي يزيد عدد المسلمين فيها على أربعة ملايين مسلم، وفرنسا التي يبلغ تعداد المسلمين فيها قرابة ستة ملايين مسلم، سوف يرى ملامح حركة آخذة في التصاعد والاشتداد ضد الإسلام والمسلمين!

أعود فأقول إن الأديان ذاتها بريئة من هذا التعصب.. فهو تعصب آدمي، وقد رأينا كيف اتسعت في انجلترا سماحة الدين واشتد تعصب العلمانيين.. رأينا في مطلع ٢٠٠٨ كبير أساقفة كانتربري يطالب في انجلترا بالإفساح للمسلمين للتعامل بمقتضى شريعتهم الإسلامية في شأن أحوالهم المدنية والأسرية المتعلقة بالزواج والطلاق والمواريث والوصاية والقوامة وما شابه، وهو ما سبقت إليه مصر من قرن من الزمان بالنسبة للأحوال الشخصية لغير المسلمين، دون أن يعترض أو يحتج أحد من المسلمين، ولكننا طالعنا موجات هائلة من الاحتجاجات العنيفة ثارت على كبير الأساقفة الإنجليزي، شارك فيها من العلمانيين وزير الثقافة ووزيرة الداخلية، وزعيم حزب المحافظين المعارض، وبعض الوزراء السابقين!! لعل هذا المشهد الأخير الذي تصدر الصورة في سويسرا، يقنع العالم بأن الأديان بريئة من أسباب التعصب، وأن هذا التعصب طفق آدمي مريض لا وطن له!!

هل صار العدو هو الإسلام؟!



أتابع في اندهاش شديد، واستغراب ممض، أقلاما وكلمات تركت ما نعانيه، وتجاهلته وصمتت صمت القبور عنه وعن أسبابه، وطفقت تحت شعار التنوير الذى لا يختلف عليه أحد، تعادى الإسلام نفسه كدين، وتشدد عليه النكير، وتعزو إليه - دون غيره! - كل المشاكل والمثالب والرزايا والنكبات التى أحاطتنا من كل جانب، حتى ليظن القارئ أو السامع أن الإسلام - الدين - هو سبب الظلام والإظلام، والرجعية والجمود، والتراجع والقهر، وأنه السبب الوحيد لكل مأسينا.. هو سبب كارثة الدويقة، واختلاط مياه المجارى والصرف الصحى بمياه الشرب، وجالب التيفود، وأنفلونزا الطيور والخنزير، وأنه هو هو هذا الإسلام! - سبب الاحتقانات التى تشجر من وقت لآخر، فى الصحافة والقضاء والخبراء والنقابات، وأنه - هذا الإسلام! - هو سبب المليارات التى ضاعت فى فوسفات أبو طرطور، وفى مشروع توشكى، وفى منح وتوزيع الأراضى على أصحاب الحظوة، وتسريب الغاز إلى إسرائيل بأقل الأثمان ورفض النجدة التى أتت من القضاء لإقالة الاتفاق اللا متوازن مما تعثر فيه، وأنه هو هو - هذا الإسلام! - الذى سرب الأرض إلى شخص ذى حظوة كبيرة وفجر وأضاع مئات الملايين من الجنيهات وأدى إلى خسران القضايا والتحكيم فى قضية سياج، وأنه هو هو - هذا الإسلام! - السبب فى انحدار التعليم وتآكل وترنح مؤسسته، وفى تراجع الصحة وانتشار الأوبئة والأمراض، وفى محاصرة وضرب الحريات، وأنه هو هو - هذا الإسلام! - السبب فى القمع والاعتقال وتجاهل الدستور ثم تطويقه، وفى مصادرة تكوين الأحزاب، وعدم تنفيذ حكم القضاء بعودة حزب العمل، وضرب باقى الأحزاب من داخلها، وأنه هو هو - هذا الإسلام دون سواه!! - سبب العشوائيات وما يجرى فيها من شيوخ الرذيلة والمخدرات حتى زنى المحارم، وأنه هو هو - هذا الإسلام! - سبب تراجع حال الرياضة وانتشار العشوائية فى الإدارة والبناء، وسبب فوضى الشوارع وانتشار الزبالة والقاذورات فى كل مكان، وأنه هو هو - هذا الدين الإسلامى! - سبب خراب النفوس والذمم وشيوع النفعية والفساد والرشاوى والسرقات والاختلاسات!

حرام أن تترك الأقلام الكبيرة هذه الكبائر لتصور للناس أن العدو الحقيقي هو الدين الإسلامي، ولا تتفضل حتى بالفصل بين الدين كدين قيمته فيه، وبين جنوح بعض المنتسبين إليه، وهو قدر على كل الديانات، وتسحب وتشد ما قيل ويقال عن تنكب الصواب في منح إحدى جوائز الدولة - إلى منطقة الإضلال والتنوير، والتكفير والإيمان!.. وهذه لعبة خطيرة، ولكنها لا تنطلي على أحد.. فالنقد الموضوعي العاقل ينصرف إلى معايير وضوابط منح جائزة الدولة، ووجوب الابتعاد بها عن تحقيق الأغراض السياسية أو المنافع الشخصية، وأن هذا النقد يستوجب بالضرورة التعرض للحالة لبحث معايير إعطاء الجائزة، وهل توافرت أم لم تتوافر، والبحث من ثم في المقومات والإنتاج، ليس تفتيشاً في الضمائر، ولا في مناطق العقيدة، فالممنوح له الجائزة من حقه - كمواطن - أن يكون مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً أو ملحداً، ومن حقه أن يعتقد وأن يكتب ما يشاء إلا أن يدخل قانوناً في دائرة إزدراء الأديان.. وهذه الحرية التي لا ينازع فيها أحد لا تحول بين الباحث في تقويم اعتبارات إعطائه الجائزة، وبين وزن ما حصل أو لم يحصل عليه من شهادات كانت ولا شك ضمن معايير الإعطاء، سيما أن الانتحال - إن كان - له مدلول بالغ الخطورة، ولا تحول بين الباحث - للتقويم - وبين وزن أعماله واستشراف مدى الصواب أو الخطأ أو التهافت أو الجنوح فيها، لا للمصادرة على حقه حتى في أن يجنح، وإنما لاستطلاع المعايير التي منح على أساسها جائزة الدولة التقديرية، وهل أصابت هي - لا هو! - أم جنحت، وهل أحسنت هي - لا هو! - أم لم تحسن الاختيار والإرساء!.

لم يفتنى السعي الخبيث لشد القضية إلى منطقة العقيدة والادعاء بأن نقد تقرير الجائزة يندرج في باب التكفير أو مصادرة حرية البحث والرأي، وهو سعي مغلوط لإخراج القضية من دائرتها الحقيقية إلى دائرة مصطنعة للخداع والتمويه!!.

الأخطر من هذا أن هذا الشد الذي طفقت تباركه أقلام لها انتماء أو ولاء أو مصالح لدى الجهة المانحة، قد اقترن للأسف بالهجوم على الدين الإسلامي.. فهل تتفضل أصحاب هذا التهجم الضريع على سقف الدين بالنظر والكتابة ولو في موضوع واحد من الموضوعات العديدة التي أشرت إلى بعضها من باب الإشارة ليس إلا؟! هل من نجاة من هذا الغناء الذي يقلب كل الموازين ويقود البلاد إلى أوحش العواقب!؟.

الإسلام فى كتابات منصفة



فى كتاب «محمد».. سيرة النبى «الصادر بالإنجليزية فى نيويورك ١٩٩٢، وأقر مجمع البحوث الإسلامية ترجمته التى أجراها الدكتوران محمد عنانى وفاطمة نصر توطى مؤلفته الكاتبة البريطانية كارين أرمسترونج، الراهبة السابقة والباحثة فى تاريخ الأديان - توطى لكتابها المنصف الموضوعى - بفصل مستفيض عن جذور العداء فى الغرب لرسول الإسلام بعنوان «العدو محمد»!.. لتستأصل ببحثها الموضوعى شأفة المفاهيم المغلوطة التى تراكمت مع هذا العداء وصارت كالأساطير التى لا يحاول أحد مناقشتها هناك!.. من الغريب أننا مع عنايتنا بترجمة هذا الكتاب إلى العربية، لم نلتفت لترويج نسخته الإنجليزية، مع أن ذلك متاح بأموال النفط الفائضة بالمليارات، ما عليها سوى أن تروج التوزيع - ولو مجاناً! - بالغرب، ليرى الغربيون بلغتهم وأسلوبهم ومفاهيمهم كيف تراكمت المغالطات المضلة فصارت تلالاً ثم جبلاً باتت تحجب الرؤية وتسلس إلى التجاوزات المتتابعة التى سوف تفتح أبواباً لن تنغلق للصراع بين الأديان!.

معرفة وفهم تراكمات وجذور المغالطات، وكيف شكلت منظور كثير من الغربيين عن الإسلام ورسوله، ضرورة بالغة الأهمية لتوجيه الخطاب إليهم، بلغتهم لا بلغتنا، وهى غاية جاءتنا على الجاهز فى كتاب الراهبة البريطانية السابقة كارين أرمسترونج الموضوعى المنصف، فيه تتبعت جذور العداء والصورة المغلوطة التى أخذت تتراكم فى الغرب ضد الإسلام ورسوله!.. كيف اعتقد يولو جوليو وألفارو - وغيرهما أن سطوع نجم الإسلام ما هو إلا إشارة لقدم المسيح الدجال، وهو «الدجال العظيم» الذى ورد وصفه فى العهد القديم، والذى ينذر حكمه بحلول الأيام الأخيرة للبشرية. وكيف جعل البعض يفسرون ما ورد فى سفر «رؤيا يوحنا اللاهوتى» عن وحش عظيم، يخرج من الهاوية ويتوج نفسه على عرش جبل المعبود، ويحكم العالم بأنها نذير يطابق

مقدم «محمد» الذى أتى بعد المسيح، ويومئى إلى انتشار الدين الذى جاء به، وإلى فتح المسلمين بيت المقدس، وبنائهم مسجدين عظيمين على جبل المعبد، وأن إقبال المسيحيين على هذا الدين الجديد ما هو إلا ارتداد وهرطقة! حتى جعل بعضهم يتساءل : «كيف سمح الله لهذه العقيدة (الكاذبة) بالظهور والانتشار؟ ترى هل تخلقى الله عن مناصرة شعبه وأهله؟!».

على مدار سنين، فيما فصلته كارين أرمسترونج، توالى صيحات التهجم المحمومة ضد نبي الإسلام، مدفوعة بالوهم الذى سيطر على الأذهان بالتفسير المغلوطة «للرؤيا»، والرعب الذى طفق يسيطر أن «محمدًا» - عليه السلام - دجال كاذب، نصب نفسه نبيا ليخدع العالم، وجعلت هذه الأوهام الكاذبة تصور نبي الإسلام بأنه فاسق يستمرئ الفسق البذى، ويدفع أتباعه إلى محاكاته، ويجبر الناس بحد السيف على اعتناق عقيدته. أما الإسلام فليس دينًا مستقلاً أو منزلاً، بل بدعة وصورة مشوهة من صور المسيحية، تؤمن بالعنف والسيف، وتمجد الحرب والقتل!

تعقب الراهبة البريطانية السابقة : كارين أرمسترونج - بأن هذه الأساطير الغربية، عادت إلى الظهور بعد ٢٥٠ سنة وأوروبا توشك على العودة للساحة الدولية، ولتعيد رسم هذه الصورة الوهمية الخيالية لنبي الإسلام الذى حُرف اسمه إلى «ماهوند» Mahond، وأصبح مع انتشار هذه الأوهام على المستوى الشعبى - العدو الأكبر للهوية الغربية الناشئة! وصار - فيما تقول المؤلفة: «يرمز لكل ما نتمنى أن ننفيه عن ذاتنا. ولا تزال آثار الوهم القديم قائمة حتى يومنا هذا. إذ لا يزال الشائع عند الغرب أن يسلموا دون نقاش بأن محمداً ليس سوى رجل» استغل الدين فى تحقيق الفتوحات وسيادة العالم، وأن الإسلام دين عنف يعتمد على السيف، وذلك على الرغم - والكلام للمؤلفة - من وجود دراسات علمية وموضوعية كثيرة عن الإسلام ونبي الإسلام تثبت خطأ هذه الأسطورة المرتبطة (بماهوند)!

تتوقف الباحثة البريطانية، فى استقصائها تراكم عداة الغرب للإسلام، واستشراءه عن جهالة وسوء فهم واستسلام للأساطير.. تتوقف عند موجات الحروب الصليبية

التي تزامنت مع شن الحروب من الشمال ضد مسلمى الأندلس، وقيام البابا أوربان الثانى باستدعاء فرسان أوروبا عام ١٠٩٥ لما أسماه تحرير قبر المسيح فى أورشليم. تبرز كارين أرمسترونج كيف تفصح ملحمة «أنشودة رولان» التى ألقت فى زمن الحملة الصليبية الأولى عن جهل فاضح بالطبيعة الأساسية لعقيدة المسلمين، إذ صورتهم «عابدى أصنام» يركعون للآلهة «أبولو» و«تيرفاجان» و«محمد»!!.. وأنهم وباء وقذارة ينبغى تطهير الأماكن المقدسة منهم!!

تكشف أرمسترونج كيف صنعوا «أسطورة ماهوند» عدو الممالك المسيحية، وكيف صارت هذه الأسطورة الزائفة راسخة فى مخيلة أبناء الغرب، وكيف أدى هذا الوهم الكاذب الخيالى «لشخصية ماهوند» (نبي الإسلام) - إلى زيادة الصعوبة التى يواجهها الغربيون اليوم إذا حاولوا النظر إليه باعتباره - على الأقل - شخصية تاريخية جديدة بالدراسة التى يولونها لنابليون أو للإسكندر الأكبر!

يستغرب كل عاقل، مقدار خيبة الأساطير التى شكلت الوجدان الغربى بعامه عن رسول القرآن عليه السلام. فهو فى هذه الأساطير ساحر دبر «معجزات» زائفة ليخدع العرب السذج ويدمر الكنيسة فى أفريقيا والشرق الأوسط. تتحدث إحدى الحكايات عن نور أبيض أثار الذعر ثم ظهر آخر الأمر بالقرآن الذى أتى به محمد إلى العرب، وأخرى تروى أن محمدا قام بتدريب حمامه على التقاط حبات البازلاء من أذنيه ليبدو للرأى كأن روح القدس تنزل عليه. مهما غضبت فلن تستطيع إلا الإشفاق على تصديقهم: هذه الخزعبلات التى اصطنعها مغرضون لم يجدوا تفسيرا لنجاح الإسلام إلا بإنكار الوحى وتصويره أنه مجرد هرطقة أو فرقة خارجة على المسيحية، وهى أوهام تراكمت فى تكوين القلق من الإسلام ثم العداء له وللمسلمين.. سطوروا بها صفحات مخجلة لا يتسع المقام هنا لتفصيلها!!.. يكفى أن تعرف أن دانتى الذى يتشدد كثيرون بعقريته فى الكوميديا الإلهية، قد صور فيها محمدا - عليه السلام - فى الدرك الثامن من الجحيم فى عذاب مهين مع أرباب الفتنة التى أحدثت الانشقاق الدينى!!.. قريب من هذا الفكر الملبوس ما وقع فيه مارتن لوتر والبروتستانت وآخرون

من بعدهم درجوا - حتى في عصر النهضة - على نعت الإسلام «بالمذهب المحمدي» ونعت رسوله بأنه : «الدجال» الشهير بمحمد، أو بأنه النبي الكاذب، وإطلاق مسمى «المحمدية» Mohamadism بدلا من «الإسلام».. وهو ما صار يجرى الآن فيما تمد به الولايات المتحدة شبكة الإنترنت، متوهمة أنها بذلك تستطيع أن تخفى الإسلام الذى عم المعمورة ويتزايد معتنقه كل يوم فى أمريكا ذاتها!

تستعرض كارين أرمسترونج بعض مؤلفات الغرب الغارقة فى التجنى والزيف والوهم، حيث لم تبدأ محاولات التخلص منه، إلا مع ترجمة معانى القرآن وتوالى الدراسات التاريخية الموضوعية التى شهد القرن ١٨ بعض جهودها الرامية إلى تفهم أكثر للإسلام .. ككتاب «تاريخ المسلمين» لسايمون أوكلى (١٧٠٨)، وكتاب «أخلاق الأمم وروحها» لفرانسوا فولتير (١٧٥١)، واستشفاف المستشرق الهولندى يوهان يعقوب رايسكى (ت ١٧٧٤) للمسحة الربانية فى حياة محمد ونزول الإسلام، وثناء ادوارد جيبون على عقيدته التوحيدية بكتابه «تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية»، ومحاضرة كارلايل «البطل باعتباره نبياً» التى دافع فيها دفاعا حازا عن محمد عليه السلام - منكرأ أوام القرون الوسطى، وضمنها كتابه المعروف عن البطولة والأبطال (١٨٤١).

لم تنقطع للأسف زيوف الأوهام القديمة برغم هذه الكتابات الموضوعية، فبقيت تدلى بدلوها فى تأجيج التعصب والكراهية للإسلام، مثلما فعل شاتوبريان فى كتابه : «الرحلة من باريس إلى أورشليم ومنها إلى باريس» (١٨١٠-١٨١١) الذى بشر فيه - بخياله الصليبي - بوجوب سيطرة الغرب على العرب أرباب الهمجية والوحشية!! هذا العرق الملبوس الممدود الذى عبر عنه الجنرال اللنبي عام ١٩١٧ حين أعلن وهو على أعتاب القدس : «الآن قد اكتملت الحملات الصليبية!!

هذا هو ما كشفته كارين أرمسترونج - الراهبة السابقة - الباحثة فى تاريخ الأديان فى كتابها الرائع : «سيرة محمد».

.. ومع موضوعية وروعة ما كتبتة إنصافا للنبي والوحي، ولسيرته ودعوته، فظننى أن أخطر ما فى الكتاب ما كشفته عن قدم أثر الأساطير الغربية فى تشكيل الوجدان العربى بعامه إزاء الإسلام ورسوله.. هذه الأساطير التى تجذرت حتى بات الكثيرون هناك يقبلون الفكر الملبوس عن الإسلام بلا مناقشة، لا ينجو من الوقوع تحت تأثيره المغلوط إلا قليلون قرءوا وتمعنوا وفهموا، بعضهم أفصح كما فعلت، وبعضهم اشترى راحته بالسكوت !!!

مرة ثانية. ليست الغاية مقابلة العداء بعداء، فذلك يجافى الإسلام، ويفوت فرصة البيان والإيضاح. مقصدى أن نفهم الصورة هناك.. كيف أنها أوسع كثيرا من رسم مسيء أو شريط فيديو، وتدرك أن رؤيتها بكل جوانبها، هى الكفيلة بوضع رؤية شاملة، مدروسة لا عشوائية، تواجه هذا التجنى المبعد عن الحقيقة والإنصاف، وسيلة مواجهته الأولى تصحيح صورة وسلوك المسلم ذاته فى عيون الغرب، ومعها خطاب مدروس ومتواصل، بلغتهم ومنطقهم، يخاطب العقل بالحجة والبرهان، ويفوت فرص الإساءة الجاهلة أو المتعمدة، ويبطل موجات الكراهية والشحن ضد الإسلام والمسلمين، ويفتح منافذ لفهم متبادل لا غناء عنه للبشرية فى هذا الزمان، وفى كل زمان!



من الفوارق الكبيرة بين اليوم والبارحة، أنهم كانوا بأمس يفهمون أبعاد القضية ومساحة العداء للإسلام ورسوله وللمسلمين، ويملكون وسائل وأدوات التصدى لكثير من اللغو الذى حفلت به من قرون كتابات الغرب من افتراءات وخرافات وعداء دفين ضد الإسلام ورسوله مما تغدو معه الرسومات السيئة كقطرة فى محيط.. لم يحصر آباؤنا وأجدادنا أنفسهم فى صراخ أو تظاهر أو ولولة، وإنما استنطقوا مخزون علمهم، وشرعوا أقلامهم بالعربية وبغير العربية - لبيان شامل محيط لا يتمحور فى محض رد فعل متشنج أو حتى غير متشنج، وإنما يتسع بفهم وعلم وحجة ليقدّم لقراء العربية ولغيرهم بيانا وبحوثا شافية تعرف بحقيقة الإسلام ورسوله ﷺ، وتحض المسلم ذاته على أن يكون بسلوكه صورة مشرفة للإسلام.

وقد رأينا في كتاب حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل صورة لافتة للإحاطة بما كتبه عن الإسلام ورسوله المستشرقون والمبشرون، والمنصفون وغير المنصفين وهم أكثر، ولكتابات كتاب الغرب بعامة أعانه على ذلك إلمامه بالإنجليزية والفرنسية، ووعيه لمعرفة جذور هذه الضغينة التي يحملها الغرب للإسلام.

ظننى أن علو حناجرنا جاء على حساب دور عقولنا. أشعر بالخجل من الحاضر حين أجوب مثلا في دوحة العقاد، فأرى حجم وعمق ما قدمه هذا العملاق للإسلام بلا صخب ولا ضجيج ولا انفعال. هل تذكرنا في ردود أفعالنا الصاخبة بلا طحن، ماذا فعل العقاد في كتاب واحد : «ما يقال عن الإسلام»؟! في أكثر من ثلاثين مقالا، جاب أركان الأرض غربا وشرقا، وجنوبا وشمالا، في أوروبا وأفريقيا وآسيا وأمريكا، واستقصى العشرات من الكتابات هناك عن الإسلام وقرآنه ورسوله.. يقول في تقديمه للكتاب إن صفحاته مجموعة من المقالات عن الكتب التي ألفها كتاب الغرب عن الإسلام من شتى وجهات النظر، وإنه اختار الأكثر شيوعا واعتبارا في العصر الحديث، ليلخصها ويعقب عليها ويناقش ما يحتاج منها للمناقشة، وجمعها في كتابه ما يقال عن الإسلام يبتغى بها المزيد من التعريف بالإسلام والبحث عن حقائقه وأباطيل خصومه، لعلها تغنى طلاب المعرفة من القراء في الأمم الإسلامية.

يتناول العقاد في مقالاته المتنوعة، الإسلام والعصر الحديث، والإسلام والثقافة الأفريقية، ويوضح الفارق بين العقيدة الإلهية في الإسلام وغيره من الأديان، والفارق بين الأديان المغلقة كاليهودية.. وبين الأديان المفتوحة أو أديان الدعوة كالإسلام، وأوضاع وقضايا المسلمين السود في أمريكا، ومفهوم الجهاد في الإسلام.. وأغلاط المبشرين في نقد القرآن.. وغير ذلك من الموضوعات التي خاضت فيها كتب الغربيين. فهل كل هذه الأشتات صادرة عن نية واحدة أو قصد واحد؟ يتوقف العقاد عند هذا السؤال ليقول : إن المهم في هذه الكتابات هو محك الإخلاص في كتابتها. فمن هم المخلصون منهم؟ ولماذا يخلصون؟

المخلصون إما طلاب معرفة أو طلاب عقيدة، وقد يجمعهما طلب الحقيقة في عالم العلم وعالم الضمير، وفيما عدا هؤلاء يندر الإخلاص في كتابات الذين عرضوا في الغرب للمسلمين

أو لما اعتقدوه أو تعودوه، ولكنهم فى قلة الإخلاص أو سوء النية أنواع ودرجات! .. عن هؤلاء وأولاء دبح العقاد مقالاته بيانا لحقيقة الإسلام ودحضا لدعاوى المتعصبين والماديين والملحدين والمبشرين الذين لا يقلون عداوة للإسلام عنهم. ظنى أنه فضلا عن الأثر العميق لهذه البحوث التى كتبها العقاد فى أمم الإسلام، فإن ترجمتها إلى اللغات الغربية قيمة بتجلية صورة وحقيقة الإسلام هناك، ودحض الدعاوى والحملات والأغلاط سواء حركها العداء أم الجهالة أم نضوب المعرفة!

تذكرت وأنا أتابع قارئاً أو كاتباً، حملات الإساءة للإسلام - ماكتبه العقاد فى كتابه «الإسلام دعوة عالمية» عن آراء كتاب الغرب فى نبي الإسلام فأشار إلى كتاب «القادة الدينيين» Religious leaders .. من تأليف هنرى توماس ودانالى توماس.. بدأ ترجمتهما لنبي الإسلام قائلين : «فى القرن السابع، حين بدا على الدنيا أنها أصيبت بالجفاف، وحين فقدت اليهودية مولدها واختلطت المسيحية بموروثات الأمم الرومانية البربرية، نبع فى المشرق - فجأة - ينبوع صاف من الإيمان ارتوى منه نصف العالم... وإن حكمة الله لعجيبة ذات قوة فى قضائها العجيب، فإن هذا ينبوع الصافى قد انبثق من أجذب بقعة بين بقاع الأرض قاطبة: صحراء الجزيرة العربية.. وتروى الأخبار المأثورة كثيراً من المعجزات والخوارق التى صحبت مولد محمد وطفولته، ولكن محمداً لم يذكر هذه المعجزات ولم يذكر قط معجزة متصلة بشخصه أو برسالته، لأنه لم يأت كما قال بغير معجزة واحدة هى معجزة القرآن الذى تلقاه من وحى الله.. وقد جاء بالدين ليدعو إلى ملة إبراهيم وموسى والمسيح على هدى جديد».

يصف المؤلفان نبي الإسلام بأنه «كان محباً لإخوته من بنى الإنسان، بسيطاً فى معيشتة يأكل خبز الشعير ويخدم نفسه وإن اجتمعت له أسباب الثراء، ويتورع أن يضرب أحداً أو يسوءه بكلمة تقريع.. ولم يغتفر لنفسه أنه أعرض ذات مرة عن سائل ضريب.. وقد حاول أن يقابل كراهة أعدائه بالحب لأنه يعلم الناس أن أحب الخلق إلى الله أحبهم إلى خلق الله، ولكن عباد الأوثان بمكة لم يستمعوا لدعوة الحكمة والمحبة ونظروا إليه فلم يفهموا من قوله ولا عمله إلا أنه ناثر عليهم يسفه أحلامهم ويحطم أصنامهم، فصادروه وتعودوه

واعتدوا على حريته وأوشكوا أن يعتدوا على حياته».... «إن صاحب الدعوة الإسلامية لم يبدأ المخالفين له بالحرب، بل هم الذين بدأوه بها واضطروه إليها، وكان من خلائقه المعروفة أن يرحم الضعيف، ويأمر بالرحمة، ويفرق بالحيوان، وينهى عن التحريش بين البهائم، ويدعو أتباعه إلى ادخال السرور على قلوب المحزونين، وهو القائل: «أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك المؤمن سرورا أو تقضى عنه ديناً أو تطعمه خبزاً»... وهو القائل: «فكوا العاني وأجيبوا الداعي».

أشار المؤلفان إلى الخبر الذى ورد عن وقوف النبی لجنازة اليهودى، وإلى الأخبار الكثيرة التى وردت عن أدبه عليه السلام فى معاملة الضعفاء والأتباع، ومعاملة اليتامى والأيامى فقالا: «إن هذا الأدب هو أدب النبوة الإسلامية فى لبابها، وليس أدب القتال عنوانا لها كما حسب بعض الناقدين للإسلام على السماع». أما الجهاد، فهو فريضة يؤمر بها المسلم ويتعلم معها من نبيه أن «أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه».

يقول هنرى ودانلى توماس فى ختام السيرة: «الإسلام لا يخاصم الديانات الأخرى، بل هو دين يجمع ويؤلف، ولا يطرد أو يستثنى، ومن أدب المسلم أن يحترم عقائد غيره، وأن يؤمن بأن العالم أمة واحدة تدين لإله واحد، هو رب العالمين».

يورد العقاد فى كتابه الضافى «عبقريه محمد» مقارنة عقدها العالم الأوروبى الدكتور ماركس دودز Marcus Dodds فى كتابه «محمد وبوذا والمسيح» - Mohammed Buddha and Christ فى هذه المقارنة يقول العالم الأوروبى: «أليس محمد نبيا على وجه من الوجوه؟» ثم أجاب قائلا: «إنه على اليقين لصاحب فضيلتين من فضائل الأنبياء: فقد عرف حقيقة عن الله لم يعرفها الناس من حوله، وتمكنت من نفسه نزعة باطنية لا تقاوم لنشر تلك الحقيقة، وإنه لخليق فى هذه الفضيلة أن يسامى أوفر الأنبياء شجاعة وبطولة بين بنى إسرائيل، لأنه جازف بحياته فى سبيل الحق، وصبر على الإيذاء يوما بعد يوم عدة سنين، وقابل النفي والحرمان والضعينة، وفقد مودة الأصحاب بغير مبالاة. فصابر على الجملة قصارى ما يصبر عليه إنسان دون الموت الذى نجا منه بالهجرة، ودأب مع هذا جميعه على بث رسالته غير قادر على إسكاته وعدّ ولا وعيد ولا إغراء.. وربما اهتدى إلى

التوحيد أناس آخرون بين عباد الأوثان، إلا أن أحداً آخر غير محمد لم يقيم في العالم مثل ما أقام من إيمان بالوحدانية دائم مكين، وما أتيح له ذلك إلا لمضاء عزمه أن يحمل الآخرين على الإيمان. فإذا سألت سائل: ما الذى دفع بمحمد إلى إقناع غيره حيث رضى الموحدون بعبادة العزلة؟ فلا مناص لنا أن نسلم أنه هو العمق والقوة فى إيمانه بصدق ما دعا إليه. والحقيقة التى يراها المنصف مسلماً كان أو غير مسلم - أن رسول القرآن عليه السلام قد جاءه الإغراء الذى أشار إليه العالم الأوروبى فى أحوال كثيرة فما تغير.. جاءه الإغراء وهو داع مهدد فى سربه، وجاءه وهو عزيز الشأن بين المؤمنين بدعوته، فما حفل بالإغراء وهو بعيد من مقصده ولا حفل له وهو واصل إليه!

فهل وعينا أن صورة وسلوك المسلم، هما أساس وآية رسالة الإسلام إلى الدنيا، والتفتنا إلى أمثال هذه المؤلفات المكتوبة أصلاً بلغات الغرب ولؤلفين غربيين، والتفتت إليها الهيئات الإسلامية التى تملك المال والإمكانات، لتتدبر الوسائل لبث هذه الكتابات إلى أوروبا والأمريكيتين بدلا من الاحتجاجات الصاخبة المتشنجة التى سرعان ما تتلاشى بلا طحن ويطمرها النسيان، بينما فى كتاباتهم بأقلام المنصفين منهم ما يصد ويفحم حملات الإساءة والكراهية، ويجلى الصورة الصحيحة المنصفة للرسول وللإسلام الذى يعم العمورة ديناً هادياً للعالمين إلى يوم الدين!



اعتذار بابا الفاتيكان!



الاعتذار الذى أبداه بابا الفاتيكان فى خطابه (يونيو ٢٠٠٨)، للأطفال الذين وقعت عليهم اعتداءات من بعض رجال الدين فى أستراليا، وحوادث أخرى سابقة - هذا الاعتذار مواجهة صادقة لعوارض لا يلبق تجنبها.. وهى عوارض لم ينج منها بعض رجال هذا الدين أو ذاك.

هذه الحوادث، مهما كانت عارضة، تلفت إلى أن التدين الصادق ليس مظاهر وطقوسا شكلية، وإنما هو إيمان داخلى عميق يهتم بسواء النفس ونقاء الضمير.. السواء لا يلزم بالضرورة المسوح الذى يتشع به بعض رجال هذا الدين أو ذاك، أو أدعياء التدين المهتمون بمظاهر الرياء والتشنج دون جوهر الداخل وصفاء الوجدان والسريرة، وسلامة العقيدة، والتزام الحق فى الظاهر والباطن!

فى تاريخ الأديان آلاف مؤلفة من البسطاء الذين آمنوا فى صدق، وحافظوا على إمساحهم بحبل الله بغير تظاهر ولا ادعاء، والتزموا الحق فى باطنهم وظاهرهم، وفى سلوكهم وأعمالهم وتصرفاتهم.. لم ينشغلوا بالرياء والتظاهر، ولا بالتصنع والافتعال، وإنما عمرت قلوبهم بإيمان جارف عميق لا يعنيه إلا أن يكون المؤمن رسالة دينه وآيته الصادقة المعطاة إلى الدنيا!

هذه الكلمات لا تصادر دور وعطاء علماء ورجال الدين فى كل ديانة، ولا تعمم جنوح البعض هنا وهناك على الكل، وإنما هى تقصد التركيز ولفت الانتباه إلى قيمة «داخل» الآدمى. هذا «الداخل» إذا عمر بالإيمان، هو الذى يقود خطى الآدمى إلى الحق والصواب، لا يتوقف ذلك على مظهر ولا على زى ولا على مسوح معين، وإنما ينشد غايته فى بساطة وصدق وبلا استعراض إلى صفاء الروح والرضا وقناعة النفس.

أريد بذلك أن أقول إنه لا وصاية لأحد على دين.. الدين لله، وهو علاقة بين الآدمى وربّه عز وجل.. لا وصى فيها ولا قيم ولا وسيط. لا محل لتشنجات المتشجنين ولا لأدعياء

الوصاية والقوامة على الدين، ولا لأمرء التكفير الذين يعطون لأنفسهم الدخول في علاقة الإنسان بربه، وفرض ما يريدون وصولاً لأغراض ومغانم لا علاقة لها بالدين.. أى دين! ما أسهل التشدد بالكلمات، وما أصعب الالتزام بالسلوك والأعمال.. عن هذه الآفة يقول سبحانه وتعالى في قرآنه المجيد : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ (الصف ٢ - ٣) .. أمّا الرياء، فهو مزيج من التظاهر والاستعراض، يصاحبهما كذب ونفاق ومداينة! تضيع الأمم، مثلما يضيع الأفراد، ويضيع الحق.. حينما يشيع الرياء والنفاق، ولا يلتفت المجتمع والناس إلى التفرقة بين الحق وإن استحى من الإعلان عن نفسه، وبين الباطل مهما علت موجته وأحاط نفسه بالتزيين والتجميل.. تستقيم خُطَى الإنسانية حين تدرك أنه لا قيمة ولا أثر إلا بالنية الخالصة والعمل الصادق!

○○○

الإسلام دين الإنسانية



أحسنّت سلسلة قضايا إسلامية صنعا، حين أصدرت عدة طبعات آخرها الثالثة في مايو ٢٠٠٧ لكتاب منصف للإسلام.. للمستشرقة الألمانية آنا ماري شيميل التي فارقت الدنيا في يناير ٢٠٠٣ الكتاب صدر أصلا بالألمانية في مدينة شتوتجارت بألمانيا عام ١٩٨٩، وترجمه وعلق عليه الدكتور صلاح عبد العزيز محجوب بعنوان «الإسلام دين الإنسانية».

قدم للكتاب ومؤلفته، الصديق العالم الجليل المستنير الدكتور محمود حمدي زقزوق وزير الأوقاف، ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. يروى لنا الدكتور زقزوق أنه تعرف على هذه المستشرقة في الستينيات من القرن الماضي من خلال بحوثها الإسلامية الجادة التي تمتاز بالأمانة العلمية والدقة الموضوعية، ثم التقى بها لأول مرة بأحد المؤتمرات بجامعة ماربورج بألمانيا عام ١٩٩٨، وهي الجامعة التي تخرجت وتخرج بدوره فيها إبان دراسته بألمانيا منذ أكثر من ربع قرن.

يحكي لنا الدكتور زقزوق عن مشهد إنساني، وعن قلادة عليها اسم الجلالة كانت تتزين بها المستشرقة الألمانية التي يرجح كثيرون، ولقرائن أخرى، أنها اعتنقت الإسلام. ولكن الشيء المؤكد أنها اتخذت موقفا شجاعا قد يحجم عنه مسلمون إن عاشوا ظروفها المحيطة في ألمانيا! فتحت المستشرقة الألمانية آنا ماري شيميل على نفسها النيران حين علقت على فتوى الخميني بالنسبة لسلمان رشدي صاحب رواية «آيات شيطانية»، بأن الأفطع من هذه الفتوى «إهانة أمة»! هذه الإهانة البالغة التي ارتكبتها رشدي في حق الإسلام بروايته الشيطانية!

يومها دفعت المستشرقة الألمانية ثمنا فادحا لإنصافها للإسلام. تعرضت لحملة ظالمة من الإعلام الألماني الذي طلب من الرئيس الألماني عدم تسليمها «جائزة السلام» التي كان اتحاد الناشرين الألمان قد قرر منحها لها بمعرض فرانكفورت الدولي للكتاب، وارتفعت موجة لتحريض اتحاد الناشرين على سحب الجائزة، ولكنها عبرت الموقف بشجاعة وحصلت أيضا على الجائزة!.

الكتاب : «الإسلام دين الإنسانية» - مكتوب أصلا كفصل وافي في كتاب نهض على جمعه عن أديان الإنسانية الأستاذ «فيدريش هايلر» بجامعة ماربورج، ولكن أنا ماري شيمل عادت إلى مراجعة هذا الفصل مراجعة شاملة وأضافته إليه إضافات كثيرة، وختمته بفصل ضاف عن الإسلام في العصر الحديث ونشرته في كتاب مستقل هو الذي ترجم وعلق عليه لسلسلة قضايا إسلامية الدكتور صلاح عبد العزيز محجوب.

الكتاب قيمة مضافة لكتابات الغرب المنصفة عن الإسلام، عرضت فيه المستشرقة الألمانية لأبحاث الأوروبيين عن الإسلام منذ القرن (١٧) الميلادي، المنصفة والمتجنية، وإلى ترجمة معاني القرآن الكريم التي كانت مقدمة لبداية الدراسات الحقيقية الجادة عن الإسلام. تعرض بعد ذلك إلى الجزيرة العربية في الجاهلية، قبل أن تعقد فصلا ضافيا لرسول القرآن، ومنه إلى انتشار الإسلام، فأركانه وتعاليمه، وسننه وشريعته، وعلم الكلام والفلسفة الإسلامية، والفقه والمذاهب الإسلامية، والتصوف والطرق الصوفية، قبل أن تختتم بفصل عن الإسلام في العصر الحديث. هذه دراسة منصفة للإسلام، نحن بحاجة أيضا إلى ترويجها بلغتها الألمانية التي كتبت بها ليعرف الغرب مقدار التجنى الجارى الآن على الإسلام ورسوله!



التنوير الآتى من الشرق!



أخذنى الأستاذ الجليل الدكتور شوقى جلال فى رحلة دسمة ممتعة مع مقدمته والكتاب الذى ترجمه بالعدد ٣٤٦ (٢٠٠٧/١٢) من السلسلة الكويتية القيمة : «عالم المعرفة». دعانى للقراءة مكانة المترجم وإنتاجه الغزير القيم ، واسم وموضوع الكتاب : «التنوير الآتى من الشرق»..

Oriental Elightment, The ecouter between Asian and western thought

الكتاب رحلة عميقة فى العقل الشرقى وإشعاعه القادم من الهند والصين واليابان ، وتلاقحه مع العقل الغربى من خلال دراسة شاملة تعد استطرادا بالفعل للكتاب المهم جدا الذى وضعه المفكر العربى إدوارد سعيد عن «الاستشراق».. من البداية يشدك الدكتور شوقى جلال إلى أن العقل غايته. العقل ليس مجرد تراكم كفى للمعارف ، وليس كذلك نموا ذاتيا ، ولا هو قسمة عادلة بين البشر ، ولا هو خزانة معلومات ، وليس مكتفيا بذاته ، وإنما العقل منتج ومنسق شبكى للفعل والتفاعل الاجتماعى فى إطار شامل يجمع الإنسان والمجتمع والبيئة فى وحدة تكاملية. من أسف أننا قد ألفنا على مدى قرون وضع رءوسنا على وسادة اليقين الموروث ، وغاب الفعل الاجتماعى ، مما أفضى إلى جمود الفكر وغياب ديناميكية الحياة عن وعينا. اعتبرنا الشك رذيلة ، فقعدنا عن الفحص والتجديد والإبداع ، فلا غرو إذن فى هذا السياق أن تترسخ النرجسية الذاتية بنقيضها : عبادة الذات ، والعدوانية على الآخر!

والكتاب فيما قدم الدكتور شوقى جلال رسالة بالغة الأهمية لنقد العقل الإنسانى بعمامة فى انحيازاته وتطلعاته ، أو فى تراجمه وتقاعسه بل وتزييفاته. يؤكد ما ذهب إليه الدكتور إدوارد سعيد فى كتابه «الاستشراق» أن رسالة الغرب فى الشرق لم تكن كالزعم رسالة حضارية إنسانية تجاه الشرق ، وإنما استهدفت احتلاله واستغلاله عبر دروب متناقضة بين الوقوع فى أسر سحره وعيقه ، وما بين التعالى عليه أو إزدرائه. ومع ذلك استطاع الاستشراق أن يجمع من النقيضين وعيا نقديا لتراث الشرق ، واستكشف

- وإن كان هدفه إحكام القبضة - مناطق هامة لدوائر ورؤية الفكر النابع من الشرق. هذه المقدمة دعوة وتمهيد. دعوة للقراءة، وتمهيد لتقبل الدراسة النقدية التي تؤهل لتفاعل نقدي مع التراث والآخرين، ودعوة إلى أن ينهل الفكر العربى فى فهم واستبصار من كل إنجازات تراث الشرق، ويعقل ناقد لا يكابر ولا يعاند وإنما تحفزه رغبة الفهم والتفكير المتجدد المستوعب لدور المنافسة الحضارية. هذه الدعوة دعوة للإقلاع عن حياة الإشباع الغريزى والاستهلاك المظهري، إلى حياة نقدية متفاعلة قوامها الإبداع والإنجاز!

يتوقف المؤلف عند النظرات التي أخذت الشرق وأفكاره وفلسفته بل وأصوله، مأخذاً سلبياً، وتطرف آخرين إلى قالة الاختلاف الأبدى بين الشرق والغرب، أو التبعية الهامشية له، إلى حد وصل بالبعض إلى إغفال دور التراث الشرقى داخل التراث الفكرى الغربى بأوسع معانيه. ولا يخفى المؤلف هنا أن هدفه من هذا الكتاب هو محاولة تغيير هذه المدركات وبيان أن الشرق وابتداء من عهد النهضة فصاعداً قد مارس تأثيره الساحر القوى على عقول غربية، ودخل الحياة الفكرية والثقافية الغربية من روافد مهمة متعددة وليست عابرة!

فى تناوله للحوار بين الأديان ينقل المؤلف فى موضوعية محمودة، عن ميرياس إلياد مؤرخ الأديان المقارنة قوله : «إن الثقافة الغربية سوف تواجه خطر الانحسار وتتحول إلى نظرة محلية محدودة وعقيم إذا ما دأبت على احتقار أو إنكار الحوار مع الثقافات الأخرى».



بل نور الهداية وسلامة اليقين!



فى خفة واندفاع غير متبصر - رمت كلمات بابا الفاتيكان (ديسمبر ٢٠٠٦) - رمت الإسلام ورسوله عليه السلام بأنهما جاءا بالسيف، وأنه به وبالعنف انتشر!، وهذه الكلمات المتجنية كلمات قديمة مكررة، لاقت على مدى القرون ردودا مفحمة، استخرجت من كنوز القرآن المجيد والسنة النبوية ما يدحضها ويثبت أن الإسلام دين هداية وإقناع، وسلام ورحمة ومحبة، منهجه الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن.. لذلك لست أريد أن أحاجي البابا أو سواه بما اعتدنا أن نحاجي هذه الدعاوى الباطلة به، وإنما أريد هنا أن أحاجي العالم بواقع الإحصائيات التي لا تكذب، والتي تؤكد أن الإسلام بلا إرساليات! ماضٍ فى انتشاره، تتزايد أعداد المؤمنين به فى تصاعد متنام إلى اليوم، برغم كل حملات التشويه وبث الكراهية ضد الإسلام والمسلمين. فإذا كان الإسلام ينتشر اليوم ويتزايد معتنقه، فهل تراهم يتزايدون اليوم بحد السيف؟!.. وأين هو السيف والمسلمون يعيشون زمنا كسيحا يتعرضون فيه للهوان، وتنزل بهم نوازل الغزو والتدمير والإبادة؟!.. كان مقتضى كلمات زعيم الكنيسة الكاثوليكية، أن نرى الآن تراجعاً وانحساراً للإسلام، بينما يقول الواقع إن الإسلام آخذ فى الانتشار والازدياد، وفى أوروبا قبل انتشاره المشهود فى آسيا وأفريقيا، بل وتتزايد أعداد معتنقيه فى عقر ديار الولايات المتحدة رغم حملتها الشعواء على الإسلام والمسلمين!!

هذه الحقيقة لا تشهد بها فقط إحصائيات الأزهر الشريف.. وإنما تشهد عليها إحصائيات الغرب ودوائر معارفه، ودراسات معاهده ومراكز دراساته.. تُجمع كلها على أن الإسلام فى انتشار متزايد، وعلى أن انتشاره بلغ حد إقلاق دوائر الغرب الكارهة للإسلام والمسلمين، فنضحت به تعليقاتهم على دلالة الإحصائيات والدراسات على نحو لا مجال لإنكاره!

إحصائيات الأزهر الشريف لا تحصى كل من أسلموا، فهناك آلاف يسلمون خارج الأزهر، ومع ذلك توری الاحصائيات أن باحته قد شهدت - رغم الحملة الظالمة - إقبالا متزايدا لافتا على إشهار الإسلام، أقبل إليه رجال ونساء من كل فج عميق من شتى بقاع الأرض وقاراته الست ليشهروا إسلامهم.. تقول الاحصائيات ما بين عامى ٢٠٠٣-٢٠٠٥ أنه قد جاء إليه من القارتين الأمريكيتين من أسلموا من الولايات المتحدة ومن كندا والمكسيك والبرازيل وبيرو وشيلي والأرجنتين وبنما وفنزويلا وجامايكا وسلفادور وكولومبيا والمالديف وبوليفيا.. وجاء من أوروبا من أسلموا من روسيا وألمانيا وبريطانيا وفرنسا والنمسا وبولندا وإسبانيا والسويد والنرويج وسويسرا وبلجيكا والمجر وأيرلندا وسلوفانيا ومقدونيا واليونان ومالطة وهولندا وفنلندا والتشيك وسلوفاكيا ورومانيا وبلغاريا وكرواتيا ويوغوسلافيا والدانمرک وألبانيا والبوسنة والهرسك والبرتغال وقبرص.. جاء من أسلموا من استراليا فى أقصى الأرض، ومن أقاصى وأواسط وشمال وجنوب آسيا.. من اليابان والصين وسنغافورة وأوكرانيا والهند وكوريا وسريلانكا وأندونيسيا وبيلا روسيا والباكستان ومنغوليا وماليزيا ومانيمار وبنجلاديش والفلبين وتركستان وطاجستان وتايلاند وكازاخستان وأذربيجان ومولدوفا وكمبوديا وليتوانيا وكوسوفا وأرمينيا وهونج كونج وتركيا.. أما أفريقيا فلا توجد دولة من دولها إلا وحضر منها من أسلموا، ومن بقاع تكاد تكون مجهولة.. أعداد من أسلموا إناثا وذكورا، تدهش المتابع للحملة الضارية الموجهة للإسلام والمسلمين!.. تقول الإحصائيات إن من أشهروا إسلامهم بالأزهر من الولايات المتحدة الأمريكية ناهزوا ستمائة غير من أسلموا هناك.. ومن فرنسا قرابة مائتين، ومن ألمانيا ١١٦.. أغلبهم من الإناث، حتى سويسرا التى لا يظن أحد أن فى أهلها من يهتمون بالإسلام، أسلم منها فى الأزهر اثنان وسبعون سويسريا منهم ٥٦ من الإناث.. ينظر الناظر فى إحصائيات الأزهر فيدهشه أن يسلم من روسيا ٨١٣.. أما اليابان : بلاد الشمس فى أقصى الأرض، فقد أسلم منها ٤٥ أكثرهم من الإناث.. ومن الصين حيث لا يتصور أحد : أسلم منها ٣٦٨.. ومن بريطانيا قدم إلى

قاهرة المعز ٢٦٥ بريطانيا غالبيتهم من النساء ليظهروا إسلامهم في الأزهر الشريف؟.. كنت أتمنى أن استطرد.. فالأرقام لافتة، تشهد بأن موجة الإسلام صاعدة في ازدياد رغم حملات الكراهية والافتراء، وأن أعدادا من شتى البقاع يفارقون أوطانهم بأقصى الأرض من قارات الدنيا الست، ليظهروا بالأزهر اعتناقهم الإسلام الذي تقول الإحصائيات الأجنبية قبل الإسلامية، إن أعداد المؤمنين به في تزايد مستمر، وجاوز تعدادهم المليار وخمسمائة مليون مسلم.. بلا إرساليات وبلا حملات للتبشير!

يعرف المتابعون لدائرة المعارف البريطانية، وهي أشهر وأدق وأضبط دوائر المعارف العالمية - أنها تُصدر كل عام كتابا سنويا Year Book - بما يستجد من أخبار العالم.. في الكتاب السنوى ٢٠٠٤ أن عدد المسلمين بمنتصف ٢٠٠٣ قد بلغ فى آسيا ٠٠٠ ٨٩٦٨٨٠ مسلم (مقابل ٠٠٠ ٣٢٥ ٠٣٤ مسيحي، وأن تعدادهم فى أفريقيا بلغ ٠٠٠ ٣٤٤ ٠٢٠ مسلم) لقاء ٠٠٠ ٦٤٠ ٣٩٤ مسيحي.. على أن أهم ما ورد به البيان الإحصائى لأعداد المسلمين بالولايات المتحدة الأمريكية ... يقول البيان إن تعداد المسلمين بالولايات المتحدة عام ١٩٠٠ لم يزد على عشرة آلاف، ولكن أعدادهم ارتفعت لتبلغ فى منتصف ١٩٧٠ مليون مسلم منهم مائتا ألف مسلم من السود.. وفى منتصف عام ٢٠٠٠ نرى طفرة لافتة زاد فيها عدد المسلمين إلى ٠٠٠ ٨٥٠ ٥ مسلم.. الدهش أن موجة هذا التزايد المتصاعد لم تتراجع أو حتى تتوقف تحت تأثير الحملة الشعواء الضارية التى شنت على الإسلام والمسلمين فى أعقاب «سبتمبر ٢٠٠١».. يقول البيان الإحصائى للكتاب السنوى لدائرة المعارف البريطانية إن عدد المسلمين فى الولايات المتحدة قد زاد فى منتصف عام ٢٠٠٥ ليبلغ ٠٠٠ ٦٤٩١ مسلم بزيادة ستمائة ألف مسلم عن تعداد سنة ٢٠٠٠!

يظل تفسير هذه الظاهرة أمرا محيرا للغرب.. كيف يزداد عدد المسلمين البيض والسود فى الولايات المتحدة الأمريكية هذه الزيادات اللافتة رغم الهجوم الضارى هناك على الإسلام والمسلمين، وعلى رغم حملة التجنى الملاحقة للمسلمين فى خارج وداخل الولايات المتحدة!..

فى كتاب Romania Factbook ٢٠٠٥ ، وهو متاح على شبكة الإنترنت ، بيان لتعداد المسلمين فى دول العالم ، نرى فيه أن بالقارة الأوروبية حيث قوة الغرب يبلغ تعداد المسلمين فى النمسا ١٨١٠٠٠ مسلم ، وفى بلجيكا ٣٦٩ ٠٠٠ مسلم ، وفى فرنسا نحو ستة ملايين مسلم.. وقراية أربعة ملايين فى ألمانيا ، وفى اليونان ١٥٨ ٠٠٠ مسلم ، وفى المجر ٦٠٦ ٠٠٠ مسلم . وفى أيرلندا ٧٦ ٠٠٠ مسلم ، وفى البلاد الواطنة قراية مليون مسلم ، وفى النرويج بأقصى الشمال الأوربى ٤٦ ٠٠٠ مسلم ، وفى بولندا قراية المليون مسلم ، وفى رومانيا ٢١٦ ٠٠٠ مسلم.. أما روسيا فيبلغ عدد المسلمين فيها قراية خمسة عشر مليون مسلم ، وفى السويد بأقصى الشمال ٣٠٣ ٠٠٠ مسلم ، وفى سويسرا ٢٢٥ ٠٠٠ مسلم ، وفى بريطانيا زاد عدد المسلمين على المليون وبلغ ١١٦٩٠٠٠ مسلم ، وفى يوغسلافيا بلغ عددهم ١٩٪ من جملة السكان .

تعمدت التوقف عند الأرقام فى أوروبا ، ولم أتوقف عند الأرقام والنسب فى بلدان آسيا وأفريقيا التى بلغ تعداد المسلمين فى بعضها ١٠٠٪ من مجموع السكان ، ففىما عدا الأندلس التى غادرها المسلمون من قرون ، لم يقترب أى جيش أو قوات إسلامية من أى دولة أوروبية ، ومع هذا نجد الإسلام قد وصل إلى أقصى الشمال الأوربى حيث البرد والصقيع ، واللافت أن نجد أعدادا كبيرة للمسلمين فى دول كروسيا وفرنسا وألمانيا وإنجلترا والأراضى الواطنة ، بلغت قراية خمسة عشر مليونا فى روسيا ، ومع ذلك لا نجد فى إسبانيا حيث استمر الحكم الإسلامى قرونا سوى ٤٨٠ ٠٠٠ مسلم بنسبة (١,٢ ٪) ، وهى بالغة التواضع بالقياس إلى دول كروسيا (١٠٪) وفرنسا (١٠٪) وألمانيا (٣,٧٪) والمجر (٦٪) ومالطة (١٤٪) - الأمر الذى يؤكد بهتان الزعم الكاذب بأن الإسلام انتشر بالسيف !

الحجة البالغة أيضا ، أن تعداد المسلمين فى الولايات المتحدة الأمريكية - حسب الكتاب الرومانى - قد بلغ نحو عشرة ملايين ، وفى كندا قراية النصف مليون مسلم ، وهذا يعانق دلالة التعداد فى أوروبا ، ويطرح تساؤلا قاطعا لا تجيب عنه كلمات بابا الفاتيكان : كيف انتشر الإسلام هذا الانتشار فى أوروبا وأمريكا ، فضلا عن الانتشار الهائل فى آسيا وأفريقيا

وفى دول وبقاع لم تقترب منها أى جيوش أو فتوحات إسلامية.. ما تفسير هذا المد الإسلامى إلا أن تكون عقيدة وأحكام الإسلام التى هدت وجذبت إليها هذه الملايين الغفيرة التى أقبلت طائعة مختارة إلى دوحة الإسلام رغم حملات القمع والكراهية التى لاحقت وتلاحق الإسلام والمسلمين؟!!

فى دراسة بحثية للمعهد البحثى المسيحى Christian Research Institute وهى متاحة على الإنترنت، أن الإسلام يزداد انتشارا وقوة فى أمريكا، وأنه بات يمثل أقوى التهديدات أهمية للكنيسة الأمريكية، وأن المؤشرات تورى بأنه أسرع الأديان انتشارا ونموا فى العالم وفى أمريكا، وأن نسبة نموه وانتشاره فى الولايات المتحدة ما بين سنتى ١٩٨٩، ١٩٩٨ - قد زادت بنسبة هائلة، كذلك فى فرنسا وألمانيا والمملكة المتحدة، وأن المصادر المسيحية والإسلامية تتفق على تأكيد أن الإسلام هو أسرع الأديان والمذاهب انتشارا الآن فى الولايات المتحدة، وأن الكتاب السنوى (٢٠٠٠) للكنائس الأمريكية والكندية أعطى مؤشرات مقلقة لزيادة المسلمين، وتتوقف الدراسة البحثية حائرة فى محاولة استشفاف أسباب هذا التزايد السريع فى أعداد المسلمين، لتتقل فى النهاية عن جيمس دريتك James Dretke قوله :

It is great thrill to see many Muslimes on our doorsteps. While we cannot easily gain entry in their countries.. God has brought them to ours

«إنها لإثارة كبيرة أن نرى الكثيرين من المسلمين على أعتابنا، وبينما لا نستطيع بسهولة أن ننال الدخول إلى أوطانهم - فإن الله قد أتى بهم إلى أوطاننا!!»
لا يوجد بيد الإسلام والمسلمين سيف ولا مدفع.. لا فى الولايات المتحدة الأمريكية ولا فى غيرها، وليس فى جمعيتهم فى هذا الزمن الكسيح الذى يتعرضون فيه لما يتعرضون له أى قوة يتساندون إليها فى نشر الدعوة، إلا أن تكون قوة الدين والعقيدة، وعدل ورحمة ونور هداية ما جاء به الإسلام الذى طفق ينتشر من أربعة عشر قرنا بالهداية وبالحكمة والموعظة الحسنة.. لم يتوقف الغرب طوال هذه القرون عن محاربته والتهجم

عليه، ومع ذلك يتزايد انتشاره وللآن على رغم ما يقع عليه وعلى المسلمين من عدوان في زمن التراجع والهوان؟! ما سر أن تتراجع قوة المسلمين، بينما يتقدم الإسلام نفسه ويقبل عليه أهل الأرض طرا حتى في عقر الدولة الأمريكية المتحكمة في أقدار العالم؟.. تقول الحقائق الدامغة إن البقاع الشتى التى يدخلها الإسلام ويقبل أبنائها عليه، لم تدخلها جيوش إسلامية، ولا توجد بها إرساليات تبشيرية.. لم يجتذب هؤلاء المقبلون إلى الإسلام إلا ما وجدوه فى واحتة من توحيد يقبله العقل، وهداية تقود إلى إيمان غامر، وعقيدة سليمة، وأحكام للمعاملات حكيمة ومنصفة، ورحمة مرفقة، وإنسانية فياضة تغمر الإنسان بالقيمة والحرية والعدل والكرامة، وتعطى للحياة معنىً موصولاً بسقفٍ ظليل وسلام وارف واحترام كامل للإنسانية لا ينظر إلى عرق أو لون أو أصل أو مال أو جاه، وإنما يحترم الإنسان ويصله بمناقبه وشمائله وسجاياه حيث كان!



الدقة والإتقان



مهجة العمل في الإسلام

فى عالم اليوم، الذى تنامى فيه الإنتاج فى كل لون، تناميا هائلا من حيث الكم والنوع والكيف، بات الاتقان والدقة عصب هذا الإنتاج ومفتاح ما يفرضه قانون المنافسة على الجميع، سواء فى طلب الجودة بعامة، أو فى أفضليات التسويق المحلى والخارجى.. لا يقتصر طلب الدقة والإتقان على عالم الصناعة أو الإنتاج المادى بعامة، بل يكاد يتفق الناس اليوم.. عاملهم وباطلهم.. على أن «الإتقان» و «الدقة» هما قوام كل عمل مادى أو فكرى أو أدبى.. بدونهما يفقد العمل المادى عناصر جودته وإتقانه وتميزه، مثلما يفقد العمل الفكرى والأدبى روحه وجدته وطرافته.. ربما لهذا الإتفاق كانت كلمة «الدقة» ومشتقاتها من أكثر الكلمات شيوعا فى زماننا!

هذا المطلب : الإتقان والدقة، سجية إسلامية تأتى فى إطار منظومة كبرى تحترم العمل والعاملين.. العمل الطيب هو حجة الإسلام إلى الدنيا التى أراد لأبنائه أن يكونوا فيها بعملهم فى مكان الريادة تعبيرا عن قيمه الأصيلة وإسهاما مشعرا فى عمارة الدنيا وإثراء الحياة ونفع الإنسان.. لم يقبل الإسلام من المسلم أى عمل من قبيل تسديد «الخانات»، وإنما نبهه إلى قيمته والتفات الخالق عز وجل إليه، فورد بالقرآن المجيد : ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَمَا يَرْىَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة ١٠٥).. تلفت هذه الآية أنظار المؤمنين إلى أن عملهم مراقب ومرئى ومشهود.. من الله تعالى ومن رسوله ومن المؤمنين.. فيدل القرآن بذلك على أن المنزلة عنده سبحانه وتعالى هى بالعمل للدنيا والآخرة : ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ (المطففين ٢٦).. هذا التنافس قوامه الإخلاص والإجادة.. فكان ﷺ - يقول لأصحابه : «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه».. الإتقان هو روح العمل ومهجة الإسلام، وهو المدخل للإجادة والدقة التى يكاد يتفق عليها الناس عاملهم وباطلهم!

ولكن !.. ما هي الدقة، وما هو الأداء الدقيق صنعا كان أو تعبيرا، وهل فى مقدور الإنسان العادى أن يكون دقيقا فى غير حرفته أو مهنته أو فى غير تخصصه أو فنه؟! يبدو أن «الدقة» هى أصلا المطابقة بين تصورنا الداخلى للموضوع والصورة التى نقوم بأدائه بها، وبين نموذج خارجى استوحيناه أو مفترض اتباعه اختيارا أو جبرا، تصورا وأداء.. فالدقة تحمل دائما اهتماما بالضبط والانضباط والحساب والمسئولية ولذلك فلا توصف آلام المريض بالدقة، أو يوصف بها غضب المشتري لسوء حالة المبيع، أو حزن الوالد على رسوب ولده فى الامتحان، أو استياء الناس من غلاء الأسعار، أو ازدحام الطرقات فى المدينة، أو عدم نجاح الحكومة فى مكافحة تجارة المخدرات أو فشلها فى حل مشكلة المجارى! هذه صور لا توصف بذاتها بأنها دقيقة، وإنما المراد أن يعالج كل منها بدقة، سواء من جانب الطبيب أو الخبير أو المدرس أو الاقتصادى، أو من جانب الاختصاصيين فى مكافحة المخدرات وغيرها مما يتولاها أهل الاختصاص.. لأن هؤلاء جميعا هم الموكلون إليهم العمل المطلوب منهم فى أدائه أن يلتزموا الحساب والدراسة والضبط والانضباط والمسئولية!.

نعم، من حق الإنسان العادى أن يضيق بما يؤدى إليه بغير دقة وإتقان.. ومن الوارد أو المحتمل أن يتألم وأن يغضب وأن يحزن وأن يستاء، وأن يعبر عن ذلك علنا، لأنه فى النهاية هو الذى يكتوى بعدم دقة أداء الفنيين والاختصاصيين أو بسوء تشخيصهم أو سوء علاجهم وتدبيرهم أو قلة تبصرهم للعواقب أو ضيق أفقهم أو قصور وتخلف معلوماتهم وأدواتهم ومعداتهم. ولكن لا ينبغى له أن يتجاهل الفارق بين العادى وبين الفنى المتخصص أو المحترف أو صاحب المهنة أو الحرفة أو الفن. فالإنسان العادى يحتكم عادة إلى خبراته بشئون الدنيا والحياة وإلى معلوماته العامة، وشكواه مهما بلغت من الحق لا تعتبر تشخيصا طبيا أو هندسيا أو فنيا أو اقتصاديا أو قانونيا أو دستوريا.

للمشاكل، ولا يمكن أن يُبنى عليها علاج لمتطلبات أو لمشاكل أو معضلات الأفراد أو الأمة أو الدولة أو للمشاكل الدولية!

إنما قد تطلب الدقة من الإنسان العادى فى كثير مما يعترض حياته ، فيكون مطالباً بالتزام الدقة فى اتباع الأنظمة وتطبيق التعليمات الواجبة الاتباع ، وهذه الدقة تضى فى سلاسة وسكون بلا ضجيج.. لا نسمع لها صوتاً ، لأنه لا يصحبها سمعة أو شهرة مما يجرى وراءه الناس طلباً للصيت أو حياً فى الظهور.. كما لا يصاحبها قيادة أو زعامة محتملة أو قربة الاحتمال مما يرنو إليه معظم الناس ، بل يصحبها فى أحيان كثيرة التعرض - إذا أفلتت الدقة - لأضرار تتنوع تبعاً لما أعوزته الدقة فيه ، وقد تبلغ به حد التعرض للجزاءات الإدارية أو للعقوبات الجنائية.. لا يستغنى الإنسان العادى عن الدقة فى كل شئون حياته . ويدفع ثمن مفارقتها إذا ما خولفت - مثلاً - تعليمات تعاطى الأدوية بدقة فى مواعييدها الدقيقة المقررة ، أو خولفت تعليمات تطعيم الأطفال فى أوقاتها المحددة فى السنوات الأولى من أعمارهم! ، أو كما يحصل عند مخالفة الإرشادات الفنية المتعلقة بالمحاصيل والمواشى والدواجن والنحل وغير ذلك من الخسائر والأضرار!

لا تقتصر «الدقة» مثلاً لا يقتصر «الإتقان» - على العمل أو الإنتاج المادى ، فدقة التعبير «مطلب» أساسى أيضاً فى العلوم والآداب والفنون ، بل هى مطلوبة فى الحديث وفى الكتابة ، يعترض هذه «الدقة» ما قد يدور فى أخلاق البعض أنه حر فيما يقول أو يكتب من قيود الضوابط أو المسؤولية ، وهو ظن ظاهره الصحة على اعتبار أن الإنسان يمتلك حرية التعبير كتابة أو شفاهة ، ولكنه ليس صحيحاً على إطلاقه ، لأن التعبير كتابة أو شفاهة باب واسع يصب فى روافد متعددة، منها ما يمس الشئون العامة التى تهم المجموع ، ومنها ما يمس حياة شخص أو أشخاص من حقهم صيانة حيواتهم الشخصية من الاقتحام والتلصص ، أو حماية سمعتهم وعرضهم ومالهم من الإيذاء من رذائ سوء التعبير متعمداً كان أو غير متعمداً.. الدقة مطلوب أساسى حين تمس الكتابة أو القول حياة الأفراد أو الجماعات أو حياة المجتمع بعامه فى حقوق أفرادِهِ وحقوق مجموعِهِ!

ليس كثيراً على الإنسان أن يبذل قدراً معقولاً من الاحتياط فى كتابته أو حديثه فى أمثال تلك الأمور الجادة المؤثرة فى حيوات الناس وقوام المجتمع ، وليس كثيراً أن يتعرض الجانح الشارد والمشتط للمساءلة حين لا يحتاط لحقوق وكرامات المجتمع والناس ، وحين

يجاوز المؤلف في الترخص إلى الجموح والشطط وقلة الانضباط التي قد توصف عندئذ بعدم الدقة أو بالتشهير أو بالمساس بالشرف والاعتبار أو بالطعن على النظم المقررة أو بانتهاك الآداب أو بترويج الأخبار الكاذبة أو الشائعات أو الأفكار الهدامة !

فموضوع الدقة المطلوبة في الكتابة أو الحديث هو الاحتياط الواجب العاقل من الوقوع في الأخطاء المؤذية للغير المفترض في كل فرد أن يتحاشاها ويتجنب الوقوع فيها، صيانة لحقوق وكرامات الآخرين، وانصياعا لضوابط المساءلة التي تقوم على إيجاد توازن لازم وحتمى ومطلوب بين الكلمة منطوقة أو مكتوبة، وبين مسئوليتها.. المقاييس في هذه الأمور معيارية كلها، وقد يدق ويصعب التفريق بين المباح وبين غير المباح أو المحظور في بعض الصور بالنظر لتغير الأذواق والأخلاق والمثل تبعا لتغير الزمان أو المكان، أو لتطور الجماعة فكريا وماديا وشيوع اتجاهات جديدة فيها يجب أن يحسب حسابها في توقع وعى والتزام الأفراد لتلك المعايير !.

الدقة وإتقان العمل واجب عام لا يتخصص بعمل دون عمل، ولا بسلوك دون سلوك، ولا بتصرف دون آخر.. وإنما هو طبع عام وسجية مانحة تعطى ثمارها في كل ما يؤديه الإنسان من عمل ويلتزم فيه واجب الجادة والدقة والإخلاص والإتقان.. هذا الواجب العام لا محل لتخصيصه بلا مخصص، ولا لتقييده بلا مقيد.. وما لنا نقيده ونحاصره بينما التزمه كفيل باستقامة الأمور وتعطير الحياة بقسمات الكمال والجلال والجمال.. سبحانه وتعالى الذى خلق الموت والحياة ليبلونا أينما أحسن عملا وأكثر جادة وإخلاصا وإتقانا في عمارة الحياة !.



الفتوى فى الإسلام



يقول رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام.. «العلم خزائن مفاتيحها السؤال، فإنه يؤجر فيه أربعة : السائل، والعالم، المستمع، والمحِب لهم!».

فمنزلة السؤال من منزلة العلم.. فهو يمهد له ويؤدى إليه.. وقد كانت الدعوة الإسلامية نورا أضاء للبشرية، وحرك لدى الناس كوامن الرغبة فى المعرفة.. معرفة هذه الأحكام والتعاليم الجديدة التى ينادى بها المصطفى عليه الصلاة والسلام : وتتحدث عنها الآيات القرآنية الشريفة.. وحينما يكون جديد يكون السؤال والاستفسار : ويكون الجواب والإفتاء.. وقد تحدث الإسلام عن الأحوال الشخصية والمعاملات والعقوبات كما تحدث عن العقائد والعبادات.. وفى كل هذه الأحكام احتاج المسلمون لأن يتوجهوا إلى نبيهم عليه الصلاة والسلام بالسؤال.. يستجلون ما غمض عليهم منها، ويعرضون ما وقع لهم من أحداث لم يتبينوا وجه الصواب فيها.. وكان المصطفى عليه الصلاة والسلام يجيب عن تساؤلاتهم ويفتيهم.. تارة بآية أو آيات كريمة يوحى بها إليه، وتارة باجتهاده الذى يلهمه الله - سبحانه - فيه فوق ما يهديه إليه عقله وبحثه وتقديره.. ومنذ هذا العهد -عهد التنزيل- درج المسلمون منذ وفاة الرسول ﷺ إلى يومنا هذا على التوجه إلى علمائهم وفقهائهم ليبينوا لهم أحكام دينهم الحنيف، ويفتوهم فيما يعرض لهم من شئون دينهم ودنياهم.. ففى الكتاب المجيد : ﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٧) (الأنبياء).

وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام أول مفتٍ فى الإسلام.. من فتاواه تكونت معظم السنة (القولية) المصدر الذى يلى الكتاب الكريم مباشرة من مصادر التشريع الإسلامى.. فقد تضمنت فتاواه جوامع الأحكام المشتعلة على فصل الخطاب.. أمرنا الله تبارك وتعالى بإطاعتها والعمل بها.. فيقول سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز:

﴿ فَإِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (٥٩) (النساء)

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ﴾ (النساء ٨٠).
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ۖ﴾ (النساء ٥٩)
 ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ﴾ (النجم ٣، ٤)
 ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ
 تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف ١٥٨)

○○○

والفتوى هي الجواب عما يشكل من الأحكام ببيان الحكم الشرعى لمن يريد معرفته.. وهى بهذا تختلف عن الاجتهاد.. أو هى بالأحرى أخص منه : ذلك أن الاجتهاد هو استنباط الأحكام سواء أكان هناك سؤال فى موضوعها أم لم يكن.. أما الفتوى فإنها تكون ردا على سؤال بصدد واقعة معينة يتولى الفقيه المقتى التعرف على حكمها وإرشاد السائل إليه.. وقد كان المصطفى عليه الصلاة والسلام يتوخى تفقيه أصحابه فى أحكام الدين، وتأهيلهم للقيام بدورهم من بعده فى الإفتاء.. لذلك كان يشجع من يرسله منهم إلى المناطق النائية على الاجتهاد فيما لم يرد بشأنه نص فى الكتاب أو السنة..

روى أنه عليه الصلاة والسلام عندما أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن داعيا وهاديا وقاضيا سأله بم يقضى إذا لم يجد بغيته فى كتاب الله وسنة رسوله.. فلما أجاب معاذ: «أجتهد رأيي، لا آلو» سر المصطفى عليه الصلاة والسلام وتهلل وجهه وقال له : «الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى رسول الله»..

وقد تابع الصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ الاجتهاد وإفتاء المسلمين فيما يشكل عليهم.. فقد اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وترامت أبعادها بانتشار الإسلام.. ونمو حركة الفتح.. وأخذت أعداد الوافدين الجدد فى رحاب الدعوة تكبر وتتعاظم.. ولم يكن كل واحد منهم على درجة من التفقه فى الدين والقدرة على الرجوع بنفسه إلى المصادر الأساسية فى الكتاب والسنة تمكنانه من التعرف على الحكم الشرعى الصحيح فى كل المسائل، فقد كانت نصوص القرآن الكريم لا تزال فى ذلك العهد مدونة فى صحائف خاصة محفوظة

فى بيت الرسول ﷺ وبعض أصحابه، ولم تكن السنة قد دونت بعد تدويننا شاملاً، فضلاً عما طرأ على المسلمين من حاجات وحوادث وأقضية لم تطرأ فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام.. ومن هنا اضطلع علماء الصحابة بمهمة نشر القرآن الكريم والحديث الشريف وتفسيرهما، وإفتاء الناس فيما يعرض لهم من وقائع فى مختلف الأمصار الإسلامية.. وفى هذا المجال اشتهر منهم نحو مائة وثلاثين صحابياً.. من أبرزهم الخلفاء الأربعة، والسيدة عائشة، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وعبد الله بن مسعود، وغيرهم.. رضى الله تعالى عنهم أجمعين..

كان علماء الصحابة خير من يتولى هذه المهمة فى هذه الحقبة.. لعمق إيمانهم وورعهم وطول صحبتهم للرسول، وحفظهم عنه القرآن والسنة، ولشاهدتهم مواضع التنزيل والمأمم بأسبابه، وتلقيهم تعاليم الرسول وإرشاداته.. كل ذلك مع العقل الواعى والإخلاص جعلهم أقدر الناس على معرفة مرامى الشرع وإدراك حكمه.. فوظيفة الإفتاء من أجل المهام وأخطرها، والمفتى الحق يقوم بعمل هو من عمل الأنبياء.. فهو يبين للناس ما يحل لهم وما يحرم عليهم، ويرشدهم إلى أحكام دينهم الحق.. وهو دور تبدو أهميته وخطره فى تهيب السلف - على علمهم - من الفتيا، وإحجامهم عن إعطائها - فى عهد الراشدين - إلا لضرورة تتمثل فى واقعة حصلت بالفعل، وبعد البحث والتحرى المتأنى..

يقول الإمام النووى فى مقدمة شرح المذهب : «أعلم أن الإفتاء عظيم الخطر كبير الموقع كثير الفضل، لأن المفتى وارث الأنبياء وقائم بفرض الكفاية»..

ويقول عبد الرحمن بن أبى ليلى : «أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب الرسول.. يسأل أحدهم عن المسألة فيردها هذا إلى هذا وهذا إلى هذا حتى ترفع إلى الأول».. وفى رواية : ما منهم من يحدث بحديث إلا ود أخاه كفاه إياه، ولا يستفتى عن شىء إلا ود أن أخاه كفاه الفتيا»..

ويتفق جمهور الفقهاء على الأخذ بالإجماع ثم بفتوى الصحابى على الترتيب كمصدرين للتشريع الإسلامى يليان الكتاب والسنة مباشرة.. فأقوال الصحابة عليهم الرضوان حجة بعد النصوص لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالسَّيْفُورُ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهِجَرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ

اتَّبِعُوهُمْ بِإِحْسَنِ رِضَى اللَّهِ عَنْهُمْ وَرِضْوَانَهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ (التوبة ١٠٠).

ولقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: «أنا أمان لأصحابي، وأصحابي أمان لأمتي»
«لا تجتمع أمتي على ضلالة»..

وقد رأى الفقهاء أنه لم يعرف إجماع متفق على وقوعه غير إجماع الصحابة، وهو الذى سلم به الجميع.. فالإجماع لم يكن ممكناً عملاً إلا فى عهد الصحابة رضى الله تبارك وتعالى عنهم قبل أن يتفرقوا فى الأقاليم، ثم أصبح بعد ذلك غير ميسور، إن لم يكن متعذراً، حين تفرق هؤلاء والتابعون فى الأمصار والأقطار الإسلامية مع عدم وجود وسائل الاتصال الحديثة التى ابتكرتها الحضارة الحالية والتى يمكن أن تتيح الحوار والتواصل وإمكان الإجماع بالاتصال من خلالها بين علماء المسلمين فى شتى أقطار الأرض.. على أنه لم يكن ذلك متاحاً فيما مضى، وبدأت آراء وفتاوى الصحابة نافذة مهمة جداً للتعرف على ما كان يشكل على المسلمين.. وقد أسهب ابن القيم فى بيان منزلة آراء الصحابة، وكيف أنها أقرب إلى الكتاب والسنة من آراء من جاء بعدهم.. فتاواهم حجة علينا لذلك ولأسباب أخرى أفاض ابن القيم إيضاحها فى كتابه المعروف «أعلام الموقعين» ومن جملة رأيه:

الفتوى التى يفتى بها الصحابى لا تخرج عن ستة وجوه :

أن يكون سمعها من النبى عليه الصلاة والسلام.

أن يكون سمعها ممن سمعها.

أن يكون فهمها من آية فى كتاب الله فهما خفى علينا.

أن يكون قد اتفق عليه ملوهم (إجماعهم) ولم ينتقل إلينا إلا قول المفتى وحده..

أن يكون رأيه لكمال علمه باللغة ودلالة اللفظ على الوجه الذى انفرد به عنا، أو لقرائن حالية اقترنت بالخطاب أو لمجموع أمور فهمها على طول الزمان من رؤية النبى ﷺ، ومشاهدة أفعاله وأحواله، وسيرته وسماع كلامه والعلم بمقاصده، وشهود تنزيل الوحي، ومشاهدة تأويله بالفعل فيكون فهم ما لا نفهمه نحن.

وعلى هذه التقارير الخمسة تكون فتواه حجة علينا.

أما الوجه السادس فهو أن يكون فهم ما لم يروه عن النبي عليه الصلاة والسلام وأخطأ في فهمه..

وعلى هذا التقدير لا يكون قوله حجة.. وقد أثر عن الأئمة الأربعة أنهم كانوا يتبعون أقوال الصحابة بعد الكتاب والسنة، ولا يخرجون عنها، ويقول الإمام أبو حنيفة في ذلك: «إن لم أجد في كتاب الله تعالى وسنة النبي ﷺ أخذت بقول أصحابه، آخذ بقول من شئت، وأدع من شئت منهم، ولا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم».

ولم تقف حركة الاجتهاد والإفتاء بانتهاء عهد الصحابة الأبرار.. فقد حمل المشعل من بعدهم نفر من الفقهاء أصحاب الورع والصلاح، وعمق الفكرة وسعة الاطلاع والدراسة.. من أبرزهم أبو حنيفة النعمان ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل.. على أكتافهم قامت مذاهب شامخة، وازدهر الفقه الإسلامي بفضل الاجتهاد والإفتاء - ازدهارا كبيرا في العصر المعروف بعصر التدوين والأئمة المجتهدين، والذي بدأ في أوائل القرن الثاني للهجرة واستمر إلى نحو منتصف القرن الرابع.. وفيه بدأت حركة تدوين فتاوى المفتين من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وتصنيفها في أبواب بحسب موضوعها.. ذلك التدوين الذي بدأ بمحاولة فردية في عهد النبي ﷺ على يد عبد الله بن عمرو بن العاص الذي كتب عدة صحائف ضمنها بعض أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وفتاواه، وسميت بالصحيفة الصادقة..

وقد رجع أئمة هذا العصر في فتاواهم إلى مصادر التشريع الإسلامي المعروفة، وعلى رأسها الكتاب والسنة والإجماع وفتوى الصحابي.. يبحثون فيها على الترتيب على حكم الواقعة المستفتى فيها، ويجتهدون في استنباط الأحكام الشرعية وتطبيقاتها، محاولين في كثير من الأحيان تلمس الأسباب والعلل للأحكام.. وكان من الطبيعي أن اختلفت آراء هؤلاء الأئمة - وغيرهم - في بعض فتاويهم بسبب التفرق في الأقطار، واختلاف الظروف والأوضاع في كل منها، فضلا عن التفاوت في الاطلاع على الأحاديث وتنوع المعارف لدى كل منهم.. لذلك ظهرت مدرسة الرأي في العراق، ومدرسة الحديث في الحجاز.. وكان من نتاج ذلك المذاهب الفقهية الأربعة المعروفة.

والمتتبع لتاريخ الفتوى فى الإسلام يلاحظ أنها سارت دائما مع حركة التشريع عموما - باعتبارها أحد مصادر نمائه - صعودا وهبوطا.. أصابها ما أصاب التشريع من جمود فى عهد التقليد الذى تلا عصر الأئمة المجتهدين، ولحق بها ما لحق به من نشاط ونهضة فى العصر الحديث نتيجة نتيجة لدعوة ابن تيمية وغيره من المجتهدين الذين نادوا بدعوته من بعده، وشجعوا الفقهاء على الاجتهاد..

وقد كان للمفتى على اختلاف هذه العصور - لخطر وظيفته - شروط يلزم توافرها فيه للاضطلاع بمهمة الإفتاء.. منها الورع والتدين، والعلم باللغة العربية، والقرآن الكريم.. ناسخه ومنسوخه، والعلم بالسنة، ومواضع الإجماع ومواضع الخلاف، فضلا عن معرفة القياس وطرق الاستنباط ومقاصد الأحكام، مع صحة الفهم وحسن التقدير وصدق النية وسلامة الاعتقاد.. ويلزمه فوق ذلك أن يتعرف على واقعة الاستفتاء، ونفسية المستفتى والجماعة التى يعيش فيها، ليعرف أثر الفتوى سلبا وإيجابا..

روى عن الإمام أحمد بن حنبل قوله: «لا ينبغي للرجل أن ينصب نفسه للفتيا حتى يكون فيه خمس خصال: أن تكون له نية، فإن لم تكن له نية لم يكن عليه نور، ولا على كلامه نور.. أن يكون على علم وحلم ووقار وسكينة. أن يكون قويا على ما هو فيه وعلى معرفته. الكفاية، وإلا مضغه الناس. معرفة الناس»..

ويقول الإمام الصيرفى: «من قام للناس بأمر دينهم وعلم جمل عموم القرآن وخصوصه، وناسخه ومنسوخه، وكذلك السنن والاستنباط - فمن بلغ هذه المرتبة سموه بهذا الاسم، ومن استحقه أفتى فيما استفتى».

ويقول النواوى: «ينبغي أن يكون المفتى ظاهر الورع مشهورا بالديانة الظاهرة والصيانة الباهرة».. ثقة.. مأمونا.. منزها.. فقيه النفس، سليم الذهن، رصين الفكر، صحيح النظر والاستنباط متيقظا.

والمفتى هاد ومرشد.. فتواه مدار لإصلاح الناس، ولذلك يقول الشاطبى: «المفتى البالغ ذروة الدرجة هو الذى يحمل الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور، فلا يذهب بهم مذهب الشدة، ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال».

ويقول ابن السمعاني: «المفتى من استكمل فيه ثلاث شرائط : الاجتهاد، والعدالة، والكف عن الترخيص والتساهل».

وكما أن التساهل في الفتوى خطأ، فإن التعنت فيها غير مطلوب، فباب الرخص مفتوح بين يدي المفتى يعالج به أحوال الناس إذا رأى أن الأخذ بالعزائم فيه حرج وعنت، والله سبحانه وتعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه.. فالإسلام دين رحمة ويسر.. ينأى بالمؤمنين عن العناء والمشقة، فيقول تبارك وتعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة ١٨٥)، ويقول نبي الرحمة : «إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا»..

والمفتى الذى بلغ مرتبة الاجتهاد يفتى بموجب الكتاب والسنة والرأى السليم، أما إذا كان لم يبلغ هذه الذروة فإنه يتخير من أقوال المذاهب أقواها دليلاً وأصلحها للناس، على أن يكون فيما يصدر عنه حسن القصد.. لا يتبع أهواء الناس، أو يميل لإرضاء حاكم، فإذا كانت المسألة خلافية احتاط للشرع واحتاط للمستفتى من غير خروج ولا شذوذ.. وعليه فى جميع الأحوال أن يعمل بما يفتى به، وإلا يفقد العدالة، واختلت الثقة فى فتواه.. وعناية المفتى بتعليل أحكام فتاواه وبيان أسرارها أمر مطلوب ومرغوب فيه.. وفى ذلك يقول الإمام الغزالي فى المستصفى: «إن معرفة باعث الشرع ومصلحة الحكم استمالة للقلوب إلى الطمأنينة والقبول بالطبع والمسارة إلى التصديق».

والفتوى كغيرها من أحكام الشرع الإسلامى، لها آداب وتقاليد تلزم مراعاتها : فينبغى للمفتى أن يتأنى فى فتواه ولا يتسرع، لأن التفكير والتدبر يقودان إلى الصواب.. إذا ما خلاص إلى فتواه كان عليه أن يبين الجواب للمستفتى بياناً يزيل الإشكال، ويضمن تفهمه له..

ويتفق الفقهاء على أن رجوع المفتى عن فتواه يلزم المستفتى بالرجوع عنها إذا علم بعدول المفتى قبل العمل بفتواه الأولى، فإذا كان قد تلقى الفتوى من أكثر من مفتٍ واختلقت الآراء فيها فإن الاحتياط يوجب عليه الأخذ بأشدها وأصعبها عليه.

والإفتاء.. لأهميته وجلاله وخطره.. معتبر من الفروض الكفائية التي يلزم تعيين الأكفاء لها القادرين عليها، ولهذا فإن الجواب متعين على المستفتى إذا لم يكن في الناحية غيره، وكان حائزاً لشروط الإفتاء، أهلاً له..
وفى ذلك يقول النواوى : «الإفتاء فرض كفاية، فإذا استفتى وليس في الناحية غيره تعيين عليه الجواب، فإن كان فيها غيره وحضر فالجواب في حقهما فرض كفاية»..
ويقول ابن القيم : «من أفتى الناس وليس بأهل للفتوى فهو آثم عاص، ومن أقره من ولاية الأمور على ذلك فهو آثم عاص».

وكان من الطبيعي - وهذه منزلة الفتوى وأثرها في نماء الفقه الإسلامى وازدهاره - أن تنال العناية اللائقة بها.. سدا لحاجات المسلمين، وإرشادا لهم إلى سبيل الصلاح والهداية.. فقامت هيئات عديدة لإفتاء المستفتين والسائلين، والرد على استفساراتهم فيما يعرض في حياتهم من شئون دينهم ودنياهم.. وعلى رأسها دار الإفتاء المصرية ولجنة الفتوى بالأزهر الشريف.. كما اضطلعت بعض الهيئات الأخرى والأجهزة الإعلامية بجانب من هذا الواجب، تستعين فيه - وينجب أن تستعين - بالفقهاء المتخصصين المستوفين لشرائط الإفتاء.. هذا وأخذت حركة تدوين الفتاوى وتبويبها تنشط وتزدهر.. كمصدر نماء للثروة الفقهية الماثورة، ووصلا لما انقطع من سلسلة البحوث الإسلامية القيمة.



الفدية في الإسلام



الفدية في تاريخ الأديان والشرائع السماوية لها شأن عظيم لا يزال الموحدون يتذكرونه ويستعبرون حكمته ومعانيه.. يتأملون كيف كافأ الحق تبارك وتعالى الأب الصانع لأمره : إبراهيم الخليل ، وولده إسماعيل الذي لم يقل عنه صدوعا ولا إخباتا.. فما هي أن شرع الخليل عليه السلام في تمرير السكين على رقبة فلذة كبده.. إلا وفوجئ بها قد انثلم حدها الذي شحذه، وبالع في شحذه، ليخفف الذبح على نجله هذا البار به ، الصانع لأمر به.. ثم إذا ببناء الرحمن وفدائه يأتيه ، ويكفكف عنه ويثيبه على إيمانه وطاعته.. ﴿وَلَدَيْتُهُ أَنْ يَتَّبِعِهِ﴾ (١٠١) قَدْ صَدَقَ الرَّبُّ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَقَدَيْتُهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ (الصافات ١٠٤ - ١٠٧) ..

وإذا كانت هذه الفدية قد شرفت بالنبي الكريم الذي فدته ، فإنها قد سمت من ناحية مصدرها فوق مصادر التعويض الدنيوية ، وانفردت بالاتصال بخالق الكون ورب العالمين.. والفدية في الإسلام فوق أنها تعويض أو مقابل - باب من أبواب التوسعة والتيسير العديدة التي فتحها دين الرفق والإسماح لعباد الله المؤمنين.. فهو دين اليسر والرحمة ، لا عنت فيه ولا إعنات.

يقول تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة ١٨٥)

ويقول الهادي البشير عليه الصلاة والسلام : «إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا».. وفي رواية أخرى : «فإن المنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى».

والفدية أخذت طريقها - في هذا النطاق الذي عرضناه - إلى مواضع أربعة تتصل بالصيام والحج والأسرى والطلاق.. وهي تنبع في كل باب من هذه الأبواب عن فلسفة رشيدة ، نطل الآن على ما كان عنها في باب الصيام .

يقول تبارك وتعالى في محكم التنزيل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ١٨٣ - ١٨٤)

فرض المولى تبارك وتعالى الصيام على المسلمين أيام رمضان المبارك. يتلاقون فيها على موعد في كل عام. في مشارق الأرض ومغاربها.. تثوب ضماثرهم فيها إلى الخالد الباقي، ويتسامون إلى آفاق الروح ينشغلون بها عن مطالب الجسد وشهواته.

بيد أن الصيام فريضة قد تشق أو تتأبى على البعض لعله مؤقتة، أو دائمة، أو مؤقتة لا يعلم ليقاتها ميعاد. والله تبارك وتعالى رحيم بعباده رءوف بهم، وهو جلست حكمته لا يريد إعناتهم ولا تكليفهم بما لا يطيقون.. وكفاهم ما تستشعره قلوبهم المؤمنة الخاشعة من أسى لما فوتته عليهم عللهم أو ظروفهم من مشاركة للجماعة في هذا التعبد المتسامي إلى الخالق البارئ.. ومن ثم فقد تداركهم عز وجل بتيسيره ورحمته، ومد لهم من توسعته ما يعوضهم ويكفكف عنهم، ونهج سبحانه وتعالى فيما تداركهم به من رحمته نهجا رشيدا يفرق بين أصحاب العلل أو الظروف المؤقتة وبين أصحاب العلل أو الظروف الدائمة، أو التي يغلب عليها الدوام ولا يعرف لانحسارها ميقات.. فأباح سبحانه الإفطار للطائفة الأولى - كالمريض الذي يرجى برؤه والحامل والمرضع والمسافر - على أن يقضوا فيما بعد ما عليهم بصيام عدد الأيام التي تقابل تلك التي أفطروها، ورخص - جلوعلا - للطائفة الثانية في الإفطار أيضًا، ولكنه أعفاهم برحمته من القضاء ما دامت العلل أو الظروف القائمة بهم دائمة أو يغلب عليها الدوام والاستمرار، وفرض عليهم الفدية لقاء هذه الرخصة.. يطعمون عن كل يوم من أيام إفطارهم مسكينا لا يجد قوت يومه.. ويدخل في هذه الطائفة المرخص لها بالفدية والإفطار من ألم به مرض عضال لا يرجى شفاؤه، أو أدركته شيخوخة وعجز أو هنا قوته واحتماله، أو صاحب العمل الشاق مشقة يتأبى الصيام عليه معها ولا يجد له متسعا من الرزق في عمل آخر يقيم أوده ومن يعول.

بيد أنه يبقى بعد هذه اللفظة الربانية التي شمل بها الرحمن عباده، أنه بعد ما يسره لهم وهونه عليهم، قد ترك الأمر لصادق نياتهم التي يحيط سبحانه بمكنونها علما، ويدرى بكل خبيئة فيها، ثم أخبرهم بعد ذلك أن الصيام - لمن يستطيعه - خير وأجزى.. ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٨٤) صدق الله العظيم (البقرة ١٨٤).

والفدية على ما رأينا، هي نوع من التعويض أو المقابل لقاء رخصة رخص بها الحق تبارك وتعالى تيسيرا على عباده ورفعاً للحرَج عنهم - وسيلتها عبادة خالصة هي الصدقة ببر الفقراء والمساكين، أو الصيام في موضع آخر عند ارتكاب أحد محظورات الحج التي لا تفسده.. وهي بهذا المعنى تختلف عن الكفارة وإن اتفقتا في الوسيلة في بعض الأحيان كالصوم أو الإطعام.. ذلك أن الكفارة يختلط فيها معنى العقوبة بالعبادة، فهي في حقيقتها عقوبة مقررة على معصية بقصد التكفير عن إتيانها ومقارفتها، فتجنب على المسلم على اختلاف في نوعها ومقدارها باختلاف المعصية، وذلك إذا ما اقترَف إحدى الجرائم التي توجبها كإفساد الصوم أو الحنث في اليمين أو الظهار أو القتل الخطأ - ولأن وسيلة تنفيذ هذه العقوبة هي - كالفدية - عبادة، كالصوم أو العتق أو الإطعام، فإنها تعد عقوبة تعبدية.. تدور بين العقوبة والعبادة.. أما الفدية فلا موضع فيها للعقوبة من أى وجه كان، وجماع ما تقدم أنه وإن كانت الفدية نوعا من أنواع العبادات، إلا أن الفدية مقابل استعمال رخصة، بينما الكفارة عقوبة على معصية.

والمتنبع لمواضع الفدية في القرآن الكريم يجدها عديدة لا تقتصر على التيسير على المؤمنين، وإنما هي قد وردت على المعنى المقابل أو العكسى للكافرين والمشرَكين، فهذه الرحمة التي حبا بها الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين الخاشعين المخبتين، قد حرم منها المعاندين المشرَكين الكافرين، ويؤكد سبحانه أنه لا أمل لهم في غفران ولا فدية.

يقول تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلٌّ أَلَا تُرِيبُ ذَهَبًا وَلَوْ أَفْتَدَى بِهٖ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ (آل عمران ٩١).. ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَتْكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٥) صدق الله العظيم.. (الحديد ١٥).

النقاب والحياة!



(١)

أكد أهل الفقه والإفتاء، أن «النقاب» ليس فريضة وليس واجبا في الإسلام، وأن نسبته للإسلام لا أصل لها، ومع ذلك لا زلنا نرى النقاب في الشوارع ووسائل المواصلات، وفي المساجد ودور التعليم، وفي الأجهزة والمرافق. فلماذا النقاب؟ وما سند ارتدائه إذا كان أهل العلم قد نفوا استناده للإسلام؟! نعم نفى فرضه لا يعنى فرض عدم ارتدائه. هو إذن حرية شخصية، لا فرض لها ولا منع، ولكن ماذا إذا كان ارتداء النقاب، وهو يخفى الهوية، فى أماكن لا بد فيها من الإفصاح عن الهوية؟ وما الذى يحكم دخول الأماكن المخصصة لحواء فى الجامعات والمرافق ودورات المياه وحمامات السباحة التى تخصص أياها أو مواقيت للسيدات، وماذا عند استخدام جوازات سفر أو تراخيص مرور أو قيادة السيارات، أو ارتياد الأماكن التى لا يسمح بارتياها إلا لأعضائها، أو عند أداء الامتحانات الدراسية أو الوظيفية، وغير ذلك من الصور العديدة التى يجب فيها الإفصاح عن الهوية والتأكد من أن حامل بطاقةها هو ذاته صاحبها؟ من وقت لآخر يضبط رجل يتخفى بالنقاب، وقد يكون التخفى هروبا من مطاردة أو ملاحقة أو جريمة، وقد يكون ادعاء أنوثة لارتياح أماكن الإناث واستراق النظر إلى بنات حواء فى الأماكن المخصصة لهن، المغلقة عليهن التى يتخفن فيها مما يتقيدن به فى الأماكن العامة أو أمام الرجال؟! هل يمكن فى مثل هذه الحالات اعتبار النقاب حرية شخصية بينما تكمن فى استعماله محاذير ومخاطر قد تصل إلى ارتكاب الجرائم أو الاعتداء على الحرمات؟! .. ماذا عن ارتداء النقاب إذا ما خرج ارتدائه عن الحيز الشخصى كالبيوت وملحقاتها، والأماكن الشخصية، إلى المنتديات العامة التى تحكمها نظم وحقوق للغير فى الاستيثاق من «الهوية»: الشخصية ونوعها أو جنسها؟! ماذا يحدث لو أبيع النقاب فى المستشفيات، وما هو الضمان ألا يتنقب رجل فى شخص ممرضة يروح ويجىء ويسترق النظر إلى المريضات فى غرف الكشف والغيار

والعمليات أو عبر النوافذ الزجاجية المطلة عليها؟! هل يملك «نقاب» - ولم أقل منتقبة فمن يدري؟! - الدخول إلى دورات مياه السيدات أو غيرها من الأماكن الخاصة بحواء حيث تتخفف فيها مما توجبه المبادئ الدينية أو التقاليد والعادات الاجتماعية، وإذا تراجع النظام العام أمام حقه بل واجبه في الاستيثاق من جنس ونوع وهوية الشخصية المنتقبة حين يكون ذلك ضروريا أو لازما، فكيف يطمئن الناس إلى أمانهم وحرمتهم إزاء المنتقبين، نساءً فعلا أو رجالا متخفين؟! ظنى أن نظام وواقع الحياة في زماننا، لا يسمح بالتخفى وراء نقاب. تستطيع من تشاء أو يشاء شد النقاب بحيزه الخاص، أو في البوادي والفيافي والقفار، فإذا جاوزه إلى مجالات الحياة والاحتكاك بعموم الناس صار محكوما بقواعد عامة لا يمكن لأى مجتمع له نظام أن يغضى عنها أو يترخص فيها!



النقاب والدين!



(٢)

يكاد يجمع علماء الدين على أن الحجاب غير النقاب الذى لا مبرر له من الدين، ولا حجة مقبولة له فى واقع الحياة المعاصرة التى تستوجب وضوح الهوية فى أماكن يستحيل فيها قبول عدم الإفصاح عنها!

الغريب اللافت أن العولة وهى ترفع شعار الحرية، وحق كل إنسان فى أن يختار ما يريد، تعود فتناقض نفسها، فتهتاج وتشعر الحراب ضد ارتداء الحجاب، وتقيم المتاريس ضد من يرتدينه. أفهم أن تقام الحواجز والمتاريس أمام النقاب، لأنه يحجب الهوية، والإفصاح عنها فى بعض المجالات ضرورى. أما الحجاب فلا يحجب ولا يضر فى التعرف على هوية المحجبة!.

لذلك لم أفهم هوجة العلمانية والعلمانيين ضد الحجاب فى تركيا، ووصولها إلى حد رفع دعوى باتهام حزب العدالة والتنمية الحاكم بانتهاك الدستور التركى، والمطالبة بإبعاد زعماء الحزب بمن فيهم الرئيس التركى ورئيس الوزراء عن العمل السياسى!

ظننى أن القضية كان يمكن أن تكون مفهومة، لو كانت الهوجة مثارة ضد أمر إلزامى بارتداء الحجاب، ولكن الواقع يقول إن بعض زوجات أو بنات أعضاء حزب العدالة ومسؤوليه، حاسرات غير محجبات، بل وتقول التغطيات الصحفية أن الحظر هناك فى تركيا، حاصل بالمعكوس.. وأن المحظور هناك هو ارتداء الحجاب، وأن الحظر بدأته تركيا العلمانية عام (١٩٨٠) لحماية السيدات غير المحجبات والعلمانيات. الحماية تتحقق بعدم الفرض أو الإلزام أو الإجبار بارتداء الحجاب، فيعود ارتداؤه إلى ما تراه هذه أو تلك من بنات حواء تبعاً لدينها وعقيدتها. أما حظر ارتداء الحجاب، فهو فى أقل القليل مصادرة على الحرية الشخصية، والغريب المدهش أن تأتى من علمانية تعتنق الحرية وتدعو إلى إزالة جميع الحواجز من طريقها!

التشبه بحظر الحجاب في المدارس الفرنسية أو في بعض المؤسسات الحكومية الألمانية، قياس مع الفارق، الحظر في دولة أوروبية تدين أغليبيتها بالمسيحية، يمكن أن يكون مفهوما بتعلة أن الحجاب ربما خالف النظام العام هناك، والنظام العام فكرة حاضرة في كافة النظم القانونية، تستمد معالمها من الموروث الديني الاجتماعي والتاريخي والثقافي، ومن العرف الجاري، ليصب هذا كله فيما يسمى بالنظام العام الذي يختلف بلا مراء في دولة مسيحية أو تدين أغليبيتها بها، عن دولة إسلامية أو تدين أغليبيتها بالإسلام!

لذلك فإن «حظر الحجاب»، بإجبار حواء على خلعه، لا يستقيم في تركيا التي تدين غالبيتها بالإسلام، ولا يستقيم مع فكرة النظام العام المستمد في تركيا من موروثاتها الدينية والثقافية والاجتماعية والتاريخية. المفارقة الأكبر أن الحزب المروم إبعاده عن العمل السياسي، أتى إلى الحكم بأغلبية شعبية واضحة. هذه الأغلبية تعنى أن مجمل الأتراك يؤيد توجهات الحزب! فهل يستطيع أحد أن يحل هذا اللغز، أو يفسر انقضاضات العلمانية في كل اتجاه ونقيضه تبعا لأهواء وأغراض لا يجرى عليها حساب.



النقاب من تانى؟!



(٣)

من الخبل والبلهه أن ينسب النقاب إلى الحرية الشخصية عند ارتدائه في المجالات التي يتعين فيها لزوما الإفصاح عن الهوية. هو حرية شخصية ولا شك إذا التزم النقاب بالأماكن الخاصة وملحقاتها. قلت النقاب ولم أقل المنتقبة.. فقد يكون المستتر وراء النقاب رجلا يتخفى لسبب أو لمأرب أو لآخر وراء نقاب حاجبا به هويته عن السلطات أو الناس!

هذه الجزئية البالغة الأهمية. هي بيت القصيد في مسألة النقاب - هذه المسألة مثارة الآن بالحاح في المستشفيات بمناسبة قرار الزى الموحد للممرضات .. وهو زى لم يغفل الحق في الحجاب، ولكنه لا يساير النقاب الذى لا أصل ولا مرجعية له في الإسلام ولا فى أى دين من الأديان !

الزى الموحد المختار بعناية - فيما قيل - أَرْضَى المحجبات لاحتشامه وعدم مصادرته على الحجاب. الاعتراض والاحتجاج أتى من المنتقبات. لا أدري علام يمكن أن يكون الاعتراض، وماهى حجة هواة النقاب فى استباحة الكشف أمامهم على حرمت الغير، للسيدات والآنسات، بل وللرجال، بينما تستتر هويته وراء ستار! قد يكون المستتر رجلا متخفيا وراء نقاب ليطلع على ما يجوز الإطلاع عليه من الحرمت، وقد يكون من الجانحين أو ذوى الإجرام، يتخفى عن السلطات، ويستبجح فى تخفيه ما لايباح!

حجة رفض النقاب لا تقتصر على المستشفيات ، وإنما هى حجة حاضرة أيضا فى جميع الأماكن المخصصة للإناث.. فى المرافق، وفى المعاهد والجامعات ، وفى بعض وسائل المواصلات، وبعض المنتديات، وأماكن الرياضة.. بل إن التخفى وراء نقاب يصطدم بحق السلطات فى معرفة هوية المار عبر الحدود الدولية أو الأماكن الخاضعة لتنظيم المرور فيها، ويصطدم بحق بل بواجب حاضر فى كثير من المناسبات التى تستلزم التحقق من الهوية..

كتأدية الامتحانات أو الاختبارات وما شابهها. لا يمكن لمجتمع في هذا الزمان بكل ما فيه من أنشطة ومجالات أن يسمح لأحد، رجلاً أو أنثى، بأن يتخفى في الأماكن العامة وراء نقاب!

حق ونظام المجتمع وأمنه وأمانه لا يصطدم في مسألة النقاب بالحريات الشخصية. تستطيع من تشاء أو من يشاء، أن يتخفى وراء نقاب في بيته وملحقاته الخاصة، أما حينما يخوض المجتمع ويتعامل مع أنشطة الحياة، فإن النظام العام لا يسمح ولا يمكن أن يسمح لأحد بالتخفى وراء ستار!!



مسألة النقاب :



بين حكم الشرع والقانون، وضوابط الحوار وأدابه !

(٤)

لست أخفى أنني لست من المتعاطفين مع النقاب ، بل وكتبت أكثر من مرة منوها إلى أنه وقد استقر جمهور الفقهاء على أنه عادة وليس فرضا أو عبادة ، فإنه يصطدم بالنظام العام للدولة ومقتضياتها في زماننا ، بل وينطوى ضمنا على مجافاة لكرامة المرأة بتصويرها عورة.. حتى وجهها! . بينما يتفق الجمهور في تفسير القرآن والسنة ، على استثناء الوجه والكفين من الحجاب ، ويسوقون لذلك أدلة مستقيمة سديدة جمع بعضها الكتيب الضافى الذى أخرجه الصديق الجليل الدكتور محمود حمدي زقزوق وزير الأوقاف بعنوان : «النقاب عادة وليس عبادة».. مضمنا إياه رأى الشرعى فى النقاب.. له ولفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوى ، ولفتى الديار المصرية الدكتور على جمعة ، ولفضيلة الشيخ محمد الغزالي ، والأستاذ الدكتور عبد الحليم أبو شقة – وما أوردوه من أدلة من الكتاب والسنة ، وآراء الإمام النووى ، وفضيلة الشيخ حسنين مخلوف مفتى الديار المصرية الأسبق ، وشيخ الإسلام زكريا الأنصارى فى «أسنى المطالب» من كتب الشافعية ، والإمام ابن كثير فى تفسيره ، وما رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما.. وغيرهم ، ونحيل لمن يريد الاستزادة على ما تضمنه هذا الكتيب الضافى من أدلة شرعية على أن وجه المرأة ليس عورة ، وعلى أن النقاب عادة وليس عبادة أو فريضة !

ليست الغاية إذن من هذا المقال - ولا هو بوسعى - أن أضيف شيئا إلى ما أبداه هؤلاء العلماء الأجلاء.. ولكنى أردت أن أتناول الأمر من زاوية النظام العام وما يقتضيه من ناحية ، وآداب الحوار والاختلاف من ناحية أخرى !

شئ مؤسف حتى النخاع ، هذا التطاول المعيب على مقام ومكانة وشخص فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر.. والأشد أسفا أن هناك من يتربصون عمدا لتلغف أى واقعة لاتخاذها

ذريعة لهذا التهجم الباطل المنافي لكل آداب الحوار والنقد حتى لآحاد الناس، ناهيك بالرئيس الأعلى للمرجعية الدينية في البلاد؟!!

يتذرع المتهجمون - بغير حق - بأن النقاب حرية شخصية. فليكن، ولكن هناك مواطن يجب فيها الإفصاح عن الوجه والهوية.. وهذا الإفصاح يوجبه النظام العام. والنظام العام مفهوم عام يستمد مادته وقوامه من الموروث الفكري والثقافي والمجتمعي والديني أيضا. فليس يجوز لنقاب - ولا أقول لمنقبة فقد يكون المتخفي وراء النقاب رجلا - أقول إنه ليس يجوز لنقاب، المرور والدخول إلى مكان مخصص للإناث دون الكشف عن هويته، ولا سبيل للتعرف عليها إلا بالوجه.. يسرى ذلك على أنواع وأعداد لا حصر لها، كدورات المياه العامة، والمدارس، والمدن الجامعية، وحجرات الطالبات، ومنتديات الإناث، بل إن ذلك شرط لجواز المرور بعمامة، وفي المطارات، والموانئ، وبعض الطرق أو المناطق أو المنشآت أو المصانع، وفي متابعة قيادة السيارات ومراجعة التراخيص الخاصة بسيورها أو بالقيادة، كما أن ذلك أوجب في مستشفيات الولادة أو الإناث بعمامة، وفي أقسام النساء بالمستشفيات عامة كانت أو خاصة.. فما تسمح الأنثى بكشفه أمام أنثى لا تسمح بكشفه أمام رجل.. بينما لا يكاد يمضى شهر إلا وتكشف الأنباء عن ضبط مجرم هارب متخف بالنقاب، أو متسلل إلى مكان لارتكاب جريمة، أو شاب متخف بالنقاب للقاء صديقه، أو الدخول إلى حرملك لا يرتاده إلا الإناث!

ما يسرى على كل هذه الأماكن يسرى بالضرورة على الامتحانات.. الدراسية والوظيفية.. فلا بد لضبط الامتحانات ومنع الغش بإحلال بدلاء لأدائها محل الأصلاء.. لا بد من الكشف عن الوجه والهوية، وكم من وقائع غش ضبطت في حالة تلبس متسترة بالنقاب لالتقاط ما يلقي بأجهزة المحمول من تلقين وإجابات من خارج لجنة الامتحان لإفراغها بهذا الإملاء في ورقات الإجابة!

ثم إذا كانت علة النقاب الاحتشام أمام الرجال، فما هي علته أو غايته في فصل دراسي كل طالباته من الإناث، والمحاضرة فيه أنثى، إلا أن يكون انغلاق العقل إلى حد المرض.. ماذا يخيف صبية لتخفي وجهها عن زميلاتها ومدرستها بحصة الدرس؟! وكيف يمكن

لأى نظام أن يحفظ حرمة الإنث في بيت الطالبات إذا سمح بدخول مستور من وراء نقاب، وقد يكون لرجل أو شاب جانح، أو متحرش صاحب غرض؟!

وإذا كان وضع النقاب حرية شخصية، أفليست الحريات قسائم متقابلة، بمعنى أنها مشروطة بالأمتصادم بحريات وحقوق الآخرين.. وعلى ذلك تقوم كل دساتير العالم الشرعية أو الوضعية.. فحق وحرية القول يقابله حق الآخرين في صيانة شرفهم وعرضهم وكرامتهم واعتبارهم من جموح الكلمة.. وكما لا يوجد حق مطلق فلا توجد حرية مطلقة.. فالحرية المطلقة قد تعصف بحقوق وحريات الآخرين!.. وإلى ذلك التفتت كل دساتير العالم المتحضر!.. فتبنت منظومة متكاملة للحقوق تراعى إقرارها وحمايتها من ناحية، وتراعى محاذير التصادم أو التعارض مع ما يقابلها من ناحية أخرى، بحيث لا يجوز حق على الحقوق الأخرى، مما ألزم ويلزم بالالتفات إلى أن كل حق يقابله واجب الالتزام باحترام حقوق الآخرين!.

والدستور المصرى يحمى العديد من الحقوق المتقابلة.. يحمى حق الدفاع بالأصالة وبالوكالة، وحق اللجوء إلى القضاء، ويحمى حرية الرأى والتعبير، وحرية الصحافة والطباعة والنشر والإعلام، ويحمى حرية البحث العلمى والإبداع الفنى والأدبى والثقافى، ويحمى استقلال ودور السلطة القضائية ويحصن أعضاءها من العزل.. إلخ، بيد أن الدستور فى المقابل قرر وشمل بالحماية الحريات التى يمكن أن تمسها ممارسة هذه الحقوق.. فحمى المقبوض عليه ووضع ضوابط معاملته، وقرر عدم جواز تجربة طبية أو علمية على إنسان بغير رضائه الحر، وحمى الحياة الخاصة للمواطنين ومراسلاتهم ومحادثاتهم.. إلخ، وحمى حرمة المساكن، وكفل حرية العقيدة وحرية ممارسة الشعائر الدينية.

التفات الفرد، والتفات المجتمع، إلى هذا التقابل بين الحقوق والحريات، هو علامة نضج وفهم، والإشاحة أو الإعراض عنه أو العجز عن رؤيته آية ضيق نظر وانكفاء وسطحية!.

معنى ذلك أن المجتمع كله بإنائه وذكوره، وبمجموعه وأفراده، صاحب حق أصيل فى تأمينه من سوء استغلال النقاب لانتهاك الحرمات، أو استراق النظر على ما لا يجوز، أو ارتكاب الجرائم، أو التحرش بالإنث، أو ارتكاب المعاصى أو المرور المحرم أو المجرم،

أو اجتياز المطارات والموانئ والمداخل والمخارج في غير الأحوال التي يجيزها القانون والنظام العام، أو قيادة المركبات بلا ترخيص، أو الغش واستخدام «البداء» لأداء الامتحانات غشا وتزويرا... إلخ!!

هذه الحقوق واجبة الرعاية.. على المجتمع كله حكاما ومحكومين.. ولا يمكن أن تتحقق هذه الرعاية في مواضعها الواجبة إلا بالتعرف على الهوية وسبيلها الوجه الذي لم يأمر الإسلام بإخفائه وحجبه، فإذا كان ذلك، فما هو حق النقاب في اجتياز كل هذه الخطوط والحدود والموانع دون الكشف عن شخصية وهوية واضح أو واضحة النقاب؟! يقول الغلاة إنه على الدولة أن توفر إناثا في كل هذه المواضع التي لا تقع تحت حصر، للتحقق من الشخصية والهوية! فهل بإمكان الدولة المصرية أن توفر هذه الخدمة في آلاف الأماكن التي يتعين فيها التحقق من الشخصية والهوية؟!!

وهب أن هذا المستحيل قد صار ممكنا، فهل هو معقول؟!.. سيما وقد اتفق جمهور أهل العلم والدين على أن النقاب عادة وليس فرضا ولا عبادة؟! لا أحسب أنى أغالى إذا قلت إن إبداء الوجه لازم وواجب لا محيص عنه في بعض المواضع الأخرى.. من ذلك أداء الشهادة.. فمن شروطها أن تُبدَى في مجلسها ليتمكن السامع - قاضيا كان أو محققا - من التفرس في الشاهد أو الشاهدة أثناء أداء الشهادة، لاستكشاف الصدق من الكذب من خلال الثبات أو الاهتزاز، والاطمئنان أو الخوف!

بل إن الحالة التي تناولها فضيلة الإمام الأكبر في معهد ديني للفتيات، هي أقوى الأمثلة على وجوب ولزوم وضرورة وحكمة إبداء الوجه.. فالعلاقة بين المدرسة والتلميذة، وكذلك بين التلميذات، قوامها التواصل الإنساني وتبادل المودة والاحترام والتعبير في إطاره وحكمته وغايته.. ولا يتأتى للمدرسة استطلاع مدى فهم التلميذة المتلقية لما يقال إلا من خلال أسرارها، كما أن تحقيق الانضباط يستوجب هذا الكشف، وإلا ما أمكن التمييز بين الجادة واللاهية، وبين المتفتة والغافلة، وبين الملتزمة أو الساخرة والمستهزئة؟!.. فكيف يمكن للمعلمة أن تنهض على أداء رسالتها وضبط فصلها الدراسي ومتابعة نجاحها أو إخفاقها في توصيل مادتها إذا انقطع التواصل الإنساني بينها وبين تلميذاتها، وحجب

عنها وجوههن وتخفين وراء نقاب ساتر لا يمكن للمدرسة أن تعرف ما يدور من وراءه من جد والتفات وفهم والتزام، أو لهو وغفلة وسخرية وقلة فهم!! وماذا إذا أراد الإمام الأكبر، وقد رأيت مفتى الديار المصرية الحال وغيره من كبار العلماء يحرصون برغم ممانعته على تقبيل يده عرفانا بأستاذيته وبما أعطاهم من علمه حين تتلمذوا عليه، ماذا لو أراد الإمام الأكبر أن يطمئن التلميذة إلى أنه لا يأمرها بمعصية أو مكروه، فقال لها إنه يفهم في الدين أكثر ممن أوحوا لها أو أمروها بالنقاب من ذويها؟! وماذا لو باسطها بمحبة وأبوة وحنو الأب بل والجد؟!.. ولماذا نلوى الأشياء، ونفترض الافتراضات، فنفترض أن اللهجة كانت غاضبة ناهرة أو متجبرة أو متعطسة والعياذ بالله، ولماذا بتنا نستيسر التطاول والإهانة والتجريح حتى لم يعد بيننا مقام يُصان؟!!!

بقى أن أختتم هذه الكلمات، ببعض ما تضمنه حكم المحكمة الدستورية العليا الصادر بجلسة ١٨/٥/١٩٩٦ برئاسة الأستاذ المستشار الجليل عوض الرئيس المحكمة، في الدعوى رقم ٨ لسنة ١٧ قضائية دستورية المحالة إليها من محكمة القضاء الإداري للفصل في الطعن بعدم دستورية قرار وزير التعليم رقم ١١٣/١٩٩٤ المفسر بالقرار رقم ٢٠٨/١٩٩٤ فيما تضمنه من تحديد هيئة الزى المدرسى بما لا يخل بحرية العقيدة التى كفلها الدستور بالمادة ٢٤، وما نصت عليه المادة الثانية من أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسى للتشريع. وإذ قضت المحكمة الدستورية العليا برفض هذا الدفع، فإننى رأيت أن أجتزئ للقارئ الكريم بعض ما أوردته فى حكمها من أسباب هذا القضاء، فقالت بعد مقدمة شافية فى الشريعة ومبناها ووجوب الالتزام فى التشريع بما لا يناقض الأحكام الشرعية القطعية فى ثبوتها ودلائلها، والتى لا يتغير مفهومها تبعاً لتغير الزمان والمكان، مع وجوب أعمال حكم العقل والاجتهاد فيما لا نص فيه.. تطويراً لقواعد عملية تكون فى مضمونها أرفق بالعباد وأحفل بشئونهم وأكمل لمصالحهم الحقيقية التى تشرع الأحكام لتحقيقها وبما يلائمها، أخذاً بذات الشريعة الإسلامية التى جوهرها الحق والعدل، ودون أن يتقيد الاجتهاد - فيما لا نص فيه - بغير ضوابطها الكلية، وبما لا يعطل مقاصدها التى ينافيها أن يتقيد ولى الأمر فى شأن الأحكام الفرعية والعملية المستجيبة بطبيعتها للتطور بآراء بذاتها أو يقعد باجتهاده

عند لحظة معينة تكون المصالح المعتبرة شرعا قد جاوزتها.. وأوردت المحكمة الآيات التي نزلت في الحجاب، وغاية ومقاصد الشريعة من ضبط ثياب المرأة ليكون سلوكها رفيعا محتشما لا ابتذال فيه ولا اختيال، وأن الغاية ومن نصوص القرآن الحكيم هي التزامها حد الاعتدال، بما يقتضى ألا تصفها ثيابها وألا تشى بما تحتها من ملامح أنوثتها، وألا يبدو من زينتها إلا ما لا يعد عورة، وهما وجهها وكفأها، وأنه بمقتضى هذا لا يكون تنقيبها مطلوبا شرعا طلبا جازما ثم أضافت المحكمة في أسباب حكمها : «وحيث إنه متى كان ما تقدم، وكان تحريم أمر أو شأن من الشئون، لا يتعلق بما هو محتمل، بل بما يكون معلوما بنص قطعى، والإظل محمولا على أصل الحل، وكان لا دليل من النصوص القرآنية، ولا من سنتنا الحميدة على أن لباس المرأة يتعين شرعا أن يكون احتجابا كاملا، متخذًا نقابا محيطا بها منسدلا عليها لا يُظهر منها إلا عينيها ومحجريهما، فإن إلزامها إخفاء وجهها وكفيها، وقدميها عند البعض، لا يكون تأويلا مقبولا، ولا معلوما من الدين بالضرورة، ذلك أن معنى العورة المتفق عليها لا يتصل بهذه الأجزاء من بدنها، بل إن كشفها لوجهها أعون على اتصالها بأخلاق من الناس يعرفونها، ويفرضون نوعا من الرقابة على سلوكها، وهو كذلك أكفل لحياتها وعضها من بصرها وأضون لنفسيتها، وأدعى لرفع الحرج عنها».

«وما ارتآه البعض من أن كل شيء من المرأة عورة حتى ظفرها، مردود بأن مالكا وأبا حنيفة وأحمد بن حنبل في رواية عنه، والمشهور عند الشافعية، لا يرون ذلك، والرسول عليه السلام يصرح بأن بلوغ المرأة المحيض، يقتضيها أن يكون ثوبها ساترا لبدنها عدا وجهها وكفيها. «وحيث إن استقراء الأحكام التي جرى بها القرار المطعون فيه، يدل على أن لكل طالبة أن تتخذ خمارا تختاره برغبتها، ولا يكون ساترا لوجهها، على أن يشهد ولي أمرها بأن اتخاذها الخمار غطاء لرأسها، ليس ناجما عن تدخل آخرين في شئونها بل وليد إرادتها الحرة، وهي شهادة يمكن أن يقدمها بعد انتظامها في دراستها».

«كذلك دل هذا القرار، على أن زياها ينبغي أن يكون مناسبا مظهرًا وطرازًا لا بمقاييسها الشخصية - ولكن بما يرضى احتشامها، ويكون موافقا لتقاليد وأخلاق مجتمعها. ولا يجوز أن يكون أسلوبها - في مجال ارتدائها لزيها - دالا على فحشها».

«وحيث إنه متى كان ذلك، وكان القرار المطعون فيه لا ينال من حرية العقيدة، ولا يقوض أسسها أو يعطل شعائر ممارستها ولا يناهض جوهر الدين في الأصول الكلية التي يقوم عليها، بل يعتبر اجتهدا مقبولا شرعا لا يتوخى غير تنظيم رداء للفتاة - في دائرة المعاهد التعليمية عبر المراحل الدراسية التي حددها - بما لا ينتقص من حيائها أو يمس عفافها، أو يشي بعوراتها، فإن هذا القرار يدخل في دائرة تنظيم المباح - ولا يعد افتئاتا على حرية العقيدة - وعلى ذلك فإن القرار المطعون فيه يكون غير مناقض لنص المادة الثانية من الدستور».



هذا هو حكم المحكمة الدستورية العليا، والملزم للحكومة وللسلطة التشريعية على السواء، فهي الرقابة على كل القوانين، فإذا كان هذا هو قضاؤها الملزم، وكان جمهور الفقهاء على أن النقاب عادة وليس فريضة ولا عبادة، وكان النظام العام يوجب في كثير من الأحيان الكشف عن الشخصية والهوية، وكان ما اتخذه فضيلة الإمام الأكبر ووزيرا التربية والتعليم والتعليم العالي مقصورا على مجاله، ولا يصادر أو يمنع ارتداء النقاب في غير هذه الأطر، أفلا يدعونا هذا للتوقف عن هذه القذائف المتطايرة، وتوجيه اهتمامنا إلى كثير من قضايانا الكبرى التي يتوجب أن ننظر إليها بعين الرعاية والاعتبار؟!



لغات البشر عبر العصور



لم يكف البشر قط عن أن يقولوا ويعيدوا القول، على أنفسهم وعلى غيرهم، ممن هم من جنسهم أنه ليس للآدمي لغات إلا لغات البشر.. ولا معان ومفاهيم إلا معانيها ومفاهيمها.. وهم يقولون إن الكون العظيم الذي هم فيه، توجد عناصره وأجزاؤه وأفراده وتفتى، وأن له ولهذا كله خلقاً أزلياً أبدياً.. خلق الكون كله وخلقنا فيه كما خلق كل من سبقونا من الآدميين، من لحظة الحمل فالميلاد إلى لحظة الوفاة.. لأنه هو سبحانه واهب الحياة وحافظها في حدود الأجل الذي بيّنها خلاله.

وهذه الألفاظ حسب لغتها وتراكيبها ومعانيها ومقاصدها وعرفها وطريقة الاعتماد عليها.. هذه الألفاظ كلها بشرية صرف.. لا ندري ولم يدر من سبقونا ما يقابلها لدى خالقنا عز وجل أو نتيجتها لديه، وإن كنا نؤمن ديانة بأن لها أثراً حتمياً.. إيجاباً وسلباً.

والأديان على حق في الإيمان بأن علاقتنا بالخالق جل شأنه لا تنفصل بإيجادنا.. فمن المحال أن تقع حياتنا الدنيا تماماً تحت سيطرة إرادتنا واختيارنا.. وهو ما لا يناع فيه أصحاب علوم الطب والحياة وعلوم الأحياء والطبيعة الحية.. فتسعة أعشار أجهزة الحياة فينا غير خاضعة للوعي والمشية.. والعقل والوعي والإرادة تساعدنا على الحياة، لكنها بذاتها لا تكفل الاستمرار إلا بأجهزتنا غير الإرادية المركبة في كل منا، والتي زودنا بها الخالق عز وجل، وضمن بتدبيره لها، وحسب هذا التدبير، وبأدائها وصلاحياتها ضمن توفير السبل والأسباب لبناء الحياة ونموها العمر المتاح لها في حياتنا الدنيا!

اتصال الأحياء المخلوقين بالخالق عز وجل، اتصال ممدود ومستمر.. يتم بطريقتين.. طريق الأجهزة اللا إرادية وتوابعها فينا.. من هواء ودماء وصفائح وإفرازات لغدد وأمعاء.. وطريق النشاط الحيوي العام الذي به يكون الحي حياً وبدونه يصير ميتاً يفسد ويتعفن ثم يصير رميماً ثم تراباً مع مرور الأيام!

أما الاتصال غير المباشر فمن جانبنا نحن فقط.. هو الاتصال بالوعي والفهم البشريين.. والاتصال بالوعي أسبق - في الزمن - من الاتصال بالفهم.. وأقل منه وضوحاً وأكثر

اختلاطاً بالرهبة والخوف والأوهام وسسطة الأساطير والمعتقدات والشعائر والطقوس. لأنه وعى يداخله ويمتزج به اهتمام عملي بتوفير الضرورات المادية للحياة من أمن وطعام وشراب ومأوى.. هذه الضرورات التي لا غنى عنها لأى آدمى ليعيش.

أما اتصال فهم آدمى بخالقه عز وجل، فقد جاء متأخراً بعد دهور وأحقاب، وبعد أن اطمأن خلال الأجيال والعصور على توافر تلك الضرورات، واعتاد توافرها، وبفهم أشد وضوحاً وفي بعض الأحيان أكثر عمقاً بل وشفافية، بلا نفعيات فى حسابه واستدلالة، فيتجلى له استحالة أن يخلق العدم من خواته التام وجوداً لم يكن من قبل موجوداً.. يبدأ فينا بذرة ثم يصير جنيناً، ويولد صغيراً جاهلاً جهلاً مطبقاً ثم يخطو إلى الوعى ليخطو به الوعى إلى الفهم. ولكن كيف؟! لماذا سجدت الملائكة؟!

ما عندنا نحن الآدميين من المعرفة مما يمكن أن نسنده لأنفسنا هو حصاد الارتقاء من مرحلة الوعى الساذجة إلى مرحلة أو مراحل الفهم.. وهذه لا آخر لها ولا نهاية.. لأن حياة آدمى منذ زمن، تخالطها تطورات فهمه لحبائته ومحيطه والكون، وهى فى طريقها إلى الامتزاج والملازمة لهذا التطور الذى لا يمكن أن ينتهى.

وهو فهم - مهما تعاظم وتعمق - لا يعقل أن يستوعب وعى ما يسميه الآدميون بالمطلق والأزلى والأبدى وغير المحدود فى أى اتجاه. لأنه خلف كل اتجاه وداخل أى اتجاه دون أن يتجدد!

ولا جدوى فى هذا الصدد للإحالة على كلمات من مثل : خلق وصنع وأنشأ وابتدع، ولا إلى نتائجها من آلات وأدوات ومعدات ووسائل وطرق ومنتجات.. من محاصيل وزراعات وأزهار وأشجار، أو من أفكار وآراء وأحكام ومذاهب وعقائد فاقدة الوعى بهذا الوجود، وعديمة الفهم.. لأنها لا وعى لها ولا إحساس بالذات! ومصدقات ومعارف وعلوم وفنون وآداب!.. فهذه كلها نواتج بشرية فى ذاتها، جمادات أو فى حكم الجمادات.

فنحن مهما تناولنا، مخلوقات أنعم عليها الخالق - جل شأنه - بالوعى والفهم، دائمو النمو والتطور بلا نهاية، ما دام النوع الإنسانى مصراً على احترام وعيه وفهمه

والانتفاع بهما. نحن مخلوقات وسط قد يكون لنا أمثال في هذه الوسطية في الكون العظيم - يمكننا بهذا أن نعى ونفهم على مقدار قابل للزيادة الهائلة وللنقص والتقصص الهائلين - يمكننا أن نعى ونفهم وجود الخالق عز وجل ووجود الكون العظيم الذي خلقه سبحانه وتعالى ونحن ضمنه.

ولكننا يستحيل علينا أن نعى أو نفهم الخالق جل شأنه.. حتى كما نعى ونفهم أنفسنا أو غيرنا من الآدميين أو غيرنا من الأحياء.. أو حتى كما نعى ونفهم الكون العظيم وما فيه. وهذه الاستحالة بديهية لدى المتأمل، لكنها تبدو غريبة لدى الإنسان العادى.. برغم أنها لازمة من لوازم الخلق طبقا للناصح من عقول الآدميين. إذ لا يعقل خلافاها ويستحيل أن يكون الآدميون المخلوقون خالقين أبديين إلى جوار خالقهم تبارك وتعالى.

وإشارات القرآن المجيد إلى آدم تشير في عمقها إلى هذا المقصود.. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٣١) إشارة إلى آدم التام الذي زوده المولى عز وجل بالوعى والمعرفة والفهم، والذي زود من روح خالقه سبحانه، ما استحق به أن تسجد له الملائكة، وما استحق به أن يعيش هو وزوجه في رضا ورغد تامين.

لكن آدم منح مع تمام المعرفة والفهم حرية المشيئة والاختيار لما يستطيب، فهيأت له نفسه - أو خيلت إليه في لحظة نسي فيها خالقه - أن يطلب لنفسه أن يكون خالدا ذا ملك لا يبلى، فسقط بذلك الطلب وزن كل ما كان لديه من تمام الوعى والمعرفة والفهم، فأخرج من حيث كان، لتضييق عليه الأرض بما رحبت، ولیمضى حياته في هداية نفسه وأهله ومن حوله في محيطه ونسله حتى لا يقع منهم مثل ما وقع فيه حين أعطى ظهره للوعى والفهم فخر ما كان فيه من الإكرام والإنعام!

آدم وأولاده!



كان نجاح آدم في أولاده محدودا، وقد نبه القرآن المجيد إلى أن ﴿لَإِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران ٣٣) .. وذلك كأنبيا هادين مهتدين أولهم آدم بعد تلك المحنة التي مرَّ بها .

ووجود الأنبياء - كل في زمنه ومحيطه كهادين واعين عارفين فاهمين - قد استلزمه وجود الكثرة الكافرة من البشر، الجاهلة الغافلة اللاهية المنصرفه في بدائيتها وتأخرها في عاداتها وأخلاقها ومفاهيمها وغاياتها وأغراضها .

ومع تطور المجتمعات في القرنين الأخيرين، والتفاتها واحتياجها اقتصاديا وسياسيا إلى نشر التعليم في جميع الطبقات، ومع ما واكب ذلك من اتساع نطاق الإعلام والثقافة بين الجماهير، كثر دعاة الهداية والتبشير، وكثرت مراكزهم ووسائلهم وأساليبهم، وقلت استجابة الجمهور إلى الدعاة الجدد، ولم يعد ظهور بعض الزاعمين يجتذب الأنظار والأسماع والأنصار إلا بقدر محدود جدا.. خاصة وقد اتسعت وتعددت ألوان الدعوات لاجتذاب الجماهير دينية ولا دينية، وسياسية وغير سياسية، ووطنية وثورية، ومحافظة وراديكالية، وصوفية ويوجية وكريشنامورية وثيوصوفية.. وظلت عامة الناس في البلاد المتطورة وغير المتطورة، منتمية - برغم ذلك - إلى أنبيائها ودياناتها انتماء خاليا في الأغلب الأعم من الحماس والعمق!

هذا، وأكثر أفكار الآدمي خواطر داخلية بلا واقع فعلى يحركها ويثيرها.. وهى فيما يبدو تستعجله إلى الحركة والتحرك.. وهو إذا اعتاد عليها دون أن يتحرك، فَقَدْ - أوكاد - معظم ميله الغريزي إلى الحركة والفعل، وأدمن ذلك النوع من التفكير العقيم، وصار أسير الخيالات والخواطر الفارغة لا يتركها ولا تتركه!

ويبدو أن هذا فقدان المتواتر السائد يرجع إليه معظم ما لدينا من مخالفة أفعالنا لأقوالنا، وكثرة وسهولة وعودنا وعزومنا وعهودنا وقلة ما ننفذه ونلتزم به منها، وتقلص التمسك

بالإخلاص والأمانة والوفاء، وتعذر الصبر الطويل على احترام كلمتنا والتزام حدود عقيدتنا في الإصرار على الامتثال الفعلي لمبادئنا المعلنة، وهو المقصود الحقيقي من الاستقامة. كما يبدو أن هذا فقدان سبب من الأسباب الرئيسية لما نتصف به مما بلغناه من أنواع وصور القسوة وعدم المبالاة، وقلة الشفقة والرحمة حتى لن يستحقونها من أهلنا أو جيراننا ومعارفنا.. ثم يرجع أيضا لهذا فقدان، بعض أسباب ولع الآدمي بترديد العموميات أو التجريد والحكم والقواعد، لأنها خالية بالنسبة له من الإلزام في التطبيق الفعلي.. وهذا يغري الآدمي بحفظ أمثال تلك المقولات العامة، وقد يدفعه إلى تقصيصها وينتهي به إلى التعامل دادعاء سعة المعرفة والتبحر في العلم.. وإلى اعتباره عند نفسه وفي بيئته متعلما أو عالما أو عارفا دون أن يتحقق لديه وفي أعماقه رسوخ الأمانة والإخلاص والتراحم، ومن هنا كانت تنفصل الأخلاق والتدين عن المعارف والعلوم بانفصال القصد الفعلي في كل ما لدى البشر، وذلك قبل أن تتداخل هذه في تلك، نتيجة الاحتراف والارتزاق!



صيام رمضان، فريضة وغاية



ترى، ما سر هذا الشهر الكريم؟! ما هذا العبير الخاص، والمذاق المتميز والأنسام
الفياض، والأريج الذى يشيع قى الأرواح ويملاً النفوس؟!

ألأنه شهر القرآن؟

ألأنه شهر الصيام؟

ألأن فيه ليلة القدر.. خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها؟

○○○

ليس من شك أن رمضان يمتاز بين الشهور بهذه المزايا ولكن القرآن كما تنزل - بداية -
فى رمضان، نزل فى غيره من الشهور...!!

والمسلم كما يصوم صوم الفريضة فى رمضان، يصوم صوم النوافل والكفارات وصوم التطوع
فى غير رمضان..

وصلاة المسلم وتعبده وتهجده ونسكه وإخباته، فرائض ونوافل موصولة.. ليست موقوفة
على ليلة من الليالى، ولا على شهر من الشهور...!!

لماذا إذن كان لرمضان هذا السحر الخاص؟! ولماذا كانت أنسامه ونفحاته يحسها الصائم
ويحسها أيضا من حرم نعمة الصيام. أو قام به عذر للإفطار.. بل ولا يخطئ الإحساس بها
من يدينون بديانة غير الإسلام؟!

ثم!!

لماذا إذن كان الصيام فريضة.. ولماذا كانت الفريضة شهرا؟! وفى رمضان بالذات؟

إنها أسئلة تدور بدورها بذهن المسلم ويثيرها غير أبناء الإسلام...!!

ولماذا يكون مجمعا فى فترة محدودة ولا يترك لاجتهاد أو ظروف المكلف بجمع أيامه

على مدار العام؟!

تكتسب هذه الأسئلة أهميتها من واقع ملموس، هو أن الكثيرين يعرفون الدين بعبادته قبل أن يعرفوه بعقائده.. بل وربما اهتموا إلى العقائد بالعبادات نفسها، ليس فقط لأن العبادة فرع من فروع العقيدة، بل ولأنها تدل في النهاية عليها وترشد إليها..

وقد يكون من السهل - اختصارا للطريق - أن نجيب بأن العبادات هي في الغالب شعائر «توقيفية» تؤخذ كما هي بأوضاعها وهيئاتها وأشكالها.. وأنه من ثم لا ينبغي أن يقوم عليها اعتراض أو يدور حولها خلاف. فليس يمنع المعارض على أن تكون الصلاة خمسا، من أن يعترض على أن تكون ثلاثا أو سبعا.. وليس يمنع المجادل في الصيام شهرا، من أن يجادل في الصيام أسبوعا أو ستة أسابيع.. وهكذا.. ومادام المعارض لا يملك حجة تبرر اعتراضه وتزكي اقتراحه أو تمنعه من معاودة الاعتراض على ما دعا إليه، فإن التسليم بالأسباب «التوقيفية» يكون أقرب إلى العقل من المجادلة حولها أو اللجاج فيها.. وأنه لذلك قل الخلاف بين الأديان جميعا في شعائر العبادات التي تؤخذ كما هي بأوضاعها وهيئاتها وأشكالها..

إلا أن ذلك لا ينفي أن العبادات لها غايات، وأنها في غاياتها وأهدافها قد تخضع لمعايير المفاضلة فيما بينها..

فالصلاة.. مثلا، أم العبادات وأولى القربات.. من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين.

ومع فضل الصلاة بين العبادات، فضلت صلاة الجماعة على صلاة الفرد.. ولا شك أن للفضلين، فضل الصلاة ككل، وفضل صلاة الجماعة، أسبابا.. عنها تحدث القرآن والسنة.. وفيها وفي بيانها اجتهد الفقهاء والعلماء.. كذلك الصيام.. وكل العبادات..

فمن المعلوم أن الفريضة الدينية في مجملها «أدب» يتغيا صلاح الفرد أو صلاح الجماعة، وإذا كان هذا هو شأن العبادات الدينية عموما فإن العبادات الإسلامية تتميز بجمعها بين الغايتين.. فهي تجعل من صلاح الفرد وسيلة لصلاح المجموع ثم هي لا تغفل حساب المجموع في أغراضها المباشرة وفي أوضاعها وهيئاتها وأشكالها..

فالصلاة عبادة فردية ولكنها أكرم بالجماعة في مواقيتها الخمسة بالمساجد.. ولا تغفل أداء المجموع كأصل في بعض مناسباتها كصلاة الجمعة والعيدين.. ثم هي في أدائها «الفردى» آصرة معنوية تربط بين جميع المصلين في شتى بقاع الأرض.. من مواقعهم يؤدون ركعات واحدة في وقت واحد.. ويدعون بدعاء واحد، ويستقبلون قبلة واحدة.. كذلك الزكاة.. هي وإن كانت في تكليفها فريضة فردية إلا أنها في خدمة الجماعة ومصلحتها والحج عبادة جماعية، أو هي مؤتمر عالمي يأتلف فيه المسلمون من كل عام، ليشهدوا منافع لهم، ويذكروا اسم الله..



والصيام.. فريضة تعبدية يؤديها الفرد.. فيها رياضة بدنية ونفسية وروحية.. ولها من غير شك أهدافها المرعية في تأديب الفرد وصلاحه.. فهي تعبير متعدد الجوانب عن الخضوع لربوبية الخالق البارئ والامتثال لأوامره.. وهي صلة روحية وجسر بين العبد وربّه.. وهي رياضة للنفس على قوة الاحتمال وكبح الشهوات والرغبات.. وهي سياحة روحية تسكن خلالها أو تتوارى مطالب الحس والبدن وتنطلق سبحات الروح والوجدان.. وهي صلاح للجسد والأعضاء برعاية دورية تخفف عنه سرف وإفراط العام.. كل هذه وغيرها انعكاسات مباشرة للصيام على الفرد الصائم..

بيد أننا لا نلحظ في الصوم هذا الجانب الفردى وكفى.. وإنما هو فريضة ملحوظة الرعاية للمجموع.. أو هي ذات مظهر اجتماعي واضح في أهدافها، وفي أدائها.. فمن انعكاسات رياضة الصيام ومجاهداته على الفرد، إثراء إحساسه بما يكابده الفقراء والكادحون وتقوية آصرته بالجماعة..

ولكن أجلى المظاهر والانعكاسات الاجتماعية للصيام، هو أدائه في توقيت واحد من شهر واحد.. تبدو فيه الجماعة الإسلامية، على اتساع الأرض، أسرة واحدة من مئات الملايين.. تؤدي شعائر دينية واحدة، تتصل بأسس حياة الإنسان نفسه في مطالبه الحياتية اليومية.. في أكله وشرابه ومطالب جسده.. يصوم الجميع في وقت واحد، وساعات واحدة، عن طعامهم وشرابهم.. ويأثقفون في رحلة تعبدية لا رفث فيها ولا فسوق..

ولا صخب ولا تشاحن ولا قتال.. وإنما هم جميعا منصرفون إلى تحنثهم.. يعبدون الله مخلصين له الدين.. فإذا أفطروا أفطروا في ميقات واحد.. وعلى سنة واحدة.. أى مظهر لوحدة الجماعة، أجمل وأعظم وأعمق من هذا المظهر!!
وأى فريضة تعبدية تروض الأفراد، وتأتلف الجموع، خيرا من هذه الفريضة فى هذا الشهر الكريم!!؟

إنه شهر تجتمع فيه، للفرد والجماعة، كل أركان الفرائض والعبادات فى شحنة مكثفة مركزة من الدعاء والصلاة.. من التشهد والصيام.. من استقبال البيت الحرام فى كل دعاء وصلاة بقلوب الداعين المصلين.. كل ذلك فى إطار يحس فيه الفرد أكثر ما يحس بآصرته بالمجموع الذى يصوم وإياهم فى وقت واحد، ويفطر معهم فى ميقات واحد.. تتلاقى أدعيتهم وصلواتهم فى معارج السماء صاعدة إلى رب العالمين، فى ترتيلات وضراعات وابتهالات كأنها معزوفة واحدة يطلقها عباد الرحمن على نسق واحد تتجاوب أصداؤها فى عنان السماء.
مرة ثانية..

أى تعبير عن الجماعة أعظم وأعمق من هذا التعبير!!؟
وأى شحنة روحية تعبدية أصفى وأطهر وأعرض من هذه الشحنة!!؟
ومتى!!؟
فى شهر هو على الله كريم.. فيه نزل القرآن وفيه كانت بينات من الهدى والفرقان..

○○○

ربما وجدنا هنا جواب سر هذا الشهر الكريم..

فهو شهر القرآن..

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة ١٨٥).

وهو شهر الصيام..

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدٰكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة ١٨٥).

وهو شهر ليلة القدر..

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾ (سورة القدر).

هو شهر الجود والمواساة.. شهر الابتهاال والدعاء.. شهر التقبيل والتعبد والتهجد والإخبات.. هو هذا كله.. وهو شهر تلك الفريضة والرياضة البدنية والنفسية والروحية التي يتلاقى فيها صلاح الفرد مع وحدة صلاح الجماعة..

كل هذه المعاني التي تتجمع مركزة مكثفة في رمضان، هي سر هذا الشهر المبارك الذي يغذى بعبقه وأنسامه وأريجته نفحات الروح ويصل ما بين الفرد والجماعة.. في إيقاع من سبحات هذا الشهر الكريم..

إن العبادة المثلى ترنو إلى تنبيه الضمير الإنساني إلى وجوده الروحي وإلى أن له مطالب غير مطالب الجسد وشهوات الحيوان، وإن العبادة المثلى لترنو أيضا إلى تنبيه الضمير الإنساني إلى الوجود الخالد الباقي الذي يتوارى أمامه وجوده الفردي الزائل المحدد..

فبغير الوجود الروحي، والوجود الخالد الباقي، لا يمكن لأدمى أن يترقى من البهيمية إلى الإنسانية، ولا أن يرتفع بعقيدته وسلوكه إلى المراتب الجديرة ببنى الإنسان.. كيف يمكن لأدمى أن يحيا ساعة بساعة وتستغرقه ماديّات الدنيا، ثم يرجو من الحياة معنى خالدا باقيا غير متعة اللحظة.. كيف يمكن له بغير هذا الوجود الروحي أن يحرص على معنى يحفزه أو يردعه.. يرغبه أو يرهبه؟!

كمال الصيام الإسلامي أنه ينبه الضمير الإنساني إلى هاتين الحقيقتين..

حقيقة الوجود الروحي.. بصوم يقمع في الجسد مطالب الحس والمادة ويروضها.. ويثري كل جوانب الروح..

وحقيقة الوجود الخالد الباقي.. فى ائتلاف الفرد مع الجماعة ائتلافا يحس به بعمق انتمائه إلى المجموع الخالد الباقي مهما تغيرت على الزمان عناصر الأفراد فيه.. فى خضوعه لربوبية الوارث الباقي الذى إليه سبحانه ميراث السموات والأرض.. حيث الكل فى زوال، ولا يبقى إلا وجهه ذو الجلال والإكرام.. فالمسلم فى صيامه يذكر حق الروح ويذكر أنه ذو إرادة ينبغى أن تأخذ بزمام جسدها لا العكس.. ويذكر وجودا - أبقي من وجود ذاته.. وجود الجماعة وجودا موصولا أبعد من وجوده ولو إلى حين.. ووجودا سرمديا للواحد الأحد رب العالمين..



ولعلنا بعد هذا ندرك لماذا كان للصيام شهر معلوم.. ولماذا كان مجمعا فى فترة محددة موصولة.. بغير هذا التحديد، فى الشهر المعلوم، يفقد الصيام مظهره الاجتماعى ويفقد تلك الانعكاسات المتقابلة التى تتراوح بين المصلين المتعبدین وهم يؤدون الفريضة أداء الجماعة.. ويصومون جميعا على قلب واحد وسنة واحدة.. مع مقدمات رمضان فى كل عام كان صفى الرحمن عليه الصلاة والسلام يستقبله بهذه الكلمات «قد جاءكم شهر مبارك.. افترض عليكم صيامه.. تفتح فيه أبواب الجنة وتغلق فيه أبواب الجحيم.. وتصفد الشياطين.. ينادى فيه ملك: يا باغى الخير أقبل ويا باغى الشر أقصر.. فيه ليلة خير من ألف شهر.. جعل الله صيامه فريضة وقيام ليله تطوعا.. من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه ومن أدى فيه فريضة؛ كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه.. هو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة.. وهو شهر المواساة.. ومن صام رمضان إيمانا واحتسابا، غفر الله له ما تقدم من ذنبه».. هو شهر مبارك تتلاقى فيه الفريضة الفردية، مع الآصرة الاجتماعية لأسرة بمئات الملايين.. تصدع للأمر الإلهى، فتؤدى فريضته فى ميقات معلوم على إيقاع واحد وقلب واحد.. بداهة، لا ينصرف (المظهر الاجتماعى) لصوم رمضان، إلى صنوف اللهو ووجبات المضحكات والفوازير.. ولا إلى فنون الابتكار فى أصناف الطعام والإسراف فيه.. ولا إلى القטיפات والكنافة وقمر الدين وغيرها من موروث عادات الدولة الفاطمية..

حقيقة أحلّ الإسلام الطيبات من الرزق وأساغ اللّهُو المحمود.. إلّا أنّنا نبتعد بما جرت عليه العادات عن مقاصد الصيام ونفحات الشهر نفسه ، ونجرى فيه على فهم مغلوط لحكمة الصوم وغايته..

إن أهم ما نلاحظه من حكمة الصوم هو التنبيه إلى الجانب الروحي في الفطرة البشرية وإخضاع مطالب الجسد والحسيات والماديات إلى زمام الروح وإرادة النفس.. في رحلة شهرية موصولة تتألف فيها إيقاعات الجماعة كلها في معزوفة روحانية تعبدية.. تبتغى صلاح الفرد.. وتستهدف أغراضاً شتى منها صلاح الجسد نفسه بعد إفراط عام.. ومنها الانعطاف المتبادل بين الفرد والمجموع. بين الغنى والفقير.. وهى أغراض ينقضها الإسراف فى اللّهُو والطعام والشراب.. فهى ضد صلاح الروح وصلاح الجسد أيضاً.. ثم هى تجسيد - لا علاج - للتفاوت بين الأغنياء والفقراء !!!

إن أهداف الصوم - ونفحات الشهر - لا تتحقق إلّا بسنن الصوم كما حددها الشهر الكريم.. فهى رحلة تعبدية متكاملة لا ينبغى لنا أن نحيلها إلى مسخ شائه بتجاوزات تتنافى مع حكمة الصيام وغاية هذه الرحلة التعبدية الروحية المكثفة.

الصوم فى رمضان ليس فقط إمساكاً عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.. وإنما هو صوم للسمع والبصر والجوارح وعن المحارم جميعها.. عن الرفث والفسوق.. عن الصخب والبغضاء والتشاحن.. عن فضول الكلام.. عن النّم والاعتياب.. عن التجبر والعدوان.. عن الكبر والعجب.. عن الخيانة والكذب واللغو النفاق. إنه مجاهدة حقيقية وامتحان لقوة الإرادة فى إقامة النفس على الصراط.. ليس فقط بترك النواهى والمحارم، وإنما أيضاً بالإقبال على الأوامر.. على الصدق والإخلاص ؛ على التواضع والعفو والإسماح.. على التراحم والتواصل والتكافل.. على القول الطيب والعمل الصالح.. على البر بالمساكين، والحدب على الفقراء والمحتاجين.. على الصلاة والتحنّث والعبادة..

أينتهى هذا كله على لحظة إفطار، ينكب فيها الجسد وتنكب فيها النفس على كل ما عافته ساعة الصيام؟؟؟

هنا الخطأ الفادح !!!

لقد قلنا إن الصوم رحلة تعبدية روحية مكثفة تمتد شهرا.. هو أكرم الشهور.. فما بين الإفطار والإمساك، جزء لا يتجزأ من الرحلة.. وفترة لا تخلو من سنن الشهر الكريم في نفحاته وأنسامه تلك الطيبة الثرية.. ألم يجعل سبحانه قيام ليلة تطوعا؟ ألم يحدث فيه على الخير وجعله خصلة من خصاله، في نهاره أو ليله، كفريضة فيما سواه؟ ألم يجعل من أداء فريضة فيه كأداة سبعين فريضة فيما سواه؟ أليس هو شهر الصبر، لا فقط نهار الصبر، والصبر ثوابه الجنة؟؟ أليس هو شهر المواساة، لا فقط نهار المواساة؟ ألم يفتح سبحانه أبواب الجنة ويغلق فيه أبواب الجحيم ويصفد الشياطين؟.. أليست هذه كلها وغيرها أمارات على أن الرحلة التعبدية رحلة موصولة على مدار الشهر المبارك كله.. أيامه ولياليه.. ثم كيف يمكن أن تنقطع الرحلة التعبدية تقطعا يوميا تتأرجح فيه هذا التأرجح الصارخ بين غاية الالتزام وإفراطات التجاوز.. كيف يمكن أن ينصلح الجسد ونحن نتخمه فجأة بعد نهار صوم بكميات هائلة من الطعام الشراب تكاد تعجز أعضائه جميعا عن أداء وظائفها.. وكيف يمكن أن نحس بالجماعة، وبحرمان فقرائها، ونحن نختص أنفسنا بألوان من الطعام والشراب ما أنزل الله بها من سلطان، بينما على مقربة منا من يكاد لا يجد لقيمات يقمن صلبه!.. ثم كيف يمكن أن تكون رياضة الجسد، وإثراء الروح، وكبح الشهوات بزمam الإرادة، بينما تنهار هذه الأخيرة فجأة في لحظة.. تستبجح فيها بنهم وشراهة ما ربيحت النفس على مكابדתه ومجاهدته ليوم فات، ولأيام أخرى عليها أن تواصل المكابدة والمجاهدة فيها!

لقد كان المصطفى عليه الصلاة والسلام، فيما رواه أنس رضى الله عنه وأرضاه، يفطر على رطبات قبل أن يصل.. فإن لم تكن فعلى تمرات، فإن لم تكن - حسا حسوات من ماء.. الإفطار عنده وفاء لضرورة، تحفظ للجسد ضرورات مطالبه، ولا ترتد وبالا عليه، ولا تقوض للروح ما اكتسبته في رياضتها ومجاهدتها وإخباتها.

يقول عمر رضى الله عنه وأرضاه «ياكم والبطنة، فإنها ثقل فى الحياة وتتنن فى

الموت»

وقديما قال لقمان «يا بني، إذا امتلأت المعدة ماتت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة».

كانت ليالى رمضان عند النبي ﷺ، فريضة متجددة للسياحة الروحية.. مع أنه ﷺ دائما في رحلة روحية موصولة لا تنقطع.. كان يكثر من الصيام والدعاء والتهجد في رمضان.. ويعتكف العشر الأواخر فيه، اعتكافا كاملا..

يصلى، ويتعبد، ويتلو الذكر الحكيم.. تقول السيدة عائشة عليها الرضوان «كان الرسول ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل، وأيقظ أهله، وشد المئزر».

كان عليه الصلاة والسلام أجود الناس في كل وقت، ولكنه كان أجود ما يكون في رمضان.

فيما استننه عليه ﷺ تبدو كلمات الحسن البصري آية الآيات وتعبيرا وافيا عن خصال هذا الشهر المبارك، «إن الله تعالى جعل رمضان مضمارا لخلقه.. يتسابقون فيه بطاعته إلى مرضاته»، ولأن الحق تبارك وتعالى قد جعل رمضان مضمارا لخلقه.. يتسابقون فيه بطاعته إلى مرضاته، فإن المصطفى ﷺ كان يوصي فيه فيقول: «فاستكثروا فيه من أربع خصال؛ خصلتين ترضون بهما ربكم، وخصلتين لا غناء بكم عنهما.. فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم، فشهادة أن لا إله إلا الله.. وتستغفرونه.. وأما الخصلتان اللتان لا غناء بكم عنهما فتسألون الله الجنة وتعوذون به من النار».

فرحلة الصيام الروحية رحلة موصولة يتنافى وإياها أن تنقلب إلى نقيضها في لحظة بعد مجاهدة وإخبات يوم.. فهي رحلة ممدودة طوال الشهر المبارك.. هي بطوله شهر صيام وقيام.. تعبدا وتهجدا وإخبات.. يأتلف فيه الفرد مع الجماعة، تكفكف فيه الجماعة عن أفرادها..



ليست هذه دعوة لتكريم الأشهر بحساب الصكاك - كما قال العقاد - ولا بطريقة جعل أيام ومواقيت للسعود والنحوس، ولا هي تفضيل يركن إلى مدارات الأفلاك وأسرار النجوم..

وإنما هو - فقط - فهم لتقدير شهر ارتبط بنزول القرآن، وجعله الله تعالى رحلة تعبد وصيام.. نقدره لأنه شهر فرقان وحساب.. ولأنه شهر صوم وقيام وتهجد وإخبات.. نفى فيه إلى رب العالمين.. نتأدب بأدبه، ونستيق إلى مرضاته بطاعته.. ونمضى على صراطه.. ما أحرانا في أيامه المباركة، أن نتذكر قول الحق سبحانه فيما رواه نبيه عليه السلام في الحديث القدسي: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي، وأنا أجزي به».. والصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إنني امرؤ صائم... والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك... وللصائم فرحتان يفرحهما، إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه. صدق الله ورسوله.



لماذا يصوم الفقير؟!



كنت مدعوا «على الهواء»، فى اليوم الأول من شهر رمضان، بإحدى الفضائيات، مع فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوى، لنتحدث عن الشهر الكريم، وعن الصيام.. كان السؤال الأول الذى عنى مقدم الندوة أن يطرحه، منقولاً عن تساؤلات الشباب : لماذا الصوم؟! .. أليحس الصائم - كما يقول البعض - بجوع الفقير فينعطف قلبه له، وتفيض مشاعره وعواطفه تجاهه، فتحرك الرحمة وتحض على البذل والعطاء.. فإذا كان ذلك - فيما تردد تساؤلات الشباب - فلماذا صوم الفقير وهو مكوى بالجوع يكابده ويقاسيه طوال أيام العام؟! ..

خطأ هذا المطروح، خطأ مركب، لأنه خطأ فيما يصدر عنه التساؤل البرىء من بعض الشباب، وخطأ أيضاً فيما يبديه البعض من جواب أو تفسير أو تعليق عن سبب للصيام، يعزونه إلى الإحساس بفقر وجوع ومسغبة الفقير.. كان يمكن أن يستقيم التساؤل، والتفسير، لو كان الصوم محض صيام وكف عن الطعام والشراب لمدة معلومة، بيد أن القرآن المجيد، والسنة النبوية - يدلان على أن الصوم ليس محض انقطاع لأجل معلوم عن الطعام والشراب، ولكنه مجاهدة شاملة، ورحلة تعبديّة كاملة، ليس حسب العابد المرتحل فيها أن يصوم عن الطعام والشراب، وإنما يتوجب عليه أن يصوم أيضاً عن «الرفث والفسوق، وعن السباب والكذب وقول الزور»، وعن «الصخب والتقاتل والفحش»، وعن سائر النواهي التى لا يستقيم الإقبال عليها أو الوقوع فيها مع أنسام الشهر المبارك وغاية الصوم الذى جعله الله تعالى للإنسان «وجاء» وسبيلاً لكف نوازغ وشهوات الجسد، والتضييق على وساوس الشيطان هذه الغاية المثلى لا تتحقق إلا بهذا الصيام الجامع المتعطف عن السقوط فى وهدة المعاصي والآثام التى تتجافى مع جلال الصوم .. فى الحديث القدسى: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم، فإنه لى، وأنا أجزي به. والصيام جنة (وقاء) فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث (لا يفحش فى القول)، ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إنى صائم.. إنى صائم»..

لا معنى لصوم لا يقتزن بالكف عن المعاصي والنواهي.. الصيام امتناع وكف وانتهاء عن هذا كله ليستطيع الصائم بهذا الصوم الشامل، أن يتخلص من نداء وشهوات ورغائب الجسد، وأن يفىء إلى عالم الروح، تصفو فيه نفسه من الأدران، ويخلق بقلبه وفؤاده ووجدانه وروحه في أنوار اليقين قرينة إلى الله تعالى .

الصوم في رمضان ليس فقط إمساكا عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.. وإنما هو صوم للسمع والبصر والجوارح.. وعن المحارم جميعا.. عن الرفث والفسوق.. عن الصخب والبغضاء والتشاحن.. عن فضول الكلام.. عن النم والاعتياب.. عن التجبر والعدوان.. عن الكبر والعجب.. عن الخيانة والكذب واللغو والنفاق.. إنه رياضة روحية ومجاهدة حقيقية، وامتحان لقوة الإرادة في إقامة النفس على الصراط.. ليس فقط بترك النواهي والمحارم، وإنما أيضا بالإقبال على الأوامر.. على الصدق والإخلاص.. على التواضع والعفو والإسماح.. على التراحم والتواصل والتكافل.. على القول الطيب والعمل الطيب.. على البر بالمساكين، والحدب على الفقراء والمحتاجين.. على الصلاة والتحنث والعبادة..

هذا الصيام، أو هذه الرحلة التعبدية الروحانية، ليست إذن محض امتناع عن الطعام والشراب فقط، وليست محض جوع حتى يقال! فلماذا يصوم الفقير وهو يكاد يكابد الجوع أيام عمره ولياليه.. هذه واحدة، والثانية أن «الجوع» ذاته ليس واحدا في الحالين.. الجوع المعتاد للفقير المحتاج، جوع «إجباري» و«ساخط».. لا خيار فيه للفقير الجوعان، وإنما هو مجبر مقهور مغبون ملء بالسخط والإحساس العميق بالظلم!!

هذا الجوع «الساخط»!!.. أو هذا «الجوع الكافر»!! - يختلف اختلافا كبيرا وعميقا عن جوع الصائم!! جوع الصائم جوع «مختار».. يقبل عليه الصائم باختياره، وبمحبة القربى والاتصال بالله تعالى رب العالمين، وسياحة في روحانيات المجاهدة التي تخبت فيها النفس وتصفو وهي تتخلص من «دونيات» الجسد، وتقمع الشهوات والغرائز، وتتجه إلى الله تعالى بضمير صاف وقلب منيب.. فأين هذا كله من الجوع الساخط المخلوط بالغضب والإحساس بظلم وتجاهل وتجننى الناس، وغياب الإنصاف!

غاية الصيام إذن توافق جبر ورعاية الفقراء كما تتغيا صلاح السراة أو الأغنياء.. الصيام فى رمضان، فريضة تعبدية يؤديها الفرد إلى خالقه، لا تستنفد حكمتها ولا غايتها التعبدية دون أن توافى الصائم بأمداد روحية تفيض عليه من رياضته ومجاهدته التى تتوارى بها مطالب الحس والبدن، وتنطلق سباحات الروح والوجدان..

صوم رمضان، هو صيام يؤديه المسلمون فى ميقات واحد من شهر واحد.. تبدو فيه الجماعة الإسلامية، على اتساع الأرض، أسرة واحدة من مئات الملايين.. تؤدى شعائر دينية واحدة، تتصل بأسس حياة الإنسان نفسه فى مطالبه الحياتية اليومية.. فى أكله وشرابه ومطالب جسده.. يصوم الجميع فى وقت واحد، وساعات واحدة، عن طعامهم وشرابهم.. ويأثفون فى رحلة روحية تعبدية لا رفث فيها ولا فسوق.. ولا صخب ولا تشاحن ولا قتال.. وإنما هم جميعا منصرفون إلى تحنثهم.. يعبدون الله مخلصين له الدين.. فإذا أفطروا أفطروا فى ميقات واحد.. وعلى سنة واحدة.. فى مظهر عميق لإتلاف الوحدة الإنسانية للمسلمين فى هذا الشهر الكريم.

إن العبادة المثلى ترنو إلى تنبيه الضمير الإنسانى إلى وجوده الروحى وإلى أن له مطالب غير مطالب الجسد وشهوات الحيوان، وإن العبادة المثلى لترنو أيضا إلى تنبيه الضمير الإنسانى إلى الوجود الخالد الباقي الذى يتوارى أمامه وجوده الفردى الزائل المحدود.. فبغير الوجود الروحى، والوجود الخالد الباقي، لا يمكن لإنسان أن يترقى من البهيمية إلى الإنسانية، ولا أن يرتفع بعقيدته وسلوكه إلى المراتب الجديرة ببنى الإنسان.. لا يرتفع إلى هذا المرتقى السامق من يحيا حياته ساعة بساعة، ولا من يرجو من الحياة معنى خالدا باقيا غير متعة اللحظة!!.. الوجود الروحى هو الذى يرتقى بالآدمى وينمى فيه ما يجعله حريصا على معنى يحفز به أو يردعه.. يرغبه أو يرهبه؟!

كمال الصيام الإسلامى، أنه ينبه الضمير الإنسانى إلى هاتين الحقيقتين : حقيقة الوجود الروحى.. بصوم يقمع فى الجسد مطالب الحس والمادة ويروضها.. ويثرى كل جوانب الروح..

وحقيقة الوجود الخالد الباقي.. فى ائتلاف الفرد مع الجماعة، ائتلافا يحس به بعمق
انتمائه إلى المجموع الخالد الباقي مهما تغيرت على الزمان عناصر الأفراد فيه.
فى خضوعه لربوبية الوارث الباقي الذى إليه سبحانه ميراث السموات والأرض..
حيث الكل إلى زوال، ولا يبقى إلا وجهه ذو الجلال والإكرام..
فالسلم فى صيامه يذكر حق الروح، ويذكر أنه ذو إرادة ينبغى أن تأخذ بزمام جسدها
لا العكس.. ويذكر وجودا أبقي من وجود ذاته.. وجود الجماعة وجودا موصولا أبعد من
وجوده، ولو إلى حين، ووجودا سرمديا للواحد الأحد رب العالمين..



حمل المغتصبة



حول إجهاض حمل المغتصبة، حضرت وشاركت بمجمع البحوث الإسلامية في حوار طويل وساخن حول هذه القضية متعددة الأبعاد. فثمرة الاغتصاب - إن جازت التسمية- سوف تكون عبئا جديدا على المغتصبة وذويها، بل وعلى الوليد نفسه إن تُرك الحمل.. أشر بلاليا الاغتصاب مضاعفات الذكرى المرة وأوجاعها النفسية الممضة. بقاء الحمل وميلاده يكرس الإحساس بالفاجعة، ويحول دون ستار النسيان الذي وإن لم يداو تماما، إلا أنه يخفت بما يطمره الزمن من وقع اجترار الحادث الأليم. سيبقى الوليد ما عاش، بل ومن ذريته، شاهدا على كارثة انتهكت عرض ونفسية وسيرة المغتصبة، ولن ينجو الوليد نفسه من الآثار المدمرة لواقعة الحمل فيه! .. لذلك لم يقع خلاف على الإطلاق في أن الإجهاض هنا رحمة بالمغتصبة وبالنطفة أيضا، ولكن هل تكفي إباحة الإجهاض أم أنه واجب؟ رأت الأغلبية أن الإباحة تكفي وأن منطاط الأمر إلى صاحبة المأساة، وتمسك الإمام الأكبر شيخ الأزهر د. محمد سيد طنطاوي بأنه هنا واجب تأثم المغتصبة بتركه، فضلا عن أنه يعطى دلالات لا يجوز أن ترتضيها الحرة التي اغتصبت. لم يستمر الجدل طويلا حول هذه الجزئية، فالوجوب تكريس لفداحة الإثم، ثم إن معقده لصاحبة الشأن لضميرها وما تستطيعه ما لم ير الطبيب الثقة المختص الإرجاء لخطر على حياتها أو ضرر شديد بصحتها، ولكن بقي السؤال : ماذا لو رأى الطبيب الثقة المختص أن الإجهاض بعامة خطر على حياة المغتصبة؟! ربما كان هذا الغرض نادرا مع التبكير بتفريغ الحمل، ولكنه غير مستحيل التصور. المسألة الأخرى التي طال فيها الحوار ماهو الحد الأقصى - إن كان - الذي يجوز أو يجب فيه التخلص من الحمل، هل يتقيد أم لا يتقيد بمدة الـ ١٢٠ يوما المقدرة لبدء الحياة فيصير الحمل روحا لا حق في قتلها، فهي لم تكن طرفا في إثم الجاني المغتصب وخطيئته! رأى الإمام الأكبر فتح ميعاد الإجهاض بإطلاق، ورأينا أن يتقيد

بالمدى الذى يصبح بعده قتلا لنفس بغير حق. كانت حجتنا - ولا تزال - أن الأربعة أشهر مدة أكثر من كافية للتخلص من الحمل قبل أن يصير روحا ، وأن التعرض بعدها يصير قتلا لنفس حرم الله قتلها إلا بالحق ، وأنه مهما قيل عن جريمة وإثم الجانى ، إلا أن الجنين يرى من الوزر ، لم يقارف هو ذنبا أو خطيئة ، وفي القرآن المجيد ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن كل إنسان طائره فى عنقه لا يتحمل ذنب غيره. تمسك فضيلة الإمام الأكبر وتمسكنا ، والتجأنا للتصويت ، فرجح وجوب الالتزام للإجهاض بمدى الأربعة أشهر لا يجوز بعدها ، فهل حسمت القضية أم لم ترفع الأعلام بعد ولم تجف الصحف؟!



الدين والجنسية



بين الجنسية وبين الديانة والملة فوارق، أوضحها أن الجنسية على الأقل في العصر الحاضر، لا تستلزم التبعية لديانة أو ملة معينة كأصل عام، وأنها بصفة عامة تتسع لأصحاب الديانات المعترف بها ولغيرهم من المواطنين، كما أنها لم تعد تستلزم الانتماء لعنصر معين أو لون معين أو لغة معينة.. لأن معنى الجنسية هو الانتماء لوطن معين لتوفر الولاء له عند جميع المواطنين في السراء والضراء.

وتوافر الولاء شرط تستلزمه الجنسية كما تستلزمه الديانة أو الملة، لكن الشارع قد يفترضه افتراضا إذا وجدت شرائط خارجية يراها المشرع كافية لوجوده دون ما حاجة إلى التحقق من توافره فعلا لدى هذا الفرد أو ذاك.. وقد تتعدد الجنسية في بعض الأنظمة فينتسب الشخص لأكثر من جنسية فيحمل في نفس الوقت جنسية أو جنسيات لغير دولته الأم، على أن الدولة لا تلتزم في معاملة من ينتمى إلى جنسيتها إلا بإعمال قوانينها هي، ومثل هذا الوضع قد يكون نادرا في الانتماء للديانات والملل، ويفترض وجود الولاء اللازم للجنسية بمجرد الميلاد لأب يحملها، وفي بعض الأحيان بمجرد الميلاد من أم تحملها، كذلك فيمن تتزوج أو يتزوج من زوج أو من زوجة.. فيكتسب الجنسية بالزواج إما فورا أو بعد انقضاء فترة على قيام الزوجية يحددها القانون. كما تكتسب جنسية الدولة بالإقامة العادية فيها لمدة محددة بشروط عامة للجميع، كما قد تمنح الجنسية من الدولة لقاء خدمات استثنائية، ويفترض الانتساب للديانة أو الملة بميلاد من يولد لأب ينتسب لها أو لأم تنتسب إليها، كما يفترض ذلك الانتساب للقيط الذي يوجد أو يعثر عليه بين ظهرائي أهل الديانة أو الملة، وينتقل إلى الديانة أو الملة ويدخل ضمن أتباعها من يقوم بالإقرار علانية باعتمادها بالصيغة المقررة وبالطقوس المرسومة إن كان لذلك صيغة أو طقوس.

فالولاء لكل من الوطن والديانة والملة، معظمه مبني على افتراضات وأمر ظاهرية خارجية عامة صرف، ترى السلطة القائمة على شئون المجتمع، أن وجودها يكفي لاعتبار الشخص كبيرا أو صغيرا صاحب حق في حيازة الجنسية أو التبعية للديانة أو الملة المعنية

المقصودة، بغير احتياج إلى بحث أبعد من ذلك في مجال التحقق من وجود وثبوت وقدر الولاء الفعلي لدى كل فرد من أفراد الأمة أو الديانة أو الملة.

هذا الواقع ليس جديداً، ويبدو أنه تخطيط سياسى محصن لم يكن منه بد.. تصب بموجبه مجاميع الأفراد فى مواصفات عامة تكون معروفة للحكومة مقدما، ويمكن لأنظمتها وقضاتها وعمالها ضبط تلك المجاميع من جهة سلوكها الذى ترى الحكومة أنه يهمها بنحو أو بآخر، بغض النظر عن العلاقة الباطنية الفعلية التى تربط الشخص أو لا تربطه كسلوك بالوطن أو الديانة أو الملة.

فالجماعات الكبيرة التى تحتاج إلى أنظمة عامة وإدارة وسياسة لحكم الملايين من البشر، لا يتصور أن يستهلك حاكمها أو حكامها القوى والجهود والوقت والمال فى تفحص قلوب وعقول الأفراد فردا فردا للتثبت من متانة الولاء داخلها، وتدل الشواهد فى بلدان العالم على أن الحكومات تكتفى فى هذا السبيل بالاعتماد على أمارات وافتراسات وظواهر ومظاهر عامة خارجية، إن لم تصدق فى دلالتها على ثبوت صدق الولاء، فإنها تشجع عموم المجتمع على ادعاء الولاء والانتماء بوجوده، وعلى الرضا بالأنظمة والقوانين التى تمكنها من ذلك.

ويبدو أن رجال الدين من قديم الزمان قد فطنوا إلى أن ولاء المجتمع الكبير للديانة أو الملة لا يكون إلا ولاء افتراضيا جزئيا فى أحسن أحواله، وأنه يرتبط ارتباطا كليا بالولاء للدولة القائمة وسياساتها أو الدولة التى تستعد لخلافتها فى الحكم.. لأن الولاء للدولة حتى فى أوجها لا يكون إلا افتراضيا وجزئيا هو الآخر، ولذلك لم يقطع رجال الدين قط صلتهم لا بالسياسة ولا برجال الحكم ولا بمنافسيهم عليه. خاصة إذا كانت المناصب الدينية الكبيرة تملؤها الدولة بمن تتخيره منهم.. كذلك لا يقطع الحكام صلتهم قط برجال الدين ولا يكفون عن محاولة اجتذابهم انتفاعا بتأثيرهم بين العامة، أو اتقاء لنقدهم ومقدرتهم على إثارة الخواطر والمشاكل فى محيطهم وفى الطبقات القريبة منهم.

وإن كان الولاء للوطن وللديانة والملة معظمه افتراضات، ولم يقم قط على واقع غالب فعلى فى المجتمعات الكبيرة، لذلك فإنه لم تنجح قط كل المساعى والمحاولات التى بذلت لتعميم

الإخلاص والصدق والنوايا الطيبة في تلك المجتمعات - ولا يمكن أن تنجح.. لاستحالة أن يكون ولاء أغلبية الناس من دهور وقرون - للوطن والدين غير فعلى - وتكون أغليبيتهم مخلصة صادقة طيبة النوايا فيما عدا ذلك ، فلا يمكن الاستغناء عن الأساس السياسى لضبط المجتمعات الكبيرة بأساس آخر مضاد يدور فقط على فعلية الإخلاص والنوايا الطيبة ، لأن إدارة الملايين وحكمهم يلزمه حتما سعة الحيلة والاستعانة بالوعد والوعيد.. يصدقان تارة وقد لا يصدقان.

وما شوهد ويشاهد من إمارات تماسك في بعض الجماعات الكبيرة لوقت يقصر أو يطول - حيال كوارث عامة أو أزمات خانقة أو حروب طاحنة.. هذا الذى شوهد ويشاهد لا يرجع فى الواقع إلى الولاء ولا إلى تذكر الوحدة فى الوطن أو الملة وأمجاده وأمجادها وسوابق التغلب على المحن التى مرت به وبها، بقدر ما يرجع لقوة الشعور الحاد العامة بالخوف وإحداق خطر الهلاك أو الضياع بالجميع.. وهو شعور موقوت يفتر حتما ويزول بمرور الأيام والتقاط الأنفاس.. ولذا يحتاج إلى تنشيط ما بقيت المحنة قائمة والحاجة ماسة إلى التماسك، وهذه مسئولية السلطات وأجهزة الإعلام ووسائل الدعاية والرقابة على الأنباء، وأدواتها أدوات سياسية وأمنية لخدمة مصالح عامة دنيوية صرف همها الأول نجاح مساعيها أكثر من اهتمامها بالإخلاص والصدق.

ذلك الواقع لم يمنع ولا يمنع سواء المواطنين فى كل عصر، برغم تفوق المصالح الدنيوية والتهالك عليها.. ولم يمنع ولا يمنع من التماجد والافتخار بالولاء للوطن والملة، ولا من الاحتفاء والاحتفال بذكرىات ما ينتسب لهذا الولاء - العالى المكانة - من انتصارات وبطولات وتضحيات، ولا من مبالغة المبالغين نثرا وشعرا فى الإشادة بهذه الأمور وتلقينها للصغار والشباب فى المدارس والمعاهد وملء الكتب ونوايج القنون بها.. دون أن يغنى عن الاستمرار فى هذا التمجيد والتفخيم كونه لا يتفق بحال مع الغالب الأغلب من واقع حياة المجتمع الفعلى ونوع المصالح الحقيقية التى يخدمها ويتغياها الحاكون والمحكومون.. لأن الانتصار فى الحرب والتغلب على الأزمة والنجاة من الكارثة، نتائج سياسية باهرة تغطى فى نظر سواد الناس كل ما حدث وجرى احتماله فى سبيلها، وتبعده من ثم عن الملامة والنقد.

هذا ووجود الرياسات في كل من الدولة والديانة والملة، شكّل في ذاته عنصرا سياسيا خطيرا، لأنه يفرض نظاما لتوزيع السلطات وتدرجها وتسلسل الالتزام بالتعليمات والأوامر التي تصدر من الأعلى مرتبة إلى من تحته، وتسلسل الالتزام بالخضوع والطاعة من الأدنى مرتبة إلى من فوقه، وتفاوت القامات والاحترامات والمزايا والرواتب والاختصاصات والمهام.. وهو ما يلهب على نحو دائم الأطماع والتقربات والتوسلات والمنافسات والدسائس، وكل أولئك ظواهر عامة تلازم حتما وجود التنظيمات البشرية القائمة على الافتراضات والأمارات الخارجية، والتي يستحيل أن تقوم على معرفة حقيقة ما يجري داخل وفي باطن كل فرد، ومبلغ ما لديه من الصدق والنقاوة والإخلاص، أما القول بأن الرياسات الملية والدينية - بخلاف الرياسات المدنية - مزودة بمَدَد رباني يهديها في المهم من الأمور، فإنه قول يحتاج إلى مزيد من التأمل، وربما يحتاج إلى مزيد من الضبط والتحديد!



من عطر السنة في مولد الهدى



لا غناء للرسالة.. أى رسالة عن «رسول» مؤهل بكل ما يستلزمه حمل الرسالة إلى المكلفين. ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (الحج ٧٥) وتلك سنة من سنن الله فى كونه، منذ أولى الرسالات والنبوات، حتى اختتامها بالإسلام.. يقول سبحانه.. ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء ١٥). ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر ٢٤). ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِمْ وَأَسْرَوْا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (يونس ٥٤)..

بيد أن رسالة الإسلام التى حملها محمد المصطفى عليه الصلاة والسلام.. جاءت متميزة عما سبقها من رسالات بأنها للناس كافة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبا ٢٨)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء ١٠٧).. فلا هى لقوم بعينهم، كبنى إسرائيل فى اليهودية والمسيحية. أو عاد وثمود قومي هود وصالح، أو قوم نوح أو لوط، ولا إلى قرية بعينها، وإنما هى الدعوة الشاملة إلى الناس والأقوام والأمصار كافة: «وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِى أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا» ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِى أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ (أم القرى - هى مكة - القصص ٥٩).. ولم يكن هذا العموم هو نصيب الرسالة المحمدية من التميز وكفى، وإنما هى رسالة النور التى اختلفت وتمايزت وتفاضلت على كل من سبقها من رسالات ونبوات.. فلا هى التى تنطوى فى تكاليف الزعامة، ولا التى تقوم على منفعة أمة من الأمم بعينها، ولا التى ينتظرها قوم بذاتهم تحقيقا لوعود متعاقبة يفسرها كل منهم بما يبتغيه، ولكنها الرسالة الإلهية الشاملة التى لم يستغرقها مقصد من هذه المقاصد، وإنما قوامها أن الله حق وهدى. وأن الإيمان به، جل وعلا، مطلوب لأنه حق وهدى..

هذه «الرسالة» خاتمة الرسالات، قد حملها رسول أمين، جد أمين.. تلاقت فيه أكرم وأفضل وأميز صفات الأنبياء والرسل أجمعين.. وكيف لا، وهو الذى أدبه ربه، فأحسن تأديبه، وأهله بأدبه هذا العظيم لأن يحمل إلى الناس كافة رسالة الإسلام، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويكون لهم، بتعاليمه، ومنهجه وعمله وحياته، وسيرته، نعم الأسوة التى بها يتأسون.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: ٤٤) ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ (التوبة: ٣٣) ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الأحزاب: ٤٥) ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (الأحزاب: ٤٥ - ٤٦) ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: ٥٢ - ٥٣) ﴿يَتَأْتِيَهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا يَلْفَظْ رِيسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٦٧) ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١) ..

إن التأمل فى سنة المصطفى عليه السلام وسيرته، سيفهم الإسلام حق فهمه.. سيرى محمدا.. نبى الرحمة، وأكثر الناس برا بأهله، وحبدا عليهم يقول لحبه أسامة بن زيد حين جاءه يتشفع للمرأة المخزومية لعدم إقامة حد السرقة عليها «وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».. وسيرى مع هذا الحرص على إقامة حدود الله، حين تكتمل أركان الجرم بغير شبهة، ولا عذر من إباحة أو ضرورة أنه عليه السلام هو الذى يرد من جاءه يعترف بالزنى فيشيع عنه بوجهه ثلاث مرات ويراجعه

فى مقالته ثلاثا أخرى، ثم يحرص على ألا يكون به - فى اعترافه - مس أو جنون أو هذيان سكر.. وسوف يراه يرد أبا هريرة ردا عنيفا حين أخبره بأنه رد امرأة زنت فحملت فولدت فوأت، ردا عنيفا حين سألته: أيقبل الله توبتها.. ويقول له «هلكت وأهلك».. فيمضى أبو هريرة هائما يبحث فى طرقات المدينة عن المرأة قبل أن تقتل نفسها يأسا مما نهرها به من عدم قبول الله تعالى لتوبتها.. سيرى محمدا، هذا الذى يبر أهله، ويؤثر عمه العباس بحبه، يرد العباس عن ولاية طلبها ويقول «من أمر أحدا محابة فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين».. وسيراه على حبه وإيثاره لأبى ذر الغفارى، حتى قال فيه «ما أقلت الغبراء، ولا أظلت الخضراء، أصدق لهجة من «أبى ذر» يرده رغم ذلك عن الولاية، لأن به -عليه الرضوان- ضعفا، ولأنها «أمانة ويوم القيامة خزى وندامة».. وسيراه على شدته فى الحق، لا يغلق أمام مخطئ باب التوبة والمغفرة، ولا يحرم أحدا رحمته وعطفه، أو يصادر على سعة رحمة الله تعالى له.. وكيف لا، وهو الذى فيه قال تعالت حكمته: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٨) (التوبة) سيرى الخبرة بالنفس البشرية، بقوتها وضعفها، مهما بلغ أوجها. وسيلمس تسامحه وحلمه، وتواضعه وصبره.. سيرى كيف كان عليه السلام بذاته رحمة مهداة وكيف كان يعلم أصحابه فيقول لهم «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء».. سيرى كيف لم يخرج عليه السلام أيا من كائنات الكون - حتى الكلاب - من رحمته.. سيراه يروى لأصحابه كيف شكر الله تعالى وغفر لعبد ملأ خفه بماء وأمسكه لقلب ظامئ حتى ارتوى.. سيرى كيف أن اعتزازه بعروبته، وقريشيته، واعتزازه بصحابته، لم يمنعه من أن يقول للمسلمين «لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى».. سيرى كيف كان صلوات الله وسلامه عليه ينأى بأصحابه عن الجدل العقيم، ويحذرهم من عواقبه ويستن معهم سنة التعليم والتفقيه والإرشاد والتوعية بالحكمة والموعظة الحسنة.. بسيرته فيهم، وتواضعه لهم وللناس كافة.. حتى كان

يردف الفقراء معه على دابته.. يرقع ثوبه وخفه بيده.. ويحمل بنفسه حاجته.. كيف كان على نبوته، ووحى ربه له، لا يترك فرصة لاستشارة أصحابه إلا انتهزها، موصيا إياهم بقوله «استعينوا على أموركم بالمشاورة».. كيف كان يشاركهم في حفر الخندق في غزوة الأحزاب ولا يستنكف أن يغبر التراب وجهه الكريم.. سيرى كيف كان مع حمله للرسالة، وحرصه الحريص على أحكامها، هو الذى يقول للمسلمين «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه».. سيراه يخرج إلى صحابته فرحا مستبشرا حين نزل من سورة الشرح ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ﴾ (الشرح ٥ - ٦) .. يقول لهم «أبشروا، فلن يغلب عسر يسرين».. سيرى الفهم الواعى لهدف الدين والعقيدة، والتيسير على الناس فى غير مشقة ولا إعنات.. يوصيهم بأن الدين متين، وأن أحدا لن يشاده إلا غلبه، وأن يوغلوا فيه برفق، فإن المنبت لأرضا قطع ولا ظهر أبقي.. سيرى كيف يسر عليه الصلاة والسلام التكليفات على أصحابه والمسلمين حتى فى العقيدة فاكثفى منهم للدلالة على الاعتقاد بالوحدانية - ولو بإشارة السبابة إلى السماء.. وكيف يسر لهم فى العبادة بالاكْتفاء فى طهارة الصلاة بالتييم إذا خافوا استعمال الماء. سيرى ويرى مالا يدركه حصر، ولا يتسع له هذا المقام، وسيعرف فى النهاية أن الدين الحنيف، فى سيرة المصطفى عليه السلام، إنما قصد إلى تزكية النفس وتطهير القلب، والامتثال والطاعة، واستشعار عظمة الله، وإقرار الخير والصالح فى الأرض على أساس قوى متين من ربط الإنسان بخالقه سبحانه الذى يعلم سره ونجواه.

هذه الرسالة التى حملها هذا اليتيم فى غير ذله، العزيز فى غير قسوة. كيف به ومنذ مولده..، والدنيا بأسرها تزين له وللناس طريقا غير الطريق، فيغلب الدنيا على ما تريد، ويهديها هو بعزمته إلى غير تلك الطرق التى تزينها.. وينهض وهو الرجل الواحد بما يأباه قومه، ويأباه معهم أقوام زمانه، - كيف به بمفرده يقوم بذلك كله، اللهم إلا أن تكون قدرة الخالق فيما خلق، يوليها من يشاء حيث شاء.

إن مع العسر يسرا!

كثيرا ما نردد لأنفسنا قول القرآن المجيد ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح ٦) ويستوقفنا تكرار ذات العبارة في الآية الواحدة، منوهين إلى أن ذلك تأكيد رباني لا يفوت. فهل وعيناه ونعيه حقا؟! لو تأملنا لعرفنا أن بعد النصب والتعب راحة، وبعد الظمأ ارتواء، وبعد الجوع مهما طال شبع، وبعد الأرق مهما سهدنا نوم، وبعد المرض تأتي بفرج الله العافية، فكم امتدى الإنسان بعد ضلال، وتغشته الهداية بعد معاناة، وجاءه النور بعد ظلام!

الحصيف لا يضيق ذرعا بما يحيط أو يمسك به، فدوام الحال من المحال! وأجمل الجلد والصبر والاحتمال - انتظار الفرج. أليس الحق سبحانه وتعالى يقول في محكم التنزيل: ﴿فَعَسَىٰ أَلَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِيرًا﴾ (المائدة ٥٢).. الذكى الحصيف من يللم إرادته وعزمه من براثن الأشجان والأحزان.. أن يصنع من مرارة الليمون شرابا حلوا هنيئا. أن يحول الخسائر إلى أرباح، أن يتعلم حلاوة الرضا والتسليم. فعسى أن يكره الإنسان حاضرا يضنيه لأنه خير له من شر آخر لا يعلمه.. ثم هو بقلبه موصول بالسماء، هي مفتوحة على الدوام لضراعتة.. ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ (النمل: ٦٢) .. إليه سبحانه يفرع المكروب، ويستغيث المنكوب.. إنه الله تعالى.. لا إله إلا هو، ولا ملجأ منه إلا إليه.

بشرى لكل من صبر على ما يكره، ولم يفقد إيمانه لحظة، ولا تزعزع منه اليقين.. بشرى له لما تجمل به، وبما وعده العزيز المهيمن إياه.. بشرى له بما قدم وبما سينال.. فهو سبحانه قد بشر الصابرين ووعد الصامدين بعظيم الأجر والثواب. وجزيل الرضوان..

طوبى له أن عرف أمر الولي الحميد فعمل به، واستحق الأجر عليه. وطوبى له أن عرف الحياة وبلى حقيقتها وعلم أنها ضيق وفرج.. عسر ويسر.. كرب وسرور.. أن العاقبة فيها هي للمتجملين ثابتي العزم واليقين.. الذين مع صبرهم يعطون

ولا يملون بذلا ولا عطاء. ينتظرون الثمر مهما أظلم الليل أو طال المدى.. فهو إلى حين..
وأن نور الفرج لأبد سيعم بضائه حياة المؤمنين وحنايا قلوب العارفين..
طوبى لهؤلاء وأولاء، وهنيئا لهم قول الحق تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «إذا
ابتليت عبدا من عبادي مؤمنا فحمدني وصبر على ما ابتليته فإنه يقوم من مضجعه كيوم
ولدت أمه من الخطايا».

بشرى للعابدين الناسكين..

بشرى للداعين بدعاء المصطفى عليه الصلاة والسلام..
«اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك.. ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل
في قضاؤك.. أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته
أحدا من خلقك.. أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي،
ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي .. «يارب».



المنقذ من الضلال !



بين الإمام، حجة الإسلام، أبي حامد الغزالي (١٠٥٩ / ١١١١ م) وكتابه «المنقذ من الضلال»، وبين الدكتور مصطفى محمود وكتابه «رحلتي من الشك إلى الإيمان» - قرابة ألف عام.. سوف تشعر حين تقرأ «المنقذ من الضلال» أن الدكتور مصطفى محمود قد استقى منه الفكرة، وسار قريبا من دربه حتى خرج بمحاولته من هواجس الشك إلى أمان اليقين..

كان الغزالي وتجربته في المنقذ من الضلال، حاضرين في ذهني وأنا أتابع رحلة الدكتور مصطفى محمود وما عبر به عنها.. رويت لك في مقال بتاريخ (٢٠٠٩/١١/١٨) بعضا منها، ثم رأيتني مشدودا إلى الإمام الغزالي وتجربته في كتابه الأسبق بنحو ألف عام «المنقذ من الضلال».

في تصدير طبعة هذا الكتاب سنة ١٩٧٣، كلمات رشيقة للأستاذ أنيس منصور، يقول فيها عن الكتاب إنني أقرأ فيه أجمل وأروع ما كتبه الفيلسوف الفرنسي ديكارت في كتابه المشهور «مقال في المنهج».. فهو يبدأ بالشك ثم ينتهي إلى اليقين. ولكن الغزالي أبسط وأروع وأعمق.. تجرد من كل شيء ليؤمن بكل شيء.. نزل إلى كل بحر، وطاف كل محيط.. ليرسو على بر الأمان بالعلم والإيمان.. لقد هداني الغزالي، وثبت الأرض تحت قدمي، وثبت الدنيا كلها أمامي.. هنا السماء وهنا الأرض. هنا العقل وهنا النقل. هذا الكتاب وهنا الحديث وهنا الاجتهاد..

أريد اليوم أن أحدثك عن الرحلة التي قطعها الإمام الغزالي من قرابة ألف عام.. غاص في بحور ولجج، وطاف بين العلوم والأفكار، مدفوعا بأشواق قوية لمعرفة الحق والخروج من هواجس وتخيلات الضلال إلى شاطئ وأمن اليقين!

يفصح الغزالي في بدايات الرحلة، أن اختلاف الناس في الأديان والملل، بحر عميق غرق فيه كثيرون، ولم ينج إلا قليلون، وأنه منذ عنفوان شبابه خاض في لجج هذا البحر، وتوغل في كل اتجاه، وتفحص في عقيدة كل فرقة.. دافعه التعطش إلى إدراك الحقيقة..

بدأ بالتخلص من قيود التقليد والخضوع للموروث، فكل مولود يولد على الفطرة، ويتابع ما يتلقاه من والديه فينشأ على دينهما، إلا من يطلب الحقيقة ويسعى جاهدا لاكتشافها. فتش الغزالي في العلوم، فقال لنفسه في البداية إن الأمل في المحسوسات، فهي التي تقيه مغبة الغلط، ولكنه حين استعرض ما صادف إبراهيم الخليل عليه السلام حين استبان أن الكواكب والقمر والشمس جميعها تأفل بعد بزوغ، أدرك أن الثقة بالمحسوس قد تتعلق بفراغ أو أوهام، فتبطل الثقة إلا بالعقلية.. فالعقل هو الذي كذب لديه ظنه في المحسوسات.. والضرورات العقلية أوثق للوصول إلى الأمن واليقين.

ولكنه نظر فوجد المتطلعين إلى نور العقل، قد تفرقوا بين أربعة فرق: المتكلمون، والباطنية، والفلاسفة، والصوفية.. فأى من هذه الفرق أهدى سبيلا في الوصول إلى الغاية.. لاحظ أن علم الكلام الذي درج عليه المتكلمون علم وافٍ بمقصوده، ولكنه غير وافٍ بمقصود الغزالي في الاهتداء إلى المذهب الصحيح بلا تشويش.. فأهل الكلام قد صرفوا جهودهم لبيان مناقضات الخصوم ومقارعتهم بلوازم مسلماتهم، وهذه المقارعات لن تكفيه للخروج كلية من ظلمات الحيرة.. فهل تفي الفلسفة والمتفلسفون في تحقيق مراده؟!.. بذل الغزالي غاية جهده لدراستها لنحو ثلاث سنوات، فخلص إلى أن معظم ما اطلع عليه منها فيه خداع وتلبيس، افترقت سبله بين الدهريين والطبيين والإلهيين، فرأى الدهريين يزعمون أن العالم لم يزل موجودا بنفسه بلا صانع، والطبيين برغم بحثهم في عجائب صنع الله تعالى وبدائعه، أكثروا الخوض في تشريح أعضاء الحيوانات، فأخذهم ذلك إلى الظن بأن قوة الإنسان العاقلة تابعة لمزاجه، وتبطل ببطالانه، وذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود، فجحدوا الآخرة والحشر والنشر والقيامة والحساب، ولم يبق عندهم للطاعة ثواب، ولا للمعصية عقاب.. فلما ترك هؤلاء وأولاء إلى الإلهيين، وراجع سقراط وأفلاطون وأرسطاليس، ثم الإسلاميين كابن سينا والفارابي وأمثالهما، وجد أن اللاحقين يتبرأون مما رآه السابقون، ووجد علومهم قد جرت في اتجاهات طفق الغزالي يراجعها ويعرضها، حتى خلس إلى مجمل رأيه في الفلسفة التي حمل عليها حملة ترى تفاصيلها - إن أردت - في كتابه الشهير «تهافت الفلاسفة»، والذي رد عليه ابن رشد في «تهافت التهافت»..

ويبدو أن حملة الغزالي على الفلسفة والفلاسفة في «المنقذ من الضلال» كانت مخافة التأثير على العقيدة التي أراد من رحلته الوصول إليها خالصة مصفاة .

خرج الغزالي من الفلسفة إلى الصوفية ، وإلى عالم وكتب ومأثورات الحارث المحاسبي والجنيد والشبلي والبسطامي وغيرهم ، ويعد هذا الفصل أجل ما في كتاب «المنقذ من الضلال».. فيه أبان حقيقة التصوف الذي انتهى به إلى أعلى درجة في هذا المضمار .

لن تشبع وأنت تتابع الغزالي في رحلته الباحثة عن الإيمان اليقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر ، وكيف استقر به المقام بعد بحث عميق وتأمل طويل إلى مرفأ الأمان ، وكيف وجد سعادته في التقوى وكف النفس عن الهوى ومجافاة الغرور ، وكيف لم يعد يشغل نفسه إلا بالخلوة والرياضة والمجاهدة وتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى .

وبعد ، فليس في وسعي أن أغنيك - في هذه السطور - عن متابعة الغزالي في رحلته الشيقة ، المتأملة الممتعة ، وهو يبحث عن الحقيقة ، حتى اهتدى إلى شاطئ الأمن واليقين .



الجنة والنار عند المتصوفة



(١)

قال الجنيد، كنت نائما عند أبي الحسن سرى السقطي، فنبهني وقال : يا جنيد رأيت كأنني قد وقفت بين يديه فقال لي يا سرى قد خلقت الخلق فكلهم ادعوا محبتي، فخلقت الدنيا فهرب مني تسعة أعشارهم وبقي معي العشر، وخلقت الجنة فهرب مني تسعة أعشار العشر وبقي معي عشر العشر، وخلقت النار فهرب مني تسعة أعشار عشر العشر، فسلطت عليهم ذرة من البلاء فهرب مني تسعة أعشار عشر عشر العشر، فقلت للباقيين معي : لا الدنيا أردتم ولا الجنة أخذتم ولا من النار هربتم ولا من البلاء فررتم، فماذا تريدون؟ قالوا إنك سبحانه لتعلم ما نريد، فقلت لهم إنني أسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم ما لا تقوم به الجبال الرواسي - أتصبرون؟ قالوا : إذا كنت المبلى فافعل ما شئت.. قال : فهؤلاء عبادي..

(٢)

قيل لعبد الواحد بن زيد، هاهنا رجل قد تعبد خمسين سنة، فقَصَّده فقال : حبيبي أخبرني عنك فهل قنعت به؟ قال لا.. فقال : هل أنست به؟ قال لا.. فقال : هل رضىت عنه؟ قال لا.. قال فإنما أمرك منه الصلاة والصيام؟ قال نعم.. فقال : لولا أنني أستحي منك لأحدثك أن معاملتك له خمسين سنة مدخولة!

(٣)

وقال ابن عطاء الله السكندري : «من عبده لشيء يرجوه منه أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة منه، فما قام بحق أوصافه»!

(٤)

عمل العاملين لأجل حصول الجزاء أو فرارا من عقوبة الولي مدخول معلول.. ليس من شأن الحاذقين المحققين، لأن قيام العبد بحق أوصاف مولاه يقتضى أن لا يعمل لأجل

خطه من جلب ثواب أو دفع عقاب.. لأن مولاه يستحق عليه كل شيء، ولا يستحق هو عليه شيئاً.. وهذا من أعلى المحبة لله تعالى، لأن المحب مجتمع الهم بأمر محبوبه.. فعلى العبد أن يعمل لربه عز وجل لأجل جلاله وعظمته، فإن خالف هذا وعمل على طلب حظه، لم يقدّر بحق صفات مولاه. قال سهل بن عبد الله التستري «ما طلعت شمس ولا غربت على أحد على وجه الأرض، إلا وهم جهال بالله تعالى، إلا من يؤثر الله تعالى على نفسه وروحه ودنياه وآخرته».

(٥)

وقال أبو مدين : شتان بين من همته الحور والقصور، وبين من همته رفع الستور ودوام الحضور!

(٦)

وفيما نقل عن وهب بن منبه عن الزبور : ومن أظلم ممن عبدني لجنة أو نار. لو لم أخلقجنة ولا نارا - ألم أكن أهلاً لأن أطاع؟!

(٧)

ومر عيسى عليه السلام على طائفة من العباد احترقوا من العبادة، فقال : من أنتم؟ قالوا: نحن عباد الله. فقال : لأي شيء تعبدتم؟ قالوا : خوفاً لله من ناره فحققنا منها. قال : حق على الله أن يؤمنكم مما خفتكم منه. ثم جاوزهم فمر بآخرين أشد عبادة منهم فقال لهم : لأي شيء تعبدتم؟ قالوا : شوقنا لله إلى الجنان وما أعد فيها لأوليائه فنحن نرجوها. فقال : حق على الله أن يعطيكم ما رجوتم. ثم جاوزهم ومر بآخرين يتعبدون فقال لهم : من أنتم؟ قالوا : المحبون لله.. لم نعبده خوفاً من ناره ولا شوقاً إلى جنته ولكن حباً له وتعظيماً لجلاله. فقال : أنتم أولياء الله حقاً. معكم أمرت أن أقيم. وفي لفظ آخر أنه قال للأولين : مخلوقاً خفتكم ومخلوقاً أحببتكم، وقال للآخرين أنتم المقربون.

(٨)

قال الشيخ أبو طالب المكي وممن روى عنه هذا أقول وأقيم في هذا المقام جماعة من التابعين بإحسان منهم أبو حازم المدني.. كان يقول: إني لأستحي من ربى أن أعبدته خوفا من العذاب فأكون مثل عبد السوء، أنه إن لم يخف لم يعمل.. وأستحي أن أعبدته لأجل الثواب فأكون كالأجير السوء، أنه إن لم يعط أجر عمله لم يعمل.. ولكن أعبدته محبة له سبحانه..

(٩)

وقال بعض إخوان معروف الكرخي له: أخبرنا يا أبا محفوظ أى شيء أهاجك على العبادة والانقطاع عن الخلق.. فسكت. قيل له: ذكرت الموت؟ فقال وأنى شيء الموت. فقيل له: قد ذكرت القبر؟ قال: وأنى شيء القبر. قيل له: خوف النار ورجاء الجنة؟

قال: وأنى شيء هذا.. إن من ملك هذا كله إن أحبيته أنساك جميع هذا، وإن كان بينك وبينه معرفة فكافك جميع هذا.

(١٠)

قال أبو طالب المكي: رويانا عن رابعة العدوية، وكانت إحدى المحبين وكان سفيان الثوري يجلس بين يديها ويقول: علمينا مما أفادك الله من طرائف الحكمة، وكانت تقول له: «نعم الرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا»، وكان يعترف لها ويسلم بقولها، وكان عالما زاهدا إلا أنه كان يؤثر الحديث والإقبال على الناس وهى أبواب الدنيا. وقال لها الثوري: لكل عبد شريطة ولكل إيمان حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ فقالت: ما عبدت الله خوفا من النار فأكون كعبد السوء إن خاف عمل، ولا حبا في الجنة فأكون كالأجير السوء إن أعطى عمل، ولكن عبدته حبا له وشوقا إليه.

الباطن والظاهر عند المتصوفة



(١)

من حكم ابن عطاء الله السكندري : ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول.
وربما قضى عليك بالذنب فكان سببا في الوصول !

(٢)

وقيل : ينبغي للعبد ألا ينظر إلى صور الأشياء، ولينظر إلى حقائقها.. فصور الطاعات
لا تقتضى وجود القبول، ووجود صورة الذنب لا تقتضى إلا الإبعاد والطرْد!
وقيل : رُبَّ ذَنْبٍ أَدْخَلَ صاحبه الجنة.

ذلك أن من عمل بالطاعة يعجب بها ويعتمد عليها وقد يتكبر بفعلها ويستصغر من
لم يفعلها، وهو عند وقوعه في الذنب يصحبه اللجوء إلى الله تعالى والاعتذار إليه واستصغار
نفسه وتعظيم من لم يقع في مثل ذنبه .

(٣)

وقال أبوحازم : إن العبد ليعمل الحسنة تسره حين يعملها وما خلق الله من سيئة أضَرَ
له منها، وإن العبد ليعمل الحسنة تسوؤه وما خلق الله من حسنة أنفع له منها.
وقال ابن عطاء الله السكندري: «معصية أورثت ذلاً وافتقاراً - خيرٌ من طاعة أورثت
عزاً واستكباراً»!

وقال أبو مدين : «انكسار العاصي - خيرٌ من صولة المطيع»!
وكان أبو العباس المرسى كثير الرجاء لعباد الله، الغالب عليه شهود وسع الرحمة،
وكان تبرمه من الناس على قدر ريبهم عند الله، حتى إنه ربما دخل عليه المطيع فلا يعبا،
وربما دخل عليه عاصٍ فأكرمه. لأن ذلك الطائع متكبر بعمله ناظر لفعله، وذلك العاصي
دخل عليه بكثرة معاصيه وذل مخالفته!

(٤)

قال الحارث المحاسبى : إنما أراد الله من عباده قلوبهم لتكون جوارحهم تبعاً لقلوبهم، فإذا تكبر العالم أو العابد وأنف، وتواضع الجاهل أو العاصى وذُلَّ هيبةً، فهو أطوع لله من العابد أو العالم.

قال أبوطالب المكي : ومن أفضل ما غذانا به الله نعمة الإيمان. فلو قلب قلوبنا عن التوحيد كما يقلب جوارحنا فى الذنوب، ولو قلب قلوبنا فى الشك والضلال ما يقلب نياتنا فى الأعمال، فأى شئ كنا نصنع، وعلى أى شئ كنا نعول، وبأى شئ كنا نطمئن ونرجو؟ فالعبد مضطر إلى الله أبداً، ولا يزيل العبد هذا الاضطراب لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، ولو دخل الجنة فهو محتاج إلى الله فيها. وهذا هو حكم الحقائق، إذ لا يختلف حكمها لا فى الغيب ولا فى الشهادة، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة. فالعلم صفته الكشف، أى علم كان فى أى وقت كان، والإرادة صفتها التخصيص، أى إرادة كانت فى أى وقت كان، ومن اتسعت أنواره لم يتوقف اضطرابه، ولما لم تصل عقول العوام إلى ما تعطيه حقائق وجوداتهم - سلط الحق الأسباب المثيرة للاضطراب ليُعرف قهر ربوبيته وعظمة إلهيته.

(٥)

كتب يوسف بن الحسين الرازى إلى الجنيد : لا أذاقك الله طعم نفسك، فإنك إن ذقتها لاتذوق بعدها خيراً أبداً!.

(٦)

وقال الشيخ أبوعلى الدقاق «من سكنت عنه هواجس نفسه بصدق مجاهدته، نطق ببيان قلبه بحكم مجاهدته». وقال: «من زين ظاهره بالمجاهدة، حَسَنَ الله سرائره بالمشاهدة».

(٧)

قال الواسطى: استحلاء الطاعات سموم قاتلة، وقال ابن عطاء الله فى «لطائف المنن»: صدق الواسطى، فأقل ما فى ذلك أنه إذا فتح لك باب حلاوة الطاعة تصير قائماً فيها متطلباً

لحلاوتها فيفوتك صدق الإخلاص في سهو منك، وقد تحب دوامها لا قياما بالوفاء ولكن لما وجدت من الحلاوة والمتعة، فتكون في الظاهر قائما لله، وفي الباطن إنما قمت لحظ نفسك، ويخشى أن تكون حلاوة الطاعة جزاء التعجل في الدنيا فتأتى يوم القيامة ولا جزاء لك. المطلوب من العبد إقامة الأمر في الظاهر والتعلق بالله في الباطن، والاستغناء به عن غيره، فإذا رزق العبد هذين الأمرين فقد أسيع عليه نعمة ظاهرة وباطنة.

(٨)

قال أبويزيد البسطامي: اطلع الله على قلوب أوليائه، فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صرفا فشغلهم بالعبادة.

وقال أبو العباس الدينوري: إن لله عبادا لم يستصلحهم معرفته فشغلهم بخدمته، وله عباد لم يستصلحهم لخدمته فأهلهم لمعرفة.

وقال ابن عطاء الله السكندري: قوم أقامهم الحق لخدمته، وقوم اختصهم بمحبته ﴿كُلًّا نُمِدُّ هُنُوًا وَهَنُوءًا وَمِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء: ٢٠).

(٩)

قال ابن عطاء الله السكندري: قطع السائرين له الواصلين إليه، عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم. أما السائرون فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله، وأما الواصلون فلأنه غيبهم بشهوده عنها.

وقال: «السائلون قطعهم عن ذلك عدم تحققهم بالصدق والبراءة في الدعوى، فهم أبدا متهمون لأنفسهم في توفية أعمالهم وتصفية أحوالهم. والواصلون قطعهم شهودهم له في حضرة قربه.. ومن شاهده لم يشهد معه غيره، إذ محال أن يراه ويشهد معه سواه!

(١٠)

وقال ابن عطاء الله: «أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك».

وقال: «ما حجبتك عن الله وجود موجود معه، ولكن حجبتك عنه توهم موجود معه»..

وقال : «لولا ظهوره في المكونات ، ما وقع عليه وجود أبصار ، ولو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته» ..

وقال : «أظهر كل شيء لأنه الباطن ، وطمى كل شيء لأنه الظاهر» .
فاسم الظاهر يقتضى بطون كل شيء حتى لا ظاهر معه فينطمى حينئذ وجود كل شيء ،
واسم الباطن يقتضى ظهور كل شيء حتى لا باطن معه فيظهر إذ ذاك وجود كل شيء بالحق
تعالى الموجود بكل اعتبار .
وقال «الأكوان ثابتة بإثباته ، محوطة بأحدية ذاته» .



الإرادة الحقيقية والمجازية عند المتصوفة



(١)

التحقيق أن من تمحضت إرادته لعبودية الله بمراعاة حقوقه لأجل ما وجب عليه من ذلك ليتوصل به إلى نيل حظها هو الذى يسمى مريدا.. فلم يتسم بذلك إلا لأنه يتصف بالإرادة الحقيقية المتعلقة بأشرف المطالب، وقد سُمى مريدا لأجل ما سلب عنه من الإرادة المجازية المتعلقة بحظوظه.

وبهذا يتبين لك صحة كلام أبى يزيد البسطامى حيث قيل له ما تريد؟ فقال أريد أن لا أريد.

قال فى التنوير : أراد أبو يزيد أن لا يريد.. لأن الله تعالى اختار له وللعباد أجمع عدم الإرادة معه.. فهو فى إرادته أن لا يريد موافق لإرادة الله جل وعلا.

فأنت مطالب أن تخرج عن تدبيرك لنفسك واختيارك لها.

والحديث القدسي : «فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى عليها» فيه إشارة إلى أنه عند ذلك ليس للعبد إرادة ولا اختيار.. إلّا ما اختاره له مولاه وأراده.

قال ابن عطاء الله السكندرى : «أنت إلى حلمه إذا أطعته، أحوج منك إلى حلمه إن عصيته».

(٢)

قال الحارث المحاسبى : «إنما أراد الله من عباده قلوبهم لتكون جوارحهم تبعاً لقلوبهم، فإذا تكبر العالم أو العابد وأنف، وتواضع الجاهل أو القاضى وذلل هيبة الله، فإن من ذل هيبة لربه أطوع لله من العابد أو العالم الذى تكبر وأنف».

قال أبو طالب المكى ومن أفضل ما أعطانا الله نعمة الإيمان.. فلو قلب قلوبنا عن التوحيد كما يقلب جوارحنا فى الذنوب، ولو قلب قلوبنا فى الشك والضلال كما يقلب

نياتنا فى الأعمال.. فأى شىء كنا نصنع ، وعلى أى شىء كنا نعول ، وبأى شىء كنا نطمئن ونرجو؟

فالعبد مضطر إلى الله أبدا.. ولا يزايل العبد هذا الاضطرار.. لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.. ولو دخل الجنة فهو محتاج إلى الله فيها.

وهذا هو حكم الحقائق.. إذ لا يختلف حكمها لا فى الغيب ولا فى الشهادة.. لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.. فالعلم صفة الكشف، أى علم كان فى أى وقت كان.. والإرادة صفتها التخصيص، أى إرادة كانت فى أى وقت كان.. ومن اتسعت أنواره لم يتوقف اضطراره.

ولما لم تصل عقول العوام إلى ما تعطيه حقائق وجوداتهم، سلط الحق الأسباب المثيرة للاضطرار ليعرف (العبد) قهر ربوبيته وعظمة إلهيته.

(٣)

المطلوب من العبد شيئان : إقامة الأمر فى الظاهر والتعلق بالله فى الباطن وهو الاستغناء عن غيره.. فإذا رزق الله العبد هذين الأمرين فقد أسبغ عليه نعمة ظاهرة وباطنة.

(٤)

قال أبو عمرو إسماعيل بن نجيد : لا يصفو لأحد قدم فى العبودية حتى تكون أفعاله عنده كلها رياء وأحواله كلها عنده دعاوى.

وقال أبو يزيد البسطامى : لو صفت لى تهليلة واحدة ما باليت بعدها بشىء.
وإلى هذين تشير الحكاية التى تروى عن الواسطى.. وذلك أنه لما دخل نيسابور سأل أصحاب أبى عثمان : بماذا كان يأمركم شيخكم، فقالوا : كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها، فقال : أمركم بالمجوسية المحضة. هلا أمركم بالغيبة عنها بشهود مجريها. قال الأستاذ أبو القاسم القشيري إنما أراد الواسطى بهذا

صيانتهم عن محل الإعجاب لا تعريجا على أوطان التقصير أو تجويزا للإخلال بأدب من الآداب.

(٥)

الوارد عبارة عما يرد على القلب من المعارف الربانية واللطائف الروحانية، ليظهره بذلك ويزكيه حتى يصلح بذلك للورود عليه والدخول إلى حضرته.. لأن الحضرة منزهة عن كل قلب متكدر بالآثار متلوث بأقذار الأغيار.

قال ابن عطاء الله السكندري : «أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد الأغيار وليحررك من رق الآثار .. لأن الآثار والأغيار غاصبة ومستترقة لك، وذلك لوجود حبك لها وسكونك إليها واعتمادك عليها»!

وقال أيضا: «أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك».

(٦)

قال ابن عطاء الله السكندري: «الأكوان ثابتة بإثباته محووة بأحدية ذاته»
«الأكوان من ذاتها العدم المحض.. حصل لها وصف الثبوت بإثبات الله لها وجعلها أكوانا، فالثبوت لها أمر عرضي، والحق اللازم هو أحدية الله عز وجل، والأحدية مبالغة في الوحدة لا تتحقق إلا إذا كانت الوحدة بحيث لا يكون أكمل ولا أشد منها.. فمن مقتضى حقيقتها محو الأكوان».





إصرار أم : إن ضمهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إلى جاعوا!

كنت مشغولاً في الأيام الخوالي، من نحو أكثر من أربعين عاماً، بالتنقيب فيما أقرأه في الإسلام، عن المواقف الإسلامية التي أقدمها على موجات صوت العرب، ضمن كوكبة تبارت في ذلك الزمان في تقديم الإسلام إلى الناس بقيمه النبيلة، كدين حي لأحياء ولإصلاح الحياة، حين وقعت على موقف للفاروق عمر بن الخطاب، وكم له من مواقف ثرية معطاءة.. تصورته، وأنا أسترجع الموقف، كيف كان يمشي بالمدينة وهو أمير المؤمنين في تواضع ومهابة يتفقد أحوال الرعية، ويجعل نفسه في خدمتها بضمير نادر وإحساس مرهف لم يحجبه عن الناس شدته المعروفة في الحق.. تمثلته وكأنني أراه وهو في نفر من الصحابة تستوقفه امرأة عجوز أفلت منها الشباب وما بعد الشباب، وشاخت وهرمت، لا يوحى منظرها بشئ يمكن أن يعطيها ما أعطاه لها أمير المؤمنين.. استوقفته فوق، وأطالت في استيقافها إياه فما تملل ولا تعجلها، وأخذت تعظه فلم يضق ولا استثقل عظمتها.. تقول له وهو منصت بكل حواسه باهتمام بالغ : «يا عمر، لقد كنت تدعى عُميراً، ثم قيل لك عمر، ثم قيل لك أمير المؤمنين.. فاتق الله يا عمر.. فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن الحساب خاف العذاب»!.. يومها قال الفاروق لمن دهشوا وتعجبوا من طول وقوفه لها وصبره على عظمتها: «والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره لا زلت إلا للصلاة المكتوبة!.. أتدرون من هذه السيدة؟! إنها خولة بنت ثعلبة، سمع الله قولها من فوق سبع سموات!.. أيسمع الله قولها ولا يسمعه عمر؟!»

يومها انتقيت هذا المشهد المبههر لأقدمه فيما كنت أقدمه من مواقف ومشاهد إسلامية، شغلني أمر الفاروق وعظمة الفاروق عن أمر المرأة، مع أنني علمت مما قرأت أنها بطلة قصة أولى آيات سورة المجادلة، وتقرأ بفتح الدال نسبة إلى فعل المجادلة، وبكسر الدال -وهذا أظهر- نسبة إلى شخص المجادلة، لم أكن جديداً على قراءة سورة المجادلة وعلى

ما جاءت به في شأن الظهار وكفارته، فقد درسنا الظهار وحكمه ضمن دراستنا بكلية الحقوق لأحكام الزواج والطلاق على أستاذنا الشيخ الجليل محمد أبو زهرة، فشغلتنا عن المشهد ومناسبة التنزيل - أحكام الظهار، والإلام بقواعده وقواعد كفارته، وما يدور حول هذا وذاك من حكمة مصفاة، ولكنني عدت بعد سنوات طوال إلى مشهد مناسبة نزول أول سورة المجادلة ضمن المطول الذي أكتبته عن «السيرة النبوية في رحاب التنزيل» فوجدت المشهد يدلي بمعانٍ عديدة شغلني عنها الفاروق مرة، وشغلتنى عنها أحكام الظهار مرة، فعدت أضع الموقف أمامي، وأستقطره وأصفيه وأستخلص رحيقه وعبرته فإذا به يشع بمعانٍ أكبر كنت خليقاً أن أتوقف عندها لأرى صورة مثلى لإصرار سيدة بسيطة لا علم ولا علام لها، على عرض مشكلتها والإلحاح والصبر في عرضها، وتكرار العرض والإصرار على بث شجونها دون أن تياس أو ينفد لها صبر، ولأرى صورة نبي القرآن عليه السلام ينصت فلا يضييق، ويعاود الإنصات فلا يشيح ولا يتكبر، ولا يجد غضاضة في أن يقول للسائلة الملحة إنه لا حل لديه لمشكلتها.. فقد قال لها زوجها الشيخ، أبو أولادها، أنت على كظهر أمي، وكان الظهار في تلك الأيام لا يزال معدوداً من الطلاق منذ أيام الجاهلية، والسيدة تلح وتداول وتجادل حفاظاً على أولادها، ونبي القرآن لا يضييق بالحوار، وتناقش وتعود للنقاش والجدل، فلا يرى عليه السلام في ذلك بأساً ولا تجاوزاً، ولا يقابله بالصد، ولا بالعزوف، ولا بالإشاحة أو الإعراض، ولا يزيد عن أن يقول للسيدة المتلهفة على صيانة زواجها وحياة أولادها : ما عندي لك شيء!!



كانت خولة بنت ثعلبة زوجة أوس بن الصامت، وقد شاخ وساء طبعه عما كان عليه من سوء منذ أيام الشباب، وهى ابنة عمه، درجت على احتماله، ولكنه جاوز القصد في يوم شؤم فقال لها فى اندفاعٍ جامحة : أنت على كظهر أمي.. امتنعت عليه بعدها، وصممت على امتناعها مقاومة مطاردته والحاحه، فلما زاد ظلت على إباتها إلا أن يحكم رسول الله ﷺ بينهما.. ذهبت إليه مستأذنة، لتجلس بين يديه، تروى مشكلتها،

وتتلمس لدى نبي الرحمة حلاً يحفظ لها بيتها وفلذاتها.. جعلت في البداية تشكو إلى الرسول سوء طبع زوجها، فراجعها عليه السلام ناصحاً :
النبي : يا خولة، ابن عمك شيخ كبير، فاتق الله فيه !
خولة : يا رسول الله، أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني.. فهل « ظهار » الجاهلية لا يزال طلاقاً في الإسلام.. اللهم إني أشكو إليك !!

النبي : (آسفا) لقد حرمت عليه !!
خولة : يا رسول الله إن لي منه أولاداً.. ووالله ما ذكر طلاقاً !!
النبي : لقد حرمت عليه !!
خولة : (في إصرار) أشكو إليك فاقتي ووحدتي ووحشتي وفراق زوجي وابن عمي، وقد نفضت له بطني..
النبي : لقد حرمت عليه !!
خولة : (مجادلة في تصميم) يا رسول الله، قد نسخ الله سنن الجاهلية، وإن زوجي ظاهر مني..

النبي : ما أوحى إلي شيء في هذا..
خولة : يا رسول الله، أيوحي إليك في كل شيء، ويطوى عنك هذا؟! !
النبي : (آسفا) هو ما قلت لك !!
خولة : وأولادنا يا رسول الله، إن ضمهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا !! !
النبي : (آسفا) هو ما قلت لك.. ما أوحى إلي شيء في هذا..
خولة : إذن، إلى الله أشكو لا إلى رسوله..

ما برحت خولة بنت ثعلبة على جدالها وإلحاحها في طلب حل تحتفظ به ببيتها وأولادها، حتى فوجئ النبي عليه السلام بأنه تغشاه ما كان يتغشاه حين ينزل عليه الوحي، وتلقى عن جبريل عليه السلام قول الله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾

وَتَشْكِيكَ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرُكُمْ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١٠٦﴾ (المجادلة ١).. تتابعت السورة التي نزل بها الوحي تسن أحكام الظهار، وتفرض له كفارة - من قبل أن يتماسا - تحرير رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكينا، وإذ بادر النبي ﷺ فبشرها بما أنزل الله تعالى، جعلت تشكو إليه أن زوجها لا يملك رقبة يعتقها، ثم هو شيخ كبير لا يطيق الصيام، وليس عنده ما يطعم به ستين مسكينا، فقال لها نبي الرحمة: النبي : سأعيته بعرق من تمر

خولة : وأنا سأعيته بعرق آخر

النبي : أصبت وأحسن، فاذهبي فتصدقي به عنه، ثم استوصي بآبن عمك خيرا وأحسني صحبتته..



هذه الزوجة، الأم، حملت قضيتها وناضلت من أجلها، لم تفقد الأمل في أن تجد حلا يحفظ لها بيتها ويصون أولادها من الضياع إن ذهبوا مع أبيهم أو من الجوع إن بقوا معها، ويصون عمارة حياة الأسرة، ثم هي وهي تحمل قضيتها في جلد وتصميم، لم يقابلها الإسلام ولا رسول الإسلام ﷺ بالصد، ولم يكتفم حقها في أن تقول وتقول، وفي أن تناقش وتحاور وتجادل، وهذا مثل حي نابض، مصدره السنة المحمدية.. قاطع في أن باحة الإسلام تتسع للحوار، وتعطي من الحرية ما أتاح لهذه السيدة أن تلح على الرسول عليه السلام هذا الإلحاح، وأن تجادله هذا الجدل دون أن ينهرها أو يصدها أو يضيق بها! ما يشع به هذا الموقف، صورة حقيقية ناطقة تدعو للتأمل في الأسلوب الذي نتعاطى به الدين، مهتمين بالترديد الببغائي دون فهم كافٍ ولا غوص للمعاني واستخلاص للعبر.. الدين قريب قريب لمن يقبل عليه بفهم مستعملا عقله مستبعدا التعصب الضرير.. هنالك سوف يرى في كل سطر كنوزا من التفتح والمعاني المعطاءة التي تضيء للإنسان حياته، وتجعل من الحياة معنى كليا شاملا جديرا بأن يُحيا على وئام لا تنافر فيه بين العقل والدين، ولا بين الفهم والشرع، فقد فتح الدين في باحته مساحة هائلة للعقل حتى عد التفكير فريضة إسلامية!.

كتب وإصدارات المؤلف

- (١) أوراق - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١٩٩٧.
- (٢) من هدى النبوة وفى مدرسة الرسول - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١٩٩٧.
- (٣) من هدى القرآن وذلك الكتاب لاريب فيه - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١٩٩٨.
- (٤) بشاير - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٠.
- (٥) باسمك اللهم - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٠.
- (٦) بسم الله - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٠.
- (٧) نواب القروض - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠١.
- (٨) يارب - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠١.
- (٩) قضية النقابيين - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠١.
- (١٠) أبو ذر الغفارى - ط ١٩٩٧، ط ٢٠٠٢، ط ٢٠٠٥ ومزيدة ومنقحة هيئة الكتاب ٢٠٠٥.
- (١١) قضية الجمارك الكبرى - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٢.
- (١٢) مواقف ومشاهد إسلامية - دار الهلال - ط ٢٠٠٢.
- (١٣) ماذا أقول لكم - دار الشروق - ط أولى ٢٠٠٣.
- (١٤) عالمية الإسلام - مركز الأهرام للترجمة والنشر - ط ١، ط ٢ - ٢٠٠٣.
- (١٥) إبحار فى هموم الوطن والحياة - دار الشروق - ط ٢٠٠٤.
- (١٦) الإنسان العاقل وزاده الخيال - دار الشروق - ط ٢٠٠٤.
- (١٧) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل - المجلد الأول - روز اليوسف - ط ٢٠٠٣.
- (١٨) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل - المجلد الثانى - روز اليوسف - ط ٢٠٠٣.
- (١٩) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل - المجلد الثالث - روز اليوسف - ط ٢٠٠٤.
- (٢٠) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل - المجلد الرابع - روز اليوسف - ط ٢٠٠٥.
- (٢١) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل - المجلد الخامس - المكتب المصرى الحديث - ط ٢٠٠٦.
- (٢٢) الإنسان والكون والحياة - كتاب الهلال - أكتوبر ٢٠٠٥.

- (٢٣) تأملات غائرة - دار الشروق - ط ٢٠٠٦.
- (٢٤) الأديان والزمن والناس - كتاب الهلال - سبتمبر ٢٠٠٦
- (٢٥) شجون وطنية - المكتب المصرى الحديث - ٢٠٠٦ .
- (٢٦) الهجرة إلى الوطن - كتاب الهلال - نوفمبر ٢٠٠٧.
- (٢٧) رسالة الحمامة - دار الشروق - سبتمبر ٢٠٠٨.
- (٢٨) فى الوحدة والجماعة الوطنية - المكتب المصرى الحديث - ط ١ سبتمبر ٢٠٠٨ ، ط ٢ يناير ٢٠١٢
- (٢٩) فى رياض الفكر - كتاب الهلال ٢٠٠٨.
- (٣٠) بين شجون الوطن وعطر الأحباب - المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٨.
- (٣١) من تراب الطريق - الكتاب الأول - المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٨.
- (٣٢) من حصاد الحمامة - المجلد الأول - المكتب المصرى الحديث. ٢٠٠٩
- (٣٣) من حصاد الحمامة - المجلد الثانى - المكتب المصرى الحديث. ٢٠٠٩
- (٣٤) من حصاد الحمامة - المجلد الثالث - المكتب المصرى الحديث. ٢٠٠٩
- (٣٥) من حصاد الحمامة - المجلد الرابع - المكتب المصرى الحديث. ٢٠٠٩
- (٣٦) من حصاد الحمامة - المجلد الخامس - المكتب المصرى الحديث. ٢٠٠٩
- (٣٧) من حصاد الحمامة - المجلد السادس - المكتب المصرى الحديث. ٢٠٠٩
- (٣٨) من حصاد الحمامة - المجلد السابع - المكتب المصرى الحديث. ٢٠٠٩
- (٣٩) من حصاد الحمامة - المجلد الثامن - المكتب المصرى الحديث. ٢٠٠٩
- (٤٠) من حصاد الحمامة - المجلد التاسع - المكتب المصرى الحديث. ٢٠٠٩
- (٤١) من حصاد الحمامة - المجلد العاشر - المكتب المصرى الحديث. ٢٠٠٩
- (٤٢) من حصاد الحمامة - المجلد الحادى عشر- المكتب المصرى الحديث. ٢٠١٠
- (٤٣) من حصاد الحمامة - المجلد الثانى عشر - المكتب المصرى الحديث. ٢٠١٠
- (٤٤) من حصاد الحمامة - المجلد الثالث عشر - المكتب المصرى الحديث. ٢٠١١
- (٤٥) من حصاد الحمامة - المجلد الرابع عشر - المكتب المصرى الحديث. ٢٠١١
- (٤٦) من حصاد الحمامة - المجلد الخامس عشر - المكتب المصرى الحديث. تحت الطبع

- (٤٧) دولة الأيام! - كتاب الهلال أول يونيو ٢٠٠٩
- (٤٨) قد تكون الديانة تجسيدا للعقل . ترجمة وعرض عن كتاب حياة العقل للفيلسوف جورج سانتاينا - كتاب الهلال - نوفمبر ٢٠٠٩
- (٤٩) الأمن والأمان : قراءة في الأمن المجتمعي في الإسلام - المكتب المصرى الحديث - ٢٠٠٩
- (٥٠) من تراب الطريق - الكتاب الثانى - المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٩
- (٥١) من تراب الطريق - الكتاب الثالث - المكتب المصرى الحديث ٢٠١٠
- (٥٢) من تراب الطريق - الكتاب الرابع - المكتب المصرى الحديث ٢٠١٠
- (٥٣) من تراب الطريق - الكتاب الخامس - المكتب المصرى الحديث ٢٠١٢
- (٥٤) فى دروب الفكر والحياة. مطبوعات الهلال - نوفمبر ٢٠١٠
- (٥٥) من همس المناجاة وحديث الخاطر (١). المكتب المصرى الحديث - نوفمبر ٢٠١٠
- (٥٦) من همس المناجاة وحديث الخاطر (٢). المكتب المصرى الحديث - مايو ٢٠١٢
- (٥٧) الواقع أو الحقيقة - ترجمة عن كتاب طبيعة العالم المادى - للبسير آرثر إدينجتون ومقالات أخرى للمترجم - كتاب الهلال - ديسمبر ٢٠١٠ .
- (٥٨) من وحى الحج - سلسلة دراسات اسلامية - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - يناير ٢٠١١
- (٥٩) فى صحبة محمد عبد الله محمد. المكتب المصرى الحديث ٢٠١١
- (٦٠) كتابات غربية. كتاب الهلال - أغسطس ٢٠١١
- (٦١) عبقرية إنكار الذات - أبو عبيدة بن الجراح - تحت الطبع

الفهرس

رقم الصفحة	الموضوع
٥	القرآن الحكيم. حجة الإسلام
٢٠	معجزة القرآن
٢٢	قراءة القرآن
٢٤	تمهيد في منشأ فكرة التوحيد والوحدانية
٢٢	العقيدة الإلهية في الإسلام
٥٢	النبوة الإسلامية
٦٨	بين الإلهام والوحى
٧٦	معاذة السنة للقرآن
٨٤	السنة النبوية والشريعة الإسلامية
٩٦	الإجماع المهجور
١٠٣	دليل العقل إلى قيم التراث
١١٠	دوحة الإسلام
١٢٠	عمود الإسلام
١٢٥	شجرة المساواة وحقوق الإنسان في الإسلام
١٣٦	السماحة وعالمية الإسلام
١٤٤	عاش الإسلام
١٥٠	طبائع الناس ، وقيم العدل في الإسلام
١٥٥	هل الإسلام كفيل بسياسة العدل
١٥٨	الإسلام دين حياة لا يحتقر الحياة ولا يزدريها

- ١٦٢ هل نتظامن إلى الخالق عز وجل ونفهم الحياة؟
- ١٦٨ العاجلة والآجلة؟!
- ١٧١ إلام تقودنا الأطماع؟!
- ١٧٥ التدين بين الصلاة الخاشعة والظاهرة الاجتماعية
- ١٨١ الإيمان بين الهداية والتصلب
- ١٨٦ الإسلام وشعار مغلوطة!
- ١٨٨ قدسية الروح والأمن المجتمعي في الإسلام
- ٢٠٣ الإسلام وشخصية المسؤولية
- ٢١١ ليس من الإسلام قتل النفس بغير حق!
- ٢١٦ وكلهم آتيه يوم القيامة فردا
- ٢١٨ الوسطية وأثرها في تكوين الشخصية الإسلامية وكفالة الأمن المجتمعي
- ٢٢٢ الإنسان في القرآن الكريم
- ٢٣١ نظرية داروين؟! !
- ٢٣٤ الإيمان والواقع
- ٢٣٧ بين التدين والتصنع!
- ٢٣٩ ولذكر الله أكبر
- ٢٤٥ رباط الإسلام
- ٢٤٧ عناية الإسلام بضبط السلوك الإنساني
- ٢٥١ بناء ورعاية الفرد في الإسلام
- ٢٥٧ الإيثار وإنكار الذات
- ٢٦٢ كيف حقق الإسلام هذه الصورة الرائعة للإيثار!
- ٢٦٦ التكافل وتماسك المجتمع الإسلامي

- ٢٧١ الدين محبة
- ٢٧٤ الالتفات بالدين لهدم الدين؟!
- ٢٨٠ الولاية بين أمانة الأداء وأمانة الاختيار
- ٢٨٢ الشهادة واجب لا وظيفة!
- ٢٨٧ الإسلام وحملات الإساءة!
- ٢٩٩ نحن والإسلام وعيون الآخرين!
- ٣٠٣ من أين جاء التعصب؟!
- ٣٠٥ هل صار العدو هو الإسلام؟!
- ٣٠٧ الإسلام فى كتابات منصفة
- ٣١٦ اعتذار بابا الفاتيكان!
- ٣١٨ الإسلام دين الإنسانية
- ٣٢٠ التنوير الآتى من الشرق!
- ٣٢٢ بل نور الهداية وسلامة اليقين
- ٣٢٨ الدقة والإنقان مهجة العمل فى الإسلام
- ٣٣٢ الفتوى فى الإسلام
- ٣٤٠ الفدية فى الإسلام
- ٣٤٣ النقاب والحياة!
- ٣٤٥ النقاب والدين!
- ٣٤٧ النقاب من تانى؟!
- ٣٤٩ مسألة النقاب بين حكم الشرع والقانون وضوابط الحوار وآدابه!
- ٣٥٦ لغات البشر عبر العصور
- ٣٥٩ آدم وأولاده!
- ٣٦١ صيام رمضان فريضة وغاية

- ٢٧١ لماذا يصوم الفقير؟!
٢٧٥ حمل المغتصبة
٢٧٧ الدين والجنسية
٢٨١ من عطر السنة فى مولد الهدى
٢٨٥ إن مع العسر يسرا!
٢٨٧ المنقذ من الضلال!
٢٩٠ الجنة والنار عند المتصوفة
٢٩٢ الباطن والظاهر عند المتصوفة
٢٩٧ الإرادة الحقيقية والمجازية عند المتصوفة
٤٠٠ إصرار أم "إن ضمهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلى جاعوا!"
٤٠٥ كتب وإصدارات المؤلف
٤٠٩ الفهرس :

رقم الإيداع	٢٠١٢ / ١٣٩٤٦
الترقيم الدولى	ISBN 978-977-02-7650-1

١ / ٢٠١٢ / ٢٢

طبع بمطابع دار المعارف